

بسم الله الرحمن الرحيم

— دار المســار للنشر والتــوزيع
القاهرة — ص.ب ٦١ هليوبولس

قيم حضارية في القرآن الكريم

عالم ما قبل القرآن

تأليف
توفيق محمد سبع

الجزء الأول

دار المنار للنشر والتوزيع
القاهرة — ص.ب ٦١ هليوبولس

مقدمة الطبعة الثانية

بقلم : فضيلة الشيخ توفيق محمد سبع مؤلف الكتاب

لهذا الكتاب قصة ، كانت من أكبر الحوافز على تأليفه ، فقد ضمني مجلس مع لفيف من الأخوة ذات ليلة ـ وكنا حين نلتقي نتحدث في كثير من قضايا الفكر ، ويمتد الحوار طويلا فيما بيننا ، وكان لنا صديق مفتون بما يكتب عن تاريخ الحضارات ، يردد ما يقرأ من أفكار حول الغرب وتقدمه ، ونهضته العلمية الشاملة ·· وينهى حديثه بعبارة تقليدية كثيرا ما كان يقولها ·· حتى عرف بها ·· وهى قوله : لابد أن نكون منصفين ـ ونعترف بأننا استفدنا الكثير من تلك الحضارة فأيقظتنا من نوم ثقيل ، وحركت فينا حوافز البحث، وأمدتنا بمنهج الفكر ، فانطلق كتابنا ينشئون ويبدعون !!

وكنا نناقشه كثيرا فى هذه الأفكار ونؤكد له أن حضارة أوربا مقتبسة من حضارة المسلمين ·· يوم أتيحت لهم فرص التلاقى مع الشرق فى فترات من الزمن أخصبها فترة الفتح الأندلسى الاسلامى ·· الذى جعل أوربا المتخلفة يومذاك تقطف من رياضنا،وتكرع من حياضنا، وكانت لنا المدارس والجامعات التى ارتادها لفيف من الدارسين الأوربيين ·· وتلك حقيقة يقترنون هم بها ·· بل ويتغنون بآثارها ··!!

هذا هو القول الحق !!

كنت أجلس بين المتناقشين صامتا لا أتكلم ، هارئا لا أتوثب ـ ولكن عقلى كان يشتعل ، وذهنى كان يستوعب آراء .

هؤلاء وهؤلاء ٠٠ كان يرتب المقدمات ويستلخص النتـائج ، فى عملية ذهنية صرفه ، لا تحس ولا تسمع ٠٠

وقلت لنفسى : لم لا أكتب فى موضـوع كهـذا ٠٠ لأوقـع الحيف عن حضارة أصيلة ظلمها أصحابها ؟! ثم عقـدت العزم وانطلقت فى المكتبات أقرأ وأفقه وأستفيد ٠٠ حتى امتـلأت ٠٠ ثم جاشت هذه الأفكار فى نفسى وتحفزت للظهور ٠٠ فاعتمدت على الله !! وشرعت أكتب ٠٠ وكان مقدرا أن أصدر جزءا واحدا، أستوحى مادته من القرآن ٠٠ ولكن القـدر هيأ فرصـة الاقامة بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسـلم شهرا ٠٠ فكان ذلك مددا غمرنى بما لم أكن أتوقـع من فكر ومعرفة ٠٠ وأمام هـذا الالهـام الغـامر كتب جزأين وقدمتهمـا الى مجمـع البحـوث الاسلامية بالأزهر الشريف ٠٠

غرة ربيع الأول ، فما أن قرأه المغفـور له المرحوم الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار أمين المجمع يومذاك ٠٠ والذى صار فيما بعد شيخا للأزهر ـ حتى أصـدر أمره بتقـديم الجزأين كليهما الى المطبعة ـ وقدم لهما بقلمه الخصيب !! فما حل شهر جمادى الآخرة حتى صدر الجزأين متتابعين !!

وتقبلهما الناس بقبول حسن ٠٠ وأخذا حظهما من الثناء ، والانتشار !! ومنذ تم التوزيع ، ونفذت الطبعة ، وأنا حريص على اعادة طبع هذا الكتاب ٠٠ واليوم ٠٠ وقد تهيأت الأسباب أجدنى سعيدا كل السعادة باعادة الطبع ليبرز الكتاب فى ثوب جديد ٠٠ وقد أضيفت اليه بعض الأفكار ٠٠ وتم تنظيمه على نحو بديع ٠٠ هأنذا أقدمه هدية الى الشباب الظامىء الى المعرفة ليجد فيـه ما يروى ظمأه ، وما يحصن عقله ضـد آفات الغزو الفكرى والعقدى ٠

والله أسأل أن ينفع به ، وأن يفتح له ، لقاء ما بذلت فى تأليفه من جهد ، وهو حسبى ونعم الوكيل ؟

المؤلف
توفيق محمد سبع
الأستاذ بكلية اللغة العربية
جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
المملكة العربية السعودية ـ الرياض فى غرة رمضان سنة ١٤٠٤هـ
يونيو سنة ١٩٨٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

لفضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار
الأمين العام لمجمع البحوث الاسلامية (١)

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هـدانا الله ، والصلاة والسلام على أكرم خلق الله محمد بن عبد الله ، امام الهدى ، ورائد الخير ، وقائد الانسانية الى خير وجهـة ، وأقوم سبيل ، وعلى آله وأصحابه الذين أعز الله بهـم الوجود وحقق على أيديهم كرامة الحياة ٠

وبعـــد ٠

فيطيب لمجمـع البحـوث الاسـلامية بالأزهر ، أن ينشر البحوث الجادة حول القرآن وحضارته ، وبخاصة فى تلك الفترة التى أخذ الغزو الثقافى فيهـا يعمل عمله فى عقول الشـباب بما يصور لهم من حضارة الغرب ، ويزين من ثقافته ، وبعض ذلك خليق أن يعصف بالقيـم الاسلاميـة فى نفوس الشـباب وفى عقولهـم ٠٠

لهذا كانت الكتابة فى موضوع (حضـارة القرآن وقيمه) أمرا يفرض نفسـه على المفـكرين الاسـلاميين ويضـاعف من أهميتها أننا اليوم نبنى دولة العلم والايمان على تقوى من الله ورضـوان ٠٠

---

(١) أصبح اماما اكبر للأزهر بعد ذلك رحمه الله

فهذه الدراسة أولا تؤكد لشباب الاسلام أن قيم الحضارة القرآنية هى التى أنقذت الغرب من الجهالة ، وانتشلته من التأخر ، وأمدته بالمعرفة الزكية الخصبة التى أخذ يستثمرها فى بناء حضارته ، فمن حق هذه الحضارة القرآنية أن تبرز خصائصها ، وتتألق عناصرها ومقوماتها ، وتتجلى آثارها فى العالم كله ، وفى أوربا بالذات ، قصدا الى احقاق الحق وازهاق الباطل ، وبخاصة وأن كتاب الغرب المنصفين يعترفون بتلك الحقائق !! ولقد أخذت حضارة الغرب اليوم تضطرب وتميد ، من كثرة ما أمعنت فى الفساد ، وأوغلت فى الظلم ، وارتوت من معين الشهوات ، فانفصلت بكل ذلك عن الله ! !

وعلى الرغم من مظهرها الخادع ، ورونقها الزاهى ، فانها تشكو العلل والأوصاب، وتورث أصحابها شقاء ولوعة، ولنتجه فى ذلك الى الاحصاءات التى تصدر عن القوم أنفسهم حتى نكون منصفين ٠

فقد ثبت أنهم فقدوا أعصابهم فى جو الحديد والنار.، وتلاشت حضارتهم الانسانية فى تلك الأجواء المادية ، وانطلقت حيوانيتهم تعربد فى جو الضلال والخمر والمخدرات ، وانتابتهم الأمراض النفسية ، وكثرت بينهم الانتحارات ، وغشيهم الملل وتورط القوم فى دركات التفرقة العنصرية ولم يستطيع الرفه المادى الذى غرق فيه القوم أن يعوضهم عن الايمان بالله ! !

واذا وصلت حضارة الغرب الى هذا المستوى فان من المحتم من هذه الحياة ، وتضاعفت آفات الجنون الجنسى ، الممزق ، أنها ستغرب مهما اصطنعت القوة وغرقت فى الترف واللذة ٠٠ فمن المثمر جدا أن تكثر الكتابات حول (قيم الحضارة القرآنية) وأن تترجم ليأخذ العالم كله فكرا دقيقا عن مقومات تلك الحضارة ٠

واذن ٠٠ فهذه الدراسة ستدعم الثقة فى نفوس شبابنا بحضارة القرآن وثقافته ومثله ، لتوجد لهم الحصانة الكافية ضد الفكر المنحرف ، وأيضا فانها تعطى العالم كله تصورا عن تلك الحضارة التى عاشتها البشرية من قبل ، تجربة واقعية ، فأسعدتها ومكنت لها فى الأرض ٠

ومن ناحية ثالثة فانها تعطى جماهير شعبنا المؤمن المتدين تصورا دقيقا عن دولة العلم والايمان التى عاشتها آباؤهم من قبل ليرتبط الحاضر المتطلع بالماضى الجليل ، وليتكامل التاريخ فى وجدان الأمة المسلمة ٠

وقد حدثنا المؤلف عن مجموعة ضخمة من الحضارات القديمة التى وصفها القرآن ، ووضح لنا عناصرها وقيمها ، وأكد لنا مقدرة العقل الانسانى على الابتكار والابداع عبر التاريخ ، ثم شرح من خلال العرض قوانين الحضارات ، وعوامل ازدهارها وانتحارها ٠٠ وانتقل بنا الى توضيح ما كان يسود العالم قبيل البعث الاسلامى من تفسخ وضلال ، وكيف أن الله جلت قدرته قد تدارك هذا العالم برحمته فبعث اليه محمدا صلوات الله عليه بالهدى ودين الحق ، ليرد الانسانية الى كرامتها ورشدها ، ووقف بنا عند هذا الحد ، ليتحدث الينا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ، عن البعث الجديد ، خصائصه ، ونظام حضارته ٠

والمجمع اذ ينشر هذا الكتاب مؤمنا بأن فيه خيرا كثيرا لأنه يجىء فى وقته المناسب ، والنفوس ظامئة الى القرآن وحضارته، والعالم كله يرنو الى هداه ، ومصر الكريمة المسلمة تبنى دولة العلم والايمان ٠

فلتكن هذه الدراسة وسيلة دعم لنفوس الشباب ، واشارة ضوء على طريق الدولة العصرية ، وسبيل وعى لحضارة القرآن وقيمه ، تهديها الى العالم بأسره ، الظامىء الى الهدى والخير ٠

والأمـل كبير فى الله ، أن يمكن للاسـلام فى الارض ، وأن يكتب النصر المؤزر لأبنائه ، وأن يحقق لمصر الكريمة ما تصبو اليه من نصر ومجد ورفعة لتسهم بالجهـد الطيب المشـكور فى دعم حضارة القرآن ، لتخفق أعلامـه من جديد على عالم مروع بالظلم ، مقزع بالحرب ، مؤرق بتجار الدماء ٠

والله الموفق والهادى الى أقوم سبيل ٠

دكتور محمد عبد الرحمن بيصار

مقـــــدمة

الحمد لله الذى علم بالقـلم ، علم الانسـان ما لم يعـلم ، والصلاة والسلام على رسول الله دعا الى مجتمع أكرم تنتصر فيه ارادة الرحمن، وتزدهر فيه مواهب الانسان، وتظله حضارة القرآن ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ٠

أما بعـد ٠٠

فقد يكون من المناسب أن أتصدى بالدراسة والتحليل ـ فى هـذا الجزء من الكتاب ـ لعالم ما قبـل القرآن ٠٠ اذ ليس من المعقول أن أبدأ فى وصف الحضارة القرآنيـة ، متجاهـلا حالة العالم قبلها ٠٠ ليتبين القـارىء من خلال العرض أى جهل كان يسود ، وأى هوى كان يقود ، وأى ظلام كان يلف العالم قبـل نزول القرآن ٠٠

واذن : فلن يكون الجـزء الأول من الكتاب « عالم ما قبـل القرآن » الا مقدمة وتمهيداً لدراسة العالم الذى صنعه القرآن ـ والحضارة التى أنشأها ٠٠

ذلك لأن الحضـارات الانسانيـة ـ حلقـة محكمة السرد لا انقطاع فيها ولا وهن ٠٠ فاذا أمكن اعطاء المعرفة عن الفترات التى تسبق حضـارة ما ٠٠ كانت الرؤيـة واضحة ـ والمعرفة كاملة ـ والتصور دقيقا ٠٠ على أن طبيعة النقلة الجبارة التى

أحدثها القرآن فى الحياة ـ لابد فى تصورها من دراســة ما كان عليه العالم قبلها من جهالة كثيفة وبربرية جموح !!

ان قيم الحضارة القرآنية لم تصنع ذلك التطور المذهل فى حياة البشر ـ الا لأنها قد اكتسحت ضلالات العهود البائدة ـ ونسفت ما كان يســودها من خرافات ـ ووضعت مكان هــذه الأنقاض هيكل حضارة قرآنيــة ٠٠ بنتــه على مهل وروية ـ وأسست على تقـوى من الله ورضــوان ٠

لقد كانت هذه الحياة ـ حائرة القصــد ، خائرة العــزم ـ جائرة السيرة ٠٠ ظلمات بعضــها فوق بعض اذا أخرجت يدك لم تكد تراها ٠٠

ضلال فى العقــائد ـ وفساد فى الشرائــع ـ وانحراف فى السلوك والطباع !! ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور !!

وكان هذا الفساد الشامل نتيجة لما حل بالعالم من كوارث ماحقة ٠٠ فى خلقه وفى عقيدته وفى تصــوره ٠٠ وكانت لمحات الضياء الخافت التى تنبعث من الديانات السماوية شاحبــة الضوء باهتة النور ٠٠ لا تستطيع أن تزكى نفساً ـ أو تهذب طبعاً ـ أو تبنى حياة !!

ان بعض هــذه الديانات كان قد استوفى دوره التاريخى فتوارى خلف الظــل ـ وبعضهــا قد انطمس نوره ـ وتبددت عطوره وغشيه القتام ٠٠ لأن أصحابه قد عمدوا الى تشويهــه وتحريفه ٠٠ ففقد التأثير والفاعلية وأصبح مجرد رسم دارس، وطلل قديم لا يثير العظة ، ولا يحرك الضمير !! وهذا هو الذى حدث للديانتين الكبيرتين : اليهودية والنصرانيــة ٠٠

أما اليهــودية :

فبعد أن كانت دينا يوحى بالحنان والرحمة ويفيض على الوجود نسمات عذبة تجفف العرق عن الجبــاه ـ وتلطف من قساوة العيش وضراوة الحياة ٠٠ نراها قد تحولت على يــد « شعب الله المختار » الى ديانة عنصرية لا ترعى فى الانسانية الا ولا ذمة ٠٠ ثم جعلوها مادية قاسية ـ تعبد العجل ـ وتأكل السحت ـ وتتعامل بالربا ـ وتقتل أنبياء الله ٠ وتشيع قالة السوء فى المســيح عيسى بن مريم وأمــه !! وقد سجــل القرآن الكريم صحيفة سوابقم لتقرأ الانسانيــة اجرامهــم على مر العصور ٠

وقد **أعقبتها المسيحية** ٠٠ فكانت مكملة لهــا ٠٠ ترطب جفاف الحياة بمواعظها الآسرة ـ ورقائقها العــذبة ٠٠ ويظهر أن الرهبان فى بادىء الأمر كانوا نماذج رفيعة لرقة الوجدان ـ ولطافة المشاعر ٠٠ ثم ما لبثوا ـ على مر الزمن أن تحولوا الى قساة غلاظ ـ يفرون من ميادين الحياة ـ الى الأديرة والكنائس ٠ ليحيوا هناك حياة جافة ملؤها الكبت والقسوة والعنف ٠

[فقــد كان بعض الرهبان لا يكتســون دائمــاً ـ وانما يتسترون بشعرهم الطويل (١) ـ ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام وكان معظمهم يسكن مغارات السباع والآبار ، والمقابر ويأكل الكلأ والحشيش ـ وكانوا يعدون نظافة الجسم منافية لطهارة الروح ٠٠ ويتأثمون من غسل الأعضاء ، وأزهد الناس عندهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهــم فى النجاسات والدنس ـ وكان الرهبان يتجولون فى البلاد ويختطفون الأطفال من أحضان

---

(١) ص ١٦٨ من كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبى الحسن الندى (بتصرف) .

أمهاتهم ٠٠ لينشئوهم على الرهبنة والتقشف ٠٠ وأما الكبت فقد كانوا يمارسون منه أعنف أنواعه ٠٠ كانوا يعتبرون ظل المرأة رجساً ـ ويفرون منها ٠٠ لأن مجرد محادثتها تحبط أعمالهم] ، ثم ماذا كان حال أوربا فى هذه الفترة ؟

يقول ويلز : [لقد أطبق على أوربا ليل حالك من القرن الخامس الى العاشر وكان هذا الليل يزداد ظلاماً وسواداً ، فقد كانت همجية ذلك العهد أشد هولا ٠٠ وأفظع من همجية العهد القديم ، لأنها كانت أشبه بجثة حضارة قديمة قد تعفنت ، وقد انطمست معالم هذه الحضارة وقضى عليها بالزوال وأصبحت فريسة الدمار والفوضى والخراب] ٠

ولقد انحرفت الكنيسة الأوربية انحرافاً شائناً ـ عندما احترفت الكهانة ـ واحتكرت المعرفة ـ وتسلطت بالقهر والارهاب على العلماء ٠٠ فشردتهم ـ واضطهدتهم ، وقتلتهم ـ وأقامت لهم محاكم التفتيش !! وصادرت حرية الرأى وتبنت معارف رجعية ما أنزل الله بها من سلطان !!

ومن هنا نشأ العداء بين العلم والدين ٠٠ وانفصلا فى رحلة الحياة ٠٠ فأما العلم فقد مضى قدماً يبتكر ويخترع ٠٠ ويبنى الحضارة بعيداً عن الله !! وأما الدين فقد تأخر فى مضمار السباق وأسبغت عليه الكنيسة الجاهلة ثوب الكهانة والخرافة!!

ان هذا الوضع ـ لا أساس له فى دين الاسلام ٠٠ اذ ليس فى الاسلام كهانة تنفر الناس منه ـ ولا جهالة تزهدهم فيه ٠٠ وانما هو دين يدعو الى العلم ويحتضنه فى رحلة الحياة ، لينشىء معه وبه حضارة وارفة الظلال تتناسق فيها المادة والروح ، ويلتقى فيها الايمان والطموح !!

لقد تحدثت فى افاضة عن حالة الديانتين السماويتين قبل نزول القرآن ·· وأكدت أنهمـا كانتا لا تصلحان لبنـاء أية حضارة ·· بعد م نالهما من عبث وتحريف !!

ثم عرضت بعد ذلك لبعض الحضارات البشرية القـديمة التى وضعها القرآن الكريم ·· وقد كنت مشغوفا منذ الصـبا الباكر بدراسة هذ هالحضارات التى يعرض القرآن لوصفها ·· وصفاً رائعاً يفيض بالروعة والجمال·· «كحضارة عاد، وثمودـ ومدائن صالح ـ وحضارة داود وسليمان ·· وبلقيس ·· وسد مأرب»·وهذه الحضارات قد تجلى فيها عنصر الجمال والابداع· مما يجعلنا نؤمن بعبقرية العقلية البشرية على مر القرون ·· فهندسة الحدائق ـ وتوزيع المياه ، واقامة السدود العالية ـ والخزانات الكبيرة ·· وبناء الهياكل والعمائر··وفنون النحت والعمارة ·· كل ذلك قد تجلى فى هذه الحضارات ·

وقيمة هذه الدراسة لتلك الحضارات : أنها تؤكد عبقرية العقل الانسانى على مر العصور ·· وتبرز قانوناً عاماً طالمـا تعرض له شراح الحضارات··وهو أن الاستقامة على أمر الله·· والعمل بشرعه وهداه ·· واتباع مناهج الرسل هى الوسائل الأكيدة لضمان استمرار الحضارات حتى يأذن الله ·· حتى اذا انحل القوم ـ وأبطرتهم النعم ، وغرقوا فى الترف ـ وتنكروا لصـوت الوحى ·· وترهلوا بالرخاوة أخذهم الله أخـذ عزيز مقتدر [فصب عليهم ربك سوط عذاب ، ان ربك لبالمرصاد(١)]، [فأعرضـوا ، فأرسلنـا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا (٢)] ، [فما بكت عليهـم السماء والأرض وما كانوا منظرين (٣)] ·

---

(١) آية ١٣ ، ١٤ سورة الفجر .
(٢) ايتا ١٦ ، ١٧ من سورة سبا .
(٣) آية ٢٩ من سورة الدخان .

هذا القانون ــ يكاد يكون عاما شاملا ٠٠ لا مجاملة فيه ولا محاباة ٠٠ تظل الحضارات مزدهرة فى أحضان النبوات ــ وفى رحاب الايمان ٠٠ حتى تنفصل عن الله ، فاذا هى حديث يروى وقصة تحكى ، وأثر يتحدث عنه الناس ٠٠ وهو قانون له جلاله ٠٠ وبخاصة عندما يستقى من كتاب الله العزيز الحميد ٠٠

ولقد سلكت فى هذه الدراسة ــ كما هى طبيعتى ــ سبيل الأخذ عن القرآن ٠٠ واستجلاء أنواره ٠٠ واستخلاص نتائجه وأسراره ٠٠ أعرض الآية ــ ثم أرهف السمع ــ والعقل والوجدان ٠٠ لأستوعب الايحاء وأفقه الحكمة ، وأجد فى التطبيق الاجتماعى ما تهيأت الظروف لتجد الحياة فى القرآن ما يسدد خطاها ، ويهديها الى سواء السبيل ٠٠ وليتحانقا معاً فى وئام وسلام !

والقرآن قادر على أن يعطى فى كل المجالات عطاء سخياً غير مجذوذ !!

وما كانت المعطيات الحضارية ــ التى نعم بها الرسول محمد [صلعم] والذين معه الا أثراً من آثار القرآن ، وما كانت المنجزات الحضارية الرائعة الا ترجمة حية لنظامه وأحكامه !!

وما استضاءت الحياة بنور الله ــ الا يوم انعكس ذلك النور من مرآة القرآن ٠٠

وما عرفت أوربا ــ وسائل العلم التجريبى ــ وآثاره فى الحياة الا عن طريق القرآن ٠٠ وما أنشأت حضارتها الا بعلوم القرآن ، وثقافة القرآن ٠٠ وحضارة القرآن ٠

وما تخلف المسلمون عن الركب ـ وتحيفتهم المكاره ـ وتخطفتهم الشياطين ـ وغشيتهم الغواشى ، الا يوم انفصلوا عن القرآن ..

فاللهم ـ يا منزل القرآن ـ سدد خطا المسلمين على طريقه ـ وبصرهم بروائع حضارته ، ووفقهم لأداء دورهم القيادى فى الحياة ؟

المؤلف

توفيق محمد سبع

الأستاذ بكلية اللغة العربية

جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

الباب الأول

فى معنى الحضارة والثقافة والمدنية

تتردد فى مجال البحث الحضارى كلمات معينة ـ تبـدو فى بعض الأحيان غامضـة ـ وهى كلمات [الحضـارة والثقـافة والمدنية] وهل هى متفقـة فى المضمون أو مختلفـة ؟ وما مدى اتفاقها أو اختلافها ؟ ٠٠

وقد رأيت أن أفرد لها باباً من أبواب الكتاب ـ أتناولهـا فيـه بوضـح من البيان ـ لتكون متألقـة فى ذهن القـارىء ـ وبخاصة أنها أخذت على مر الزمن معانى مختلفة ـ وتشابكت فى اطارها مجموعة من العناصر المعقدة ٠٠ كل ذلك يقتضينا أن نتتبعها فى مراحل تطورها لنعطى التصور الدقيق عنها ٠

وأهم هذه الكلمات هى كلمة « الحضارة » فماذا تعنى ؟

وكلمة «حضارة» من الكلمات النابهة التى حظيت بالبحوث الواسعة المستفيضة عبر التاريخ ٠٠ وأرهفت سمع الانسـان على مر العصـور ٠

نشأتهـا :

وقد نشأت هذه الكلمة أول الأمر بسيطة ساذجة ٠

كانت تعنى حياة أهل الحضر المستقرة على ضفاف الأنهر النضاحة بالنعيم ٠٠ أو على العيون والآبار ٠٠ وما تتسم به هذه الاقامة من رقى مادى ـ ومعنوى ، فى الأخلاق ـ والعادات ـ والطباع ـ والعقائد ـ ووسائل الحياة المختلفة ٠٠ من عمرانية وسياسية وأخلاقية ٠٠

والمعروف أن حياة « الحواضر » حياة مستقرة تساعد على ازدهار العلم والمعرفة ٠٠ وتعين على انشاء العمران ٠٠ لذا كانت كل هذه العوامل هى عناصر الحضارة ٠

وضدها البداوة وهى تعنى : حياة أهل البدو المتنقلة ـ التى تسكن الخيام وتعيش على رعى الأغنام والماشية ـ وما تحويه من غلظة وخشونة وما تستتبعه من فظاظة الخلق وجفوة الطبع ٠٠ وكل ما يفضى الى السفه والجهل ـ وبما تتميز به من غارة وسلب ونهب واعتداء على منابت الكلأ ومواقع الغيث ٠٠

وقد سمى القرآن هذه الحياة « جاهلية » فقال منفراً منها [أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون (١)] ٠

والبدو هم الأعراب الذين عناهم الله عز وجل بقوله : [الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم (٢)] ٠

ويتميز البدو بنفرتهم الشديدة من حياة التمدين ـ

---

(١) آية ٥٠ من سورة المائدة .
(٢) آية ٩٧ من سورة التوبة .

والتحضر وقد وصفهم ابن خلدون فى المقدمة بالخشونة ـ والبعد عن منازع الحضارة وطباع التمدين ٠٠

الحضارة والبداوة فى الشعر :

أفاض الشعر العربى فى وصف أخلاق أهل الحضر والبدو افاضة واسعة ـ توضح الفرق بينهما ٠٠ وما تتميز به كل واحدة من طباع وأخلاق ٠

فمن ذلك ما قاله الشاعر القطامى (١) :

فمن تكن الحضارة أعجبته ... فأى رجال بادية ترانا ؟ !
وكن اذا أغرن على جناب ... وأعوزهن نهب حيث كانا
أغرن من الضباب على حلول ... وضبة انه من حان حانا
وأحيانا على بكر أخينا ... اذا مالم نجد الا أخانا

فهذا شاعر مفتون بالبداوة ـ عازف عن الحضارة ـ يرى فى حياة السلب والنهب والاغارة والفروسية مجالا لنشاطه الحيوى ٠٠ ولا يجد لديه مانعا من السطو على الأقرباء وأبناء العم اذا أعوز الأمر واقتضت الحال ٠٠

أما حياة الحضارة التى تنأى عن الاغارة والسلب ، وتميل الى اللين والموادعة فان هذا الشاعر لا يرتضيها ٠٠

وهكذا كانت حياة البدو قبل الاسلام ٠٠ فروسية وصعلكة ونهباً وثارات ٠٠ وتنقلا ورحلات ٠٠ واكراما للضيف ـ واستلاباً لعابر السبيل ٠٠ فهى أخلاق متناقضة ٠٠

---

(١) القطامى هو عمير بن شييم النصرانى التغلبى كان معاصرا للأخطل وهو أموى مثله .

وهذه أيضا ميسونة بنت بحدل الكلابية ـ البدوية التى أعجب بها معاوية ـ فتزوجها ونقلهـا الى حيـاة القصـور ـ وأغرقها فى الترف ـ وأنجب منها ابنه « يزيد » ٠٠ ترى فى هذه الحياة الجديدة زيفاً ٠٠ تضيق به نفسها ـ فلا تفتأ تحن الى البداوة وتذكر حياتها السمحة ـ وأجواءها الطلقة ٠٠ وعيشتها البسيطة ـ التى تبتعد عن التكلف والتعمل ٠٠ وقدتزوج عليها ـ معاوية ـ فطلبت منه أن يطلقهـا لترحل الى أهلها ففعـل ٠٠ ولنستمع الى ميسونة تتحدث عن حياة البداوة بلهجة مؤثرة٠٠ وتقارن بينها وبين حياة التحضر فتقول :

لبيت تخفـق الأرواح فيـه	أحب الى من قصر منيف (١)
وكلب ينبـح الطـراق عنى	أحب الى من قـط ألـوف
ولبس عبـاءة وتقـر عينى	أحب الى من لبس الشفوف(٢)
وخرق(٣)من بنى عمى نحيف	أحب الى من علـج (٤) عنيف
وأصـوات الرياح بكل فـج	أحب الى من نقـر الدفـوف
وأكل كسـيرة فى قعـر بيتى	أحب الى من أكـل الـرغيف
فما أبغى سوى وطنى بديـلا	وحسبى ذاك من وطن شريف

فهل سمعت نغمة أرق من هذه النغمة ؟ وهل عهـدت وفاء للوطن على خشونته وبساطته وضيق العيش فيه كهذا الوفاء؟

وما من شك أن صدق اللهجة قد بلغ فى الأبيات السابقـة مبلغاً كبيراً ٠٠ وانه لدليل على سمو هذه العاطفة عند العربى ـ فما بالك اذا كانت امرأة ؟

---

(١) منيف : شاهق .
(٢) شفوف : حرير ناعم .
(٣) خرق : جواد كريم .
(٤) العلج : الغليظ العنيف وتقال للأعاجم .

حياة البداوة بمظاهرها البسيطة من خيمة تسمح للريح أن تدخل وكلب يحرس تلك الخيمة ٠٠ وعباءة فضفاضة تلبسها المرأة ـ وشاب نحيف من بنى عمومتها وكسيرة من الخبز الجاف ـ كل ذلك أحب اليها وأعز عليها من حياة الحضارة ذات الترف والنعيم ٠٠

ان صدرها ليضيق بحياة القصور المشيدة ـ ومظاهر الترف الباذخ من القط الألوف ولبس الشفوف ـ ونقر الدفوف ـ وأكل الرغيف ٠

وان زواجاً يجمعها بابن عمها البدوى النحيف لأحب اليها من العلج العنيف ٠٠

أرأيت من هذا كيف استطاعت هذه الشاعرة البدوية أن تشيد بالبداوة وتمنحها درساً فى الوطينة ـ وتصور لنا طبيعة البادية السمحة وخلائقها الصافية ؟

وكيف قابلتها بحياة الحضارة ٠٠ التى تضيق بها النفس ـ وتود الفرار منها ! ؟

أما أنا فأرى ميسونة قد أبدعت فى التصوير ـ وأجادت فى التعبير وسمت فى العاطفة والشعور ومن هذا الاستعمال ـ الذى نلمح فيه مقابلة بين الحضارة والبداوة قول جرير الشاعر الأموى :ـ

كيف التلاقى ؟ ولا بالقيظ محضركم
منا قريب ولا مبداك مبدانا !!

فالكلمتان : [مبدى ـ محضر] من البداوة والحضارة ٠

والشاعر فى هذا البيت من الشعر يبدى نوعاً من الحيرة ٠٠ كيف يلتقى بمن يحبها ؟

وان مكانها لبعيد عنه سواء فى البادية أو الحاضرة !!

فتكون البداوة مقابلة للحضارة فى تصوير هذا الشاعر الموجز المختصر ٠

وفى حديث لرسول الله [صلعم] يقول فيه [لا يبع حاضر لباد] ٠

ينهى صلوات الله عليه أن يتعامل رجل من أهل الحاضرة مع آخر من أهل البادية فى البيع والشراء لما فى ذلك من احتمال الغش والخديعة ٠

وقد سئل ابن عباس فى معنى الحديث فقال معناه « لا يكن سمساراً له » ٠

وهو لا يخرج عن التوجيه السابق ـ من احتمال الغش والمراوغة والخديعة لأن البدوى غفل ساذج ٠

وقال صاحب لسان العرب : الحاضر المقيم فى المدن والقرى وكذلك المقيم على الماء يقال له حاضر ـ والقوم حضار اذا أقاموا أيضاً على الماء قال لبيد الشاعر :

فالواديان وكل مغنى فيهم　　وعلى المياه محاضر وخيام

وأقول : كلام صاحب اللسان صريح فى أن الحضارة تقابل البداوة ـ وفى أن الاقامة فى المدن والقرى وعلى المياه هى الحضارة ٠٠ لأن ذلك يستدعى الاستقرار ٠٠ ويقتضى العمران وقد أشار المؤرخون كثيراً الى أن الحضارة لا تنشأ الا على

الشطآن والسواحل وبجوار الأنهار وصدق الله اذ يقول : [وجعلنا من الماء كل شىء حى (١)] ٠

ويؤيد ذلك الواقع التاريخى للحضارات القديمة كحضارات سبأ ـ وعاد ـ وثمود ٠

تطور معنى الحضارة :

تنقلت هذه الكلمة عبر الزمن تنقلا مرحلياً ـ تدرج مع اتساع آفاقها ، وكثرة عناصرها وتعدد مقوماتها وقيمها ٠٠ واختلافها من بلد الى بلد ٠٠ ومن أمة الى أمة ٠٠ فهناك حضارات تأخذ شكلا مادياً ـ وتبتعد عن الروحيات ٠٠ وهناك حضارات تأخذ طابعاً روحياً ـ فتصبغ كل آثارها ومنجزاتها بالصبغة الروحية ٠ وهكذا ٠٠

على أنه بتقدم الزمن ٠٠ ظهرت للحضارات آفات عديدة ـ جعلت الناس ينفرون منها ويضيقون بها ٠٠ لأنها ضد طبيعتهم ٠

المتنبى والحضارة :

والشاعر أبو الطيب المتنبى ـ الذى ازدهر فنه فى القرن الرابع الهجرى ٠٠ يوم انقسمت الدولة العباسية الى دويلات ٠٠ تتنافس فى الأدب ، وتتسابق فى العلم ٠٠ وتتأنق فى الترف ـ هاله ما شاهد من زيف الحضارة ونفاقها ٠٠ وكذبها وادعائها ٠٠ وعبثها بالقيم والفضائل ٠٠٠ وأنها قد غدت صناعية لا تستمد من الطبع ، ولا تعبر عن الفطرة الانسانية فى جوهرها النبيل الأصيل ٠٠

---

(١) آية ٣٠ سورة الأنبياء ٠

وقد سجل رأيه فى حضارة عصره ٠ ٠ ٠ ورسم صورة صادقة لها فى شعره ٠ ٠ أعرب فيها عن مقته لنماذج الجمال المصنوع فى فتاة مجتمعه ٠ ٠ وتمنى نموذج الجمال النظرى المطبوع الذى لا تكلف فيه ـ ولا تصنع ٠ ٠ فاستمع اليه يقول (١) :

من الجآذر فى زى الأعاريب ؟	حمر الحلى والمطايا والجلابيب

* * *

ماأوجه الحضر المستحسنات به	كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية	وفى البداوة حسن غير مجلوب
افدى ظباء فلاة ماعرفن بها	مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام ماثلة	أوراكهن صقيلات العراقيب

فأنت تستطيع أن تحكم بعد قراءة الأبيات السابقة بأن نماذج الجمال على عصر المتنبى قد صارت مصنوعة ٠ ٠ وأنه يجتويها ويضيق بها ـ ويؤثر عليها جمال البادية المطبوع ٠ ٠ وكأنما مسته نفحة من الهام الطبع ـ أو صفاء القريحة ـ فراح يتحدث بافاضة واسهاب عن نموذج الحسن المصنوع ـ الذى هو سمة الحضارة الزائفة ٠ ٠ وكأنما عانى من مضغ الكلام ـ وصبغ الحواجب ـ وصقل العراقيب ـ ووضع المساحيق ٠ ٠ فسجل شعوره فى مرارة وأسى ٠ ٠

وكل ذلك من سوآت الحضارة وآفاتها وانحرافها ٠ ٠ وأين يقع هذا الجمال الزائف من جمال البداوة الذى ينأى عن الزيف والخداع ؟ !

ولو عاش المتنبى الى أيامنا هذه ـ ورأى فتاة اليوم لوجد

---

(١) القصيدة فى مدح كافور سنة ٣٤٦ هـ ـ استهلها بالغزل .

كل شيء فيهـا مصنـوعا حـديثها ـ وجـمالها ـ ومشـيها ـ وشعرها ـ وهدبها ـ واظفرها ٠٠ بفضل منجزات « باريس » ومنتجات « هوليود » وتأثير وسائل الاعلام ! !

وهكذا ـ تمضى الحضارة الصناعية فى خط ممتد من عهـد المتنبى الى عصرنا الحديث ٠٠ فيكون هذا الشـعر قـد أعطى « الحضارة » تفسيراً جديداً ٠٠٠ سـبق به كل من تناولوه فى عصره ـ وقبل عصره ٠٠ لأنه ضمنها معنى النفاق والزيف ٠٠ وربما كان النفاق هذا خلقا ملازما لكل حضـارة مادية لا تقوم على أسـاس من عقيـدة وخلق ٠٠ وحضـارة الغـرب اليـوم متخصصة فى هذا اللون من الملق والتمويه والخداع ٠٠٠

وبهذا تكـون كلمة « الحضـارة » منـذ ذلك العصر ـ قـد ارتبطت بمجموعة ضخمة من السلبيات ٠

ابن خلدون والحضـارة :

ممن تناولوا هذه الكلمة بالشرح والتحليل العلامة الجليل عبد الرحمن ابن خلدون ـ وقـد عاش الرجل فى أواخـر القـرن الثامن وأوائـل التاسـع الهجـرى [٧٣٣ ـ ٧٠٨ هـ] وكان فى مباحثه ـ وعلل حوادثه ووضع كتابه المشهور [بالعبر وديوان المبتدأ والخبر] وهو ثلاثة كتب فى سبعة مجلدات ـ يمتاز هذا الكتاب بما تضمنه من المقدمات الفلسفية فى صـدور الفصول عند الانتقال من دولة الى دولة ٠

تكلم باسهاب فى الاجتماع ٠٠ وعرض للحضارات المختلفة من حيث نفعها أو ضررها ٠٠

وقد بلور مفهوم الحضارة على أنها ذلك النمـط من الحياة المستقرة الذى يقتضى فـنوناً من العيش والعلم والصـناعة ـ

وادارة شــئون الحياة والحكم ـ وتوطيد حياة الدعة وأسـباب الرفاهية ...

ومن آرائه فى الحضارة ـ أنها تعبر عن القمة العالية للتقدم الانسـانى ..

وأنها بعد ذلك تمعن فى الانحلال والترف والفساد فتنزلق رويـدا رويـدا حتى تصـل الى السفـح يقـول فى ذلك : [ان الحضارة غاية العمران ونهاية عمره ـ وانها مؤذنة بفساده] .

والجديد فى كلام ابن خـلدون ـ أنه أشـار فى التعـريف بالحضارة الى عناصر السياسة والحكم وتوطيد الحياة وتطوير الصناعـة بالعلم ..

فهو أقرب الى التحليل العلمى من كل من سبقوه .

ولعله عندما تحدث عن سوءات الحضارة ـ يقصد الحضارة المـادية ـ البعيدة عن الله ـ لأن هذا اللون من الحضارة هو الذى يزدهر ـ ثم ينتحر ..

فأما عندما تقوم الحضارة على دعائم قوية من المادة والروح فانها لا تؤذن بخراب العمـران ـ ولا بنهاية عمـره ـ بل تدعم العمران ـ وتوسع قاعدته .. وتنشر العلم فى آفاقه ـ والفضائل فى ربوعـه ..

كما أن ابن خلدون ـ قـد أشـار بقـوة الى الترف ـ وأنه مقوض الحضارات وعدوها اللدود ـ ونظرته فى ذلك صائبة قـد أشار اليها القرآن الكريم عندما حدثنا رب العـزة والجلال عن

مصارع لظالمين فقال سبحانه « انهم كانوا قبل ذلك مترفين(١) » وكقوله سبحانه فيمن أعرضوا عن الله : « ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا (٢) » والآية الثانية تؤكد أن المتاع الحسى — والترف المادى — يؤديان الى الانحلال — ويصرفان القلب عن ذكر الله — وكفى بذلك دمارا للحياة والأحياء ! !

ويرى ابن خلدون — أن العرب بطبيعتهم أبعد الناس عن التحضر والمدنية ولعله بذلك يقصد البدو المتخلفين — الذين لا يفارقون البادية فمن أين لهم العلوم والمعارف والثقافات ؟ !

فأما العرب بالمفهوم العام — فهم أقدر الناس على الاستيعاب الحضارى — وأفقه أهل الأرض لفلسفة المدنيات ٠٠ ولهم في ذلك مواهب وقدرات تشبه المعجزات ! ! كما أنهم أساتذة العالم فى « تمدين » الشعوب « وتحضيرها » ٠٠ بل ان العالم الحديث لم يعرف الحضارة الا عن طريقهم كما سنوضح ذلك بعد ٠

وبخاصة عندما ارتبطوا بالاسلام ٠٠ فمس مواتهم الأدبى ٠٠ وبعث مواهبهم الكامنة وحرك فيهم حوافز البحث والتقصى ٠٠ وأطلق عقولهم وبصائرهم ، وحرر أفكارهم وضمائرهم ، وفتح أمامهم الطريق ليبحثوا ويكتشفوا ويرتادوا ويرجعوا من رحلتهم المباركة بزاد طيب من الايمان واليقين ٠٠

نعم : لقد استطاع محمد صلوات الله وسلامة عليه أن يفجر ينابيع الحكمة والمواهب المبدعة والأسرار الخافية من القوم — فانساب غيثها المبارك على أرض الوجود الجديبة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زرع نضير ٠٠

---

(١) آية ٤٥ سورة الواقعة (٢) آية ١٨ سورة الفرقان

ان ابن خلدون قد أعطانا تصوراً واسعاً عن الحضارة ـ وعناصرها ـ وآفاتها ٠ ٠ ونتائجها فهو يضمنها معنى العلم ـ وأساليب الحكم ـ وأنماط الاقتصاد والصناعة ـ ويجعل لذلك كله ثمرة واقعية فى الحياة هى التقدم والرفاهية ٠

فاذا غرق أصحابها فى الترف فقد آذنت شمس حضارتهم بمغيب ! !

وهو بذلك يشير الى مايعرف « بالدورة الحضارية » وذلك عندما تأخذ الحضارة زخرفها ـ وتزين ٠ ٠ ثم تبدأ بعد ذلك فى الهبوط لأنها قد أدت الدور التاريخى ! ! لتحل مخلها حضارة أخرى ـ أقدر على التجاوب مع فطرة الناس ٠

واذا كان للرجل ـ بعض الآراء التى لا تستسيغها اليوم فله عذره لأنه أول من راد هذه البحوث الدقيقة ٠ ٠
ولعل من جاءوا بعده لم يضيفوا جديداً الى معنى الحضارة ٠ ٠

الكتاب المعاصرون والحضارة :

يعرفها بعض الكاتبين بأنها [نظام اجتماعى يعين الانسان على الزيادة من انتاجه الثقافى ـ] وتتألف من العناصر الأربعة ـ الموارد الاقتصادية ـ والنظم السياسية والقيم الخلقية ـ والعلوم والفنون والمعارف والفلسفات ٠

ولاطراد الحضارة وتقدمها عوامل متعددة من دينية ـ ولغوية وجغرافية ٠

ولانهيارها عوامل هى الانحلال ـ والفساد ـ والظلم ـ والترف ـ وانتشار التشاؤم ٠ وفقدان القيادات الصالحة ٠

وفى رأيى ـ أن الحضارات سلسلة متصلة ٠٠ يتأثر بعضها ببعض ـ ويمتص بعضها من بعض ٠٠ ولكل أمة جهدها فى تشييد الصرح الحضارى ٠٠

وترجع عظمة الحضارات الى متانة المقومات التى تقوم عليها والدساتير التى تستقى منها ـ والآثار العالمية التى تتركها ٠٠

وخلود الحضارات ٠٠ انما يعنى أصالة جوهرها ـ واتساع آفاقها ـ وعالمية رسالتها وانسانية نزعتها وواقعية مبادئها ٠

وكل ذلك قد تضمنته حضاة القرآن الكريم ٠٠

ومن أوجز التعريفات قول بعضهم [الحضارة تعنى الحصيلة الشاملة للمدنية والثقافية فهى مجموع الحياة فى صورها وأنماطها المادية والمعنوية] ٠

وهو تعريف يشير الى جناحى الحضارة : وهما المادة والروح ٠٠ حتى تلائم فطرة الانسان ـ وتتجاوب مع مشاعره وعواطفه وقدراته ٠

كما أنه يشير أيضاً الى عناصرها التى يمكن حصرها فى :

(أ) تصور الحياة وغايتها
(ب) المقومات الأساسية التى تقوم عليها
(ج) المنهج الذى يستوعبها
(د) النظام الاجتماعى الخاص

والانسان ركن أساسى من أركان الحضارة ٠٠٠ لأنه

يستوعب المنهج ــ ويطبقه ويرتاد الحياة ويكتشف عناصرها ويتخير النظام الذى يلائمه ·

ومن الأسس البدهية فى البحوث الحضارية أية حضارة لا تقوم الا على أساس من الوجود ــ وهو الساحة الحضارية ــ ومن الانسان ــ وهو الطاقة البانية ــ والمنهج ·· وهو الذى يمنح المعرفة ــ والعمران وهو الهيكل الحضارى ·

حضارة الاسلام :

عندما طبقت شريعة الاسلام تطبيقا كاملا ــ ساد الأمة الاسلامية نظام واحد وفكر واحد ــ واتجاه واحد ·· لأنها جميعاً تستمد من نبع واحد وتسقى بماء واحد وتكون من ذلك ــ بعد الفتح الاسلامى لفارس والروم ــ عالم موحد فى روحه وطموحه وضميره وفكره وغايته وعمله ساده مايعرف فى التعبير العصرى « بائتلاف النغمة » ·· ان هذا الذى حدث من التجانس العام فى عالم الاسلام يسمى : نظام الاسلام ··

أما الحياة التى بدأت ثم ترعرعت وازدهرت ــ ثم توطدت وانتشرت فى « ظل نظام الاسلام » و تطبيقه بحركية ايجابية بناءة ــ وطاقة متجددة دائبة ــ ونماء موصول مطرد فى الزمان والمكان والانسان فهو مايسمى « بالحضارة الاسلامية » ·

يقول الدكتور خلف الله أحمد : [ان الحضارة الاسلامية هى تلك الحضارة التى قامت على أساس رسالة سماوية هى الاسلام ·· ومن هنا كانت أسس تعاليمها الكبرى مأخوذة من القرآن الكريم ــ ومن أقوال الرسول وأعماله] :

انها حضارة الهية فى منهجها ــ وفى وجهتها ــ وفى تصورها ــ وفى خط سيرها ــ يأخذ الانسان المسلم منهج ربه ــ

ويمضى به بانيا للحياة ـ مشيداً لعمرانها ـ متفاعلا مع الكون ماضيا معه فى رحلة ميمونة مباركة قوامها الاستطلاع والاستكشاف والبناء بالجهد والعرق ـ واستثمار المعرفة ـ وصداقة عناصر الوجود · ·وبذلك يؤدى المسلم رسالته فى الحياة · · · ويكون خليفة الله فى أرضه ·

يقول الدكتور حزين : [ان الحضارة الاسلامية حصيلة تاريخ حياة المسلمين على أرضهم ـ وفى أوطانهم المتصلة فى النطاق الأوسط من الارض ـ بين المناطق الباردة التى تقطنها كثرة من المسيحيين وغيرهم ـ وبين المناطق الاستوائية التى يقطن أغلبها من أصحاب الديانات الأخرى والوثنيين] ·

ويستطرد ـ فيقول : [لئن كان الاسلام قد يمتاز بأنه دين بناء حضارى ـ فان واقع الأمر فى الحضارة الاسلامية ـ أنها استحدثت مقومتها الأولى والاساسية من الاسلام ذاته ـ واذا كان ظهور الاسلام قد سبقه فى جزيرة العرب وما جاورها حضارات أقدم منه ـ كما سبقه أيضا فى البلاد التى انتشر فيها ألوان من الحضارات القديمة ذات الطابع المحلى أو الاقليمى فان الاسلام استطاع أن يضفى على البلاد التى شملها جميعا لونا مشتركا من الفكر الدينى والحياة والمعاملات والعلاقات الانسانية والاجتماعية والسياسية حتى أصبح هناك قدر حضارى مشترك بين المسلمين فى مختلف أقطارهم وديارهم] ·

وكلام الدكتور حزين يتناول ناحيتين من نواحى الحضارة الاسلامية ·· أولهما التعريف بها وقد حصره فى المعارف الاسلامية وثانيهما : توضيح الشمول الذى تتسم به تلك الحضارة ·· لأن كتابها الخالد وهو القرآن يرسم للمسلمين سبيل تقدمهم ـ وطرائق عباداتهم ومعاملاتهم ـ وأسلوب تعايشهم مع المجتمع ··

أى أنه لا يترك لهم شيئا فى أصول حياتهم ـ يخضع للآراء المختلفة ٠٠ ولهذا ائتلفت النغمة فى هذا العالم الاسلامى الكبير ٠٠

يبقى بعد ذلك كله أن الحضارة الاسلامية لها شخصيتها الحية المتحركة ونماؤها الدائم المتجدد ـ وتفاعلها المثمر الخلاق ، فهى فى ذلك كله وجود واحد له فى نمائه وتوقفه وفى ومضه وغمضه ـ وفى انطلاقه وجموده مراحل وأطوار من التسامى ـ والهبوط ـ لكنه لا يموت ـ ولا يتصور أن يموت ـ وليس من طبيعته أن يموت ٠٠ لأنه محكوم بكتاب سماوى خالد ـ دائم ـ مستمر الى يوم الدين وصدق الله اذ يقول : [انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون (١)] ٠

والمسألة متوقفة على الاستمداد،والتطبيق بوعى وفاعلية٠

وعلى قدر العمل بذلك ـ أو التخلى عنه يكون حظ الحضارة الاسلامية من الازدهار أو الانحدار ٠٠ فاذا أراد أصحابها بعد الخمول الطويل ، أو النوم الثقيل أن يجددوها فما ذلك بعزيز عليهم ـ بشرط أن تتجمع القوى ، وتتماسك العزائم للعمل المثمر ، والتطبيق الصارم ، عندئذ تعود الحضارة نامية مزدهرة وهكذا دواليك ، وهذا هو سر المواجهة العارمة المحتدمة التى تعرض ويتعرض لها الاسلام بينه وبين حضارات العالم بأسره ٠٠ ثم تنحسر المواجهة عن قوة المد ٠ الحضارى للاسلام وقدرته على الانتصار ٠٠

عالم ما قبل الاسلام :

من « أرشيف » الحضارات القديمة (تحليل ودراسة)

---

(١) آية ٩ سورة الحجر .

ان حصيلة الدراسات التى قدمتها فى صدر هذا الباب تتضمن بالنسبة الى أية حضارة أمرين أساسيين ــ فكرا يخطط ــ وعملا ينفذ ٠٠ والفكر يكمن خلف العمل لا محالة ٠٠ فكل هيكل ضخم ، أو معبد فخم ، أو قصر مشيد ، انما يعكس فكرا هندسيا قدقام على أساسه ٠٠ وبعبارة أوضح عندما نريد أن نبنى عمارة مثلا أو نخطط حديقة ٠٠ فاننا نلجأ الى مهندس ليخطط التصميم على الورق ويبرز الفكر ممثلا فى رسوم وأشكال ٠٠ ثم يأتى بعد ذلك دور التنفيذ ــ فيتكفل العمل بهذا الدور ؛ فاذا قلنا مثلا : الحضارة السبئية القديمة فاننا نعنى أثر هذه الحضارة الذى تصوره الآية الكريمة فى قول الحق تبارك وتعالى : [لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له : بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا ٠٠ وهل نجازى الا الكفور (١)] ٠

ماذا نرى من خلال العرض القرآنى لآثار تلك الحضارة ؟

نرى أنها حضارة تمثلت فى وجود مادى ملموس ــ من هذه البساتين النضرة ــ ذات الأفياء والظلال ــ فهما جنتان عن يمين وشمال قد تجلت فيهما دقة الفن ــ وهندسة التنسيق ــ وجودة الثمار ٠٠

لكن القوم لم يشكروا لله أنعمه ــ ولذا انهارت تلك الحضارة الوارفة الظلال ٠ بسبب فساد أهلها واعراضهم عن الله ٠ ٠ غيروا ما بأنفسهم فغير الله ما بهم وهذا سبيل كل حضارة تتنكر لله !! وبتأمل يسير نرى ــ أن القوم قد حققوا

---
(١) الآيات ١٥ ، ١٦ ، ١٧ من سورة سبا .

جانبا واحدا من الحضارة وهو الجانب المـادى ٠٠ أما الجانب الروحى فقد ذهلوا عنـه ــ وأهملوه ٠٠ ومحال أن تنهض حضارة ما على جانب واحد !!

وكذلك عنـدما نقرأ قوله سبحانه فى وصف حضـارة عاد [وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون (١)] وقوله : [ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد (٢)] نحس من خلال الآيتين ٠٠ أنها حضارة قد تمثلت فى فن النحت، والبناء ، والعمارة ، واقامة المصانع ٠ ٠ والمؤرخون يبالغون فى وصف هذه الحضارات وما تركته من آثار مادية شامخة ونحن لا نريد أن نذهب بعيدا عن ايحاء القرآن ودلالته ٠

مـاذا نرى من خـلال الوصف ؟

نرى أن حضارة عاد قد تمثلت فى الوجود على شكل منشآت وعمائر ومصـانع ٠٠

وأنهـا حين أعرضت عن الله « صب عليهـم ربك سـوط عـذاب » ٠

انها الأخرى حضارة نهضـت على أسـاس مادى وأهملت الجانب الروحى ٠

لكنها تعكس فكر القوم ، ومعارفهم ، ونشاطهم العمرانى فى الحيـاة ٠

وعندما نقرأ عن حضارة ثمود قول الله سبحانه [وثمود

---

(١) آية ١٢٩ سورة الشعراء ٠

(٢) الآيات ٦ ، ٧ : ٨ ، سورة الفجر ٠

الذين جابوا الصخر بالواد (١)] وقـوله : [وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا (٢)] ماذا نلمح من خلال الوصف ؟

حضارة مادية تمثلت فى الوجود على شكل فنون جميلة من النحت ، وبناء القصور واقامة المساكن والبيوت ٠٠

لكنها أيضاً أعرضت عن الله [فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين (٣)] من خلال هذا العرض المبسط ـ نستطيع أن ندرك بأن الحضـارات سـلسلة محـكمة السرد موصـولة الحلقات ـ وأنها جميعا تخضع لقـانون واحد ، وتنهض على أساس واحد ، ويطرد سيرها اذا استقامت على أمر الله ٠٠

ونفهم كذلك أن الكيان المـادى لأية حضـارة ـ وان كان يمثل عبقرية أصحابه فى الفـكر والعمل والابداع ٠٠ لكنـه لا يستقـر ولا يستمر ولا يأمن العثـرات حتى يحقق الجانب الروحى بالاستقامة على منهج الحق ـ وتحقيق مشيئـة الله فى الأرض ٠

ومضمون ما سبق كله : أن كلمة حضارة قد نشأت بسيطة ـ ثم تطورت مـع الزمن ، وارتبطت بمناهج الوحى ، وأخـذ مدلولها يتعقد ويستجمع العناصر الكثيرة٠٠ثم يئول فى النهاية الى الهيكل الذى تتناسق فيه العنـاصر المـادية مع العنـاصر الروحية ٠٠ لتظل الحضارة مزدهرة دائمة النماء والتجدد ٠

معنى المدنيـة وارتباطها بالحضـارة :

---

(١) آية ٩ سورة الفجر .
(٢) آية ٧٤ سورة الأعراف .
(٣) آية ٧٨ سورة الأعراف .

كلمة مدنية من الكلمات المستحدثة التى لا وجود لها فى المعاجم القديمة (١) ـ فهى من المبتكرات الجديدة ويقال فى هذا الصدد التمدن الاسلامى ـ والمدنية الاسلامية وهكذا نطلقها ببساطة على معنى الحضارة ـ ونجعلهما كلمتين مترادفتين وهذا الاطلاق يتفق مع المدلول اللغوى للكلمة لأن « المدنية » نسبة الى المدينة فى الأصل ٠٠ فمعنى رجل مدنى منسوب الى المدينة فى كحضرى منسوب الى الحاضرة والحاضر والمدينة لا تختلفان ٠

وقد شاع فى مصطلحات علم الاجتماع « الانسان مدنى بطبعه » أى نزاع الى الاجتماع والاختلاط ببنى جنسه ٠ ويجد فى هذا الاجتماع أنس روحه وبهجة قلبه ٠٠ واذا كانت هذه تطلق على ما يرادف الحضارة أحيانا ـ فان العرف قد خصصها فى النهاية بالجانب المادى للحضارة كتشييد المدارس واقامة المؤسسات ـ كما سنوضح ذلك قريبا ٠

معنى الثقافة وصلتها بالحضارة :

كلمة «ثقافة» كلمة حية لها صلة وثيقة بالحضارة والمدنية٠

وأصل الكلمة مأخوذ من « تثقيف الرمح » ـ أى تهذيبه وتعديله وتسويته ـ ثم انتقلت الكلمة الى « تثقيف العقل » أى تهذيبه بالمعارف المختلفة والعلوم المتنوعة ـ وبذلك تكون الكلمة قد تجاوزت الماديات الى المعنويات ٠

وعلى ذلك « فالرجل المثقف » هو الحاذق البصير ، العارف بمطالب عصره ، الذى لا يقتصر بالمعرفة على جانب دون آخر٠٠ وانما يأخذ من كل فن بطرف ـ أو قل بتعبير عصرى : الرجل

---

(١) مع أن كلمة « مدنية » غير موجودة فى المعاجم القديمة الا انها قياسية لانها مصدر صناعى كحرية وديمقراطية .

المثقف الذى يعرف عن كل شيء شيئا · أى يكون لديه الالمام باطراف المعارف والمعرفة بالأشياء حسب الامكان والطاقة بخلاف الشخص الذى يعرف عن الشيء الواحد كل شيء فانه فى هذه الحالة يكون عالماً متخصصاً ـ فالاستيعاب صفة المتخصص والاستنارة العامة سمة المثقف ·

وقد يكون الشخص عالما غير مثقف ـ وما أكثر وجود هذا الطراز من الناس ـ بأن يحذق الطب ويجهل ما سواه ·· أو يدرس اللغة ـ فاذا تجاوز مجال تخصصه ظهر افلاسه وبان جهله وقد يكون الشخص مثقفاً غير متخصص ·· كأن نجد عنده المعرفة الشاملة العامة فى السياسة والاجتماع والأدب والفن ·· فالمثقف يتحدث اليك فى كل شيء ويلقاك بلون من « المعرفة العامة » التى لا تعمق فيها ولا استقصاء ·

وكم تحتاج الحياة الى طبقة « المثقفين » الذين لا يقتصرون على مواد تخصصهم بل يتجاوزونها الى متطلبات العصر ـ فتحس عندما تلتقى بهم بأنك أمام عقل مستنير ·· ونستطيع عندما نراجع تراثنا أن نلمس جانب الثقافة متمثلا فى السيوطى الذى كتب فى كل شيء وأعطى المعرفة الضرورية فى علوم شتى ·· وتخصص فى بعض المواد تخصصاً قوياً ·· وكذلك : الجاحظ·· نرى له المؤلفات المختلفة فى شتى المعارف الانسانية ·· ونراه يتحدث فى أمور كثيرة ·· يبرز فيها الطابع الثقافى ··

كتب فى النخل ، والكرم ، والغناء والجوارى ، والملل والنحل ·· والأدب والتاريخ والاجتماع وقد كثرت مؤلفات الرجلين حتى جاوزت المائتين لكل واحد منهما ·

ولسنا نجردهما من العلم المتخصص ـ ولكل منهما علوم تخصص فيها واستوعب مادتها واستبطن دخيلتها ولكنهما لم

يقتصرا عليها ولذا كان الطابع الغالب عليهما هو الطابع الثقافى .

قال فى لسان العرب : رجل ثقف : حاذق ـ والحذق سرعة الفهم .

وقال ابن دريد : ثقفت الشيء حذقته .

وعن أم حكيم : [انى حصان فما أكلم ـ وثقاف فما أعلم] .

وتقول : ثقفت الشيء : ظفرت به ومنه قوله سبحانه : [فاما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم] أى فاما تظفرن بهم فاجعلهم عبرة لغيرهم .

وعن عائشة رضى الله عنها تصف أباها : [أقام أوده بثقافته] اى بمعرفته ـ تريد قوم عوج المسلمين بمعرفته .

تلك هى معانى الكلمات الثلاثة [حضارة ـ مدنية ـ ثقافة] بيد أن الارتباط بينها ما يزال غامضاً .. ولنحاول توضيح ذلك بما يتسع له المقام ..

علاقة هذه المفاهيم بعضها ببعض :

ان الحضارة ـ التى سبق تحليل معناها لها جانبان عند علماء الاجتماع وشراح الحضارات وان شئت فقل لها جناحان .. الأول مادى ، والثانى معنوى .

فاذا أردت بالحضارة جانبها المادى الملموس ـ كالعمائر والمساجد والمدارس والحدائق والملابس والأسلحة وكل المبتكرات المادية الملموسة للحضارة فهذا الجانب هو «المدنية» فيقال مثلا : ان مدنيه الغرب تتمثل فى المبتكرات الحديثة الفتاكة ـ وجمال الحدائق والمبانى وهكذا .

والجـــانب الثانى للحضـــارة : وهو الجـانب الروحى أو المعنوى هو مايطلق عليه علمـاء الاجتماع « ثقافـة » فهى بذلك تقابل المدنية ٠ وتشمل كل مايتصل بالروح والفكر والعقـل والذوق والمشاعر والعواطف ٠٠ فهى حصيلة الانسانية فى هذه المجالات ٠٠ وهى تشمل أنماط الحياة الانسانية وأسلوبها فى المعرفة روحيا وفكريا ولغويا وأدبيا ــ وعلى هذا فقـد تتلاقى شعوب وأمم على تراث فكرى وروحى وفنى واحد فتكون بينها وحـدة ثقـافة ٠

وقد تنفرد أمة عن أخرى فى نمط ثقافتها ومعرفتها وفلسفتها وفنها كالأمة اليونانية ٠

وفى ضوء ما مضى : نستطيع أن نقـول باختصـــار : ان المدنية والثقافة معاً هما جناحا الحضارة بمضمونها الفنى عند علماء الاجتمــاع ٠٠

فنحن نريد من كلمة « حضارة » الحصيلة الشاملة للمدنية والثقافة وهى مجموع الحياة فى صورتيها المـادية والمعنوية ٠٠

فاذا قلنا ان هذا المجتمع متحضر : فمعنـــاه أنه قد حـذق ألواناً من المعارف ــ ثم ترجمها الى واقع ملموس ٠

فالمعرفة النظرية « الأكاديمية » هى الثقافة ــ وترجمة هذه المعرفة الى واقع ملموس فى الحياة هى المدنيــة وكأنما تعنى « التطبيق » ٠

وبهذا ترتبط المدنية بالثقافة لأنها التجسيد الحى لها ٠٠

وقد تنحرف الحضارة عن الطريق السوى فلا تأخذ سمت التكامل ــ فتكون ذات طابـع مادى ــ أو ذات طابع نظرى ٠٠

وكلتاهما صورة مشوهة ممسوخة للحضـارة الخالدة ـ التى يجب أن تعبر عن فطرة الانسان مادة وروحا ٠٠ كما خلقه الله٠ وحتى تكون صورة حية لنشاطه ما دام هو صانعها ٠٠

بين الحضـارة والمجتمـع :

أيمكن بعـد توضيح معنى الحضارة على نحو ما قدمنا أن يقال بأنها تعنى المجتمع ؟ وأن المجتمع هو الحضارة !!

كلا : لأن المجتمع يتكون من كتل بشرية تتميز بلون من الترابط الداخـلى بين أفرادها ٠ يجمعهـم على هـدف واحـد ويوجههم الى غاية واحدة فى الحياة ٠

وكلما كان هذا الترابط على أساس من دين قويم أو كتاب كريم أو رسالة خالدة كلما كان سديد الخطا ـ قويم السلوك٠٠

وكلما كانت الروابـط بين أفراد المجتمـع على أساس من قـوانين البشر ـ وفلسفـاتهم كلمـا كانت أدعى الى الحـيرة والاضطراب ٠٠

قد تنشـأ الروابط على أسـاس حزبى ـ أو طائفى ـ أو عنصرى ـ أو على أساس مصلحة الوطن الضيق ٠٠ وليس على أساس المجتمع الانسانى الواسع ٠٠

ان هذه الروابط تكون دائماً مصادر للشـقاء ـ وأسـباباً للحروب ، ووسائل للتعصب الذميم والحقـد الجاهلى ٠٠ وقد تكون فى معظم الظروف أبعد شىء عن فطرة الانسان !!

وعلى أى حالٍ فان معنى المجتمـع ـ لا يمكن أن يكون هو الحضـارة ٠٠.

لكن الحضارة صفة لهذا المجتمع تتمثل فى رقيه أو ضعته ـ فى ضيق مضطربه أو سعته ـ فى نظمه ومؤسساته ـ فى مكاسبه وانجازاته ـ فى القيم السائدة فيه، والأخلاق السارية فى أفراده، فى مدنه وعمائره ، فى مساجده ومنائره ، فى حدائقه وبساتينه فى تنظيمه وتخطيطه ، فى قوانينه ودساتيره ، فى أوضاعه الصحية والسياسية والاجتماعية ، كل هذه العناصر وغيرها تعرف بأنها الحضارة ٠٠ والانسان صانعها ومبتكرها بتفاعله مع الكون ، وتجاربه فى الحياة ، وتعاطفه مع الوجود ٠٠ مستخدماً العلم وسيلة فى تحقيق انجازاته ٠٠ مستشعراً هداية ربه فى كل ما يأتى أو يذر ٠٠

وما المجتمع بهذا التصور الا كالجسد وما الحضارة الا روحه ـ ما المجتمع الا الاطار والشكل ، وما الحضارة الا المضمون والمحتوى ٠٠

وبتعبير أوضح ؛ الحضارة : عمل الانسان فى ساحة المجتمع ٠٠ فالعمل القائم على العلم والهداية هو صانع الحضارة والانسان أهم ركن فى البناء الحضارى ـ والمجتمع هو الساحة الحضارية التى تتسع لنشاط الانسان ٠

ونستطيع أن نتصور مجتمعاً لا حضارة له فيكون جسداً بلا روح أو هيكلا بلا طموح ٠ ٠ وهو المجتمع المتخلف بالجهل ، أو المستعبد بالسخرة ، أو الغارق فى الهمجية أو المخدر بالأمانى الكذاب ٠٠ واليهم يشير سيدنا رسول الله بقوله :

« ان قوماً غرتهم الأمانى فقالوا : نحسن الظن بالله ـ وكذبوا ـ لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » ٠

وهكذا يصبح العمل روح الحضارة ٠٠ لأنه التعبير الحى

عن الطاقة الانسانيــة ٠٠ والسبيــل الوحيــد الى « تطوير » المجتمعات ٠٠ والدليل الأكيد على قوة الايمان ٠٠ وليس مجرد العمل هو الذى يصنع الحضارة ٠٠ وانما هو احسان العمل ـ واتقانه ـ وبذل أقصى الطاقة فى تجويــده ليجىء على صــورة مثالية يرضى عنها الله ورسوله ومن ثم فان القــرآن الكريم يشيد باحسان العمل، ويربط به الثواب الأوفى يقول جل شأنه: [انا لا نضيع أجر من أحسن عمــلا (١)] [ولا نضــيع أجر المحسنين (٢)] ويقول رسوله الكريم : [ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنــه] ٠٠ وبهذه الايحاءات الهادفة يأخــذ الاسلام سمتاً حضارياً كميزه عن جميع الأديان الاخرى ٠٠

وقديماً كان « الاستعمار » بكافة صوره وأشكاله عائقاً عن بناء الحضارات ٠٠ ولا تجد شعباً « مستعمراً » الا وهو فى أحط درجات التخلف ٠٠ لأن « الحضــارة » هى أخطر سلاح يوجــه الى الاستعمــار !!

وكيف يكون الشعب مستعبداً بالقهر ثم يبدع فى صــنع الحيــاة !!

ان العبيــد يستطيعون حمل الأحجــار ٠٠ ولكنهــم لا يستطيعون صنع الحياة لأنهم فقدوا أخص خصائص الانسانية وهى الحرية ٠٠ التى هى جوهر الابــداع والابتــكار ٠٠ وان وطناً لا يمنح أبناءه السعادة والحريــة ـ لا يمكن أن يتوفروا على بنائه وتطويره ! !

ان الحضارة نور يملأ آفاق الحياة ٠٠ والمستعمر ينفر من النور ٠٠ لأنه يكشــف عن جرائمه ، إنه لا يستطيع السـطو

---

(١) آية ٣٠ سورة الكهف .

(٢) آية ٥٦ سورة يوسف .

والسرقة الا فى الظلام . ظلام العقول ، وظلام الجهالة .. وظلام الرجعية .. ولذلك يسعى المستعمر دائما الى اطفاء شعلة العلم . صانع الحضارة ومنشئ المدنية ..

وكما أنه لا يمكننا أن نتصور مجتمعاً بلا حضارة الا فى ظل الجهل . فكذلك لا يمكننا أن نتصور حضارة بلا مجتمع .. الا اذا تصورنا ماء بغير اناء أو روحاً بلا جسد أو مضموناً بلا اطار !!..

ونخلص من هذه الدراسة كلها الى أن الحضارة خلاصة الثقافة والمدنية ـ أى خلاصة الانجازات المادية والمعنوية التى يبذل فيها الانسان قصارى جهده ـ محاولا أن يطورها بالعلم ويطوعها لارادته ومشيئته .. بحيث يظفر دائماً بالسيادة عليها ـ والاستعلاء فوقها .. لا أن تستعبده هى ـ وتسخره وهذا هو جوهر الحضارة الخالدة ..

تمازج العناصر الحضارية وتداخلها :

اذا كنا قد عمدنا فى الدراسة الى الفصل بين الجوانب المادية والروحية .. وتحدثنا عن كل واحد منها مستقلا عن الآخر .. وليس معنى هذا أن الفصل سائغ ..

انه فقط لتيسير الدراسة ـ وتسهيل المهمة .. والا فانهما فى الواقع لا ينفصلان .. الا اذا تصورنا فصل الروح عن البدن!!

وانه ليتعذر علينا أن نميز بدقة بين العناصر المادية والروحية فى دراسة الحضارات لأنهما متشابكان تماماً . لكنا قد نلمح بالنظر العابر ـ غلبة العناصر المادية على المعنوية أو العكس فى حضارة ما . ونصدر حكماً تقريبياً على ذلك فنقول : الحضارة الغربية طابعها مادى .. والحضارة « المسيحية »

طابعها روحى ٠٠ والحضارة الاسلامية تتناسق فيها الروحيات والماديات !!٠٠ دون أن نعمد الى التفصيل والتدقيق ٠٠

وهو حكم يكون صادقاً ٠٠ لأنه صادر عن الفطرة وأحكام الفطرة لا تكذب ولا تطيش ولنضرب لذلك مثلا واقعياً : مسجد من مساجد الحضارة الاسلامية ، يتميز بجمال الفن ، وروعة البناء ، ودقة التنظيم الهندسى ٠٠ انه يروعنا وينتزع من نفوسها عاطفة الاعجاب ٠ ٠ لأنه فى الواقع مظهر حضارى يتضمن فى وجوده وابرازه عناصر متشابكة بعضها مادى وبعضها معنوى ٠٠

فالتفكير فى التصميم والنقش وعدد الأعمدة ـ والأفنية والقباب والمآذن وأسلوب الزخرفة التى تسوده كل ذلك جانب فكرى نظرى لأنه لا يخرج عن كونه تخطيطاً على الورق ـ أو نظرية فى الرأس ـ أو فكرة فى النفس ٠

ثم تحويل هذا الفكر كله الى مسجد قائم ـ يسر النواظر ويبهج الخواطر هذا الجانب عملى ـ تطبيقى ٠

والفصل بين الجانبين لا يتصور فى الواقع ٠

وعندما نقرأ قول المستشرق الفرنسى « رينان » يصف شعوره عندما شاهد مسجداً اسلامياً على نحو ما صورنا فيقول: [ما دخلت مسجداً قط للمسلمين الا تملكنى انفعال شديد وهو لو أفصحت عنه لكان نوعاً من الأسف على أنى لم أكن مسلماً] عندما نقرأ هذا التصريح ٠٠ نحس بانفعال عنيف قد أخرج الرجل عن طوره ٠٠ فجعله يصرح بأنه يتمنى أن لو كان مسلماً رغم تعصبه ومذهبيته ٠

ان الرجل مبهور بعظمة المسجد ـ وروعة بنائه ـ وجلال الفن المتمثل فيه ٠٠

وخشوع المسلمين فى عبادتهم أيضاً ٠٠ هو معجب بكل ذلك ومن ثم نطق بهذا التصريح المفاجىء الذى لا ينتظر من مثله !! ولعل الرجل قد أحس بالفرق الهائل بين فن تشييد المساجد وفن بناء الكنائس من جانب وبين أسلوب أداء العبادات فى كل منهما من جانب آخر فتمنى أن لو كان مسلماً ٠٠ وهذا التمنى لا يدل على شىء أكثر من معنى الاعجاب الشديد والا فما الذى يمنعه أن يسلم ليكون من أبناء هذه الحضارة التى شغفته حباً !! بم أعجب الرجل ؟٠

أبالفكر الذى صمم وخطط ؟ أم بالعمل الذى صاغ وأبدع؟ أم بهما معا ؟ الواقع أن الانفعال الذى غزا قلب الرجل وهجم عليه فجأة لم يكن الا بالناحيتين معا لأنه يصعب على الانسان فى وقت الانفعال العنيف أن يحلل العناصر ويدقق فى التفاصيل، لقد امتزج الجانبان فى حسه ووجدانه فجأة ٠٠ فهتف من أعماقه بهذا التصريح ٠

أو قل : أعجب بالمسجد كمظهر حضارى لمجتمع مسلم عبقرى التصوير والابداع !!

ومهما يكن من أمر ٠٠ فان الحضارة الانسانية كل متماسك لا يمكن تجزئته ولا تفريقه ٠

أثر الثقافة فى حياة المجتمعات :

تعتبر الثقافة « وهى أحد جناحى الحضارة » أهم ما يتميز المجتمع الانسانى عن المجتمعات الحيوانية ٠٠ كما يميز المجتمعات الانسانية بعضها عن بعض ٠

وتاريخ الشعوب العظيمة ، انما يستمد عظمته من ثقافة الشعب ومعرفته ووعيه ٠٠ ولا يمكن أن نتصور تاريخاً بلا

ثقافة ٠٠ فالشعب الذى يفقد ثقافتــه يفقــد تاريخه ٠٠ لأن الثقــافة جزء من الشخصــية ٠٠ فاذا ذهبت فقــد اضمحلت الشخصية وتاهت فى أرض الله ٠٠ كما أن الثقافة تسبغ على الحضارة سمتها الخاصة ٠

ومن هنا نستطيع أن نتبين أثر الثقافة فى صنع شخصية الأمم ٠

ولنا أن نتصوربعد هذا كيفأسهم القرآن فى بناء شخصية الأمة العربية والاسلامية ولون حضارتها وصبغها بالصبغـة الربانية ٠ ٠ لأنه مصدر ثقافتها وأساس علومها ومعارفها ٠ ٠ ولذا كان هو النبع السخى الذى أغدق الخير بلا حدود وسـدد الوجهة بلا شرود ، وحدد الغاية والهدف لتلك الأمة العظيمة ــ وجعل لها طابعاً حضــارياً له خصائصــه النبيــلة ومقوماته الأصيلة ٠٠ وذوقياته الرفيعة وآفاقه العالمية ٠٠

لأنه من وضع العليم الخبير [صــنع الله الذى أتقن كل شىء (١)] ٠

ولأنه متسم بالحكمة [انا كل شىء خلقناه بقدر (٢)] ٠

ولأنه ملائم لفطرة الانسان [ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبــير (٣)] ٠

نعم : ان هذه الثقافة المستمدة من القرآن ــ هى التى دفعت بالحضــارة الانسانية دفعة قوية على طريق الايمــان والعلم ــ وأكسبتها طابعا عالميا وانسانيا يتميز بالرحمة والانصاف ــ كلها ــ فبعثت العبقرية الانسانية تسعى وتبدع فى الحياة ٠ ٠

---

(١) آية ٤٩ سورة القمر
(٢) آية ٤٩ سورة القمر
(٣) آية ١٤ سورة الملك

وتجـاوبت مع المواهب الكامنة فى العرب ـ بل فى الانسـانية فتأتى بالعجائب ـ وتصنع المعجزات ٠ ٠ وتتحرك نشيطة فى كل مجـال ٠ ٠ فكانت حضارة علم وأدب وفن وسياسة وحكم واجتماع ـ عبقـرية خصـبة ولود ، لأن الثقافة التى أبـرزت كوامنها ليست من وضع البشر ـ وانما هى من صـنع خـالق القوى والقدر فهى ثقافة هادية بصيرة ٠

ولقد كان العرب هم العرب منذ خلقهم الله ٠ ٠ بعصبيتهم وجهالتهم ، وسفههم ، لكن ثقـافة القرآن عندما غمرت مواتهم الأدبى ، أطلقـت مواهبهم ـ وأبرزت منهم كنـوزاً خبيئة ٠ ٠ كانت مبـددة بين ركام الجاهلية ـ فجمعتها ٠ ٠ ثم أضـاءتها بنور الله ـ ثم أرسلتها تعمل فى الحياة ٠ ٠ فرأى العالم منها الأعاجيب ٠

« كما سنتحدث عن ذلك فى فصل مستقل » ٠

هنا يتضح أثر الثقافة قويا فى بناء الحضـارة ٠ ٠ ٠ كان العرب من غير ثقافة فعاشوا من غير تاريخ ٠ ٠ وعندمـا جاءتهم الثقافة الهادئة لم تكتف بصنع نفوسهم ـ وبناء مجتمعاتهم ـ وانما أبت الا أن تجعـل منهم قادة ٠ ٠ يسوسـون البشرية ـ ويقودونها الى مراشدها ـ ويعلمون الناس الحكمة كانوا قبل ثقافة القرآن ـ رعاة ابل وغنم ـ فصاروا بمنهج الله قادة ممالك وأمم ٠ ٠ تبدع ملكاتهم العجيبة فى كل فنون الحياة ابداعا يقود حضارة العالم بأسره ـ ويؤثر فى سير الحياة كلها ٠ ٠ ويصنع التقدم والرخاء فى أرض الله ٠

هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم : ٠

[لمحات حضارية تنبعث من الآية الكريمة] :

عندما تقـرأ قـول الله تبارك وتعالى : [هو الذى بعث فى

الأميين رسـولا (١) منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين] ٠

أنها تعطى أسساً حضارية ـ ومقومات أساسية لابد منها لكى ينهض المجتمع المسلم بأداء واجبه فى الحياة ٠

انها تشير الى ما يسمى فى العرف الحضـارى [بالمنهج] وهو قـوله سبحـانه : [يتلـو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة] ٠ ٠

فهو منهج ربانى ٠

كمـا تشـير الى « القيادة » التى تتولى « شرح المنهـج » والاشراف على تنفيذه وذاك قوله سبحانه [رسـولا منهم] ـ ومن بعده خلفاء مهديون يحملون العبء ـ وينهضون بالتبعة ـ ويمضون على الدرب ٠

كمـا أنها تشـير الى العنصر الانسـانى ـ الذى ينتفـع بالمنهج ، ويتدرج فى سـلم الحضارة وذاك قـوله سبحـانه : [فى الأميين] وهم بهذا التصـوير أبعد الناس عن التمـدين ـ وأنآهم عن التحضـير ٠ ٠ ولكنهم بالمنهج السـديد ، والقيادة المؤمنة يتحولون الى « قيادات حضارية » تصنع حضارة العالم بأسره ٠

كما تشير أيضاً الى الجهد المبذول فى عملية « تحضير الأمة الأمية » وهو جهد يـدرك حين نقلب صفحـات التاريخ لنعرف مدى العناء الذى تكبده الرسول العظيم لينقل العالم من الظلمات الى النور ٠ ٠

---

(١) آية ٢ سورة الجمعة .

وتشير الآية أيضاً الى مايسمى « بالساحة الحضارية » وذاك قوله فى الأميين وهم كانوا يسكنون شبه الجزيرة العربية · استطاع القرآن أن يضع منهم نواة حضارية مالبثت ساحتها أن امتدت واندلحت واتسعت لتغمر العالم بأسره وتصبح رقعة العالم كله ساحة لها · بعد فتح فارس والروم والهند والأندلس وتشير الآية كذلك الى « نقطة الانطلاق الحضارى » وذاك قوله [وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين] فقد انطلقت الحضارة الاسلامية من نقطة أساسية هى « الضلال المبين » بكل مايحمل التعبير من معنى الحيرة ، والقلق والجهالة ، والسفة ، والانحلال ، والتخبط ·

وتشير الآية كذلك الى « ثمرة الجهد » وقيمة المنهج · وذاك قوله سبحانه : [يتلو عليهم آياته ـ ويزكيهم ـ ويعلمهم الكتاب والحكمة] ·

هنا تكمن ثمرة المنهج الالهى · والجهد التربوى · فقد انتقل بذلك من « الضلال المبين » الى المجتمع الذى [يتلو آيات الله ويتشرب حكمته ـ ويفقه كتابه] ـ ولك أن تتصور نظافة مجتمع كهذا ! !

ألا ان هذا الضلال الذى تتحدث عنه الآية بكل مايحمل من حيرة وقلق ، وبكل مايوحى به من وحشه واضطراب ، وبكل ماينضح به جهالة وظلمة ـ كان طابع الحياة كلها بعامة ـ والحياة العربية بخاصة قبل الثقافة الآلهية ·

لقد كانوا قبله بلا ثقافة ـ فلما نزل القرآن وفيه الثقافة الهادية تبدل الضلال رشداً ـ والسفه حلما ـ والجهل علما على يد معلم الانسانية الأكبر محمد رسول الله وهذه النقلة الخطيرة فى حياة القوم هى التى تشير اليها الآية :

[واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ــ واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون (١)] ٠

انها تلتقى مع سابقتها فى التنويه بقيمة الجهد الحضارى المبذول وبيان نقطة البدء ، ثم توضيح الثمرة الحضارية بعد هــذا ٠

فقد بدأت حضارة القرآن من نقطة محددة [اذ كنتم أعداء ــ وكنتم على شفا حفرة] أى أنها بدأت ــ والعــداء مستحــكم بين العرب ــ بل بين العالم بأسره ــ والعصبيات منتشرة ــ والفساد ضارب ، والقوم على حافة الخطر ، تمزقهم الحروب والثارات تلك هى نقطة البدء ــ أى بدء العمل الحضارى ٠

لكن ماذا كانت النتيجة ؟

كانت كمــا ذكر الله [فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمتة اخوانا] وبانقاذهم من وهدة الضلال والفساد ٠

أى أن ثمرة الحضارة تجلت فى مجتمع انســانى موحد ــ تسرى فى كيانه أخوة القرآن ــ بعد تمزق وشتات ٠ وأنعم بتلك من ثمرة !!

وليت مناهج السياسات البشرية تحقق فى هذا العصر ذرة واحدة مما حققه منهج الله !!

ان الأسس الحضارية ــ التى أشرنا اليهــا من [منهــج

---

(١) آية ١٠٢ سورة آل عمران

للتربية ، وقيادة ، ومجتمع ، وساحة ، وجهد مبذول] هى التى جهد شراح الحضارات فى ايجاد الصيغة الملائمة للتعبير عنها ٠ وربما كانوا يصورونها للناس على غير أساس ، ولكن الآية الكريمة ـ تحدد معالمها ، وتشخص مقوماتها ـ فى دقة وشمول وحسن استيعاب وبصيغة مختصرة لا تعنى ولا ترهق ٠

وكذلك القرآن الكريم يهدى دائماً للتى هى أقوم ، أى للخطة التى هى أمثل وأفضل على أن استنباط هذه المعالم الحضارية من آية قرآنية ، يدعونا الى الثقة بها ، والتصديق لها ، والعمل بما جاء فيها ، لأنها بهذا الاعتبار منهج ربانى ـ تنقاد اليه النفوس الطيبة ، وتستبق اليه الفطر السليمة بمنتهى الاذعان والقبول ، وشتان بين أن تقدم لى « مقومات » من صنع البشر ـ وبين أن تقدمها لى من وضع خالق القوى والقدر !!

حقاً ان القرآن يمنحنا الثقافة الدقيقة الأصيلة ـ التى تتفاعل مع نفوسنا ـ وتتجاوب مع أرواحنا ومشاعرنا ٠٠ فحبذا الاصغاء الواعى اليه ـ والاقبال الصادق عليه ـ والتطبيق المحكم لآياته وأحكامه !!

ولنحاول أن نوضح طبيعة « المنهج الحضارى ـ وتحرك القيادة به ـ ليعطى الثمرة الطيبة وينشىء الساحة الحضارية الرحبة ويصقل مشاعر القوم بآيات الله ـ ويصهر عواطفهم فى جو المعارك الكبار ضد أعداء الله ، وأعداء الحضارة على مر الأيام ٠

ومازلنا فى جو الآية الكريمة نسبح فى نورها ، ونتنفس من عطورها ٠ وانها لتمنحنا من الأسرار والانوار على قدر احتمالنا ـ وطاقتنا ٠

فالمنهج الحضارى : المشار اليه بقوله سبحانه [يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة] يتضمن أموراً ذات خطر فى بناء الحضارات الانسانية ٠ ولعل من أهمها ـ اتساق المنهج الحضارى وواقعيته وبساطته وتجاوبه مع الفطرة ـ ومقدرته على شحذ الطاقات ، واثارة المواهب ٠ وشموله للدين والدنيا ، للعبادة والقيادة ، للمسجد والمجتمع ، للجسد والروح ٠

فهذا المنهج هو الذى يحدث « التزكية والتعليم » ٠٠ وهما كلمتان تعبران عن أثر هذا المنهج فى الأرواح ، والعقول ٠٠ لأن عملية التزكية تعنى تربية الوجدان وتنقية الروح وتطهير النفس ٠

وعملية التعليم تعنى صقل العقل ـ وشحذ طاقاته ٠٠ واطلاق المواهب الانسانية لتعمل على عين الله ٠٠ وان منهجاً يتعهد عقل الانسان بالعلم والمعرفة ، وروحه بالتطهير والتزكية، ووجوده كله بآيات الله والحكمة ٠٠ لهو أشمل منهج ـ وأخصبه وأقدره على احداث التغيير فى حياة الانسان ٠

ولعل الجهد المبذول هنا هو عملية التزكية والتعليم ٠٠ ولابد منها لكل بناء حضارى ٠٠ وهما يحددان دور الرسول العظيم « القيادة » فى عملية تحريك المنهج الربانى ٠ ٠ وبدون هذا التحريك ، وبغير ذلك التطبيق يصبح المنهج مجرد نظريات للدراسة ، أو للحفظ ، أو للتجويد والتغنى ، أو للتبرك ٠٠ وما لهذا نزل القرآن من السماء !! وانما نزل ليتحرك بالوعى والتجربة فى دنيا الناس وليمارس فى الحياة وليتحول من نظرية فى المصحف الى سلوك فى المجتمع للأفراد والجماعات ، والى أسلوب القيادة والحكم ، وواقع يرتفع بعقل البشرية وقلبها الى أرفع مستويات الطهر والصفاء ٠ ٠

واخفاق الحضـــارة البشرية انما يجىء أولا من أنهـــا لا تتضمن المنهج الملائم لأنه فوق طاقة الانســـان ٠٠ وكذلك من العجز عن التطبيق والتحريك فى الحيـــاة ، ومن ثم ينتـــادها الفشل والاخفاق ٠

ثم نجد الآية الكريمة تنقلنا الى « القيادة الحضـــارية » ليتشابك المنهج بالمنفذ ٠٠ وترتبط النظرية بالتطبيق ٠٠ وتلك القيادة لابد أن تكون « قدوة » لأن القائد الذى يحدث التـــأثير العميق فى قومه لابد أن يتحلى بالأخلاقيات الرفيعة ، والفضائل السامية ، ليأخذ الناس القدوة من أفعاله ــ قبل أن يلتمسوها من أقواله وما لم يكن القـــائد على هـــذه الدرجة من التســـامى والطهر فلا أثر لقيادته لأنه لا يوثق فيه ولا يطمأن اليـــه ٠٠ والآية تشير الى ذلك اشارة لماحة هى [رسولا منهم] فكونه رسولا ٠٠ يتضمن كل ما يتصوره البشر من أنواع الكمال ــ وكونه منهم يتضمن معنى الحرص على هدايتهم ، والاخلاص فى نصحهم ، والثقة التامـــة به فى كل ما يأتى وما يذر لأنـــه معروف لديهم ــ قائم بينهم ٠

ولا شك أن الحضارة الأصيلة لا تترك منهجها للظروف، ولا تفرط فى انتقاء القيادات ، لأنه لا قيمة للمنهج دون أن يأخذ طريقه الى التطبيق ، فتتحول أخلاقيـــاته ومثـــله الى سلوك تصطبغ به الحياة ويسير المجتمع على هداه ٠

لابد لهذه الحضارة أن تختار القيادة الحازمة ــ التى تؤمن بالمنهج ــ وتستميت فى تطبيقه ــ وتجد فى ايصال الهدايـــة الى النـــاس ٠

وهذه الآية تجعل القيادة هى النبى محمد [صلعم] وما برح هذا القائد الرسول ــ يجاهد الضلال ، ويقاوم الشرك ، ويحارب

الفساد حتى أتم الله النعمة وأكمل الدين ، ثم تولى الزمام من بعده أئمة راشدون وخلفاء مهديون ، وهكذا تم ايصال المنهج الى الناس بواسطة الرسول المؤيد بالحق الملتزم بتنفيذ ما أنزل الله ، فما ينطق عن الهوى ، وما يضيف فقرة فى المنهج لهوى أو شهوة ــ وانما يتقيد بالنقل عن رب العالمين [ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين (١)] فاذا تصورنا هذا الالتزام بالمنهج من جانب محمد رسول الله ــ وما أصاب الديانتين الكبيرتين قبله من تحريف وتشويه وزيادة ونقصان بدافع الهوى والشهوة ــ لأدركنا السبب فى انهيار هاتين الديانتين وضعف الثقة بهما ، وازدراء الناس لهما ، وانفصالهم عن الدين وتلتقى بقية الأسس الحضارية فى اطار الآية الكريمة ٠٠ فها هى ذى تعبر عن الساحة الحضارية وأنها « الأمة الأمية » بشبه الجزيرة العربية ، وتلك هى الساحة الأولى للدعوة ، ثم ما لبثت أن صارت ساحة عالمية حين فتح الله على المسلمين فملكوا بلاد كسرى وقيصر ، لقد بدأت التجربة الحضارية فى ساحة ضيقة هى شبه الجزيرة العربية ثم اتسعت لتشمل الحياة والأحياء وتتولى « تمدين » العالم بأسره بمنهج الله سبحانه ٠

ثم تتلاقى الثمرة بالجهد ــ والنتيجة بالمقدمة ، ــ حين يتم اخراج الناس من الظلمات الى النور ، وقيمة الحضارة فى نتائجها ، وأى منهج لا يحقق السعادة العلمية للبشر فلا خير فيه ، ولا جدوى منه لقد زعم « ماركس » وغيره أنه يملك منهجاً يحقق سعادة البشر ، وأسرف فى الاشادة به ــ والتنبؤ بآثاره٠

وقد ظهر بعد التطبيق ــ أن المنهج لم يجلب لأصحابه الا الشقاء ولم يجر عليهم الا الفقر وتبين للقوم كذب النبوءات

---

(١) الآيات ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ من سورة الحاقة .

الماركسية ، وظهر لهم أن « المادية » التى قادهم اليها المنهج لا تجلب لهم الا الشقاء وأنها بشؤمها تفصلهم عن الله ، وتنزع من أرواحهم السكينة والاستقرار ، وتهيء لهم أجواء خانقة ، لا تنطلق فيها نفوسهم ـ ولا تزدهر أرواحهم : وأى قيمة لحياة يفقد الانسان فيها نعمة السكينة والصفا ؟ !

وقد تتحدث بعد قليل عن أثر المنهج الربانى لحضارة القرآن فى حياة المجتمع ؛ وعن الثمرات الشهية التى جناها القوم ٠٠ وأيسرها طمأنينة القلب ، وسكن الضمير ، والارتباط بالله الذى يؤنس الروح ، ويسعد القلب ، ويملأ حياة المؤمنين خيراً وبركة ولا تسل عن ثمرة هذا المنهج الربانى فى العالم بأسره ٠٠ وبحسبنا أن نستلهم ذلك من قوله سبحانه : [ليخرجهم من الظلمات الى النور] :

فالظلمات كانت بدء العمل الحضارى والنور ثمرة الجهد المبذول والفرق بينهما واضح لكل من يدرك ويعى ٠

المؤثرات الحضارية :

تؤثر أوضاع البيئة وعناصر الاقتصاد فى صنع الحضارة وتطورها وازدهارها تأثيراً بعيد المدى ٠٠ كما تؤثر فيها كذلك مجموعة من العناصر المعنوية كالأعراف والمعتقدات والتقاليد والأفكار على نحو ما وضحناه سابقا ٠٠

واذا كانت عناصر الاقتصاد عاملا من عوامل صنع الحضارة والتقدم فليست هى كل شيء ٠٠ كما تفهم الشيوعية ٠٠ وانما هى عامل من عوامل وعنصر من عناصر ولا تكفى وحدها لتفسير التطور الحضارى واطراده ٠٠ انه على أى حال ليس هو العنصر الحاسم فى سير التاريخ وللبيئة كما مر أثرها فى اطراد

الحضارة أو توقفها ٠٠ وهى تشمل الواقع الجغرافى ـ أى الساحة الحضارية ـ فلذلك أثر قوى فى تشكيل الحضارة فوقوع الاقليم على ساحل بحرى ـ أو فى الداخل ـ أو على طريق تجارى ٠٠ كل ذلك يهىء الظروف لصنع حضارة زاهرة ٠٠ كما أن لبعد المكان عن هزات البراكين والزلازل أثراً فى استقرار الحضارة ـ وتقدمها ـ ولقد عنى ابن خلدون بتوضيح أثر البيئة فى الحضارة ٠ ٠ يقول فى مقدمته : [لهذا كانت العلوم والصنائع والمبانى والملابس والأقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكون فى الأقاليم المتوسطة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا حتى النبوءات فانها توجد فى الأكثر فيها ولم نقف على خبر بعثة فى الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية ـ وذلك أن الأنبياء والرسل انما يختص بها أكمل النوع فى أخلاقهم وخلقهم ٠٠ وأهل هذه الأقاليم أكمل ـ لوجود الاعتدال لهم فتجدهم على غاية من التوسط فى ملابسهم ومساكنهم وأقواتهم وصنائعهم يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة ـ المنمقة بالصناعة ويتنازعون فى استجادة الآلات والمواعين ويذهبون فى ذلك الى الغاية ٠

وأما الأقاليم البعيدة عن الاعتدال فأهلها أبعد عن الاعتدال فى جميع أعمالهم وأحوالهم ـ فبناؤهم بالطين والقصب ـ وأقواتهم من الذرة والعشب ـ وملابسهم من أوراق الشجر يخصفونها عليهم ـ أو من الجلود] ا هـ ٠

وكلام ابن خلدون هذا صريح فى أن البيئة الجغرافية تؤثر على الحضارة تأثيراً قوياً وتعكس أوضاعها على الناس ٠٠

مناقشة ابن خلدون :

رغم ما فى كلام ابن خلدون من حق ـ وصواب فاننا لا نسلم له كاملا ٠٠ ولا نتخذه مقياسا للحضارة ٠

فان انسان القرن العشرين قد أخضع البيئة بالعلم لارادته وخلق فى قلب الصحراء حضارة وارفة الظلال ـ وفجر الينابيع الغزار ـ واستنبط المياه من الآبار ـ وجفف المستنقعات ـ وحول ماء البحر المالح الى ماء عذب ـ واستنزل المطر الصناعى ٠٠ وتمكن من السيطرة على البيئة ـ بعد أن كانت تسيطر هى عليه ٠٠ وأصبح سيدا لها ٠٠ بعد أن كان مقهورا مسودا ٠ وهنا يتدخل العنصر الاقتصادى كعامل من عوامل ازدهار الحضارة ٠٠٠

لأن استخدام الوسائل العلمية ـ التى لم تكن موجودة على عهد ابن خلدون ـ قد أحدث هذا الانقلاب الخطير فى السيطرة على البيئة ـ وتمكن من حسن استغلال الثروات ووفرتها وذلك عكس ما اذا كانت الوسائل بدائية فان الانسان معها لا يتمكن من احداث الثورة الحضارية ـ وقلب أوضاع البيئة وتبقى بعد ذلك أخلاقيات الحضارة، التى تحفظها من الانحراف ـ وتوجهها وجهة صالحة بناءه لخير الحياة كلها ـ ولخير البشر أجمعين ٠٠ ولتحقيق الرفاهية وصنع السلام ، ليعيش الانسان على ظهر هذه الأرض آمناً مطمئناً يؤدى رسالته فى غبطة ووئام تحت مظلة واقية من قول الحق تبارك وتعالى :

[وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله (١)] ٠

---

(١) آية ١٥٣ سورة الانعام .

الباب الثانى

الله والكون والانسان

أهميـــة هــذه الدراســـة :

عندما نتحدث عن الحضارات الانسانيــة ـ لابد لنـــا أن ندرس طبيعة العلاقة بين الانسان والكون من جهة ـ ثم هذين وبين الله ٠٠ ذلك لأنه بفهم هذه العلاقات ٠٠ وتحديد أبعادها يعرف الانسان [وهو الركن الأول فى بنـــاء الحضـــارة] كيف يتفاعل تفـــاعلا سوياً مـــع عنـــاصر الكون ، وكيف يتمكن من السيطرة عليها واخضاعها لمشيئته بقوانين العلم ٠٠ وينشـــأ عن هــذا التفاعل ما نسميه بالحضـــارات ٠٠ وعنـــدما يتلقى الانسان منهجه عن ربـــه ، فانه لا يضل ولا يشـــقى ٠٠ لأنـــه سيمضى على درب الوجـــود ثابت الخطـــو واثق القلب مطمئن الفـــؤاد ٠٠

وبالتلقى عن الله ـ تتحدد علاقته بالطبيعة من حـــوله ٠٠ فهى مسخرة له باذن ربها ٠ وهو ـ بما منح من عقل وتفـــكير وقدرة على الهدم والبنـاء ، والحل والتركيب قادر على أن يبتكر ويخترع ـ وينشىء المصانع والآلات ٠٠

ومن ثم ـ فان هذا البحث [الله ـ والكون ـ والانسان] يجىء فى موقع طبيعى من هذه الدراسة ٠٠ للعوامل السابقة ـ ولعامل آخر أهم من كل ما مضى ٠٠ وهو أن يرتبـــط الانســـان

[صانع الحضارة] بربه مصيراً وقدراً يستمد منــه العون ـ ويتلفت دائماً نحوه ٠٠ حتى يسدد خطاه على طريق الحياة ـ وفى رحلتها الشاقة الطويلة ـ وحتى لا يعتريه غرور الطواغيت عندما يمكن لهم فى الأرض فيهتف بما هتف به فرعون [أنــا ربكم الأعلى (١)] ، [أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هــذا الذى هو مهــين ولا يكاد يبين (٢)] ويقصد نبى الله موسى ٠٠

أو بما هتف به قارون من قبل : [انما أوتيتــه على علم عنــدى (٣)] ٠٠

وبارتباط الانسان بربه ـ يعرف مركزه من الوجود،ومكانه من الاستخلاف ـ وحاجته الى هداية ربــه ٠٠ ومهما يحرز من سبق أو نجاح فى مضمار الحياة ، فانه يرد ذلك كله الى الله ، ويهتف مع الملائكة [سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا] أو يطلب الاستزادة من توفيق الله قائلا : [وقل رب زدنى علما (١)] ٠٠ وبهذا يتجه بالحضارة وجهة ربانيــة ٠٠ ويعرف أن قيمتهــا الكبرى تكمن فى دعم الايمان ، والمزيد من الارتباط بالله ٠٠

الله جل وعلا : هو خالق الخلق ، ومانــح الرزق لا تنفــذ خزائن رحمته ـ ولا تنضب موارد حكمته ــ ولا تنقضى عجائب قدرته ، قد وصف نفســه فى القرآن بأوصاف كاشفــة ليعرفه العبــاد ـ فقال جــل جلاله : [هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ٭ هو الله الذى لا اله الا

---

(١) آية ٢٤ سورة النازعات
(٢) آيتا ٥١ ، ٥٢ سورة الزخرف
(٣) آية ٧٨ سورة القصص
(١) آية ١١٤ سورة طه .
(٢) آيات ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ سورة الحشر

هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبــار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم (٢)] ، ومن خلال هذا الوصف تشرق صفاته الكريمة ، فتمنحنا المعرفة به ، وتنفذ أشعتها الباهرة الى القلوب ، فتملأها هدى ونورا ، وتغمر الحياة كلها بالمودة والايناس ٠٠

وتجعل المؤمن يعيش على الأرض آمنا مطمئنا،لأن له نسباً عريقــاً فى السماء ٠٠ فهــو من الله ــ وهو الى الله ٠٠ وبذلك تنتعش روحه ــ ويطمئن خاطره ، وتسكن نفســه فلا يعتريه شك أو ريب ٠٠ وتلك أولى ثمرات الايمان بالخالق الأحد الفرد الصمد [الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب (١)] ٠

[يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيــا وفى الآخرة (٢)] ٠

ولهذه الثمرة أثرها العظيم فى بناء الحضارات ٠٠ لأنهــا تمنح الانسان الثقة فى جهاده النبيــل فى الحيــاة حين يعمل مرتبطا بالله ــ مستمداً منه كلَّ معونة وتوفيق ٠

كيف السبيــلُ اليــه ؟ :

ونحن نعرف الله سبحانه بفطرتنا السليمة ــ التى تتجه بطبيعتها الى الايمان ٠٠ وتنفر من الالحاد والضلال ــ وترى فى الاعتماد عليه ، والاستناد اليه مصــدر قوة عظمى تعين على المضى فى رحلة الحياة ــ وتلطف قساوة العيش ، وتخفف صراع

---

(١) آية ٢٨ سورة الرعد

(٢) آية ٢٧ سورة ابراهيم ٠

المـادة ، وتمنـح الفطرة أمنـاً وسـلاماً ، وتفيض على القلب سكينة ونوراً ٠٠

وفى مجاهل القرون الغوابر ـ بحث الانسان عن سر الحقيقة الكبرى ـ والقوة العظمى ، وأحس بوجودها وسيطرتها عليه ، وتحكمها فيه ٠٠ وراح يتصورها مجسـدة فى الشمس تارة ، وفى النار تارة ، وفى الأنهـار والبحار تارة ٠٠ وفى الأصـنام والدواب تارة أخرى ان روحـه لتنزع الى الايمـان ٠٠ ولكن بأى شىء ؟

انها المظاهر الطبيعية العظمى ـ التى تحيط به ـ وتؤثر فى الحياة من حوله ٠٠

على أى حـال ٠ ٠ يعتبر ذلك نزوعـا تلقائيـا فطرياً الى الايمان ٠٠ وهو تقديس لله ـــ فى آثاره الضخمة ٠٠ فما هو الا أن تصحح الوجهة ـ وتحدد القوة ، فاذا الانسان بطبعه مؤمن بالله ٠٠ وتلك مهمة الطلائع الكريمة من الرسـل والأنبيـاء يصححون الفكرة عن الله ٠ ويعطون المعرفة الدقيقة عن ذاتـه وصفاته وأفعاله ٠٠ ويقـودون البشرية الى طريق الايمان ٠٠ هكذا نجد الايمان مركوزاً فى الفطرة ٠٠ لا يحتاج الى علم غزير ولا الى معرفة عميقة ٠٠ نظرات ساجية شاعرة فى رحاب الكون المشحون بمظاهر العظمـة والجلال ـ خليقـة أن تفيض على القلب أمـواجاً من اليقـين ـ وأفواجـاً من الأدلة ٠٠ وتصب فى الوجدان المستلهم أقبـاساً مشرقـة من الهـداية ، فاذا الروح متوهج ، واذا القلب مضاء بالحقيقة واذا العاطفة المتوهجة ـ تمتزج بالعقل السابح فى النور ٠ فيتعاونـان معا على ارتشاف الرحيق السلسل من كأس الايمان الطهور ٠٠ واذن ، فالعقـل وحده لا يكفى فى استلهام الايمان بل العاطفة التى تتوافد عليها أمواج الهداية من خلال التأمل فى الكون الرحيب ٠٠

فاذا بهذه العاطفة المنتشية برحيق الهداية تستحث العقل وتستجيشه فيذعن ويصدق من قبل أن يمحص ويحقق ٠٠ لأن رجفة الشوق الى الفيض التى يستشعرها الأصفياء فى لحظات التجلى ٠٠ لا يستطيع العقل أن يثبت أمام سيلها العرم،ودفقها العنيف ٠٠ فاذا هو مغمور فى الالهام والنور ٠٠ ولعل اندفاع الفطرة الى الايمان بالطبيعة هو الذى يقرره الحق تبارك وتعالى فى قوله : [واذ أخذ ربـك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهـم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا : بـلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين (١)] ٠

انه الميثاق الأكبر ـ الذى تنزع اليه النفس أوقات صفائها ـ وترتمى فى أحضانه ساعة ضعفها ٠٠ وتتجه اليه كلما شاقها القرب ، وأضناها البعاد : فتجد فى هذه اللحظات القدسية من الأنس الغامر ـ والسلام الرفاف ـ والسكينة الساجية ما لا تستطيع مباهج الحياة كلهـا أن تنشىء بعضـه ٠٠ وتحس بمعانقة السعادة ـ ولو كانت تتلظى فى جحيم الفقـر ـ وتلك ثمرة ثانية من ثمرات الايمان ، وكم للايمان من ثمرات !!

يقول الأستاذ أحمد حسن الباقورى فى تصديره لكتاب : « العلم يدعو للايمان » :

« ودعوة الاسلام صريحة فى أن العقل لا يمكن أن يستقل بمعرفة الله ـ ولا أن يهتدى اليه الا اذا صحبه فى تطوافه الى تلك الغـاية قلب يتلقى عنـه كل محركاته فيحيلهـا عواطف وأحاسيس تشـيع فى النفس روعة وجـلالا ـ ومن خلال هـذا الشعور بالروعة والجلال يرى المرء خالقه الواحد الأحد المتفرد بالعظمة والجلال ـ ولهذا كان الاسلام دين الفطرة ، والفطـرة

---

(١) آية ١٧٢ الأعراف .

ليست عقلا صرفا ، ولا عاطفة محضة ٠٠ وانما هى مزيـــج من العقل والعاطفة اذا التقيـا فلم يطـغ أحدهما على الآخر كانت الفطرة سليمة تنشـــد الله ، وتعــرف سبيلها اليـــه من أقرب الســـبل » ٠

وهو كلام صريح فى أن العقل والعاطفة يتعاونان معا على الايمان ٠٠ ويدلان على الله ٠٠ لكننى أرى ـ أن العاطفة ، وهى نبع القلب هى جهاز الاستقبال اللاقط ـ الذى يسرع بترجمـة الاشارات الوافدة ٠ ٠ ويدفع بالثمرة الى العقـل ٠ ٠ فاذا هو مضىء مبهـور !! ؟ ومن هنـا فان القلب ، وهو النبــع السخى للعاطفة ٠٠ هو الذى يفعم بالأنوار ٠٠ ثم يقذف بها الى العقل ليضىء ويشتعل٠٠وذاك سر الاشادة به فى قول الرسول(صلعم): [ألا ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ـ ألا وهى القلب (١)] ٠٠

ونحن نعرف الله بقلوبنا قبل أن نعرفه بعقولنا ٠٠ القلب يقوده الهامه، والعقل تقوده أحكامه٠٠ والالهام٠٠ وهو الفيض الأعظم قبل الأحكام ٠٠

عنمـا تنحـرف الفطـرة :

ولأن الفطرة بطبيعتهـا تندفــع الى الايمان ٠٠ نرى أن التزييف لهذه الفطرة ٠٠ يحتــاج الى بذل جهد ٠٠ وهو جهـد شيطـانى يحــول تلك الفطـرة من طريق الرحمن الى طريق الشيطان ، واليه يشير الرســول الكريم : [ما من مــولود الا ويولد على الفطرة،فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه(٢)] سبيل الايمان بالله ايماناً سليماً ســبيل سهل ميسر مضــاء مأنوس ، وما أكثر ما نرى ربنا فى آثاره ، وفى مظاهر كونه ـ

---

(١) صحيح البخارى
(٢) صحيح البخارى

نراه فى النبتة الصغـيرة ، وفى الشجرة الباسقـة ، وفى الرمال المنبثة ، وفى الآفاق الشاسعة ٠٠ وفى الجبل الضخم ــ وهكذا بنظرة الى صفحة الوجود ندرك سر الايمان ٠٠ وليس ضرورياً أن نمحص ونحلل وندقق ، فتلك نظرات الفلاسفة والعلماء ٠٠

واذا كانت معرفة الله ــ هى سر الابداع ، ووسيلة السكينة ــ فان الملاحدة يحسون بالشـقاء والظمأ ٠٠ حين يمشـون على الأرض بخطا مضطربة ، ويحيون بين الناس بنفوس قلقـة ، ويعيشون بهواجس مريضة تنتـابها الشـكوك وتفترسهـا الأوهـام : [ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفـه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق (١)] ٠

وحين يدرك المؤمنـون بالله مـدى الفـرق الشـاسع بين الطمأنينة الوادعة التى تغمر أرواحهم ، وبين الحيرة القلقة التى تملأ قلوب الملحدين ، فان ألسنتهم تنطلق بالشـكر العميق لله سبحـانه أن هداهم للايمان وقـاد نظرتهم اليه ، ولم يتركها للهواجس والأوهام ٠

ولم يعد الالحاد فى هذا العصر مشكلة ٠ ٠ لأن عجائب الخلق تتعاون مع أدلة العلم لتنشىء اليقين ، وتطارد أشباح الالحاد ٠٠ ومن خلال العمل آمن بالله من آمن عندما اكتشـفوا بالوسـائل العلمية أسراراً عظمى ــ ونظماً دقيقة ، وهندسة عجيبة ماكان لها أن تنشأ بالصدفـة ــ أو توجد من نفسـها ٠ ٠ نعم : لقـد تضافرت الأدلة العلمية على وجود الله ٠ ٠

وفسر القرآن الكريم تفسيراً يملأ العقـل بالحجـة والدليل على وجود الله أيضا ٠ ٠ ولهذا كان الالحاد شذوذاً عن الفطرة ــ وعن أدلة العلم فى وقت واحد ٠ ٠

---

(١) آية ٣١ سورة الحج

يقول الأستاذ عباس محمود (١) العقاد : « الدين لا يستقيم بغير الله تتصل به المخلوقات ، ويتقبل منها الحب والرجاء ، ويستمع لها استماع العالم المريد ٠٠ ونحن نستطيع أن نرى بأعيننا أن الايمان ظاهرة طبيعية فى هذه الحياة ، لأن الانسان (غير المؤمن) انسان غير طبيعى فيما نحسه من حيرته واضطرابه ويأسه ٠٠ وانعزاله عن الكون الذى يعيش فيه ــ فهو الشذوذ وليس هو القاعدة فى الحياة الانسانية ــ وفى الظواهر الطبيعية ــ ومن أعجب العجب أن يقال : ان الانسان خلق فى هذا الكون ليستقر على ايمان من الوهم المحض » ، ثم يستطرد قائلا : « ان مسألة الايمان بوجود الله مسألة وعى قبل أى شىء ، فالانسان له وعى يقينى بوجوده الخاص وحقيقته الذاتية ــ ولا يخلو من وعى يقينى بالموجود الأعظم ـ والحقيقة الكونية لأنه متصل بهذا الوجود بل قائم عليه ــ والوعى والعقل لا يتناقضان وان كان الوعى أهم من العقل فى ادراكه ، لأنه مستمد من كيان الانسان كله ومن ظاهره وباطنه وما يعيه هو وما لا يعيه ــ ولكنه يقوم به قياما مجملا محتاجا الى التفسير والتفصيل ، وليس وجود الله عند « أرسطو » وأمثاله مسألة دينية أو مسألة غيبية ــ ولكنها حقيقة عقلية كالحقائق الهندسية ــ وقد أسفرت مباحث الفلاسفة المؤمنين عن براهين مختلفة لاثبات وجود الله بالحجة والدليل » اهـ ٠

وبتحليل هذا الكلام الرائع يتضح لنا أن العقل ، والقلب ، والوعى ٠٠ كلها تتعاون فى سبيل الوصول الى الايمان ٠٠ وأن استقامتها على الفطرة يكفل لها الوصول الى الحقيقة الكبرى ٠٠ ولم يعد بامكان المذاهب المادية ــ فى عصر العلم ــ أن تجتذب أحدا الى ساحتها المشئومة النكدة ــ ولا أن تنتزع منه سلاح

---

(١) ص ٣٥ القرآن والعلم الدكتور جمال الدين الفندى ٠

الايمان بالله ٠٠ لأنه لا العلم ولا الدين ولا أدلة العقل ــ ولا نور القلب تسمح له بالانزلاق الى الوهدة الضالة الظلماء ٠

من شؤم الالحـاد :

وحسب المـادية أن كذبت كل نبوءاتهـا ٠٠ وسقطت كل أدلتهـا كما تتساقط الأوراق الجافة فى فصـل الخريف ٠٠ لقد حاولت أن تجعل من « المـادة » كل شىء فى تفسـير التـاريخ ــ وتنظيم الحيـاة ٠٠ وزعمت أن هـذه المـادة تغنى عن خرافة الايمان ــ الذى هو فى نظرها الطور البدائى للانسـان وأنكرت فى سبيل ذلك الأديان واعتبرتهـا مرحلة بدائيـة فى خط سير الانسانية يخلعها الانسـان كما يخـلع « الثعبـان قشرته » وأنكرت الرسالات والكتب السماوية ، وما وراء الطبيعـة كله وصارت فكرة مادية ملحدة ٠٠ لا أثر فيها للروحيات « ووجـود الدين فى مجتمع ما يعنى (١) وجود عاهة » ونظمت حياة البشر كما يحلو لها فحالت بين الانسـان وبين التعبـير عن حاجاته الطبيعيـة ٠٠ ان أدوات الانتـاج ملك للدولة ــ والولاء للحزب وليس للأسرة ــ أو للأب أو للام ٠٠ والدكتاتورية لطبقة العمال والتملك والارث لا مبرر لهما ٠٠ والأخلاق اختراع بدائى يحمى به الضعفاء أنفسهم من بطش الأقوياء والغاية تبرر الوسيلة٠٠ والعـلاقات الاجتماعيـة تنشئهـا (٢) الدولة والآلة والنظـم الاقتصادية ، والأفراد لا قيمة لهم والولاء كل الولاء للحـزب ٠٠ وفى سبيل تحقيق أهدافهم ــ خاضوا بحارا من دماء وركاما من أشلاء ٠٠ ولم يصلوا حتى الآن الى تحقيق آمالهم ٠

لقد وضع أساس هذه الفلسفة المـادية فى القرن الثـامن عشر على يد ماركس وأنجلز وهما يهوديان ألمـانيان ٠ وجـاء

---

(١) من كلام « ماركس فى كتابه المسألة اليهودية » .

(٢) تخضع العلاقات الجنسية هناك للحرية المطلقة نشأة ومصيرا .

لينين ليطبق النظرية عام ١٩١٧ م وبعد الثورة على القيصر ٠٠ وانتزاع السلطة منه ـ وظهر بالتطبيق الذى ما يزال حتى الآن فى طور التجربة أن المادية ـ بانتزاعها لعقيدة الايمان بالله واليوم الآخر ـ من الأفراد باعدت بين الانسان الشيوعى وبين الاستقرار المادى والروحى ٠٠ وأفقدته الثقة بالقيم الأخلاقية وحالت بينه وبين التعبير عن غرائزه بالحيلولة بينه وبين التملك ٠٠ وقهرت حرية الفرد من أجل الحزب ـ وأوجدت انحلالا أسريا وعائليا ٠٠ لأنها لم تعترف بالأسرة٠٠ولا بالوطن ولا بالقومية بل فقط الولاء للحزب ٠٠ وزادت على ذلك مخاوف أخرى بما استعملت من قهر وتسلط ـ لكل من يحاول انتقاد الحزب ٠٠ وحتى أعضاء الحزب أنفسهم أكثر خوفا من الأفراد العاديين ـ فالشيوعى يحمل قلبا خائفا مضطربا أينما غدا أو راح ٠

ان المادية بانكارها لله ـ قد حطمت فى الانسانكل وسائل المقاومة ضد القهر والذل والمصائب والعدوان ٠٠ وجعلته حيوانا يعيش ليومه ، ولا يتجاوز بالنظر موقع قدمه وهى باستخدام القمع الدموى والارهاب العنيف قدأقتلت فى الأفراد روح الشجاعة وسلبتهم الارادة وحولتهم الى قطعان شاردة لا تعرف لها ربا ولا ترجو له وقارا ٠

ولم تكن حضارة الغرب بمسلكها الماى الاباحى أكثر صلاحا من الشيوعية ٠٠ بل انهما معا ينبعان من معين الالحاد والكفر ٠٠ لكن الشيوعية صريحة فى كفرها والمادية الغربية منافقة ، تدخل الكنيسة وتقيم الأحفال الدينية ، وتدعى الانتساب الى السيد المسيح بينما ألحقت بالكنيسة صالات للرقص ، يختلط فيها الفتيان بالفتيات فى حلقات رقص محمومة ومخمورة ٠

وقد كان منطق الحضارة الغربية من نقطة الالحاد ـ عندما تخلصت من سيطرة الكنيسة التى كانت تصادر الحرية وتضطهد المعرفة ·· وتقيم محاكم التفتيش ·

تخلصت الحركة العلمية من الكنيسة ـ واعتنقت الالحاد· وسارت فيه الى نهاية الشوط ·· ثم هبطت بالأفراد الى درك الحيوانية الوضيع ·· واتسمت منذ ذلك الحين بطابعين واضحين ، طابع الفلسفة اليونانية واتجاهها المادى الوثنى ؛ وطابع العداء للدين والحقد على رجاله وسلطاته ، وفى ظل هذين الطابعين نمت جميع المذاهب الفلسفية والأخلاقية التى سادت فى الغرب وسيطرت على عقول أبنائه يقول الأستاذ الدكتور المرحوم مصطفى السباعى (١) : [ومن الشائع الآن فى أوربا وأمريكا أن كل كنيسة لها ناد يجتمع فيه الشباب والفتيات على الرقص والسمر وفى الرحلات والاحتفالات ـ وقد زرت أحد هذه النوادى فى أوربا وكان جزءا من بناء الكنيسة فرأيت أنه لا يزيد عن حلقات للسمر والرقص والغناء والأكل والشرب] ··

لقد انفصلت الحضارة الغربية هى الأخرى عن الله ·· وسارت فى طريق الالحاد ·· رغم وجود الكنائس وكثرة الحفلات الدينية ولن تصلح الشيوعية ـ ولا حضارة الغرب لتكوين مدنية فاضلة ·

ومن أجل ما قرأته من الردود على الماديين ما أثبته الأستاذ العقاد من أن المادة أصعب من الروح فى فهمها وتحليلها ـ وأن العلم قد تبين ذلك بعد رحلة طويلة ·· وكان العلم يعتقد أولا أن الروح أصعب ·· فكيف تصلح المادة على الجهل بها ـ

---

(١) من كتاب « من روائع حضارتنا »

وصعوبة فهمها أساسا لمذهب من المذاهب ؟ ولو سألت أحد الماديين ـ عن الأثير أحد عناصر المادة ما هو ؟ لما استطاع أن يعطى الجواب !!

كذلك لم تصبح سخافات الماديين « ذات موضوع » فى ادعائهم أن ايمانهم لا يمكن أن ينصب على أمور بعيدة عن الحس والمشاهدة وان أحدهم ليضرب بجمع يده على المنضدة وهو يتكلم بحماسة قائلا : هذه هى الحقيقة ٠٠ يريد أن المادة هى الحقيقة وما سواها فخرافة ٠٠ والرد عليهم فى هذه الفرية ليس أمرا صعبا ٠٠ لأن أكثر من نصف معلوماتهم اما وصلهم عن طريق السماع ٠٠ ولو أن الايمان اقتصر على المحسوسات لما آمن أحد بوجود أجداده القدماء ـ ولا بأبطال التاريخ ٠٠ بل ولا بالشخصيات الكبيرة التى تبتعد عن دائرة حسه ٠٠ ونحن نطالب الشخص الذى يريد أن يرى الله رأى العين ويلمسه بيديه ٠٠ نطالبه بأن يفعل ذلك مع أى عظيم من عظماء العالم٠٠ فهل اذا لم يكن رآه يجب أن يكفر به؟!٠ورؤية الله جل جلاله٠٠ لا يستوعبها العقل البشرى المحدود؛كما لا تطيقها العين المجردة٠ وانما يرى الله جل جلاله من خلال عجائب صنعه وبدائع قدرته٠

والقلب وحده يستطيع بالالهام أن يطمئن ٠٠ ويستوثق كما قدمنا ٠٠ ولم تكن هذه السخافات جديدة فطالما تعرض الايمان لسخافات الناس ألم يقل قوم موسى له : « أرنا الله جهرة (١) » ٠ انه لخير للانسان أن ينصرف عن البحث فى ذات الله ـ والتفكير فيها ٠٠ الى التنقيب فى آثاره ودراسة روائع قدرته.فتلك هى المنطقة الحلال ٠٠ التى يجوز للعقل البشرى أن يقتحمها٠٠ وهى منطقة مباحة منزوعة السلاح كما ورد فى بعض الآثار : « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا » ٠٠

---

(١) آية ١٥٣ سورة النساء .

أما منطقة الذات العلية فمنطقة حرام ٠٠ محاطة بأسلاك شائكة تكمن فيها المخاطر والأهوال ٠٠ وويـل لمن يضحى بنفسه فى اقتحامها ٠٠!!

وما ضر أن نجهل ذات الله ٠٠ لأننا لم نكلف بذلك ٠٠ وانه لأمر ضد طبيعتنا ٠٠ فلنشاهد جلاله وجماله ورحمته وعدله من خلال آياته ــ ومن خلال مخلوقاته ٠

يقول الدكتور جمال الدين الفندى فى كتابه (القرآن والعلم):

[وجدير بالذكر أن العلم الحديث انما ينصب على دراسة خصائص الأشياء والاستفادة منها وليس على حقيقة الأشياء وجوهرها ٠٠ فالعلم الحديث يستغل الكهرباء فى توليد الحرارة ــ وتحريك الآلات وفى الانارة والعلاج ٠٠ ولكنه لا يستطيع أن يفسر الكهرباء بقدر ما نجح فى الاستفادة منها ــ أى أن العلم عجز عن فهم كنه الكهرباء وكذلك الضوء وأشعة اكس وما الى ذلك ٠٠ ولكنه استفاد من خصائصها ٠٠ لأن وظيفة العلم لا تتعدى ذلك دون البحث فى ماهية الأشياء وحقيقتها ٠٠ ومثل هذا العلم لا يوصلك الى ما وراء الطبيعة الا أننا أثناء دراسة الأشياء نلمس من الابداع والاتقان ما يجعلنا نجزم بأن وراء ذلك خالقا مدبرا] اهـ ٠

فليقنع العلم بعد ذلك بما قسم له ــ ولا يتجاوز حده فيهلك ــ ويهلك الناس !!

ذلكم الله ربكم :

من خلال ما قدمنا من دراسة ٠٠ يستطيع الانسان أن يعرف ربه ، ويعبده ــ ويجد من الأنس فى رحابه ما يملأ قلبه بالأمن وحياته بالنور ٠٠ وانه ليتلقى ما يفتقر اليه من معرفة

بربه عن كتاب كريم فيه تبيان كل شيء ٠٠ فيه تشرق صفاته كما تشرق نجوم الليل فتنفذ أشعتها الى القلوب فتغمرها بالمودة والايناس ٠٠ وتترادف هذه الصفات فى الكتاب العزيز ٠٠ كما تتوافد موجات الضياء ـ وكلما وعاها الانسان ازداد ايمانا بربه ـ ويقينا فى عدله وجزائه ٠٠ وتفانيا فى حبه وعبادته ٠ وتسطع من بين هذه الصفات القدسية صفة الرحمة الحانية التى لم تشأ أن تدع البشر لعقولهم الضعيفة٠٠بل أرسلت لهم رسلا يحملون مشاعل الهداية وينقذونهم من التخبط والحيرة والاضطراب ٠٠ ويقودونهم بمنهج الوحى المبارك الى صراط العزيز الحميد ٠٠ ولا نجد مجالا للرحمة الالهية تبسط فيه جناحها الكبير كما نلمسه فى هذا المجال بالذات ٠٠

ان أزمة الضمير الانسانى على مر العصور والأحقاب لا يتصور لها أن تنحل الا بهدايات السماء ٠٠ حيث تضع الانسان كله فى منطقة الضياء ٠٠ فلا يتخبط فى الدياجير ـ وبذلك تنقذ قلبه وروحه من وساوس الشك وهواجس الشيطان ـ وتثبت خطاه على طريق الايمان وتربطه بربه مصيرا وقدرا وتكشف له عن العالم الآخر الذى يلقى فيه جزاءه ان خيرا فخير وان شرا فشر ٠٠ وبذلك يستريح العقل من الضرب فى المتاهات الطامسة والفلسفات الدارسة التى تزيده حيرة وضلالا ٠

وما أجلها من نعمة تقف الانسانية أمامها عاجزة عن الشكر وصدق الله العظيم اذ يقول :

[وما بكم من نعمة فمن الله (١)] ٠

وهكذا يحيا المؤمنون مع ربهم ومع ايمانهم فى أنس وجمال ٠٠ يستمدون من هذا النبع صفاء وسكينة وأمنا تعكس

---

(١) آية ٥٣ سورة النحل .

على وجوههم نضرة النعيم ٠٠ وويل لمن حرم هذا النبع فراح يستقى من مانبع آسنة ٠٠ تعكس على وجوده الحيرة والضلال ٠

[من يهد الله فهو المهتد ومن يضل فلن تجد له وليا مرشدا (١)] ٠٠

وأجمل ما فى الأديان السماوية ـ أنها تمنحنا المعرفة فى بساطة ويسر ـ لا تضللنا ولا ترهقنا ، وهى تمنحنا منها على قدر ما تحتمل نفوسنا ـ وتهدينا هذه المعرفة موثقة بكل الضمانات لا تحتمل ادعاء ، ولا تربكها الفروض العقلية ٠٠ وهى معرفة واقعية لا ترتفع عن الحياة ـ ولا تتسامى عن التطبيق ٠٠ وتعطى تكاملا رائعا عن الله والكون والانسان ٠٠ وتظل هذه المعرفة المستمدة من القرآن غضة متجددة مع الحياة كأنما نزلت من السماء لأول مرة ، وذلك كله عكس الكتب الفلسفية ـ التى لا تخرج عن كونها طفح عقول بشرية أفسدها ومازجها التعقيد وداخلها الفرض والاحتمال ٠٠ فأصبحت شذرات متناثرة لا تكون مذهبا متكاملا ولا تروى نفسا ظمأى!! على أنها شطحات تائهة قلما تتماسك ٠ وقلما تقبل التطبيق ٠٠ أو تلائم فطرة الانسان ٠٠ وشتان بين معرفة يمنحها القدر ٠٠ وبين أخرى يصنعها البشر !!٠٠ وما شقوة الحياة الضالة فى هذا العصر الا ثمرة خبيثة لفلسفات العقول الانسانية ٠٠ لأن هذه الانسانية تأبى أن تجد الأنس والاستقرار الا فى هداية ربها ٠

وقد غدت المعرفة الدينية أمرا ميسورا ٠٠ نأخذها عن القرآن ، بكل الثقة ، وبكل اليقين ٠٠ ونستنبطها من النظر الفاحص فى كون الله الرحيب ٠ ونجد العلم الحديث فى صبغته

---

(١) آية ١٧ سورة الكهف .

النهائية يتوافق معها ·· ويصدق بها ·· ومن خلال (١) العمل آمن كثير من العباقرة عندما تجلت أمامهم القدرة والحكمة والاتساق والروعة والجلال ·· وهم يمارسون مهمتهم العلمية

فهتفوا من الأعماق :

[فتبارك الله أحسن الخالقين]·

فاذا أضفنا الى ذلك كله أن الفطرة الانسانية تندفع بطبيعتها الى الايمان ·· وهو ايمان مهما يتطور فى مراحل الا أنه واصل يوما ما الى الحق ·

ولن يستغنى الانسان مطلقا عن هذا الايمان ··

يقول هارى أرسون فى كتابه كيف تكون رجلا :

[انه ما من انسان يستطيع أن يكون غير مؤمن فقد ركب الانسان من الناحية النفسانية بحيث أصبح مضطرا الى الايمان بالله ـ أو بغيره ـ فمتى مات الايمان الايجابى فان السلبى يحل محله ـ يتعلق بالمستحيلات أكثر من الممكنات وبالآراء التى تجعل منا ضحايا للحياة لا سادة لها] ·

وهكذا يعتقد الرجل كما نعتقد بأن الايمان ضرورة حياة ، ووجود ، مصير ·· ينزع اليه الانسان بصدق الفطرة ·· فيصل اليه ·· ومتى آمن الانسان بربه أصبح انسانا سويا·· تنمو فيه كل الفضائل والقيم النبيلة ·· لكن الفطرة قد تنحرف بتأثير الوراثة ـ أو بفعل البيئة ـ أو بجهود الشياطين··فتؤمن بالأشخاص ـ بدل ايمانها بالله ·· وهنا تصبح هذه الفطرة

---

(١) راجع كتابى « نفوس ودروس » جزء ثان تحت عنوان « رواد على درب الحقيقة ـــ الله من خلال العمل »

المزيفة مزرعة خبيثة تنمو فيها الطفيليات والأعشاب الضارة٠٠ وتصبح مباءة للسلبية والجهالة والعبودية بدلا من أن ترتفع بالايمان الطهور الى ذروة المثل وقمة الكمالات ومرتبة السيادة على عناصر الحياة ٠

وهذا فى الحقيقة تصوير سليم ـ نجده فى قول الحق تبارك وتعالى : [انما تعبدون من دون الله أوثاناوتخلقون افكا (١)] ٠

لكن لينين يقول بدل هذا : (ان الله فى التاريخ والحياة هو قبل كل شىء مجموعة أفكار تخدر حرب الطبقات وكل دفاع عن فكرة الله مهما كان دقيقا ومهما طابت نيته أو كل تبرير لهذه الفكرة هو تدبير للرجعية) ٠

ويقول ماركس : (ان تهديم الدين بصفته سعادة وهمية للشعب انما هو من مقتضيات سعادته) ٠

وصرح هذا الشقى فى موضع آخر بقوله : (لابد ليتحرر الانسان ، من أن يكون ملحدا مؤمنا بحقيقة واحدة هى المادة منكرا لكل ما عداها من كل ما له صلة بالغيب الذى لا يرى) ٠

بهذه الكلمات ـ تعبر الشيوعية عن حقدها على الدين ـ ومحاربتها له ـ ومحقه من المجتمع ٠

واذا كنا قد استمعنا الى هذه الكلمات المسمومة ضد الدين وضد الايمان بالله ٠٠ فما أحرى أن نستمع الى الحقيقةالايمانية تفرض نفسها على رواد الفضاء ـ الذين استقامت فطرتهم « فحين غادر رواد الفضاء الأمريكيون الثلاثة الأرض الى القمر ـ أبولو (١٠) ـ أى الرحلة التى سبقت النزول على القمر فداروا

---

(١) سورة العنكبوت من آية ١٧ ٠

حوله ومكثوا فى الفضـــاء أياما ثم عادوا الى الأرض ـ توجــه أحدهم الى « بورمان » قائد الرحلة فسأله : لقد ذكر خروشوف حين أطلق الروس أول جرم فضائى أنهم بحثوا هناك عن الله فلم يجدوه فهل وجدته أنت ؟!

أجاب بورمان : (لو وجدوا الله أو وجدناه لكف عن أن يكون الها ـ الله موجود بشكل آخر ـ بالأدلة عليه ـ وبهذا المعنى فقد وجدت الله هناك أكبر مما هو على الأرض) ٠

لقد اهتدى الرجل ٠٠ وسلك الى الهداية سبيلا واضحة ٠
وهكذا ٠٠ ان يكن قد ساءنا من الشـيوعيين عداءهم لله ـ فانه قد أسعدنا ايمان رجل كبورمان !! وهم من قبل ومن بعد لن يضروا الله شيئا ـ والله غنى عنهم وعن ايمانهم :

[يأيهـا النــــاس أنتم الفقــراء الى الله والله هو الغنى الحميــــد (١)] ٠

على أنه ينبغى التنبه الى حقيقة هامة ٠٠ هى أن المسافات التى ارتفعها رواد الفضاء حتى الآن لا تعدو الخـروج بهـم الى نطاق الغــلاف الجـوى الرقيق الذى يتواجـد عدة مئــات من الكيلومترات من سطح الأرض « ومثل هذه الأبعاد (٢) لا قيمــة لها اذا ما قورنت بنصف قطـر الكون المرئى الذى يقــدر بنحو خمسمائة سنة ضوئية » اهـ ٠

فلماذا يتسـاءل الملاحـدة عن الله فى هـذا النطاق ـ وهم ينكرونه على ظهر الأرض ٠

---

(١) آية ١٥ سورة فاطر ٠
(٢) عن كتاب القرآن والعلم الدكتور جمال الدين الفندى ص ١١

انه لمن أسخف السخف أن يطيروا فى فضائه ٠٠ ويحلقوا فى آفاقه ٠٠ ثم ينكروا وجوده ٠

ومابال هذا الغرور الخادع ـ وهم لم يرتفعوا شيئاً يذكر بالنسبة الى آفاق الله العليا ٠ ٠ فهل سيظل الحادهم معهم بعد أن يرتقوا فى الأسباب ٠

ان كرم الله على الانسانية لغامر فياض ٠ ٠ يخلقها بقدرته ، ويخلق لها الكون بحكمته٠٠ويأذن لها ـ بل يستحثها أن ترتاد الآفاق باحثة عن الحقيقة ٠ ٠ لترجع بزاد مبارك من الايمان ٠ ٠ وذلك حيث يقول جل شأنه : [سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق (١)] ٠ ٠ فاذا بها ترجع بالكنود والنكران ٠ ٠ وماذا ننتظر من الفطر الضالة الملتوية الا أن تعود بهذا الكفر والوقاح حقاً : [ان الانسان لظلوم كفار (٢)]

يقول دالن فى مؤلفه روسيا السوفيتية : [ان الناس على الحياة والصحة والأمل فى العمر الطويل قد تحتمل الكفران وتحتمل فراغ القلب من الايمان ٠ ٠ أما والموت على الأبواب فلن يشجع على اقتحامه قلوب خربة ـ ولقد وجد أخيراً أن معظم سكان روسيا ظل مرتبطاً بالايمان] وهو قول يؤكد عجز السلطة مهما تذرعت بالارهاب أن تخمد جذوة الايمان فى القلوب ٠ ٠ لأن الناس تعرف جيداً أن الموت على الأبوب ٠ ٠ وانه لدرس متكرر ومشهد أمام أعينهم ٠ ٠ ٠ فهل يقتحمون الموت الى رحلتهم الجديدة بغير زاد ؟ !

ويقول أنشتاين : [ان الشعور الدينى الذى يجده الباحث فى الكون هو أقوى حافز على البحث العلمى ـ وصنع الحضارة ـ وان هذا الايمان عندى يؤلف معنى الله] ٠

---

(١) آية ٥٣ سورة فصلت .
(٢) آية ٣٤ سورة ابراهيم .

ويؤكد هذا العالم ــ أن الانطلاق الحضارى ثمرة الايمان ٠٠ باعتبار أن الكون وهو من خلق الله ــ هو مصدر العلم الشامل ــ والمعرفة الحقيقية لجميع البشر ٠٠ وهو الينبوع المتفجر بالحكمة ــ الفياض بالمعرفة ٠٠ المؤكد لوجود الله ٠٠

وهكذا يتمكن المؤمنون ــ اذا تحررت عقولهم ــ أن ينشئوا أروع الحضارات ٠٠ وأن يستلهموا سر الحكمة من الله خالقهم ــ وخالق الأكوان ٠٠ وأن ينهضوا برسالتهم الكبرى التى ألقاها القدر على كراهلهم يوم أبرم معهم عقد الاستخلاف الأعظم فى رحاب السموات العلا ــ بين كوكبة مضيئة من الملائكة الأطهار٠

ومعرفتهم بالله ــ هى أعظم حافز لهم على الجهاد المخلص ، ليظفروا برضوانه ٠٠ ويحظوا بثوابه ــ ويحسوا وهم يمارسون جهادهم الشاق بالأمن والانس والاستقرار ٠

الانسان ومكزه من الكون :

يكفى للاحساس بقيمة الانسان ــ أن الله سبحانه خلقه بيديه ــ ونفخ فيه روحه وأنه بهذه النفخة القدسية من روح الله قد تحول الى كائن عظيم ٠٠ له قداسته ومنزلته تسجد له الملائكة بأمر الله ٠٠ ويسخر له الكون كله ٠٠ « اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشراً من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين (١) » ٠

وانظر معى فى هذا التعبير الجامع « فاذا سويته » فما معنى التسوية ؟ وبم توحى ؟

التسوية فى الحقيقة هى عملية التنسيق الرائع فى عالم

---

(١) آية ٧١ سورة ص .

الانسان الظاهر والباطن ٠٠ المـادى والمعنوى ٠٠ وهو تنسيق يجعـل من هذا الانســان نموذجـاً رفيعاً للجـمال بين ســائر المخلوقات ٠

« لقد خلقنا الانســان فى أحسن تقـويم (٢) » « وصــوركم فأحسن صوركم (١) ٠

تنسيق يجعل من أعضــاء الانسان وملامحه هيئة كريمة وصورة جميلة ٠٠ تحس من أول وهلة أنها صنعة حكيمة دقيقة مهذبة مصقولة ٠٠ لا نشاز فيها ولا شذوذ ٠٠ ليست يد أطول من يــد ولا قدم أكبر من قــدم ٠٠٠ قــد تكاملت الأعضــاء ـ وتناسقت الملامح والقسمات والتأمت شتى العناصر لتجعل من هذا المخـلوق آية فى الروعــة والبهاء !! [فــتبارك الله أحســن الخالقين] كل ذلك تنسيق العالم الظاهرى من الانسان ٠ ٠وكم يحار فن التجمل الحديث فى تنظيم الأسنان أو تحسين الأنف أو غير ذلك من المطالب اليسيرة ؟ وكم ينفقــون من الوقــت فى اتمامها ؟

فاذا جئنا الى العالم المـادى الداخلى للانســان ٠٠٠ من معدة وأحشاء وأمعاء ٠٠ فان التسوية فى هذا العالم أدق وأصعب ذلك أن تنسيقها يقتضى أن تعمل متعاونة متآخية ٠٠ من أجل راحة الانسان وصحته العامــة ٠٠٠ فمن ذا الذى يجعــل هذه الأجهزة الهضمية والتنفسية ٠٠ والمعدية وغيرها تتناسق فى العمل وتتآخى فى أداء الوظائف ؟ انه الله ٠ وليس أحد سواء ٠٠ الذى خلق هذا الجــهاز بيديه ٠٠ هو مهندســه الأعظم « ولله المثل الأعلى » يعــرف مايصلحــه ـ وما يجعله قــادراً على أداء وظائفــه ٠

---

(١) آية ٤ سورة التين ٠
(٢) آية ٣ سورة التغابن ٠

ان الأطباء ليتخصصون فى مساحات ضئيلة من جسم الانسان ٠٠ هذا طبيب عين ـ وذاك طبيب أنف ـ أو حنجرة ـ أو قلب ـ أو عقل ، وهكذا يوزعون الجسم البشرى المتكامل على تخصصاتهم ، ومع ضيق الحيز الذى تخصص فيه كل واحد منهم ٠ ٠ فان معرفتهم قاصرة ، وعلمهم ضعيف ٠ ٠ ولاسيما الأمراض الباطنية ـ فانها تخضع الاجتهادات فردية كثيراً ماتودى بحياة المريض ٠ ٠ فسبحان من وسع بالعلم البصير ظاهر الانسان وباطنه سبحانه وتعالى !!

واذا جئنا بعد ذلك الى العالم المعنوى من قوى مختلفة ـ وغرائز متباينة ـ وقدرات متصارعة ٠ ٠ وغير ذلك من العواطف والأحاسيس ٠ ٠ فان تسويتها تعنى التنسيق بينها حتى لا تتصارع داخل كيان الانسان ـ وهى لو تصارعت لدمرت كيان الانسان ٠ ٠ فتركيب الغرائز ، والعواطف ، والقوى الانسانية انما تم بحكمة بالغة ٠ ٠ والتأليف بينها ـ تأليفاً يجعل منها وحدة متناسقة تتجه الى غاية واحدة هى تحقيق السلام النفسى للمرء ٠ ٠ كل ذلك أيضا تسوية ٠ ٠

فاذا تصورنا افرازات الغدد وماتحدثه من تأثير فى السلوك والأخلاق ـ فان عملية التسوية والتناسق تبدو مهمة خطيرة للغاية ٠

كل ذلك الفيض من التصورات تعطيه كلمة واحدة فى الآية [فاذا سويته] ٠ ٠ وهو المشار اليه فى آية أخرى بقوله سبحانه [ونفس وما سواها] ٠ ٠ ٠

الانسان اذن جهاز معقد ـ مركب ـ يحوى فى داخله عوالم شتى ٠ ٠ ويخفى أسراراً عجيبة ٠ ٠ هو مجهول مهما يتقدم الطب ويتطور العلم ـ ماخفى من أمره أكثر مما ظهر ٠ ٠ أشبه

شيء بغابة كثيفة ظلماء لا يستطيع أحد أن يقتحمها ·· لأنها تعج بالخوافى والأسرار · ·

ولم يــزل لغـــز الحــياة حتى اليوم سرا عصـيا أمــام العلم الحديث ولو تدبر الانسان كيف خــلق ؟ ثم فــكر فى عدد الأجهزة التى تعمل فيه ظاهرة وخافية فى تناســق وانسجــام لهاله الأمر وغشـــيه ذهول كبير ! ! انه كنز خفى لا يبوح بسره لغير مولاه · · ولا يفتحه الا لخالقه · · وعندمــا ينفتـــح هذا الكنز فسوف يخرج الأعاجــيب · · ويصــنـع المعجــزات ولن ينفتح الا بمفتاح القــدره ·

وعندما نقف وقفة قصيرة عند قوله سبحانه [خالق بشراً] ونستوحى كلمة « خالق » نراها تبوح بأسرار دقيقــة · · ذلك لأننا سوف نسأل : كيف خلق ؟ وممَ خلق ؟ وكيف تطور ؟ وهى أسئلة لم يستطيع العلم الاجابة عليها رغم تطور المعرفة وتقدم الدراسات الانســانية · ·

ولقد أراحــنا الله سبحــانه ـ باعطاء المعرفــة التى تلائم عقولنا عن أصل الخلقة فقال : [خلق من ماء دافــق] · · وهنا يقف العلم بمجهره وأدواته ليبحث فى سر النطفــة · · فــيرى نفســه أمــام عالم يعـــج بالكائنات « الميكروســكوبية » وهى الحيوانات المنوية · · ملايين من هذه الكائنات الحية المتحركة الحوامة · · الساعية فى الدفعة الواحدة · · · ويمضى الطب فى بحوثه ليعرف كيف يمتزج حــيوان منوى ببويضــة الأنثى فى الرحم · · وكيف يتم الجذب · · أهو جذب كيمائى أم كهربى؟

ياسبحان الله · · حيوان واحد من بين الملايين السابحة فى النطفة ينجــذب الى بويضـــة المرأة فــيلج رأس الحــيوان فى البويضة تاركا الذنب··ومن هذا الامتزاج امتزاج نواة الحيوان

المنوى مع نواة البويضة يتم التخليق ٠٠وتنشأ صفات الوراثة فى تلك البويضة الملقحة ٠٠ وتستقر هذه البويضة فى [قرار مكين] لتأخذ أطوارها فتكون أولا نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظماً ٠٠ ثم يكتسى العظم باللحم ٠٠٠

يتم هذا التخليق فى الرحم ــ فى حجرة مجهزة تجهيزاً ربانياً ٠٠ لها خصائص مخاطية ــ وسوائل يتغذى منها الجنين ٠٠ ولها تكييف حرارى خاص يلائم حياة الجنين فلا تزيد درجة الحرارة عن ٣٧٪ مهما اختلفت الأجواء الخارجية ٠٠

وقد أخبرنا سبحانه أن مقر الجنين هو القرار المكين ــ ووضح ذلك بقوله : [هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء (١)] وبقوله : [يخلقكم فى بطون أمهاتكم (٢)] ٠

واذن فهذا التحديد فى مستقر الجنين ــ يجعلنا نقطع بفشل التخليق فى أنبوبة اختبار ٠٠ لأنها ليست المكان الملائم للجنين ٠٠ ولا يمكن أن تخلق بيئة صناعية !!

كل هذه الخواطر والمعانى تعطيها كلمة « انى خالق » ٠٠

ولقد أعطانا القرآن الكريم ــ معانى واضحة ــ فى هذا الموضوع ٠٠ كانت ومازالت وستظل مصدر العطاء للطب مهما يتفرع ، ويتطور ٠٠

ولقدوقف بعض الملاحدة موقف (٣) المعارضة من هذا التدرج الذى أثبته القرآن ٠٠ مثل دارون ومن خدع به ٠٠٠ ولكن الأدلة القاطعة حاصرتهم فانبهروا وانقطعوا ٠

---

(١) آية ٦ سورة آل عمران .
(٢) آية ٦ سورة الزمر .
(٣) سيأتى حيث مفصل مذهب دارون ــ وسنرد عليه ردا مقنعا .

أخبرنا القرآن عن النشأة الأولى ٠ ٠ وكيف بدىء خلق آدم من طين ٠ ٠ وكيف تدرج حتى صار خلقاً آخر ٠ ٠ حين نفخ الله فيه من روحه ٠ ٠

وهذا القدر من المعرفة ـ يرضى عقولنا ٠ ٠ بل انها لا تتسع الا لهذه الجرعة ٠ ٠

نفهم منه بأن الانسان مزدوج الفطرة ٠ ٠ قد ركب من الطين ـ ومن روح الله ٠ ٠ وذلك يجعله دائما فى جهاد واصب ليتسامى الى العلا ٠ ولا يهبط الى الطين ٠ ٠ وذلك يتم بارادته ٠ ٠ التى لا بد أن يستعملها فى هذا الصراع ٠ ٠ لأنها فى الحقيقة أساس انتصاره على الشهوات ولعل ازدواج فطرة الانسان ـ وتركيبها من شهوات النفس ـ وأشواق الروح ٠ ٠ هى التى رشحته لمقام الاستخلاف فى الأرض ٠ ٠ ٠ لانه بهذا الجهاد المستمر يصبح مناضلا ـ قوى الارادة ثقيل العبء ٠ ٠ جسيم التبعيه ٠٠ محتشداً دائماً وأبداً ضد شهوات نفسه الأمارة يعلن عليها الحرب لينتصر عليها فيصبح أهلا لتحمل الأمانة ـ وأهلا للاستخلاف فى الأرض ٠

لقد استحق الانسان التبجيل لأن الله نفخ فيه من روحه ـ فأضحى أهلا لتكريم ربه [ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقناهم تفضيلا (١)] وأصبح كل ماقى الكون مسخراً له [الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره (٢) ٠

[والأنعام خلقنها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون (٣)]

....

(١) آية ٧٠ سورة الاسراء .
(٢) آية ١٢ سورة الجاثية .
(٣) آية النحل .

[هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً (١)] [والأض وضعها للأنام (٢)] • هذا التمكين الهائل للانسان معناه أنه سيد الأرض • • كل مافيها سخر له ـ بقدرة الله تعالى ـ وقد أوتى كذلك • وهبة العلم بشئونها • والاستمتاع بطيباتها وليست الأرض وحدها بكل مافيها من عناصر ـ ولكن السموات أيضا مهيأة لمساعدة الانسان ليؤدى رسالة الاستخلاف ـ [هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم (٣)] • • •

ومع هذا التمكين الهائل للانسان فانه ضعيف تغلبه شهوته حيناً ويقعد به هواه ـ لهذا كان دائما فى حاجة الى العون الالهى ـ والمنهج الالهى ـ مع بذل الجهد فى مقاومة الشهوة ـ وكبح جماح الغريزة • • [قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها (٤)] •

فبعون الله وجهد الانسان « قد أفلح من زكاها » وبعون الله سبحانه [فألهمها فجورها وتقواها] •

ففينا نزعة قدرية تؤثر فى سلوكنا وأعمالنا ـ لكنها تشحذ الارادة ولا تعطلها • • لأن الله سبحانه لا يأخذ بيد الكسالى ولا الحالمين • • ولكنه يوفق من بذل الجهد وفوض أمره لربه [وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى (٥)] •

مالهم بـه من علم :

---

(١) آية ٢٩ البقرة
(٢) آية ١٠ سورة الرحمن •
(٣) آية ٢٩ سورة البقرة
(٤) آية ٩ ، ١٠ سورة الشمس •
(٥) آية ٤٠ ، ٤١ سورة النازعات •

عندما نستقى المعرفة عن كتاب الله ـ الذى خلق فسوى وقدر فهدى · · فاننا نحس بالراحة والطمأنينة تسرى فى كياننا · · لأنها معرفة صحيحة ـ وصادقة · · والقدر الذى منحه القرآن من هذه المعرفة فما يتصل بخلق الانسان ـ وتطور الجنين فى بطن أمه ـ قدر صالح · · ويمكن للعلم ـ الذى هو أيضا منحة من الله ـ أن يبحث ليصل الى مزيد من الأسرار التى تؤكد عظمة القدرة الالهية · ·

عندما يتجاوز العلم قدره ؟ ! :

من حق العلم أن يدرس ، وأن يصل الى نتائج تريح الانسانية · · ولكن ليس من حق العلم أن يتجاوز مجاله فان له منطقة معينة اذا تجاوزها أصبح هو الجهل بعينه ـ العلم يقتصر فى الدراسة على خصائص الأشياء والاستفادة منها ـ والانتفاع بها ـ لكنه لا يتخطى ذلك الى جوهر الأشياء وحقائقها ـ وانه كما أسلفنا ـ يوضح خصائص الكهرباء ـ وكيفية الانتفاع بها · ولكنه لا يتجاوز ذلك الى حقيقتها وجوهرها ـ وكذلك الضوء · ·

فاذا بحث الطب عن خصائص النطفة··وحالات التطور·· بعد أن ذكرهما القرآن ليجلو المزيد من الأسرار اتى تدعم الايمان فى نفوس الناس ·· فهذا مجاله !

أما اذا حاول أن يتعرف على أصل الحيوان المنوى ·· وجوهره ·· ومتى خلق ؟ وكيف خلق ؟ وما الطين الذى خلق منه آدم ؟·· فانه سيضرب فى المتاهات الضالة ·· وليس هذا مجاله !! ولكن الجهل بالله ـ والجحد لكتبه المنزلة يجعل بعض الملاحدة يخرجون على أصول المعرفة ـ ويتجاوزون حدهم فى البحث ·· فيأتون بعجائب ما أنزل الله بها من سلطان ·

دارون ومـذهبه :

ففى القرن التاسع عشر ظهرت النظرية الملحدة « لدارون » وهى المسماة « نظرية النشوء والارتقاء » ـ ولقد بسط هـــده النظرية فى كتابه « أصل الأنواع » الذى ألفــه سـنـة ١٨٥٩! م والانسان فى نظر « دارون » لم تخلقه القدرة القادرة ـ ولم تؤثر فى تطوره من نطفة الى علقة الى مضغة كما أخبر القرآن الكريم ـ كلا : وانما تم الخلق والتطور بطريقـة ميكانيكيـة ٠٠ لم تفتقـر الى مؤثر خـارجى ـ وزاد على ذلك فاعتبر الانسـان مترقيا عما دونه من الحيوان لم يزل يجتاز مرحلة بعد مرحلة فى رحلته النوعية التى اجتازت ألوفا من السنين ـ لقـد تطور من « أميبا » الى حيوانات أخذت تتدرج حتى وصلت الى أرقى سلالة حيوانيـة وهى القـرد ٠٠ ثم من قرد الى انسـان حتى بلغ كماله النوعى ٠٠ والعجيب أن هذه النظرية الخرقاء ـ قـد لاقت فى زمنهـا رواجا ـ فكانت حـديث النـاس فى المجتمعات والمعاهد والمدارس ٠٠ وكأنما كان العالم الأوروبى كله ظامئا الى الالحاد الذى يخلصه من سيطرة الكنيسة ـ فألقى بنفسه بين أحضان الكفر ٠

وكانت هذه النظرية اتجاها جديدا فى المسائل البشرية وما يتعلق بها ٠٠ قلبت تيار الفكر فى حينها وصرفت نظر الانسان عن الاستعلام والاستهداء فى مسائله ووسـائله وحولتـه عن السماء ٠٠ اذ لا دخل لها فى خلقه ولا فى تطـوره ٠٠ وانمـا تم الخلق بطريقة ميكانيكية ٠

واهتم الناس بطريقـة تحول الحيـوان الى انسـان ٠٠ وبالبحث عن الحلقة المفقودة بين القرد والانسان ٠٠ ان كانت هناك حلقة ٠٠ وأين هى هذه الحلقـــة ؟

وأصبح الانسان ـ وفقا لهذه النظرية ـ يعتقد أن الكون

سائر بغير عناية الهية ٠٠ وبغير أن تتدخل فيه قوة غير طبيعية ـ وأن لا علة فى الكون سوى السنن الطبيعية ٠٠ وأن الكائنات ترتقى من مراتب الحياة الأولى الى مراتبها العليا ميكانيكيا وآليا ٠ وبالطبيعة ونتيجة لنواميس طبيعية (تنازع البقاء ـ والبقاء للأصلح والانتخاب البيعى ٠ الذى هو سائر فى الكون) والذى سلك به الانسان رحلته النوعية حتى توصل الى انسان ناطق ذى احساس وشعور ٠

ولا شك أن هذه النظرية تناقض الدين ـ والعقل ـ فى المبادىء والغايات والنتائج الفكرية والخلقية ٠٠ بل ان هذه النظرية تعتبر دينا جديدا يهدم الدين السليم من الأساس ويحل محله ٠٠ انها المادية الملحدة فى أبشع صورها ٠٠ الانسان مخلوق بالطبيعة ٠٠ متدرج بالطبيعة الكون كله سائر بالطبيعة ٠٠ لا مجال لوجود اله ٠٠ الأديان خرافة ٠ العبادات لا قيمة لها ٠٠ وهكذا من تلك السخافات التى لا تعتبر جديدة فكم تعرض الدين لأمثالها ٠

أثر نظرية دارون فى المجتمع :

كان سيئا للغاية فلقد اضطرب لها رجال الدين المسيحى وحسبوا لها كل حساب وخافوا منها على مصير الدين فى أوربا٠

يقول الأستاذ « جود » (١) رئيس الفلسفة وعلم النفس فى جامعة لندن فى أحد كتبه : « يصعب علينا الآن أن ندرك تلك الدهشة والاستغراب الذى فاجأ أجدادنا ـ عندما ظهر كتاب أصل الأنواع لدارون ـ وعندما جاءت النتائج أن دارون أثبت أو يظن أنه أثبت ارتقاء الحيوان على هذا الكوكب (الأرض) لم يزل متواصلا مستمرا من ظهور الأميبا ـ وفرخ البحر ـ فى أشكاله الأولى الى أشكاله النهائية العليا ـ وهى أرق أشكال

(١) من كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوى ص ١٩٢

الحياة وأعلاها فلم يزل عمل الارتقاء هذا الى طورنا متواصلا غير منقطع » ٠

لقد كان الرد على دارون ـ بالمنطق والدليل ـ أمرا ممكنا ٠٠ ولكن يبدو أن أوربا كما أسلفت كانت تواقة للتخلص من دين الكنيسة !! كان يمكن أن يوجه لدارون وأتباعه هـذا السؤال الواضح ٠٠ ما الميكانيكية التى تخلق ؟ وما الطبيعة التى تؤثر؟ أهما عدم أم وجود ؟ من أوجدهما ؟ ومن أوجد الموجد ؟٠٠ ثم ما هذه الرحلة النوعية التى ما زلنا نقطع شوطها؟أتصعد فى الرحلة النوعيـــة الى أرقى مما نحن عليـه ؟ ومتى ؟ وكيف تجاوزنا « الشمبازى » فأصبحنا أناسى ؟٠٠ كان من الممكن أن نرد من زوايا أخرى وأخرى ٠٠ وليس ذلك عسيرا ٠٠ ولكنه سهل للغاية ولكن يبدو أن اقبال الجمهور والدهماء على هذه النظرية رغم ما فيها من ضعف ونقص من الوجهة المنطقية والعلميـــة ـ جعـل الكنيسة تركع على قدميها وتستسلم طالبة الغفـران وممن ؟ من دارون وأتباعه !! وبدلا من أن ترد على النظرية الملحدة التى تلغى وجودها انطلقت مع التيـــار الشعبى لأنه كان أعتى من مقاومتها فكان استسلام الكنيسة بلاء أكبر ـ جعل النظريـــة تســود وتسيطر ـ وكان الناس يعتقــدون أن تخلصـــهم من الكنيسة فى ذاته كسب رائع ولهذا أمعنوا فى التحيز لدارون ٠٠ ظروف موضوعية ٠٠ كانت مهيأة أدت الى رواج هــذا الكذب الصراح ومن النفاق المؤلم حقا ـ أن نرى الكنيسة الانجليزية بدلا من أن تحارب النظرية وتفندها علميـــا ـ نراها تسف فى تملق دارون ـ وتكافئه بعد موتـــه فتأمر بدفنـــه فى محل دفن الرجال الدينيين (ويست منستراييى) ٠٠

ولم يكن تأثير هذه النظرية فى المجال الدينى فحسب ولكنه كان (١) فى الأخلاق وفى السياسة والحضارة والأدب ظهر أولا

(١) عن كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين بتصرف .

فى نزعات شاذة خبيثة هى نزعات الرجوع الى الفطرة عاريا حرا طليقا من كل قيد وفى تعيين المثل الكامل للانسان ــ وفى جميع الأعمال والأخلاق اذ أصبحت لا تصدر الا على اعتبار أن الانسان فرد ــ وفى فساد العلاقات الجنسية ــ والحياة المنزلية ــ التى يعبر عنها مستر شبرد أحد علماء الاجتماع الانجليز بقوله : لقد ظهر فى انجلترا جيل من الناس كجهل الحياة المنزلية جهلا باتا ولا يعرف غير حياة القطعان والبهائم » ٠

موجات من الالحاد :

لم يكن (دارون) وحده مبتكر الالحاد ٠٠ ولكن الالحاد سلسلة طويلة ممتدة ٠٠ لقد سبقه كثير ــ وجاء معه كثير ٠٠ وجاء بعده كثير !!

وقانون الحياة الخالد أن يتصارع الحق مع الباطل ــ وأن يصطدم الايمان بالكفر ــ وأن يتعارك الخير مع الشر فى جولات متتابعة ٠٠ وأحقاب متوالية ٠٠ لا يلبث الباطل بعدها أن يخر صريعا مجندلا تصديقا لقول الحق تبارك وتعالى : [بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق (١)] وقوله سبحانه: [فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض (٢)] هذا هو القانون الالهى ٠٠ لذا فان مصير الالحاد مهدد ٠٠ مهما يثر من ضجة ــ ويحدث من صخب ــ ويجند من شياطين ٠٠ انهم كرغوة منتفشة ــ لا تلبث أن تنفثىء وتذهب !!

ولقد جاء بعد دارون بقليل (١٨١٨ ــ ١٨٨٣) م كارل ماركس ورفيقه أنجلز كمامر ٠٠ ليجعلا من المادة قانونا

---

(١) آية ١٨ سورة الأنبياء ٠
(٢) آية ١٧ سورة الرعد ٠

للحياة والأحياء ـ ولينكرا وجود الخالق الأعظم وليفسرا التاريخ تفسيرا ماديا ٠٠ وليجعلا من الانسان شيئا تافها تصنع له الآلة أخلاقه وقيمه وأن الحضارة ـ والحياة كلها تتبع النظام الاقتصادى ٠٠ وأن الدين فكر رجعى يجب نبذه ـ وأن العلاقات الاجتماعية والجنسية حرة ٠٠ وهكذا لم يقم هذان الرجلان وزنا لكرامة الانسان ولا لعلاقته بربه ٠٠ وجحدا جميع النواحى البشرية الأخرى ٠٠ غير عامل الاقتصاد ٠٠ وأكدا أن الحروب والثورات فى التاريخ ليست الا ثأرا لبطن من بطن فى سبيل النظام الاقتصادى والانتاج الصناعى ٠٠

يا حسرة على العباد !!

فهذا الانسان الذى خلقه ربه بيديه ـ ونفخ فيه من روحه ـ ووضع تاج الكرامة على مفرقه وأطلق يده فى الأرض يبنيها بالعلم ـ ويملأها بالنشاط والسعى ـ ويقيم فيها صروح الحضارات ٠٠ هذا الانسان الرفيعَ القدر العظيم المنزلة يأبى شياطين الالحاد الا أن يقطعوه عن ربه ـ ويجعلوا منه حيوانا يعيش لبطنه ـ تستعبده الآلة ٠٠ وينشئوا له الدساتير التى تضلل سعيه فى الحياة ٠٠ وتأبى الطاقة الحيوية لهذا الانسان أن تخضع لغير منهج الله ٠٠

الكنيسة تساعد على الالحاد :

ان أزمة الضمير الانسانى ـ وشقوة الحياة ـ وضلال الفكر قد بلغت حدا كبيرا ـ عندما واجه الناس تلك المذاهب٠ ولم تكن الكنيسة الأروبية يومذاك قادرة على دحض الشبهات وانارة السبيل واضاءة الوجدان بنور المعرفة ٠٠ فقد تورطت فى محاربة العلم ـ واضطهاد الفكر ـ وتقتيل الأحرار ظنا منها أن ذلك يزيد فى مكانتها !!

ويااليتها كانت تتبنى معرفة صحيحة ـ أو علمـا هاديا ـ وانما احتكرت معرفة سقيمة وابتكرت وسائل ماأنزل الله بها من سلطان · ولهذا فان المجتمع الأوربى كان قد ضاق ذرعا بها وكان متطلعا الى معرفة أنقى وعلم أنفع · · فلم يكد يقـع على نظرية دارون وأشباهها حتى اعتنقها وصفق لها · · لقد كانت الكنيسة بموقفها الجامد عاملا مساعدا على الالحاد · · وليتها اقتصرت على هذا وانما جارت التيار الشعبى فصافحت الالحاد وكرمت « دارون » على النحـو الذى وضحناه ـ ولقـد صـمم الأوربيون من جراء ذلك أن يعتمدوا على العقل وحده بعيدا عن أى دين · · لأن الدين ـ كما صـورته الكنيسة ـ عـدو العلم والحرية والابتكار تلك كانت مأساة الدين فى ذلك الوقت ولكن أى دين ؟ !

انه دين الكنيسـة ـ وليس الدين الصحـيح فى صـيغته الأصيلة ـ ونقائه السماوى ! ! فلم يكن الالحاد والكنود يوماً ما ـ فى مواجهة دين صحيح · · وانما فى مواجهة دين لعبت به عقول القسس ـ وحرفت كتبه المقدسة ـ احتكرت معارفـه ـ واصطنعت الكهانة واتجرت بصـكوك الغفران · فهل هذه هى المسيحية ؟ !

ولقـد انطلق الفكر الأوربى مزهـوا تياها بمـا أحـرز من انتصار على الكنيسة ـ وظن أنه يستطيع أن يبنى حضـارته بعيدا عن دين صحيح · · يسبغ عليها الكرامة ـ ويحفظها من الانزلاق ويعصمها من الهبوط والاسفاف · · لأن الالحـاد هو الأب الطبيـعى لكل المسـاوىء والآفات الحضـارية !! · · · ورغم ذلك فقد انطلقت الحضـارة الغربية من نقطـة الالحـاد لا تلوى على شىء · · ووصلت بهذا الى قمة التفوق المـادى·

وبقى أنها مهما بلغت فى هذا السبق الأرعن لا يمـكن أن تستمر · لأنها ضد طبيعة الانسان وفطرته · · فاذا كانت قد

أحرزت السبق فى مضمار المـاده فأين ومضات الروح ؟ ! وهل يستغنى الانسـان بالمـادة عن الروح ؟ هل تسـتطيع المـادة (غربية أم شرقية) أن تصنع له أخلاقه ــ وتملأ قلبه بالثقة ــ وتؤكد صلته بربه ؟ ! وهل تستطيع أن تريحه من هموم قلبه وشقاء روحه وقلق وجدانه وجدب عاطفته ؟ !

هل تنشىء له السعادة التى يفتقدها فلا يجدها ؟

هل تستطيع المـادة ــ أن تبنى كيانه من الداخل ــ وهل تقدم له المنهج الذى يساعده على الازدهار ؟ وهل يستطيع أن يحيا الانسان فى ظل المـادة بعقل سليم وأعصاب سليمة ونفس مبرأة عن العقد والأمراض ٠ وهل تعصمه المـادة من الانحـدار الحيوانى الرهيب الذى تورط فيه فى الشرق والغـرب فأصـبح حيوانا ينزو ويعربـد ؟ ! لعمرى : ان ظواهر الشـذوذ والرفض والتمزق النفسى التى تجتاح العالم الآن انمـا هى ثمرة خبيثة لتلك الفلسفات المـادية ٠ ٠ لأن الناس قـد ذهلوا فى ظلها عن مبررات وجودهم ــ فلم يعودوا يحسون بالأمن أوالسكينة ٠ ٠ بل بالخـوف والضياع !!

وعلى الرغم من أن العالم الغربى قـد نجح فى ايجـاد عالم صـناعى مريح فيـه كل مايفتقـر اليه الانسـان المتحضر من الكماليات الا أن القوم هناك فى غاية القلق والتوتر ٠ ٠ تغمرهم المشـكلات الحادة ــ وتواجههـم المتـاعب القاسية ــ وكأنمـا الانسان فى ظل هـذه الحضارة قد اعتراه الملل وسئم الأجـواء الصناعية المـادية وتطلع الى لون آخر من الحضـارة تغـذى عواطفه وتملأ قلبه بالأمن والسكينة ٠

يقول بعض المفكرين (١) المسـلمين المعاصرين : « كنت فى

---

(١) هو الأستاذ المرحوم الدكتور مصطفى السباعى فى كتابه من روائع حضارتنا ص ١٧

فرنسا وقد أتيح لى أن أتحدث الى شبابها المسلم ـ وقد رأيت يوما رجلا مسلما يتحدث الى لفيف من الشباب الفرنسى المسلم عن عظمة الاسلام ومسايرته للتطور والتقدم واسترسل فى ذلك كأنه يتحدث فى بلد عربى يتوق الى القوة والمجد فأخذ يؤكد أن الاسلام يدعو الى القوة وصنع الدبابات والطائرات الخ ٠

فقال أحد هؤلاء الشباب : ياأخى نحن انما هربنا من الحضارة الغربية الى الاسلام لأنها أتلفت أعصابنا بالحروب وأسلحتها وأفقدتنا انسانيتنا حين أماتت أرواحنا وأحيت شهواتنا بماديتها ـ فحدثنا عن روحانية الاسلام الذى وجدنا فيه كرامتنا الانسانية واطمئناننا الروحى !! » ٠

هكذا نطالع فى كلمة الشاب المسلم الفرنسى سوءات الحضارة المادية التى فجرت فى نفوسهم كل ينابيع الألم والحيرة والاضطراب والضياع ، وأنهم قد سئموها ، وسئموا معها جنون المادة وليس غير الايمان بالله ـ يعصم من هذا القنوط ـ ويرفع من هذا التبذل ـ ويعيد على الانسان كرامته السليبة فى ظل حضارة القطيع وشريعة الغاب ٠

وعندما يتقدم الاسلام بمنهجه المتكامل ـ لبناء الانسان ـ فانه يعيد الاتزان الى الحياة التى أوشكت أن تتهاوى وتسقط فوق رؤس أصحابها ٠ ٠ انه يتعامل مع الانسان على أنه مادة وروح كما خلقه ربه ، ويلائم بين هذين العنصرين فى كيانه ملاءمة دقيقة لا يترك أحدهما يطغى على الآخر ، فلا يسمح للمادية أن تعربد ـ ولا للروح أن تقود الى الرهبنة ، وانما يقدم لهما معا من الغذاء ما يضمن تناسقهما لقيودا خطا الانسان على درب الحياة فى اتزان واعتدال !!

واقع مؤسف :

ومن خلال العرض السـابق ـ نتبين الواقـع المؤلم المرير الذى يعيشه العالم شرقـية وغربية فى جـو الحضارة المـادية الصناعية ، مهما بدا مزدهراً نامياً !! ومهما وصل فى القـوة الى أقـصى غاياتها ، لأن هذه الظواهـر السطحـية ٠٠ سـبيل الانتحار ـ وطريق الفناء ٠ فلا ينبغى أن تخـدعنا عن جـوهر الحقيقـة ٠

ان الحضارة المـادية ـ مهما يبلغ حجمها ـ أشـبه شىء بجسم ضخم وهيكل فخم ٠٠ ولكنه يعانى أمراضا باطنية لا تبدو أمام النظرة العجلى ـ وماذا تفيد بدانة الانسان اذا كان قلبه مصابا بالأوجاع والأمراض ـ وروحه ظامئة الى الرى ـ وواقعه شرور وآلام ؟! نقول ذلك لمن يخدعهم المظهر عن الجوهر ـ وننصح لكل واحد من هؤلاء بأن يردد قول المتنبى :

أعيـذها نظـرات منـك صـادقة

أن تحسب الشـحم فيمن شحمـه ورم

والحق أن الحضارة المـادية جسم متورم يبدو ضخما وان كان فى واقع الأمر مصـابا بشتى الأمراض والعلل ـ ان هـذه الحضارة قد أفلست فعلا فى خلق مجتمع أفضل ـ تظله السعادة ـ ويسوده الاستقرار ـ وتصان فيه كرامة الانسان ٠

وما نحب أن نمضى مع تيار الاباحية الذى يجتاح الفتيان والفتيات فى جو هذه الحضارات الموبوءة ـ فذاك شىء يطول ، وما تزال الصحف ووسـائل الاعلام تنقـل الينـا الكثـير عن فلسفاتهم الشاذة ـ وحياتهم الحيوانية ـ ووجودهم الضائع ـ وجنوحهم الى الخمر والمخدر والهلوسـة ـ واحتجاجهـم على السلطـة ٠

ولو تتبعنا الانعكاسات السيئة التى ترسلها هذه الحضارة لفاتنا الاستقصاء ٠٠ وتكفى وسائل الدمار والتخريب ـ وكيف تستعمل فى ترويع الأمن ، والاعتداء على كرامة الشعوب ٠ يكفى ما أورثته هذه الحضارة أصحابها من غرور وصلف ، فقدت معه التوازن ، وتحيزت للظلم ، وضربت حركات الايمان فى كل مكان !!

وتكفى جرائم الصهيونية ، وما تصنعه من أساليب لتحقيق آمالها العنصرية ٠٠ وما تجده من أمريكا من عون مادى وأدبى ضد الاسلام ، وضد الشعوب الحرة الضعيفة ٠

لقد أفلست هذه الحضارات تحت مطارق الفطرة السليمة ، التى تأبى أن تزيف خصائصها ، وتمتهن كرامتها فى ظل حضارة كافرة فاجرة لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر ٠٠

والانسان فى الوسط الأوربى قلق أشد القلق ، حائر ، مضطرب ، خائف ، ظامىء الروح ٠٠ مستهلك فى الانتاج ، مستعبد للآلة ، منقطع الآصرة عن السماء ٠٠ وهو فى المجتمع الشيوعى أشد قلقا وعبودية فهل هذه حياة ؟!

ان حياة التدين ، والايمان مع البؤس والكدح والشظف لأشرف وأجمل من تلك الحياة المادية ٠٠ حسب الفقير البائس ٠ أنه مع ايمانه ومع ربه ومع دينه ٠٠ ومع كرامته ، ومع الأمل فى يوم لا ظلم فيه ولا بخس ولا ضياع ٠٠ كل ذلك يعكس على وجوده طمأنينة الروح ، وسكن القلب ، وهدوء المشاعر ٠٠ وحياة كهذه لا قلق فيها ـ ولا شرود ٠٠ وكذب دارون ، وكذب ماركس ، وكذب الملحدون جميعا ، وفى زعمهم أن الانسان صناعة ميكانيكية وأن الكون كذلك ، والحياة هكذا وما الميكانيكية هذه ؟ أليست حركة مؤثرة ؟ من أوجد هذه الحركة ودفعها

لتعمل ؟ من أوجـد الأميبا ؟ ومن طورها ؟ حتى صـارت بشراً سويا ؟! نقول لهم هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ ثم لمـاذا يساء فهم الانسان الى هذا الحد ! فيزعم بأنه قرد فى الأصـل ارتقى حتى صار انسانا ! وتهدر خصائصه ، وتمتهن كرامته. أكل ما هنالك هو الثورة على الكنيسة واصطناع الالحاد بالحق وبالباطل ! للافلات من رقها !

لكن ما ذنب الاسلام ؟

وهو يجعل العلم جزءاً من عقيدته .. ويضفى على العلماء هالة تكريم .. وينظمهم فى سلك واحد مع الملائكة ، ومع الله خالق القوى والقدر [شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط (١)] .

ما ذنب الاسلام يساء فهمه ــ وتجحد سماته ــ وتحارب شريعته الى هذا الحـــد ؟!

الم يفتـح الطريق أمـام العقـل البشرى ليبحث ويرتاد ويصعد فى الجو ويجوب الآفاق ؟

ألم يخاطب العقـل البشرى فى نحو خمسمائـة وثـلاث وثمانين آيـة يحركه ويستثـيره ليكتشف ويعمل ؟ ما ذنب القرآن الكريم .. وهو كتا بالحياة الخالد ــ ومعجزة الابداع الحضارى ؟

لمـاذا تنعكس سوءات الكنيسة الغربية على الاسـلام ؟ فيقال : ان الأديان تحارب العلم .. فى حين أن العـلم لم يجـد متنفسه الطلق الا فى ظل الاسلام .. والا فى عقول أبنـائه ..

---

(١) آية ١٨ سورة آل عمران .

وفى رحاب حياتهم المباركة ·· حيث بنوا معه وبه حضارة من أروع ما عرفت الدنيا من حضارات ·· نهل منها الغرب الظامىء فحقق الشكل ونسى المضمون ·

الحق أن الاسلام برىء من هذه التهمة ــ وأنــه لا ضمان لاستقرار العيش الا أن يمكن له فى قيادة الحياة··لأنه روحها·· وحركتها ــ وانطلاقتها المباركة على عين الله ·

واذا كان الفصل بين الدين والدولة قد ساد فى عصور الجهل والانحطاط ·· فانه انعكاس سيىء لحضارة الغرب المــادية التى لم تجد فى دين الكنيسة الغربيــة ما يقود الحيــاة أو يوجــه مسيرتها ·· لكن الاسلام قاد الحياة فعلا ــ وعاشت البشريــة تجربته الحضارية ــ وسعدت بأجمل حياة وبأروع حضــارة عرفها التــاريخ ·

من حق الاسلام على المنصفين من مفكرى الشرق والغــرب أن ينظروا فى كتابه ·· وأن يتعرفوا الى نظامه ــ ليتأكدوا أنه نظام حياة ــ ومنهج عبادة ــ وأسلوب توجيه وقيادة ·· وما من آية فى كتاب الله العزيز الا وهى تطالب بتطبيقها فى الحياة·

ومن الاجحاف الظالم للناس ــ كل الناس ــ أن يحال بين القرآن وبين قيــادة الحيــاة لأنهم لن يجــدوا دستورا يحترم كرامتهم ــ ويوقظ ضمائرهم ــ ويحيى موات قلوبهم كما يجدون ذلك فيه ·· وكفى ما أصاب الحياة من ضلال وشرود ·

ويأبى الانسان ــ وهو صنعة الله المعجزة ــ أن ينقاد لغير القرآن أو أن تخضع طاقته الحيوية الا لتوجيهه وهداه ·

ان هذا الانسان ــ رغم ما لحق به من تحقير وامتهان ــ فى ظل الحضارات المــادية ·· هو قطب الوجود كله كمــا أراد له

ربه ، هو الذى يحرك الآلة ويصنعها ويسيطر عليها ـ ويستغلها لصالحه ـ ويستثمر الوجود كله باذن ربه ـ ولا يتصور بحال أن يصنع الآلة ثم يعيدها ـ أو أن ينشىء الحضارة ثم يخضع لها !!

انه صنعة الله العلى القدير ـ لا يخضع الا لجلال وجهه ـ ولا يجد أنس روحه الا فى عبادته والانقياد لأمره ـ والاستسلام لشرعه ـ والعمل بكتابه ·· فهو عبد لربه فقط ـ ولكنه بعد ذلك سيد لكل عناصر الحياة ·· وعبوديته لله ·· هى مصدر التحرر الهائل من كل ما سواه وبهذا يمضى مرفوع الجبهة عزيز النفس صامد الروح ·

ومحال أن يجد السعادة الا فى منهج ربه ·· الذى خلقه فسواه واطلع على سره ونجواه ·

ومن ثم فهو يرفض كل منهج يقوم على اعتساف فطرته ، وانتهاك حرمته ، وابتذال كرامته ـ يريد الانسان ـ حضارة ربانية تزدهر فى رحاب الله خالق الانسان ومنزل القرآن وبارىء الكون كله ·· يريد أن يستقى من نبع الله الطهور ووردة العذب لتزدهر روحه ـ ويزداد طموحه وتشتعل مواهبه ·· وتزكو الحياة بجهاده النبيل ·

ومن ذا الذى يقدر على اشعال مواهب الانسان ، وانعاش عواطفه الا خالقه ومولاه ؟

ان جهلنا مطبق كما مر بخصائص أنفسنا ، وأرواحنا ، وطبيعة حياتنا ـ وعمل الأجهزة المختلفة فينا ·· واذا كان كذلك فكيف نضع لأنفسنا منهجا فى الحياة ؟

ان الجهل لا ينتج الا الجهل ـ والضلال لا ينشىء الا الضلال

فكيف تطمئن البشرية كلها الى قوانين من وضع البشر ـ والى دساتير من صنع عقولهم الضعيفة ·

ان الحضارات المادية فى الشرق والغرب قامت على أساس مناهج بشرية تدعى أنها تستطيع أن تلبى حاجات الانسان ·· وتصنع حياته ·· وكانت نتيجتها ما تحدثنا عنه من شقاء وضلال ·· لأنها حضارات قامت على جهل مطبق بطبيعتها ـ وبحجمنا ـ وبعواطفنا وبخصائصنا ·· لهذا يحس الذين يعيشون فى ظلها بأنهم غرباء ··

وصدق الله العظيم اذ يقول : [وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله (١)] · وعندما نضع لأنفسنا منهجا ـ فلن يكون كافيا يوماً من الايام ولا مستوعبا لآمالنا ـ ولا مطردا مع ما تأتى به الحياة ·· وهذا هو ما حدث فعلا ـ مما اضطر معه الماديون ـ أن يدخلوا تعديلات كثيرة فى مذاهبهم ومناهجهم ·· وصادروا الملكية ـ ثم عادوا فأباحوها ـ وألغوا الطبقات ثم أقروها ـ وهكذا سيحتاج التعديل كل يوم الى تعديل وصدق الله العظيم اذ يقول : [ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون (٢)] ·

يقول الدكتور ألكسيس كاريل الأمريكى فى كتابه «الانسان ذلك المجهول» :

« ان الانسان بصفة خاصة ـ لا تزال علومه فى المرحلة الوصفية ـ لأنه كل لا يتجزأ وفى غاية التعقيد ومن غير الميسور الحصول على عرض بسيط له وليست هناك طريقة لفهمه فى

(١) آية ١٥٣ سورة الانعام .
(٢) آية ١٨ سورة الجاثية .

مجموعه أو فى أجزائه فى وقت واحد كما لا توجد طريقة لفهم علاقاته بالعالم الخارجى » ٠

هكذا ـ يرى هذا العالم الطبيب ـ أن الانسان كائن معقد ـ ثم يصل العلم من اكتشاف أمره الى شىء يذكر ٠ ٠ وهو يؤكد أن فى شريعته ـ لافى سواها الضمان الأكيد لانتظام سير الانسان وتحقيق ذاته لأنه وحده هو خالقها ٠

وذلك يقتضى أن يلتصق الانسان به ـ وأن يقترب دائما منه ـ وأن يلتجىء الى حماه وأن يهتدى بمنهجه فى الحياة لأن الأمر كما يقول كاريل : [أن جهلنا مطبق بأنفسنا] ـ ان هذا المنهج هو الذى حرر الحياة كلها من الخوف ومن الجبروت ورد الى العقل الانسانى كرامته ٠ ٠ ٠ وجعل الدنيا كلها تسبح فى فيض من الضياء ٠

ومن هذا المعين الرائق ـ أخذت أوربا حضارتها ـ يقول دوهرنج :

« ان آراء روجر بيكون أصدق وأوضح من آراء سميه المشهور (فرنسيس بيكون) ٠

ومن أين استقى روجر بيكون ماحصله فى العلوم ؟ من الجامعات الاسلامية فى الأندلس والقسم الخامس الذى خصصه للبحث فى البصريات هو فى حقيقة الأمر نسخة من كتاب المناظر لابن الهيثم ـ وكتاب بيكون شاهد ناطق على تأثره بابن حزم»

ويقول بريفولت فى كتابه « بناء الانسانية » :

« ان روجر بيكون درس اللغة العربية والعلم العربى فى مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه العرب فى الأندلس ـ وليس

لروجر بيكون ولا لسميه الذى جاء بعـده الحـق فى أن ينسب اليهما الفضل فى ابتكـار المنهج التجريبى ـ فـلم يكن روجـر بيكون الا رسولا من رسـل العلم والمنهج الاسلاميين الى أوربا المسيحية وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العـرب هو الطريـق الوحيـد للمعرفة الحقة ـ والمناقشات التى دارت حـول واضـعى المنهج التجـريبى هى طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأروبية ـ وقد كان منهج العرب التجريبى فى عصر بيكون قد انتشر انتشاراً واسعا وانكب الناس فى لهف على تحصيله فى ربوع أوربا » ٠

ثم يقول : [ليس ثمت ناحية من نواحى الازدهار الأوربى الا ويمكن ارجاعها الى مؤثرات الثقافة الاسلامية بصورة قاطعة فان هذه المؤثرات توجد أوضح ماتكون فى نشأة تلك الطاقة التى تكون ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة وفى المصدر القوى لازدهاره أى فى العلوم الطبيعية ـ وفى روح البحث العلمى ـ ان علمنا يدين للعرب بوجود ، نفسه لأن العالم القديم لم يكن فيه للعلم وجود] ٠

هذا هو تأثير الحضـارة القـرآنية فى حـياة القـوم ، وفى أقطارهم ، وفى مجتمعاتهم وهو تأثير لاندعيه ـ وانما نستمـده من اعترافـاتهم ٠ ٠وماخـفى كان أعظم فهل يتنبه المسـلمون لأصول حضارتهم ؟

وأخيراً : هذا هو الانسان من وجهة النظر القـرآنية ٠ ٠ أكرم عناصر الكون على الله فهل يستطيع أن يتلمس السبيل الى سعادة نفسه الا بمنهج ربـه ؟! ٠

الكون سـاحة لنشـاط الانسان :

نعم ان الانسان جزء من الوجود الكبير ـ وما الكون كله الا

ساحة لنشاطه ـ ومجال لحركته ـ وميدان لحضارته ـ وبستان يزرع فيه أنضر الورود ٠٠ يستمد العون من ربه ـ ويدين له بالعبودية ـ ثم يتحرر بعد ذلك من عبادة ما سواه ـ يتحرر من استذلال النظم ـ والقوانين والأشخاص والشهوات وعبادة الشيطان انه سيد الكون كله وليس عبداً فقط الا لله الواحد القهار ٠

من أجل الانسان مهد الله الأرض لكي يعيش عليها ـ ويمشى فى مناكبها ويستثمر خيرها « ألم نجعل الأض مهاداً (١)» « وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعاً منه (٢) » ٠

« هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً (٣) » وقال سبحانه مؤكداً هذه الحقيقة :

« الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار (٤) » وقال سبحانه : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ـ وأنزلنا الحديد فيه بأس سديد ومنافع للناس (٥) » ٠

وقال عز من قائل : « والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين (٦) » ٠

---

(١) آية ٦ سورة النبأ ٠ (٢) آية ١٣ سورة الجاثية ٠
(٣) آية ٢٩ سورة البقرة ٠
(٤) آيات ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ سورة ابراهيم ٠
(٥) آية ٢٥ سورة الحديد ٠ (٦) آية ١٢ ، ١٣ الزخرف ٠

هكذا من خلال هذه الآيات الكريمات ـ وماأكثرها فى هذا المقام ـ يمهد الله للانسان أرضه بمنه وكرمه ـ ولو شاء لجعلها وعرة صعبة لا تصلح لنشاط الانسان ـ ويهيىء له وسائل الانتفاع بها ٠ والاستفادة بعناصرها ٠ ٠ ويذلل كل ذلك من أجله ويخضعه لمشيئته ـ بحيث يسيطر عليه بقوانين العلم ـ ونواميس الحياة ـ ويبحث عن الوسائل التى تهيىء له ذلك ٠ ٠ فالله قد لفت نظر الانسان الى وظيفته الأصيلة ـ وخلق الله (المادة الخام) والحيوانات والكائنات ليكون سيدها والمهيمن عليها ٠ ٠ وهو مأمور حين يخضعها لمشيئة أن يظل موصولا به ذاكراً أنعمه عليه ـ فما كان لعقله أن يهتدى الى ذلك لولا تيسير الله ٠ ٠ نعم لولا عملية التسخير والتذليل ، وامكانية العمل ، وقابلية الكفاح لما توصل الانسان الى ماتوصل اليه من علوم ومخترعات ٠ ٠ ولو شاء لجعل كل هذه العناصر معاندة لطبيعة الانسان لا تخضع له ولا تنقاد ٠ ٠ ٠ وكأنما يذكرنا ربنا بذلك حتى لا نغتر بما نحرز من نجاح ، أو نحقق من آمال ، أو نبنى من حضارات ٠ ٠ وحتى لا يكون للشيطان علينا سبيل ، ومهما يحقق الانسان من نصر فانه مفتقر أبداً الى ربه ٠ ٠ ٠ مهما ذلل قوى الطبيعة ـ وحول مجرى المياه ـ وبنى السدود العالية ٠ وشق الترع والمصارف ـ ومهد السبل والطرق وحطم الذرة ، وفجرها واخترع القنبلة والصاروخ ٠ !! لأن دوره فى ذلك دور ثانوى ٠ ٠ أما جوهر الموضوع فهو من الله والى الله ٠ ٠ ٠ لأن عقولنا التى تمكننا من ذلك هى الاخرى منحة من الله ٠ ٠

نعم ٠ ٠ ماأحرى أن يهتف الانسان كلما أتيح له أن ينتفع بثمرات جهده : « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين »

وبهذا ترد الأمور الى بارئها ومصدرها ومنشئها الحقيقى ٠ ٠ ويظل الانسان على تواضعه فلا يقتله غرور

العظمة ـ ولا تجتاحه مركبات النقص ٠٠ ولا يعبد حضارة صنعها بيديه !! وبهذا الاعتراف الكبير يدور القدر فى بناء الحضارات تتناسق الماديات مع الروحيات وتنسجم مع قانون التسخير الالهى ٠٠

وما أروع الايحاء الذى تعطيه هذه الآية « لتستووا على ظهوره » فتأمل معى ماذا تعنى ؟ انها تحدد رسالة الانسان فى الحياة ٠٠ رسالته أن يجد فى العمل ، ويواصل الكفاح ليتمكن السيطرة على عناصر الكون فيحقق السيادة لنفسه ليكون جديراً بالاستخلاف فى الأرض وذلك يستدعى شحذ المواهب ـ وتحريك القدرات ـ ليستعلى على عناصر الكون « لتستووا على ظهوره » هذا دور الانسان ٠٠ جهاد وعمل وعرق ٠٠ ومحاولة للبناء وبذل للجهد ٠٠ وكل ذلك فى كون ممهد ـ وعالم مهيأ ـ وعناصر موجودة ٠٠ لم يكلف بخلق عنصر منها ـ ولا بمحاولة فوق طاقته ٠٠ فسبحان من جعل الأرض مسرحاً لنشاط الانسان ، وقوله سبحانه « ثم تذكروا نعمة ربكم » تقرير لحقيقة هائلة لها أهميتها فى حفظ توازن الانسان تلك الحقيقة ببساطة أن كل المنجزات الحضارية لهذا الانسان انما هى باقدار الله وتسخيره فواجب أن يذكر ذلك ولا ينساه ٠٠ وبهدا تقترن الروحيات « ذكر الله » بالماديات التى هى انجازات الانسان ٠٠٠ فلا يصاب بعمى البصيرة ويذهل عن ربه فتذهب حضارته مع الريح ٠

وذكر الله من ناحية ثانية ٠٠٠ وسيلة لطرد الشيطان واحباط سعيه ـ لأن الشيطان للانسان عدو مبين ٠٠٠ فقد يزين له الغرور ـ أو يسول له عبادة المادة كما فعل بغيره من رواد الضلال ٠٠ وقوله « وما كنا له مقرنين » استكمال للحقيقة الكبرى التى يجريها الانسان على لسانه ـ ويصدقها بقلبه ليتحصن ظاهراً وباطناً من كيد الشيطان وكأنما قوله سبحانه

« ثم تذكــروا نعمــة ربكم » تعنى استحضــار القــلب وامتلاء الوجدان وقــوله : « وتقولوا سبحــان الذى الخ » تعنى نطــق اللسان ـ والاعتراف بصريح المقال ٠٠ ليكون ذلك أدعى لصلاح شأن هذا الانسان ٠٠.

والآية بمنطقها وايحائها ـ توجه كل الحضارات المــادية وجهة روحــية ٠٠ لأنها تعالج فى الانســان نوازع الغــرور ـ وخداع النفس ـ بعــد أن يمتلك ناصية المــادة ويسيطر عليها وبما أنه عنصر كريم على ربه فان الآية توصى ببقــاء جــوهره نقياً مصوناً من كل صلف وغرور ٠٠ ولذا اتجهت اليه تكفكف من غروره وتكبح من جماحه وترده الى القصــد والاعتدال ٠٠ وذلك حين تصيح بالانسان أن يظل مع الحضارة معتصماً بربه ذاكراً اياه لأنه ماكان ليستطيع تذليل عناصر الكون ـ فضــلا عن أن يخــلقها ـ ولا أن يطوعها لارادته لولا قــدرة الله وفضله وبكل هذا التيسير من ربه استطاع أن يصل الى قمة الحضارة ـ ويســتمتع بطيبات الحــياة ٠٠ ولأن من طبيعة الانســان الغرور وتجاهل النعمة ركزت الآية الكريمة على ضرورة الاقرار لله بالفضل بالقلب واللسان ومتى ؟ عندما يعتلى قمة النصر ، وبذلك يحتفظ بتوازنه فوق القمة العالية فلا يضل أو يهوى ٠

وبهذا الذكر ـ يقاوم وسوسة الشيطان الذى يغريه بالمروق ويزين له الشر والسوء واذا كان المعنى القريب لقوله سبحانه : [اذا استويتم عليه] هو : اذا ركبتم ظهره وهى حالة الانتفاع بالشىء والاستمتاع بثمراته ـ فان اشعاعها يترامى الى بعيد ٠ وهى أن نقر لله بالفضل ـ عندما يوفق العقــل البشرى الى أى اختراع نافع !! ٠٠٠ ليتجــه بهذا الاختراع وجــهة روحــية مسبحة شاكرة ٠٠ فلا يستخدم اختراعه فى الشر ـ واهلاك الحرث والنسل ـ واستذلال الشــعوب ٠٠ كما هو الشــأن فى

الحضارات الضالة ۰ ۰ ۰ وبذلك يظل الانسان منسجماً مع الملأ الأعلى ۰

بين الانســان والكــون :

الكون كلــه بأجـوائه وعناصره وكائناته مسرح ضـخم لنشــاط الانسان ۰ ۰يتأمل فيه دقـائق الصـنع الالهى فيربو ايمانه ۰ ۰ ويزداد يقينه ۰ ۰ وقد طالب الله البشر أن يتأملـوا فى ملكوته الرحيب ۰ ۰ تأمل عظة واعتبار فقال جل وعلا : « قلْ انظروا ماذا فى السموات والأرض ـ وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون (١) » ۰

وهذا التأمل يعود بالخير العميم على الانسان لأنه يتفاعله مع الكائنات ـ وتجاوبه مع الآيات يستشف المعرفة ويحصل على العلوم المختلفة ۰ ۰ ولولا هذا النظر لمـا استطاع المسلمون أن ينشئوا الحضارة المؤمنة التى ملأت الحياة بالجمال والجلال

فالانسان مدين لهذا الكون بعلمه ومعرفته ۰ ۰ ويوم يقـعد الانسان عن هذا التأمل الفاحص لينفذ منه الى حقـائق العلم يصبح انساناً سلبياً ضـعيف الايمـان ۰ ۰ واذن : فالكــون مصدر رائع للمعارف والعلوم والثقافات ۰ ۰

ثم هو مصدر رائع ومنبع فياض لسكينة القلب ، وهدوء المشاعر ۰ ۰ يحس الانسان أحياناً بالضـيق ـ فـما هو الا أن يتجه الى الطبيعة ۰ ۰ فاذا بجمالها الحالم ، وهدوئها الشاعر يفيضان على القلب أنساً وجمالا ۰ ۰ ولذلك أثره فى الحفاظ على سلام النفس وجمالَ الروح ۰ ۰ وبهذا لا يكون لليأس سبيل الى قلبه ۰ ۰ وذلك من أكبر عناصر الايمان ودعائمــه وللكون بعـد

---

(١) آية ١٠١ سورة يونس ۰

هذا أثره الرائع فى امـداد النفس بأسرار القـدرة ٠٠ وايقـاف العقل على بدائع الصنعة ٠٠ وانعاش الروح بروائع الجمال ٠٠

فما أحرى أن يوثق الانسان علاقـتـه بالكون من حـولـه ، وما أجدر أن ينشىء الصداقة بينه وبين عناصره ٠٠ يتودد اليه ـ ويستلهمه ـ ويستوحيه ٠٠ ويستمد منه الخبرة والمعرفـة بتفاعله مع أجزائه ، وتعامله مع عناصره لا يصد عنها بالجهل ، ولا يعيش بينها غافلا لاهياً ٠٠

ان الأرض ـ التى يعيش عليها الانسان لم تخلق عبثاً ٠٠ وان الكون المحيط به لم يوجد صدفة ٠٠ وانما وجـدا لحـكمة جليلة وغاية سامية أيسرها أن يتعـاونا مع الانسـان ٠ وأن يتعاون معهما الانسان لانشاء عالم أفضل بالمعرفة والعلم ٠٠ فهنا المصنع التجريبى الذى يحل الانسان فيه ويركب ، ويبنى ويهدم ، ويصيب ويخطىء ليصل الى الحقيقة يوماً ما ويصافح كف المعرفة ـ وهذه المعرفة فى ذاتها عبادة رفيعه ٠

أن هذا الكون من صنع الله ٠ وان هذا الانسان من صنع الله ٠ فبينهما اذن علاقـة كريمـة ٠٠٠ هى وحـدة الخـلق والتكوين ٠٠ كلاهما لخالق واحد يسبحان له بالغدو والآصال فلا مجال للقطيعة والتخوف ٠٠ بل ينبغى للانسان أن يتعرف الى كل الوسائل التى تجعله قـادراً على الانتفـاع بالكـون ـ وتسخير عناصره ٠٠ والسـيطرة عليها ٠٠ ليظل ممكناً منها فاهما خصائصها وأسرارها وهذا هو سبيل صنع الحضارات ٠

وبهذا يمكن للانسان أن يتعايش مع هذه العناصر فى كون مأنوس أليف ٠٠ وليكن شعاره فى التعامل : « ربى وربك الله » وبهذا تستجيب له وتنقاد ٠

وهكذا نجد فى النهاية أن الله جل جلاله هو خالق الانسان

وخالق الكون وأن الانسان انما يتعامل مع الحياة ـ ومع الكون بمنهج ربه الذى لا يأتيه الباطل ٠٠ وهذا المنهج فيه كل احتياجات الانسان التى تمكن له فى الأرض ٠٠ وتهيىء له سبيل السعادة ٠٠ وهذا الكون ٠٠ مسخر للانسان ـ مهيأ ـ لنفعه ـ وأن الانسان ـ فى مسيرته على الأرض لن يجد الهدى الا فى منهج الله ٠٠ وبذلك كله يستثمر عناصر الحياة !!

ولا قيمة لحضارة بالغة ما بلغت من العظمة والجلال الا اذا ارتبطت بالله ٠٠ ووجدت فيها الانسانية دعماً لمثلها العليا وأشواقها الرفيعة يقول الفيلسوف محمد اقبال :

« ان النظر الى المؤسسات والأشياء لا يكون لما تؤديه من نفع أو ضرر اجتماعى ٠٠ فى بلد من البلدان ـ لأن مثل هذا الهدف ضئيل القيمة ـ وانما يكون بتحقيق الهدف الذى تسعى الانسانية اليه وهو هدف الروح » ٠

وهو يريد بذلك أن يجعل من مظاهر الحضارة المادية فى العالم كله منطلقات لدعم الروح ، وقوة الايمان ، وتحقيق الأشواق الرفيعة ٠٠

أزمة الضمير الغربى :

ترجع هذه الأزمة فى العالم الغربى المفتون بالمادة ، العابد للانتاج ، الى أنه لم ينطلق بالحضارة المادية الى أفقها الروحى النبيل ٠٠ فيتخذ منها وسائل لمرضاة الله ٠٠ ودعائم لتقوية الايمان وانما اعتبرها فى ذاتها غاية ٠٠ فانفصل عن الله كل الانفصال ٠٠ ولم ينجح فى تهيئة هذه الحضارة لخدمة الانسان ٠٠ ليحس بسيادته عليها بل وضع الانسان فى خدمة الحضارة ٠٠ فاستعبدت هذه الحضارة المادية ضمير الانسان

وألغت ارادته ، وبددت مطامحه وأشـواقه · · وجعلته عبـداً خاضعا لها لا سيداً مسيطراً عليها !!

ومثل هذه الحضـارة لا يمكن أن تنجـح فى بناء مدنيات فاضلة ·· لكنها تنجح فى بناء امبراطوريات ضخمة ·· تغرى بمظرها بينما الباطن خواء · · لأنها دعت الى تخلف الخلق عن العلم فى مضمار السباق · · وبذلك باعت مثلها وقيمها فى عالم الأرقام والكميات والحساب · · وصارت حضارة بلا ضمير ·· وتأتى الحضارة المثالية الا أن تكون مزاجا بين الروح والكم ، بين الغائية والسببية حتى اذا حـدث اختلال فى هذا التـوازن هوت المدنية الى الحضيض · · لأنها تحيف على فطرة الانسان وتصادم طبيعته التى جعلها الله مزيجا من المـادة والروح · ·

من ايحاء آية الاستخلاف : [معان حضارية]

ولنقرأ معاً فى اجلال وخشوع قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى هذا الموضوع ، ولنصغ الى همس الحكمة ، وايحاء الألفاظ من خلال هذه القصة القرآنية : ـ

« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ـ قـالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ـ قالٰ : انى أعلم ما لا تعلمون ـ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضـهم على الملائكة فقالٰ أنبئونى بأسـماء هؤلاء ان كنتم صادقين ـ قالوا : سبحـانك لا علم لنا الا ماعلمتنا انك أنت العليم الحكيم · · قالٰ : ياآدم أنبئهم بأسمائهم ، فلمـا أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم انى أعلم غيب السـموات والأرض ، وأعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون ـ واذ قلنا للملائكة اسجـدوا لآدم فسجـدوا الا ابليس أبى واسـتكبر وكان من الكافرين ـ وقلنا : ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة ـ وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ـ

فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ــ وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ــ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين ــ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم ــ قلنا اهبطوا منها جميعاً فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١) » ٠

تلك آيات من كتاب الله ــ تنفعنا فى هذا السياق ــ وتوضح لنا معالم الحق ــ وتحدد مركز الانسان فى هذا الوجود ٠ كما تحدد وضع الحضارات بالنسبة اليه ٠٠ وتشير بالوصف ــ والايحاء الى أصل الشر فى هذا الوجود ليتبين بنو آدم من عدوهم اللدود ؟

وذلك ليتفرغوا لأداء دورهم فى الحياة ٠٠ وهو بناؤها بالحق ــ وحكمها بالعدل ــ والتصرف فيها كما أراد الله ، وبذلك تكون حضارتهم موصولة بالله لا تنحرف أو تضل ، ولننظر أولا فى مغزى هذا الحوار القصصى الشيق بين الله عز وجل ــ وبين الملائكة الأبرار ، وهو حوار له مغزى عميق ينبغى أن تستشف الانسانية ما وراءه من حكم وتوجيهات ، وأولها : أن ننظر فى طرفى الحوار ــ فهو بين الله ــ وبين الملائكة ــ ومكانه فى الملأ الأعلى ــ وموضوع هذا الحوار هو ذلك الانسان ــ تقرير مركزه ، وأمر استخلافه ، وقضية تكريمه ــ وكل هذا الحوار انما احتواه الملأ الأعلى وشهده ابليس رمز الشر كله ومحور الفساد فى هذا الوجود ــ وأصغت اليه السموات كلها والأرض ومن فيها ٠٠ ونحن نستنبط بروح الاستهداء بكل ما مضى ــ أن الانسان كائن عظيم ــ له من الأهمية والكرامة ما يجعله موضوع نقاش وحوار فى الملأ الأعلى ٠٠ لتحديد مكانته على ظهر الأرض ــ وبيان أحقيته بهذا المركز ــ فأى تكريم هذا ؟ وأى

---

(١) الآيات من ٣٠ ــ ٣٨ سورة البقرة .

سمو هــذا ؟٠٠ احتفــال مهيب فى المــلأ الأعلى ـ لابرام عقــد الاستخلاف مع الانسان ـ واعلان استحقاقه لمركز الخـلافة فى الأرض ٠٠ تشهده السموات العلا والملائكة الأبرار ٠٠

وبلغة التقرير الحاسم ، والتأكيد الجازم نقــرأ قولَ الله سبحانه : [انى جاعل فى الأرض خليفــة] فانظـر فى هــذه الجملة من حيث صدورها عن الحق جل جلاله ـ وبلغة التأكيد الصارم وبيان العظمة السامية ـ وبكلمــة « ان » ذات الدلالة التأكيدية ـ وباسمية الجملة ـ وبتحديد مكان الاستخلاف ـ وكون ذلك كله فى مواجهــة الملائــكة ـ وهم العنصر المنــافس للانسان فى هــذا المركز الممتــاز ٠٠ هل بقى بعــد ذلك مجالٌ للتكريم ؟ فكيف تستباح بعد هذا كرامة الانسان ـ فتخضــع للآلة ـ أو ـ تستذل بالنظم ، أو تركع لغير الله ٠

ان فى هذه الجزئية من الحوار لــا يرتفع بمنزلة الانسان عن تلك الأوضاع الخسيسة انه بهــذا الأســلوب الموثق بكل وسائلِ التأكيد ـ خليفة الله فى الأرض ـ لا يخضع الا لسلطانه ـ ولا يذل الا لعظمته ـ وفيما عدا ذلك هو سيد كريم ٠٠ تخضع له النظم ولا يخضع لها ٠٠ ويسيطر على الأشــياء ولا تسيطر عليه ٠ وينشئها ولا تنشئه ويعيش على الأرض مرتفع القامة ـ أشم الجبهة لأن له نسبا فى السماء ٠٠

وفى هذا الاعلان الضخم ـ وما احتشد له من كائنات دليلٌ على أن كرامة الانسان يجب أن تذكر دائما فلا تنسى ٠٠ وممن صدر الاعلان ؟ وأين صدر ؟ وأمام من ؟ وما مضمونه ؟٠٠ كلها أسئلة تؤكد خطورة القضية وجلالها ٠٠ لتظل موضــع رعاية على مر الزمان ٠٠

وجدير بالانسان أن يحظى بكلِ ذلك التكريم ٠٠ لأنه فى

الواقع اذا صلح أصبح محور الخير كله فى هذا الوجود ـ يكافح الرذيلة ـ ويحارب الشر ويناصر القيم ويقر مشيئة الله فى الأرض ٠٠ ومهما يكن من شأن المنظمات الحديثة ـ واحتشادها فى صعيد واحد لتعلن كرامة الانسان ، فما هى بفاعلة شيئا أمام ذلك الاعلان الكريم فى الملأ الأعلى ٠٠ الذى تهيأت له وسائل اعلام ربانى فسمعها الكون وأصغت اليها الحياة بأسرها !!

وهل يملك الانسان مهما يكن شأنه أن يقرر هذا الأمر الخطير [انى جاعل فى الأرض خليفة] نعم لا يملك ذلك الا خالق الانسان ـ وخالق الأرض ـ وخالق الملائكة ٠٠ لأنه وحده فقط يعلم خصائص مخلوقاته ـ وما تصلح له من جليل الأعمال وما لا تصلح !!

واذا كان الانسان فى المحل الأول على ظهر الأرض ـ فانه ينبغى أن يكون فى المحل الثانى بالنسبة لربه ٠٠ لأنه جل جلاله هو الذى وضعه فى هذا المنصب الخطير ٠٠ ووضع فى يده زمام الخلافة ، وناط به تكاليفها ٠٠ واستعمره فى هذه الأرض ٠٠ فلا يجوز أن يتجاوز مركزه غرورا وصلفا ٠٠ انه يتلقى الهدى من ربه لا من أحد سواه [فاما يأتينكم منى هدى ، فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى (١)] ٠٠ وفى هذا الهدى تلاق تام مع فطرة هذا الانسان وقابليته للنماء المتكيف مع الزمن تكيف الفطرة الانسانية التى صاغها الله بيديه ومنحها وسام التكريم ؛ وملكها زمام الخلافة فى الأرض ـ بحيث تظل دائمة التطلع نحو الأمثل ـ لتحافظ على مستوى حياتها ٠٠ وهى حياة ينبغى أن تكون كريمة عزيزة لتتلاءم مع الانسان الذى كرمه ربه ٠٠ وبهذا كله نضمن شباب الحضارة فى كل عصر ومصر بتوجيهات الملأ الأعلى على ألسنة الرسل والأنبياء ٠٠ الذين أراد رب الناس

---

(١) آية ١٢٣ سورة طه .

أن يبعث بهم فى كل فترة من فترات الحياة ليلطفوا من وهجها ــ ويخففوا من مآسيها ــ وليوجدوا الحل الموفق لأزمــة الضمير الانســانى ..

ان هذا الانسان ــ خليفة الله فى أرضه ــ يتلقى وحى ربه بكل خضوع وتسليم ــ وذلك هو الاســلام : أى اسلام القلب لخالقه ، واستسلام النفس لبارئها .. وبهذا المضمون الواضح بعث الأنبياء والرسل على مدار الزمن الرحب ، وعلى امتــداد التاريخ الطويل ــ بل منــذ فجر البشرية الأولى ، ولقــد سمى القرآن ما جاءوا به اسلاما .. بمعنى الاستسلام لله ، واتباع منهجه وهداه ، والخضوع لمشيئته وحكمه ..

روى عن ثعلب فى تفسير قوله تعالى : « يحكم بها النبيون الذين أسلموا (١) » .

قال : كل نبى بعث بالاسلام غير أن الشرائع تختلف ..

ويقول السير توماس أرنولد : « ان الاســلام كان الدين السماوى الذى اختاره الله للجنس البشرى كافة ــ ثم أوحى به اليهم من جديد على لسان محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ خاتم النبيين كما أوحى به من قبل على لسان غيره من الرسل . » .

ومن هذا المعنى قوله تعالى : « أفغير دين الله يبغــون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون(٢) » .. ومعناه : استسلم من فى السموات والأرض لجلال سلطانه .

(١) آية ٤٤ سورة المــائدة .

(٢) آية ٨٣ سورة آل عمران .

والاسلام هو دعوة أبينا ابراهيم أبى الأنبياء : [ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما (١)] يريد : مائلا عن الضلال ـ مستسلم القلب والوجدان لله رب العالمين .

ويرد على لسان ابراهيم قوله فى شأن الأمة المسلمة : [هو سماكم المسلمين من قبل (٢)] ..

وبهذا : يكون الاسلام بمعناه اللغوى هو دين ما قبل البعثة المحمدية أى اسلام الوجه والقلب لله ثم يأتى معناه الاصطلاحى المحدد مع رسالة محمد عليه الصلاة والسلام فيأخذ معنى علميا خاصا وعالمية ممتدة .. وكأن ما قبل الاسلام كان تمهيدا رائعا له ..

وكأن رسالة محمد صلوات الله عليه كانت فى ضمير الكون تتنقل من جيل الى جيل على ألسنة الرسل الكرام ـ حتى تصب فى شريعة الاسلام كما تصب الروافد فى المحيط الكبير ..

وكأنما محمد فى شخصية النبيل قد تجمعت فيه فضائل الرسل مجتمعين ..

وكأنما القرآن الكريم هو الكتاب الخالد الذى تضمن معاقد الوحى الالهى الموزع على الأعصار والأمصار ـ حتى اذا اكتملت طاقة الرشد فى الانسانية ـ واختزنت منها الكثير جاء دور محمد عليه الصلاة والسلام ليرث ذلك الرصيد مضافا اليه ما تحتاجه البشرية من كل ما يلائم تطورها الصاعد فى سلم الحضارة الربانية ..

---

(١) آية ٦٧ سورة آل عمران .
(٢) آية ٧٨ سورة الحج .

وكل ما قدمنا من تحليل يعطى مضمونا فكريا خاصا هو وحدة الوحى الالهى ‎٠٠‏ ووحدة الرسالات السماوية ـ وأنها جميعا تلتقى على التوحيد ومكارم الأخلاق والدعوة الى الله ٠

وهذا التعهد الدائم من الله للانسان ـ بارسال الرسل والأنبياء دليل تكريم وحفاوة ‎٠٠‏ فهو لم ينزل الى الأرض ـ لينقطع عن السماء ـ وليعيش فى مكان مهجور موحش ‎٠٠‏ وانما نزل لرسالة ربانية ـ وفى رحلة مأنوسة ـ يعيش فيها مع ربه ومع ايمانه ومع منهج الله العزيز الحكيم ‎٠٠‏

ولو ترك الانسان منغير رسل ـ لضل عن سواء السبيل!!

نعم : لقد كان من لطف الله به وكرمه عليه أن تعهده بالهداية دائما ـ على يد رسله الأخيار يبلغون ما أنزل اليهم من ربهم بكل أمانة وصدق ، ويقاومون الفساد والشر ـ ويقودون زمام الانسان فى أحلك الظروف وأقسى الأيام ـ ويناضلون نضال الأبطال الابرار ـ لتظل العبادة لله وحده وليظل الخضوع له سبحانه وليتطهر جو الأرض من الشرور والآثام وليكون ضمير الانسان دائما موصولا بربه ـ الذى خلقه ـ واستخلفه فى أرضه وليبقى دائما سيدا لهذه الأرض لا عبدا مستذلا فيها !!

وفى هذه العلاقة الأزلية الأبدية الخالدة ـ كفالة ممتدة لتحرير الانسان من كل خوف ومن كل ضغط ومن كل ارهاب لأنه دائما مع ربه وفى حماية مولاه وتلك ثمرة من ثمرات العقيدة تسبغ الطمأنينة على النفس فلا تذل أو تخزى « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ومن ثم كان الايمان قيمة رفيعة لا تستطيع الحضارة النبيلة أن تتخلى عنها والا سقطت فى مهاوى الشرك والعبودية وضلت عن سواء السبيل ‎٠٠‏

ومن كرمه أيضا عليه ـ أنه لم ينزله الأرض ـ لرسالة فوق طاقته ٠٠ ليبدد قوته فى الأرض الوعرة والسهول الصلدة والجبال الخشنة ـ وانما مهد له تلك الأرض وسهل مهمته فيها ـ وسخر له عناصرها ـ ومكن له فى استثمارها ٠

« ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش ـ قليلا ما تشكرون (١) » فانظر الى البيئة الممهدة المأنوسة ـ التى يمارس الانسان فيها دوره الايجابى ويحقق رسالته الخالدة ٠٠ وهل هذا الا اكرام من الله ؟! كل ما يطلب الى الانسان أن يظل شاكرا لربه ٠٠ وألا ينسى عهده معه !!

فالانسان على وجه الأرض له المحل الأول كما أراد له خالقه ـ لكنه حين يستمد من ربه ، يصبح فى المحل الثانى ٠٠ واهتداء الانسان الى هذا المعنى هو الايمان الحقيقى ٠٠

أى أن القوة العليا هى الأولى من غير جدال ٠

كتب أحد أصدقاء برجنيف اليه يقول :

« يبدو لى أن وضع الانسان نفسه فى المحل الثانى هو كل مغزى الحيـاة » ٠

ولنلاحظ أن الرجل شيوعى ٠٠ وأن الشيوعية تضع المادة أولا ٠٠ فاذا اهتدى الشيوعى فوضع الله أولا واستعان به على المادة فقد صار مؤمنا ٠٠ والمهم أن يهتدى الى القوة التى يضعها فى المحل الأول ٠

---

(١) آية ١٠ سورة الأعراف .

فكتب اليه برجنيف يقول له :

[يبدو لى أن اهتداء المرء الى ما يقدمه على نفسه ويضعه فى المحل الأول هو مشكلة الحياة] ٠٠٠

ونحن نقول للرجلين معا : ليست هناك مشكلة مطلقا ـ وانما المشكلة هى نفوسنا وعقولنا ٠٠ فلو أن الانسان سلك سبيل الفطرة ـ بدون أى مؤثر آخر لوصل الى الله ٠٠ ولكن كيف السبيل الى الفطرة السمحة وقد لوثتها البيئة ـ وطمست معالمها ـ وانحرفت بها عن طريق الايمان ؟! تلك هى المشكلة فى المجتمعات الملحدة من السهل أن يصل الانسان الى ما يضعه فى المحل الأول ٠٠ وأن يبذل له الطاعة ، والولاء ٠٠ ولكن ليس من السهل أن يتنازل المادى عن مذهبه ليستسلم الى نداء الفطرة ٠٠ ولأن فطرته لم تعد من التألق والصفاء بحيث تعانق الحق فى سهولة ويسر !! هذا الارتكاس المادى هو سر الشقاء كله والضلال كله ٠٠ وهو سر احتجاب الروح واختفاء ضيائها ٠٠ وانطماس أنوارها ٠٠ والروح هى العنصر النقى المبدع لقيم الفن والجمال والمنشىء للحضارات والمدنيات ٠٠ فاذا انطمرت تحت تراب المادة ٠٠ فلا تقدم ولا مدنية ـ وان حدثت فهى حضارة الانسان الأعمى ٠

« ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى (١) » ٠

« ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلا سبيلا (٢) » ٠

---

(١) آية ١٢٤ سورة طه .
(٢) آية ٧٢ سورة الاسراء .

ومن ثم يعيش صاحبها فى الدنيا حيوانا ـ وتهدر قيمته يوم القيامة ويقال لصاحبها :

« كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى (١) » ٠

ومهما طار الانسان فى الجو ـ أو تقدم فى الاختراع ـ بهذه المادية البعيدة عن الله فانه تعس وشقى يصنع بيده وسائل هلاكه ٠٠ ويسعى حثيثا الى الانتحار !! اذ ما معنى تقدم من غير ايمان ؟٠٠ معناه جحيم مسلط على البشرية لا يرعى فيها الا ولا ذمة ولا ينجو منه حتى من صنعوه !!

وانه لخير للانسان ـ وأشرف أن يعيش على الأرض بطهارته ونقائه من أن يطير الى السماء بنجاسته ووبائه ـ وأفضل أن تضاء الأرض بالشموع وهى مساجد من أن تضاء « بالنيون » وهى مراقص !! ٠

ومحال أن تنشأ حضارة انسانية خالدة تبقى وتعمر وتبسط جناحها على البشرية بالسلام والحب والمودة الا اذا استظلت بمظلة الايمان ٠٠

وبذلك يفجر الانسان بالعلم كل ينابيع الحضارة ويضبط بالايمان مسارها فلا تنحرف أو تضل ٠٠ وبهذا يتعانق الايمان مع العلم فى تشييد صروح الحضارات ومن غير الايمان بالله ـ واتباع منهجه وهداه ـ يضل الانسان وتخطىء الحضارة طريقها وتتصارع عناصرها تصارعا يؤدى الى تدمير الحياة والأحياء !! « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله (٢) » ٠

---

(١) آية ١٢٦ سورة طه .
(٢) آية ٥٠ سورة القصص .

وهـذه النتـائج السيئـة للحضـارات المـادية ليست « نظريات » للدراسـة ـ وانما هى تجارب للادكار والاتعـاظ والتـدبر ٠

فالله قد أهلك أمما وأفنى حضـارات ودمرها على رءوس أصحابها لأنها قد ضلت طريقها وأخطأت سبيلها حين رفضت أن تخضع لأمر الله وتحقق منهجه وهداه « فصب عليهم سوط عذاب ـ ان ربك لبالمرصاد » ٠

وهكذا الايمان له من أصالة المعدن وعراقة الأصل ما يجعل له المنزلة الأولى فى بناء الحضارات ٠٠ فليتعظ انسان العصر الحديث بقصـة انسان العصر القـديم فالتاريخ دروس وعبـر «ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمـع وهـو شهيـد (١) » ٠

وثانيها : أن على الانسان ـ خليفة الله فى أرضـه ـ أن يذكر العهد مع ربه فلا ينساه وهل ينسى عقد كهذا ٠٠؟ كان اشهاره فى الملأ الأعلى ٠٠ فما يجوز أن يذهل الانسان عن عهد ربه يوما ما ـ لأنه مهما يتقلب فى الأرض ـ فالى الله الرجعى والمصير [انا الينا ايابهـم (٢)] [ان الى ربك الرجعى (٣)] [وأن الى ربك المنتهى (٤)] ٠

ولأن رحلة الحياة طويلة وشاقة وكادحة فان على الانسان فى حدة صراعه مع عناصر الأرض ـ وعوامل الشر ـ عليـه أن

(١) آية ٣٧ سورة ق .
(٢) آية ٢٥ سورة الغاشية .
(٣) آية ٨ سورة العلق .
(٤) آية ٤٧ سورة النجم .

يلتمس من الله العون ليتم انتصاره على كل القوى المعادية ، عليه أن يذكر ربـه ـ وهو يبنى صروح الحضـارة ٠٠ ويهىء لنفسه وجودا أفضل حتى لا يعرض له الشيطان فيضـله عن الانسان حوافزه الانسانيـة ـ لا غرائزه الحيوانيـة ٠٠ ولا يسمح لتلك الحوافز أن تتخلف يوما ما فى مضمار السباق ـ والا فقد توازنـه فى رحلة الحياة ٠٠

ولأن من طبيعـة الانسـان أن ينسى ـ فضـلا عن اغواء الشيطان له ـ وجدنا أن عهد الله معه مكرر بصيغ مختلفة ٠٠ وبوسائل قوية ليظل النداء متجددا ـ والعهد مترددا والصوت مسموعا ـ فما أشبه ذلك بأدوات التنبيه القوية التى تلفت الانسان كلما حاولت الحياة أن تجنده فى ركابها ـ أو تشـغل قلبه عن ذكر الله ٠٠.

[ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا (١)] [الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشـاء (٢)] [ان الشـيطان كان للانسان عدوا مبينا (٣)] [ألم أعهد اليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان (٤)] ٠

هكذا تتوالى التحذيرات ، وتتوافد الانذارات ـ لتنقـذ الانسان من غفلته ـ وتخرجه عن شروده وتضعه وجها لوجه أمام عدوه الأصيل ٠ ٠

وثالثهـا : أن على الانسـان أن يذكر دائمـا أن لهـذا الاستخلاف تبعات ومسئوليات ٠ فليس هو نزهة محببة ـ

---

(١) آية ٦ سورة فاطر .
(٢) آية ٢٦٨ سورة البقرة .
(٣) آية ٥٣ سورة الاسراء .
(٤) آية ٦٠ سورة يس .

ولا رحلة طارئة ـ وانما هو قدر الله ـ وحكمه ـ وتدبيره وعدله أن ينزل الانسان الى الأرض ويمتحن بالجهاد ـ ويبتلى بالشيطان ـ لتنصهر ارادته ـ ويتألق جوهره ·· ويتوهج ايمانه ·· صحيح أنه منح السيادة والكرامة والعزة ـ ولكن عليه أن يدفع التكاليف لأن الله لم يخلق حقوقا من غير واجبات ·· بل دائما يجعل الحق فى مقابلة الواجب ـ وعلى رأس مسئولياته الكبيرة أن يتأمل فى الساحة التى استخلف فيها ـ فتلك «ساحته الحضارية» ـ يبنيها بالحق ـ ويحكمها بالعدل ، ويدعمها بالايمان ويحقق فيها مشيئة الله ·· ويستخدم فيها قدراته ـ ويستثمر علمه ـ ويحرك حوافزه فيدرس ويستنبط ، ويجرب ويمارس ، ويحلل ويركب ، ويبنى ويهدم ، ومن خلال التجارب يخرج بالدروس الغالية·· انه لم ينزل الى الأرض ليجعل منها ساحة نوم وكسل بل مجال نشاط وعمل ·· ان الأرض بهذا التصور هى بستانه فعليه أن يزرع فى هذا البستان زروعا بهيجة ·· عليه أن يتعرف الى القوانين التى تمكنه من تسخير الطبيعة واخضاعها لمشيئته ـ حتى يحتفظ لنفسه بحق السيادة على بيئته ··

وهنا نفهم قيمة العلم ـ منذ الفجر الأول للوجود الانسانى ·· انه العنصر الأساسى لعمارة الارض ـ وبناء الحياة ·· وهو علم يتلقى عن الله ـ ويمضى مع شرعه وهداه فيكون عبادة رفيعة فمع كل نبضة عرق ـ أو ضربة معول ـ أو اقامة صرح ، أو بناء قصر ـ أو احراز نصر مع كل أمر من هذه الأمور وغيرها ذكر لله ـ وعرفان بفضله ـ واقرار بمشيئته ··
وبذلك يزكو الجهد الانسانى ويحقق هدفه النبيل ·

ولقد تمكن بناة الحضارات الكريمة ـ من استخدام التجارب ـ واستثمار الأرض ـ واستخراج كنوزها فى ظل هذا العهد ـ فأدوا رسالتهم فى الحياة ·

وكل عناصر الوجود تصبح بالعلم والايمان طيعة سهلة وصديقاً حميما للانسان ـ وانما تصبح نافرة حرونا اذا ذهب روح الصداقة بينها وبينه ٠٠ بأن جهل وسائلها ٠٠ وقصر فى معرفتها فكيف تبوح له بأسرارها ٠٠ انه بالعمل الدائب والجهاد المستمر يسهل كل صعب ، ويقرب كل بعيد ، وينحل كل لغز عصى ٠

رابعاً : نستشف من روح الحوار فى الآية ـ أن الملائكة كانوا حراصا على أن ينتزعوا لأنفسهم حق الخلافة فى الأرض ٠ فهم بهذا الاعتبار عنصر منافس للانسان ٠٠ ولكن صوت القدر العالى حسم فى هذا النزع « انى جاعل فى الأرض خليفة » ٠

ومع ذلك ـ فان الملائكة ظلوا متشبثين برأيهم متمسكين باستخلافهم ٠٠ ولقد تحدثوا فأحسنوا الحديث ـ ذكروا مساوىء آدم وأبنائه ٠٠ [أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء] ظنا منهم أن هذا يناقض الاستخلاف فى الأرض ـ وماردوا أن الانسان بذلك وحده كان أحق منهم بالخلافة فى الأرض ـ لان مكافحة للشر ـ واستخدامه للارادة ـ وازدواج فطرته ـ وتصارع قواه كل ذلك يجعله كائناً مكافحاً مجاهداً ٠٠ يحقق مشيئة ربه ويقاوم قوى الشر ـ ويتفاعل مع الارض المستخلف فيها بالمصابرة والمجاهدة ٠٠ بانيا وهادما ـ ومصلحا أو مفسدا ـ ومهتديا أو ضالا ـ وفى كل ذلك الصراع يستعمل ارادته ليظفر بالفوز ويحقق النجاح ويحقق انسانية ـ وبهذا يظل وجوده على الأرض مرتبطا بمجاهدة الشهوات ـ ومقاومة عناصر الشر ٠ ومحاربة الشيطان ـ فاذا تم له ذلك باتباع هدى الله فقد حقق ماأراد له الله وانفذ عقد الاستخلاف ٠

فأمـا الملائكـة فـان طبيعتهم النورانية التى لا تحـتمل الصراع ـ ولا تتحمل أعباء الجهاد لأنهم كما قال الله [لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون (١)] « يسبحون الليل والنهار لايفترون (٢) » فلم يخلقوا بهذا الاستعداد الذى يرشحهم لخلافة الأرض ـ وقد ظنوا أنم بتسبيحهم ـ وامتثالهم ـ وانقيادهم ـ أحق من الانسان ـ بينما الواقع أنهم بهذا أبعد عن هذه المهمة ـ ومن ثم جاء الرد : « انى أعلم مالا تعلمون » ٠

ليس هنا مجال لأية مجاملة ٠ ٠ فان علم الله أنفذ ، ولهذا رفض حجة الملائكة ٠ ٠ ولعلنا نفهم من خلال الحوار ـ حقيقة طبيعة الملائكة ـ وحقيقة طبيعة الانسان ٠ ٠ كما أن هذا الحوار يعزز مركز الانسان ويؤكد كرامته ٠ ٠ لأن الملائكة رغم منزلتهم عند الله ـ وابداء حجتهم له ـ مع كل ذلك لم يحققوا هدفهم :

ان الأمرأمر استعدادوفطرة ٠٠ والله أعلم بما خلق من فطرة واستعداد وبما استودع كائنـاته منهما ـ فالملائكة للملأ الأعلى لاينازعهم فى ذلك بنو آدم ، هناك فى الحـرام القـدسى يحـلو التسـبيح ويستطاب الـذكر هناك [يسبحـون الليل والنهار لا يفترون (٣)] اذ ليس لهم من غرائز الطين ـ ونوازع الحيوان وازدواج الفطرة مايصرفهم عن تلك المهمة الجليلة ٠ ٠ وكل ميسر لمـا خـلق لـه ٠ ٠

ومن خـلال الحـوار نفهم أن الملائكة كانت لديهم المعرفـة الكاملـة عن آدم وأولاده بدليل أنهم استكثروا عليهم خلافـة الأرض ـ وذكروا سلوكهم وأخلاقهم ـ وليس بعيد أن الله قـد

---

(١) آية ٦ سورة التحريم ٠

(٢) آية ٢٠ سورة الأنبياء ٠

(٣ آية ٢٠ سورة الأنبياء ٠

ألهمهم ذلك العلم لتكون القضية واضحة ـ وحتى يتسنى لهم أن يناقشوا على معرفة ٠

خامسا : قـوله سبحانه [وعلم آدم الأسمـاء] فيه تمكين الانسان منذ اللحـظة الأولى من العلم كسلاح فعـال فى عمـارة الأرض والتغلب على مصاعبها الجمة ٠ ٠ وبذلك يكون الانسان مزوداً من ربه بنوع من المعرفة تسـهل مهمته على وجـه الأرض حتى لا يضل أو يشقى ٠

لقد أخذ الله العهد على آدم ، وأبنائه بأن يبتعـدا عن اغواء الشـيطان ٠ ٠ ويظلا مع ربهمـا ورب كل شيء ٠ ٠ وهذا هو الايمان الذى لا بد منه فى رسالة الحياة ٠

ثم زوده من نـاحـية ثانية بنوع من المعرفـة التى يفتقـر اليها لانجـاز مهمته ويتفـاهم بها مع أبنائـه ، ومع الناس ، ويتعامل مع الأشياء وهذه القـوة هى العلم الذى لا بـد منه فى بناء الحياة وهذان هما جناحا الحضارة الايمان والعلم ٠

ويفهم من سياق الحـوار أن أصـل العلم الهام من ٠ لأن معنى تعليم الله لآدم الهامـة ذلك بطريقة يعلمها سبحـانـة ٠ ٠ وعلى الانسان بعـد هذا أن يعـرف دور العلم فى بناء الحـياة ، عليه أن يستثمر ذلك العلم ، وأن يحركه بالتجربة ، ويستفيد به فى حياته ٠ ٠ ويسخره لمرضاة ربه ٠ ٠ ومادام أصـل العلم من عنـد الله فـكيف ننحـرف بـه عن اللـه ؟ واذا قـصر الانسـان فى تنمية علمـه ، وترقـية معرفـته فـليس جديراً بالاستخلاف فى الأرض وهذا العلم النوعى مما لا تقتضيه طبيعة الملائكة الذين خلقـوا لعالم غير عالمنا ولمهمـة غير مهمتنا ولرسالة غير رسالتنا ٠ ٠ وليست السماء بيئة كدح ولا ساحة

نضال حتى يزود الملائكة بما يعينهم عليه ٠٠ ولكن لهم علماً آخر ومعرفة أخرى تقتضيها طبيعتهم ٠٠ وهذا العلم لا يوجد عند آدم وأولاده وهكذا يصبح العلم منذ فجر الوجود تخصصاً نوعياً يمنحه العليم الخبير للكائنات وفق الحكمة العالية ، فسبحان من يعلم ولا نعلم !!

وهذه الجزئية من الحوار تؤكد المعنى السابق أبلغ تأكيد فهى أشبه شىء بعقد مباراة بين الملائكة والانسان ، أو بتعبير أدق مسابقة فى العلم ٠٠ يخرج منها آدم منتصراً ظافراً ، عندما تعرض عليه المسميات فيعرف أسماءها بتوقيف العليم الخبير وتعرض على الملائكة فلا يعرفون ٠٠ لأنه علم لا يلائم طبيعتهم، وبذلك تنقطع حجتهم فى خلافة الأرض ، ويثبت استحقاق الانسان لذلك ٠

ولك أن تقول : لكن الله علم آدم ، ولم يعلم الملائكة ولو شاء لعلم الملائكة فنجحوا فى هذه المسابقة !!

والجواب على هذه الشبهة ٠٠ أن الله جل جلاله يعلم طبيعة الملائكة ٠٠ فآدم للأرض يكافح الشهوة ، ويناضل الشيطان ٠٠ وكم تكون حياته على وجه الأرض مستحيلة ، أو على الأقل غير محتملة ، لو لم يزود بهذا اللون من المعرفة ولهذا مكنه الله من هذا العلم دون الملائكة ٠٠ كسلاح ضرورى لحياته الجديدة أما الملائكة فما حاجتهم اليه ؟ ولنضرب لذلك مثلا بسيطا من واقع حياتنا « ولله المثل الأعلى » ٠٠ عندما يكون لك ولدان ٠٠ أحدهما راغب فى المعرفة ، محب للعلم ، وللمدرسة والآخر كاره للعلم والتعليم محب للزراعة ٠٠ انك تلاحظ استعداد كل منهما فتوجهه الوجهة التى يصلح لها : هذا للمدرسة وهذا للزراعة وكلٌ ميسر لما خلق له ٠٠ وأنت بهذا

لم تظلم أحداً · · وليست الزراعة أقل من المدرسة منزلة ، ولكن استعداد الولدين هو الذى قرر هذا التوجيه وأكده !! فاذا كان هذا يحدث معنا ، وعلمنا بالاستعدادات قاصر فكيف بعلم الله الذى وسع الأشياء ، ونفذ الى أدق خصائصها لأنه خالقها ومبدعها ؟ !

والله من قبل ومن بعد لا يسأل عما يفعل وهم يسألون · · لأن الخلق والأمر كليهما له « ألا له الخلق والامر (١) » ، وقد تخفى الحكمة علينا لضيق أفهامنا !!

وليس مما يقدح فى قدر الملائكة ألا يعرفوا أسماء المسميات فذاك شىء لا يعنيهم ولا هو من مهمتهم · · وكأنما الله العلى الكبير أراد أن يبطل حجتهم فى رسالة الأرض · وأن يشرح لهم بعض قانون الحكمة ــ فضلا منه وكرماً ــ فعقد هذه المسابقة العلمية بينهم وبين آدم فى الملا الأعلى · · حتى اذا أحرز آدم السبق انبهر الملائكة ، وهتفوا مذعنين : [سبحانك لا علم لنا الا ماعلمتنا انك أنت العليم الحكيم] وكأنما هذا الاعتراف من الملائكة · · يحمل معنى التسليم المطلق لعلم الله المطلق ، كما يحمل أيضا اعتذاراً ضمنياً عند تشبثهم السابق بعمارة الأرض والخلافة فيها · · وهو يعطى فى ايحائه استحقاق الانسان لهذا الأمر دونهم · · لأن طبيعته ترشحه لذلك · ·

لكن يبقى سؤال آخر يطرح نفسه تلقائياً على الموقف كله : وهو بماذا يفضل آدم الملائكة ؟ حتى يسجدوا بأمر الله تبارك وتعالى ؟ !

هل هو تفضيل لم تبرز حكمته لنا ، · والجواب أن هناك

---

(١) آية ٥٤ سورة الأعراف .

حكمة نعلمها وقد يكون هناك ما هو أجل منها لكنه خاف علينا ٠ لأن علم الله قد استأثر به ! !

والحكمة فيما نعرف ، أن هذا الانسان له ارادته الحرة التى يستعملها فى صراع الشهوات وفى كفاح الشر على وجه الأرض فينتصر حينا وينحدر حينا آخر ، على قدر ما فيه من حزم وعزم ٠ ٠ بهذا يفضل الملائكة ٠ الذين لم تكن الشهوات جزءاً من كيانهم ٠ والذين [لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون] ٠

لكن الانسان اذا عطل هذا الجانب من وجوده ، فألغى ارادته واستسلم لعوامل الشر ، وركع أمام الشيطان ، فقد خر صريعا فى معركة الشر وحققت عليه كلمة العذاب وبذلك يصير احط مخلوقات الله لأنه فقط عنصر السيادة عليها ، وهو استخدام ارادته لينجو من كيد الشيطان ولنقرأ فى ذلك قوله سبحانه يصور لنا انهزام الارادة الانسانية أحياناً فى مقاومة الشهوات : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثلُ القوم الذين كذبوا بآياتنا (١)] :

وفى الآية لمحة جميلة تؤكد لنا أن الله قد مكن كل انسان من الهداية ، بتقديم آياته اليه وأن فى هذه الآيات عصمة من الشيطان ، لكن الانسان قد تضعف مقاومته ، وتهن ارادته فينفصل عن تلك الآيات فيقع فى قبضة الشيطان ، ومن ثم ينحط أدبياً وانسانياً فيهبط من علياء انسانيتة الى درك الحيوانية الوطيىء فيكون كلباً حقيراً والله سبحانه لا يساعد الا من بدأ بتزكية نفسه والارتفاع بها عن الطين والاستمساك

---

(١) آيتا ١٧٥ ، ١٧٦ سورة الأعراف .

بآياته ، لكن هذا الانسـان عندمـا يتحـول الى سلبية واهنة فيخلـد الى الطين ، ويتبع هواه لا يمكن أن يظفر بعـون الله ، وهذا هو قانون المشيئة العليا ، تساعد من يبدأ باعلاء سلوكه ، وتتخلى عمن يستسلم للشيطان ويقعد عن المقاومة ، [قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها (١)] [وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فـان الجـنة هى المـأوى (٢)] وهكـذا بوضوح ، ابدأ بنفسك تجد القدر يعينك ، وأهمل نفسك فـلن تظفر بأية معونة !! وفى تصريح الملائكة « سبحانك لا علم لنا » فهم للقضـيـة على وجـهها وفى قولهم أولا : « ونحن نسـبح بحمدك » تعبير عن خطأ الوجهة ، فقد خيل اليهم أن التسبيح والتقديس هما عنصرا الاستخلاف فـكان الـرد عليهم من الله « انى أعلم مالا تعلمون » ، أى أن التسبيح والتقديس ليسا من مقومات الاستخلاف ، بل لابد معهما من مقـاومة الشـهوات ، والملائكة لا شهوة لهم ، فقد ركب كيانهما من غيرها أى أن آدم بما يحمل من معنى الخطيئة حيناً ، ومن معنى الالتزام حيناً آخر هو الجدير من أجل ذلك بخلافة الأرض وفى قـول الملائية « أتجعل فيها آلخ » ابراز لتعجبهم أن يكون آدم وأولاده فى مثل هذا المنصب الخطير مع افسادهم وسفكهم للدماء ، ولكن قولهم أخيراً : « سـبحانك لا علم لنا » يجـب ما قبله ، ويعطى معنى الانقياد والطاعة والاستسلام لحكم الله ، بعد فهم القضية على وجهها وبعد ظهور نتيجة الامتحان !!

جـاء فى تفسير المنار (بتصرف قـليل) « وعـلم آدم » أن الانسان بقوة العقل غير محدود الاستعداد ولا الرغائب ولا العلم ولا العمل فهو على ضعف أفـراده يتصرف بمجموعة فى الكون تصرفا لا حـد له باذن الله وتصريفه ، أعطاه الله هذه المواهب

---

(١) آيتا ٩ ، ١٠ من سورة الشمس .
(٢) آيتا ٤٠ ، ٤١ سورة النازعات .

ليظهر بها أسرار خليقته وملكه الأرض وسخر له عوالمها أعطاه أيضاً أحكاما وشرائع لتقود خطاه ولقد ظهرت آثار الانسان فى هذه الخلافة ونحن نشاهد عجائب صنعه فى النبات ، والبر والبحر والهواء فهو يتفنن ويبتدع ويخترع ويجد ويعمل حتى شكل الأرض فجعل الحزن سهلا والجدب خصباً والخراب عمراناً والبرارى بحاراً وخلجاناً ، وولد بالتلقيح أزواجا من النبات ، « نقول وفجر الذرة » مع أنه بعد ذلك لم يؤت من علم الله الا قليلا » :

ثم يذهب صاحب المنار الى أن الله علم آدم وأولاد آدم كل شىء ومعنى تعليمه الأسماء أى ما به يعلم الاسماء هو وبنوه أى العلوم المطابقة للحقائق ، والاسم يطلق على صورة العلوم فى الذهن وهذا يطابق مافهمه اليونان حيث أطلقوا الاسم على مافى الذهن من معلوم ثم يقول : والقصة وردت مورد التمثيل ا ٠ هـ »

ونحن نرى أن الله قد أوجد فى آدم وأولاده قابلية التعلم ومنحهم النموذج الدال ليتصرفوا به مبدئياً فى أداء مهمتهم — ثم تركهم لتجاربهم وتفاعلهم مع الكائنات يحرزون كل يوم جديداً من المعرفة فيربو رصيدهم العلمى باقدار الله واعانته وتوفيقه وقد تكون الدفعة الأولى التى تلقاها آدم وأبناؤه من العلم فى الملأ الأعلى مؤشرا لسمو العلم — وتحديد مكانته — وايماء الى آدم وأبنائه بأن الحياة على سطح الأرض مستحيلة بدون هذا العلم — وبذا يكون أصلُ العلوم كلها من الله ٠٠ وللبشر اجتهاداتهم بعد ذلك وتجاربهم التى ينبغى مهما عظمت أن تسير فى خط يراقب الله ويرعى حرماته ٠٠

ومهما يكن من شىء فان آدم وبنيه حركوا هذه المعرفة الأولية بالتجربة رويدا رويدا واستخدموها مفتاحا يحل الألغاز ويكشف الخفيات ٠ وما زالوا يكتسبون الخبرات

الجديدة من الحقائق والمعانى والمعارف حتى حصــلوا من ذلك على كل رائع ومثمر ٠٠

وربما نفهم ـ كما يشير صاحب المنــار ـ أن الانســان يفضل الملائكة بالعلم الذى علمه الله اياه ثــم استثمره وأرباه بتعامله مع بيئته الجديدة ٠٠ ولكن ينبغى أن نحرص على أن كلا ميسر لمــا خلق له ٠ ٠ وأن آدم لكل ما قــدمنا أليق بعمارة الأرض وأفضلُ من الملائكة فى ذلك وأول ما نـحرص عليــه من الفهم لهذه القضــية ــ أن آدم وأبنــاءه لهم فطرة مزدوجة من كدرة الطين ونفخة الروح ٠٠ ومن ثم فهى مجال صراع ٠٠ ولا يبطل هذا الصراع الا الارادة ٠٠ وذلك يحتاج الى مجاهدة وهذه المعانى كلها غير موجودة فى الملائكة ٠

وأيضــا ففى الانســان مطــامع وشهــوات ورغبــات فى استكشاف المجهــول والغامض ٠٠ وتحريك هــذه الرغبــة فى خاصية الهدم والبناء والحل والتركيب ومعرفة المجهول كل ذلك مع ما ذكره صاحب المنار هو سر استخلافه فى الأرض وتفضيله على الملائكة ٠

ثانيا : قوله سبحانه « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » هذا هو دليل تكريم الانسان وتفضيله صراحة ــ والسجود هنا لمعنى التكريم ــ وليس سجود عبادة ــ وهو سجود يقع بأمر الله ــ وليس سجود كائن لكائن يحدث تلقائيا ٠٠ فكأنه سجود له سبحانــه لأنــه لمــا أمر به صــار كأنــه له ٠٠ وفى تكليف الملائكة بالسجود لآدم ينحسم الموقف عمليا ــ كما انحسم من قبل نظريا عنــدما اجتاز آدم عقبــة الامتحان ٠٠ فان الملائكة اعترفت صراحة بأحقية آدم لاستخلاف الأرض ــ حيث قالوا : « سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا » !!

ولكن الاعتراف المقالى لا يحسم الموقف حسما أكيدا ــ فاذا ترجم المقال الى عمل فحينئذ يجئ الاعتراف الذى لا يلابسه أدنى شك ·· والسجود لا يعد وأن يكون ترجمة عملية لاعترافهم السابق ــ وهو دليل على اقتناعهم من كل الوجوه ··

ولكى يظلّ الانسان فى هذا الأفق الكريم عليه أن يكافح الشر بارادته الحازمة ·· وقوله سبحانه « الا ابليس » ايماء الى العدو الأصيل لآدم وأبنائه ــ فقد رفض السجود وتمرد عليه وأبرز عداوته فى الملأ الأعلى دون حياء أو خجل من الله وملائكته ·· وليس ابليس من الملائكة ــ وانما هو من الجن واستثناؤه لا يدل الا على أنه كان مع الملائكة فى هذا المشهد كما تقول حضر الطلاب الا عليا ·· وعلى ليس منهم بل هو معهم ولابليس حقيقة فى القرآن ·· وضحها بأبلغ بيان ·· وأمر الناس أن يستعيذوا من شره ــ وفسر لهم أساليب وسوسته ·· وأبان أن له أعوانا من الجن ــ ومن الانس ·

ومع ذلك فنحن نفهم أن كل قوى الشر فى العالم مرتبطة به فمكافحتها مكافحة له ·· وما أكثر عملاء ابليس فى هذه الحياة !!·· نعم كل ما فى الحياة من ضلال وفساد وانحراف وغواية صناعة ابليسية فلنحذر منها جميعا « ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ــ انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير (١) » وحزب ابليس هم عملاؤه من الجنة والناس ·· فاذا ثار نزاع فى نفس الانسان بين عوامل الخير وعوامل الشر ــ فانتصرت قوى الخير ــ فقد انهزم ابليس ــ لأنه يريد الشر دائما أن يسود ··

واذا نشب صراع خارج كيان الانسان فانتصرت فيه

---

(١) آية ٦ سورة فاطر .

القوى الخيرة فقد انهزم ابليس ـ ومن ثم وجب مجاهدة الشرور كلها فى النفس ـ وفى الحياة لاحباط عمل ابليس وابطال سعيه ..

وهكذا ينبغى لأبناء آدم أن يصرفوا جهودهم كلها لاستخلاص ارادتهم من عدوهم الأصيل هو ابليس ـ وطريق ذلك الاخلاص لله فى السر والعلن « ان عبادى ليس لك عليهم سلطان (١) » منذ فجر الحياة وابليس واقف للبشرية بالمرصاد ـ يوسوس لها ـ ويزين السوء ـ ويصد عن الخير ويلقى بالعداوة والبغضاء فهل تعقل البشرية ذلك فتنصرف جهودها لاعلان الحرب عليه وتكف عن تلك الحروب الظالمة التى تديرها فى غير ميدانها الأصيل ؟!

وفى قوله سبحانه : « وقلنا يا آدم اسكن .. الخ » تصوير لمقام آدم وزوجه فى الجنة ـ وايحاء برغد العيش فيها ـ ويسر الحياة بين ثمارها وأنهارها .. وما حوته من روعة وبهاء مما لم تره عين ولم تسمعه أذن ولم يخطر على قلب بشر .. انها السعادة فى أكرم صورها .. ولقد تكفل له بتلك الحاجات الأصلية التى لا غنى عنها .. وهى المسكن ـ والملبس ـ والمأكل والمشرب [ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى (٢)] ..

لكن قدر الله غالب ـ وارادته نافذة ـ وقد شاءت هذه الارادة ـ أن يستنزل آدم من الجنة ليعمر الأرض هو وبنوه .. ولم يكن ثمت محيص ولا معدل عن ذلك !!

ولهذا جاء ابليس ـ واستعمل الغواية ـ وأضل آدم ـ

---

(١) آية ٤٢ سورة الحجر .

(٢) آيتا ١٨ ، ١٩ سورة طه .

فنفذت حكمة الله · وكان لابد أن تنفذ بسبب أو بآخر لأن الجنة ليست له بدار !!

وفى هذا الجزء من الآية ايحاءات رائعة ينبغى أن نصغى الى همسها اللطيف : أولها ابراز عداوة ابليس للانسان ·· وأسلوب وسوسته ·· « هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى (١) » ووراء هذين الهدفين نسى آدم العهد مع ربه واستسلم للشيطان !! وراء « ملك لا يبلى – ووراء الخلد » ولو فتشت عن مطامح البشرية قديما وحديثا لما وجدتها تخرج عن هذين ·· وقد صاغهما ابليس صياغة فيها الاغراء كله – والجاذبية كلها ·· وهذا هو أسلوبه معنا دائما ·· يأتى الى أحدنا قائلا من خلق هذا ؟ ثم يتدرج ومن خلق هذا ؟ فنجيب : الله ثم يدلف الى غرضه من الفتنة قائلا ومن خلق الله ؟·· وينبغى سد الطريق عليه منذ أول لحظة حتى لا يمضى فى تنفيذ مخططه فى الشر والغواية – يجب دائما أن نذكر عهدنا مع الله [ألا تعبدوا الشيطان] حتى نسلم من شباك ابليس وفى قوله سبحانه [ولا تقربا هذه الشجرة] ايحاء بمحارم الله – ورمز الى حدوده التى لا ينبغى أن نتخطاها ··

وقد نفهم سر التحريم ·· وقد لا نفهمه ·· والواجب فى كلا الأمرين حسن الطاعة وتمام الانقياد ·· وقد نتبين الحكم فيما بعد عن طريق العلوم والمعارف – أو عن طريق التجربة والمعاناة ان هذه المحارم منطقة موحشة ·· تكمن فيها المهالك والأخطار والعاقل لا يقترب منها وسبيله الى ذلك هو ارادته القوية المرتبطة بالعهد القديم مع الله ·· وهو عهد يتجدد كل لحظة تلقائيا ما دام فى الدنيا أبلسة وابليس – كما أن هنا ايحاء آخر بأن التحليل والتحريم لله وحده ليس لأحد أن ينازعه

---

(١) آية ١٢٠ سورة طه .

فيهما « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب (١) » ولقد حاولت بعض الدساتير الوضعية أن تحرم أمورا ضارة بتشريعات بشرية ففشلت فى ذلك أعظم الفشل ·· وعندما نزل التحريم من السماء سارع الناس الى الامتثال ··

وفى قوله سبحانه « فكلا منها رغدا حيث شئتما » ايحاء بنعيم الجنة ـ وما نلقاه فيها من روح وريحان وكلمة « رغدا » توحى بالهناءة والسعادة والسرور وراحة البال · وفى قوله : « حيث شئتما » ايحاء باليسر ـ واشباع الرغائب ـ واجابة المطالب اجابة تخضع لرغبة الانسان !!

ومع ذلك فقد وقع المحظور ·· واستجاب آدم للغواية ·· وهو يعطى أن ابليس له مقدرته الهائلة فى الشر لأنه متخصص فيه ··· وفى قوله سبحانه : [فأزلهما] أى زحزحهما ما يفيد بذل الجهد ـ والطاقة لتحقيق الهدف ·· فلم تكن هذه الزحزحة التى توشك أن نسمع من خلال اللفظ صوتها الا بجهد غير عادى ـ ومع طيب المقام فى الجنة ـ وأخذ العهد من الله ـ تمت الزحزحة وانزلق آدم الى الأرض يكدح ويسعى ويحقق ذاته فى جهاد أصيل ·· فهل لنا بعد ذلك أن نأخذ حذرنا من أساليب أعداء الله ـ عملاء الشيطان ـ وحزب ابليس ـ ونحلل كل ما يصدر عنهم من زيف وباطل حتى لا يصدونا عن سواء السبيل ؟·· انه لدرس الساعة من هذه الآية الكريمة ·

تاسعا : قوله سبحانه : « وقلنا اهبطوا » تصوير يوحى ببعد الشقة بين الجنة والأرض ·· كما يوحى بأثر الخطيئة فى حياة البشر ·· فان الذى حدث بعد ذلك هو « هبوط » أى نزول

---

(١) آية ١١٦ سورة النحل ·

من أعلى ٠٠ فلنحذر من الخطايا لنظل فى المكان العالى ٠٠ بعيدا عن ابليس ٠٠ وفيه اشارة الى أن المعركة بين آدم وابليس قد انتقلت من نفس الانسان ــ ومن الملأ الأعلى ــ الى ساحتها الطبيعية وهى الارض لتظل ملتهبة الأوار الى يوم الدين ٠٠ وهذا دليل على أن الخطيئة ليست بعيدة عنا ٠٠ بل هى جزء من كياننا ــ ولعل ما وقع لآدم من اغواء رغم العهد مع الله ــ يوحى بذلك ٠٠ حتى لا نتهالك أسى ولوعة اذا ما صادفنا شىء منها فى الحياة ٠٠ وانما ينبغى أن ننهض من الكبوة سريعا لنجدد العهد مع الله ٠٠ وذلك قوله سبحانه : [فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه] تلك الكلمات هى تذكيره بالعهد مع ربه ــ وتلقينه التوبة النصوح والهامه أن يعتذر عن زلته ويندم عليها ــ وهدايته بعد ضلال ٠٠

ولذا كانت الثمرة « فتاب عليه » وهكذا كل بنى آدم خطاء ٠٠ المهم الاعتذار السريع ــ والندم على ما وقع ــ وتجديد العهد مع الله ٠٠ ثم استئناف المسيرة على طريق الايمان ــ والانتفاع بهذا الدرس وليس يعنينا أن نعرف اسم الشجرة أهى النخلة ؟ أهى التفاح ؟ أو الكرم ، أو القمح ؟ كما لا يعنينا اسم المكان الذى نزل فيه أهو الهند أم غيرها ٠٠ كالكعبة مثلا ٠٠ لأن سر ذلك الى الله ٠٠ وليس وراءه أية ثمرة ٠٠

والكلمات التى أوحى الله بها الى آدم ٠٠ هى كلمات التوبة مهما يختلف تحديدها عند المفسرين ففى فتح القدير للشوكانى : أن الثعلبى روى عن ابن عباس أن هذه الكلمات هى : [ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين (١)] وروى أن ابن عباس سئل عنها فقال : [علم شأن الحج] وقيل هى : [لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من

---

(١) آية ٢٣ سورة الأعراف .

الظـالمين (١)] ٠٠ كلُّ ذلك معقـولٌ ٠٠ ولا يخرج عن التوبـة النصوح ومهما يكن من شيء فان الله تقبل منه الاعتـذار وتاب عليه ٠٠ وهذا يدل على أن انزاله الأرض بعد ذلك ليس عقوبة على الزلة ٠٠ وانما هو لتنفيذ ارادة الله وقدره ٠

والمجاهدة لاشـك هى وسيـلة آدم وأبنـائه للتخلص من ابليس وعمـلائه ٠٠ وهى مجاهـدة نفسـية حين يكون مجالُ الصراع داخل النفس ٠٠ ومجاهدة خارجية حين يكون مجالُ الصراع أرض الله وضد أعدائه ـ على الانسان فى غمرة هـذا الصراع المرير أن يذكر عهد استخلافه مع ربه فى المـلأ الأعلى وأن يجعل شعاره فى الحياة : (عدوى ابليس وعملاء ابليس ، وكل باطل على وجه الأرض وكل ضلال يقع وكل ما يهدد كرامة الانسان) ـ واذا ذهل عن هذا الشعار ساعة أو بعض ساعـة وجب أن يرد اليه سريعا فيقال له : « اعرف عدوك » والآيـة كلها تؤكد بأن الخطيئـة فردية ـ وأن التـوبة فردية وأن كلُّ واحد من أبناء آدم وبناته مسـئول عما يقع منـه مسئوليـة شخصـية ٠٠ واذا قصر فى المتاب فعليـه وحـده اثم التقصير ليست هناك خطايا مفروضة علينا ـ وانما تخضع فى مقاومتها للمجاهدة وكبح جماح الشيطان [فمن يعمل مثقـال ذرة خيراً يره ـ ومن يعمل مثقـالُ ذرة شراً يره (٢)] [ولا تزر وازرة وزر أخرى (٣)] ٠

وبهذا يرد على المسيحية التى تزعم بأن المسيح قد تحمل خطايا البشر « عندما صلب » وهى فرية يكذبها المنطق ٠٠ مـا ذنب المسيح حتى يكفـر عن الخطائين ؟!!

---

(١) آية ٨٧ سورة الأنبياء .
(٢) آية ٧ ، ٨ سورة الزلزلة .
(٣) آية ١٥ سورة الاسراء .

والسياق يفيد أن العالم كله صادر عن الله فينبغى الحفاظ عليه ليظل على نقاوته نظيفـا من الشرور والآثام بعيـدا عما يغضب الله ـ تقام فيه حدوده ـ وتلتزم مانهجـه ـ وتتبـع شريعته « فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » « فمن تبع هداى فلا يضل ولا يشقى » ٠

ويفيد السياق أيضـا بأن الأرض ليست ساحة عذاب ـ سجنت فيها انسانية شريرة ٠٠ وكيف نتصور هذا مع قبـول التوبة من آدم ـ والهام الله اياها وتلقينه الكلمات عن ربـه ـ والقرآن يصرح بأن الأرض ساحة مباركة ـ يزدهر فيه نشاط الانسان وتنطلق ملكاته المبـدعة ليستثمر كنوزهـا ـ ويعمر جوانبها ـ ويحكم فيها بالعدل والقسطاس ٠٠ وينشىء فيهـا أروع الحضـارات على حين أن العهد القـديم يلعن الأرض ـ ويجعلهـا ساحـة جحيم ٠ ٠ وكم لليهـودية والمسيحيـة من خرافات !! ٠٠ ونفهم مما مر أن هبوط آدم من الجنة على هذا الكوكب لا صلة له بظهور الانسان الاول على ظهر الأرض ـ اذ لا دليل فيها على نفى ذلك أو ثباته ٠٠ وانما تعبر فى دلالتها العامة عن ارتقاء الانسان من البدائية المطلقة ـ الى الشـعور بأن له نفسا حرة قادرة على الطاعة أو العصـيان ـ ولا يعنى المدلول أكثر من هـذا ٠٠ ليس فيها دليـل كما يتقـول بعض الكاتبين على الفساد الأخلاقى لدى الانسان بقـدر ما فيها من التعبير عن الطبيعة البشرية التى من شأنهـا أن تذكر العهـد حينا مع الله فتستقيم ـ وتنساه حينا فتنحرف !!

يقول الفيلسوف اقبال فى كتابه « تجديد التفكير الدينى فى الاسلام » : « ان القصـة تعبر عن انتقـال الانسـان من الشعور البسيط الى أول بارقة من بوارق الشعور بأن للانسان نفسا حرة ـ تحس بوجودها ـ وتستخدم ارادتها ـ هذا الى

أن القرآن لا يعتبر الأرض ساحة للعذاب سجنت فيها انسانية شريرة العنصر بسبب ارتكابها خطيئة أصلية ـ لأن المعصية كانت أول فعل تتمثل فيه حرية الاختيار ولهذا تاب الله عليه وغفر له » ٠

وهذا كلام ممتع ، وتفسير جذاب كعهدنا باقبال ـ نضيف اليه أن المعصية التى وقعت من آدم كانت بمثابة التعبير عن الطبيعة الانسانية التى ركبت فيها الشهوة ٠٠ مضافا الى ذلك أنها تجربة تمثلت فيها حرية الاختيار وبهذا يتكامل الموضوع ٠٠ ويذهب اقبال الى أن الأكل من الشجرة تعبير عن الرغبة فى المعرفة من جانب آدم وزوجه ٠٠ وما حدث معهما من ظهور السوأة تعبير عن التكاثر والقوة لأن النفس من حيث هى نفس تنشد المعرفة والتكاثر والقوة لتحقق ـ الخلد ـ والملك الذى لا يبلى ٠٠

وينقل الأستاذ اقبال فى كتابه (١) السالف تفسيرا للآية فيه طرافة وجمال ينقله عن الكاتبة الرمزية القديمة « مدام بالفاتسكى » فى كتابها « المذهب السرى » ٠٠ فيقول على لسانها :

« ان الشجرة تعنى عند القدماء رمزا خفيا الى علم الغيب ـ وواضح أن آدم حرم عليه أن يذوق الشجرة ، لأنه نفس متناهية ـ ولأن عتاده الحسى وقواه العاقلة كل ذلك بصفة عامة مهيأ لنوع آخر من أنواع المعرفة ـ هذا النوع هو الذى يقتضى الكد والمعاناة والملاحظة ولا يقوى الا على التجمع البطىء ٠٠ ولكن الشيطان أغوى آدم على أن يأكل من الثمرة المحرمة٠٠من شجرة

---

(١) ص ١٠١ كتاب تجديد التفكير الدينى لاقبال ٠

المعرفة ـ وانقاد له آدم لا لأن الشر كان متأصلا فى نفسه ـ ولكن لأنه كان عجولا بطبعه أراد أن يحصل المعرفة عن أقرب طريق ـ وكان طريق تقويم هذا الميل فيه أن يوضع فى بيئة مهما تكن مؤلمة له ـ لم يكن القصد منها عقابه ـ بل المراد من ذلك ـ القضاء على صد الشيطان له الذى احتال بسبب عداوته للانسان بلين القول على أن يبقيه جاهلا للنعيم الذى ينشأ عن انو والامتداد الخالدين ـ ولكن بقاء ذات متناهية فى بيئة كنود يتوقف على التزايد المستمر للمعرفة القائمة على التجربة الواقعة وتجارب هذه الذات المتناهية التى تنفسح أمامها امكانات عديدة ـ وهذ هالمعرفة تزداد وتتسع بالمحاولة والخطأ وعلى هذا فان الخطأ الذى قد يوصف بأنه من الشر عامل لا محيص عنه فى بناء التجربة » ا ٠ هـ

نقلت لك هذا التفسير لجماله وروعته ٠ واتساقه مع المنطق السديد والفكر المتفتح ٠٠

ومنه يؤخذ سبب طريف لاستنزال آدم من الجنة الى الأرض ٠٠ هو أن يقاوم تلك البيئة الكنود ويحصل المعرفة بالأناة والمهل والتجمع البطىء شيئا فشيئا لأن ذلك هو سبيل اكتساب المعرفة للانسان ـ وهو سبيل انماء التجربة الانسانية ٠٠ أما العجلة فى الحصول على المعرفة فضد طبيعته ٠٠ ولذا رفض القدر تلك الفعلة الصادرة من آدم وهى الأكل من الشجرة متعجلا قطف ثمار المعرفة وهو لا يطيق ذلك دفعة واحدة ٠ ٠

بل يحصل المعرفة على مهل وأناة وترى الكاتبة أن الأرض بستان مبارك يستثمر الانسان فيه علمه وأنه ليس سجنا له ولا عقوبة على فعلته ، بقدر ما كان تقويما لسلوكه ى تعجل المعرفة ٠

ولسنا نستطيع أن نقطع بأن الشجرة كانت رمزا للمعرفة ولا لغيرها بقدر ما يعنينا أن نفهم بأنها رمز الى المحرمات التى ينهى الله عباده عنها على امتداد الزمن والله أعلم ٠

قيم حضارية تعبر عنها آية الاستخلاف :

من المفيد جدا بعد الدراسة الموضوعية لآية الاستخلاف أن نستقطب القيم الحضارية التى تنضحها هذه الآية لنستثمرها فى وجودنا ٠٠ ونستفيد بها فى تأسيس حضارتنا :

١ ـ أن الانسان هو الأساس الوطيد فى بناء أى حضارة عظيمة ، تتوفر فيها المعانى الانسانية ، والقيم النبيلة ، فينبغى الحفاظ على كرامته ، والاعتزاز بخصائصه وتقدير مواهبه ٠٠ واقرار شهواته ٠٠ لتأخذ الفطرة الانسانية امتدادها فى بناء الحضارة ولا شك أن نفاسة العنصر الانسانى ، ووضعها فى المحل الأول تمكنه من بناء حضارة الأحرار ٠٠ أما استعباد الانسان فانه لا ينتج الا حضارة العبيد ٠٠

٢ ـ أن الله جلت قدرته قد توج ذلك الانسان بتاج العظمة والجلال فى الملأ الأعلى ووكل اليه عمارة الكون وبناء الحياة ٠٠ وسخر له قوى الطبيعة كلها تسهيلا لمهمته وتيسيرا لرسالته ٠ ودعما لكرامته ٠

ـ أن الانسان انما يستمد كرامته فى الأرض من منبع واحد فقط ، وهو تذكره لعهد ربه الذى أخذه عليه فى الملأ الأعلى، ليظل دائما فى حمى الله ، فلا تستذله قوى الشر ، ولا ترهقه قوانين البشر ، ولا يستغويه الشيطان فيصده عن ذكر الله ، وعن الصلاة ٠٠ وكل ذلك يقتضى أن يقر الانسان مشيئة الله فى أرضه ويحرس مبادئه ، ويقيم حدوده ٠٠ ويحمى هذه

المبادىء أن تنال منها قوى الشر ، أو تحطمها ارادة البغى ٠٠ أو تعبث بها شياطين الانس ، وفى ذلك أمنه واستقراره وهداه وبذلك تتهيأ الساحة الحضارية النظيفة التى تشيدها قوى العلم والايمان ٠

٤ـ أن نسيان هذا العهد هو الخسران المبين ، لأنه يقود الى العصيان والكفر ، ومحال أن تنشأ حضارة انسانية فى ظل الفجور والالحاد لأنها تصادم فطرة الانسان وتعاند خصائصه٠

٥ ـ أن مناهج الحضارات لا يمكن أن نتصورها فى قوانين من وضع البشر ٠٠ لأن الانسان عاجز عن فهم نفسه ، وادراك ذاته ٠٠ وانما المنهج الحق هو ما وضعه العليم الخبير الذى خلق فسوى وقدر فهدى ٠٠ « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » ومن ذا الذى يفهم الانسان الا خالق الانسان ؟!

٦ ـ أننا عندما ننظر فى الحياة من حولنا نرى آثار المناهج البشرية ، تجربة شاذة تعيشها انسانية تعيسة ان فى الشرق أو الغرب ٠ وعندما تكون النتائج تجارب واقعية فانها تعطى العظة وتمنح الهداية ، وقد مضى ذلك فى الصفحات السابقة ٠٠ وأنها لم تنشىء الا ذاتا ضالة حائرة شقية تعيسة خائفة مضطربة !!

٧ ـ الله جل جلاله ، والانسان ، والكون ، وحدة متماسكة فى جو الآية الكريمة ٠٠ الله ، خالق الكون ، وبارىء الانسان ٠٠ وهما معا يستمدان من الله ٠٠ ويتحركان بارادته٠٠ والانسان، نفخة من روح الله ٠٠ وقطعة من الطين ٠٠ والكون سماؤه وأرضه من صنع الله وتسخير الكون للانسان يتم بتيسير الله ٠٠ وتفاعل الانسان من عناصر الأرض يتم أيضا بالهام

الله ·· والمعرفة التى يفتقر اليها الانسان ليـدعم وجوده على ظهر الأرض نفحة من العلى القـدير ، والهـداية التى يستظل بها تكمن فى العهد الذى أخذه على الانسان ··

وعندما نبنى حضارة خالدة فلابد من رعاية هذا الترابط·· وترجمته الى واقع ·· قيمة الانسان فى تمسـكه بعهـد ربه ، وعمله بمنهجه ، واستفادته من علمه فاذا فسق عن ذلك فقـد غوى ، وقيمة الكون أن يتخذ منه الانسان مجالا للفكر ، ومقرا للبناء والعمل ··

وما دام الانسان والكون مصدرهما واحد ·· فان عليهمـا أن يتآخيا فى رحلة الحيـاة ·· فاذا تم التآخى بين الانسـان وكونه تم له الخير كله وتمكن من الجهاد النبيل لبناء حضارة انسانية · وفى انفصالهما ، جهل بأبسط النواميس ·· وكيف ينفصل الانسان عن كونه مع أن ربهما واحد ؟! الله سبحانـه يوحى بالمنهج ، والانسان يتلقى عن ربه ويصـدع لمشيئتـه وأمره ، والأرض هى ساحة الحضارة التى تستغل عناصرها فى البنـاء والتشييد ·

٨ ـ أخطر ما يهدد الحضارات الانسانية هو انفصالها عن الله ، ونسيانها العهد ، وكذلك الانفصام الذى يحدث أحيـانا عندما ينفصل الانسان عن البيئة ، فلا يتدبر ولا يكتشف ولا يمضى فى التجارب ·· وكل هـذه الأخطـار تكمن وراء ابليس وعملائه ·· من عبادة المـادة ، وتقـديس المـال ، ومغامسـة الرذائل ·· وتلك هى مآسى حضارة اليوم ·

والمنهج الحضارى يكمن فى قوله سبحانه : [فمن اتبـع هداى فلا يضل ولا يشقى] ·

الايمان ٠٠ وأنها كانت نماذج رفيعة فى الفن والعمارة وغيرهما وأن بعضـــها قد عاش حتى انقضى دوره التاريخى ٠٠ ليحـــل محله غيره مما هو أكثر ملاءمة لتطور البشرية الصـــاعد ٠٠ وأن بعضها الآخر قد انحرف عن الله فأذاق أصحابها لباس الجوع والخوف وصب عليهم ســـوط عذاب ٠٠ وبتحليل عناصر تلك الحضارات من خلال العرض القــرآنى سندرك أن حـــظ العقلية الانســـانية من الابداع عريق جـــدا فى التاريخ ٠٠ يضرب الى أزمنة بعيدة !!

وبعض نماذج تلك الحضارات نحس بالتعاطف معها حين نقرأ وصفها ونحلل عناصرها وبعضها ننفر منه لجنوحـــه الى الوثنية وشروده عن الله وتوغله فى الفســـاد ٠

هناك حضارات قديمة جدا كالسومرية والمصرية والنبطية والسوريانية وهناك السبئية والعادية والثمودية ٠٠ وهناك حضـــارات قـــد داخلها عنصر الاعجاز كالداودية والسليمانية وسيكون تحليلنا للحضارات التى وصفها القـــرآن أساسا لفهم عناصر الحضارات القديمة ونقل بعضها عن بعض ٠٠ وتشابه عناصرها ٠٠ ووحدة نتائجها عندما تنفصل عن الله ٠٠

أما ماعدا تلك الحضارات القديمة التى وصفها القرآن ٠٠ فيمكن أن نشير اليها ونعقد المشابهة بينها وبين نظائرها ، ٠ عندما تستقيم الحضارات على منهج الحق ـ وترعى حـــرمات الله ٠٠ وتصغى لصـــوت النبوات فـــانها تزكو وتتكامل ٠٠ وبخـــاصة عندمـــا يجتهد أصـــحابها فى العمـــل ، ويجـــدون فى السعى ٠٠ ويتحركون بتجاربهم ـ عندئذ يبارك الله جهادهم ـ ويسدد خطاهم ويمكن لهم فى الأرض ٠

وعندما ينحرف أصحاب هذه الحضارات الرائعة عن الله ٠ وتســـكرهم نشـــوة المظاهر فيألهون وينتفخون ويتبجحـــون

بالمعاصى فيضلون عن سواء السبيل عندئذ تصبح حضـارتهم أثر ابعد عين ـ قصصا تحكى ـ وأحاديث تروى ـ وعبرا تقال فى مجال العظة و التأسى وسنعرف أن توفيق الله للبشرية مرتبط بذكر العهد مع الله ٠٠ فاذا غفلت عن هذا العهد ضلت طريقهـا فى الحـياة فتمزقت وحـدتها ووهنت قـوتها وتفتتت إرداتها وضاعت « هويتها » وتخطفتها الشياطين !! لأن رحمـة الله لا تتنزل على مجتمـع آثم ـ يهدر كرامة الانسـان ـ ويمتهن خصائصه ـ ويحتقر قيمة الرفيعة ٠ ٠ انه فى هذه الحالة يتحول تلقائياً الى مجتمع حيوانى هابط أو رجعى فاجر ٠٠٠ لأنه رجع بخصـائص الانسان العليـا الى غريزة القطيـع ـ وبفضـائله الرفيعة الى شريعة الغاب وأطلق هذه الغرائز الحيوانية تنزو وتعربد !! حين تكون « انسانية الانسان هى القيمة الرفيعة فى أى مجتمع ، وتكون خصائصه الانسانية موضع التكرم يكون هذا المجتمع متحضراً تقدمياً لأنه يغالى بخصـائص الانسان ويرتفع بها الى الملأ الأعلى ٠ ٠ مرتبطاً بهذا المستوى العالى فلا تتخطفه الآثام ولا تتحيفه المفاسد ـ ولا تعبث به الشياطين ٠

وحيثمـا عبدت المـادة وقـدست قيمها فقـد ذهب المعنى الربانى وانكفأ البشر فى حمأة الرذيلة فعبدوا البقر أو الشجر أو القمر أو الأشخاص وأضحت المعانى الانسانية باهتة ممتهنة ٠

وسبيل صـنع الحضـارات يتوقف أولا على المنهج الذى يتجاوب مع فطرة الانسان وعلى ارتباط البشر بذلك المنهج ـ وتطبيقهم اياه وتمكينه من أداء دوره فى الحياة ، عندئذ يستقيم حـالهم ٠ وتبرز مواهبهم الكامنة ـ وتزدهـر عقولهم الواعية وتشرق أرواحهم الطاهرة ٠ فيلهمون أسرار الحكمة ، ويتفاعلون مع عناصر الكون تفاعلا صحيحاً ، فيبنون صروح الحضارات ، ويعمرون جوانب الحـياة ويرفعون لواء المعـدلة ـ وينشـئون

معاقل المدنية ٠٠ ويكونون حصن الأمان للبشرية جمعاء تأوى الى ظل ظليل من انصـــافهم ومكارمهم ٠٠

ولقد مرت البشرية أثناء رحلتها الطويلة الممتدة على درب التاريخ بفترات أضـــاءت فيها جـوانب حـياتها بنور الله ـ فـــارتبطت مبنهجـــه ـ وســـــارت على هداه فكـــــونت أزهى الحضارات ، وبنت أروع المدنيات ٠ ٠

كما مرت بالبشرية أيضاً فترات هبوط واسفاف أبعدتها عن الله فتخطفتها صروف الحياة وطمع فيها أعداء الله فساموا أهلها ســـــوء العــذاب [وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفســـهم يظلمون (١)] ٠

أى قيمـــة للمعاقل الضـــخمة ، والعمائر الفخمـــة والبروج المشيدة والمروج النضرة والجنان العطرة ، والقـــلوب خاوية من الايمان والنفوس مستعبدة بالشيطان ؟ !! وانما القيمة لمعانى الايمان تحفز الهمم وتحرك السواعد وتملأ قلوب الناس بالثقة والأمـــل ، وتباعـــد بينهم وبين الرذائل ماظهر منها ومـــابطن ، وترفع هاماتهم الى السماء ليستمدوا العون من الله ، ويستلهموا رشـــده وهـــداه ثم يقبلوا بهذا الايمـــان على عمـــــارة الأرض وتلك هى مقومات السيادة فى الأرض ٠

الأديان والمـــادة :

والأديـــان كلها لا تحتقـــر المـــادة ولا تهمل أمرها بل انها لتزجها بالروح وتلائم بينهما فى كيان الانسان وسلوكه حتى لا يطغى عنصر على عنصر ٠

---

(١) آية ٣٣ سورة النحل .

أما حين تعبد المـادة وتصبح الهاً يرجى ويهاب فان الاديان جميعاً تحاربها لأنها ضد طبيعة الانسان ٠ ٠ هذا هو طابـع الأديان السماوية وموقفها من المـادة ٠ تؤازرها ، وتستفـيد بها فى رحلة الحياة ، ولكنها لا تسمـح لها أن تطغى أو تتحكم لأنها ليست كل الفطرة ، وانما هى عنصر من عناصرها ٠ ٠

ويتميز الاسلام من بين الأديان بأنه لاءم ملاءمة دقيقة بين عنصرى الفطرة ، ولم يسمح لأحدهما أن يحيف على صاحبه ٠٠ لأن هذا الحيف ضرر بالغ على الفطرة نفسها وعلى الحياة ٠ ٠ حين تطغى الروح تتجه بالانسان الى السلبية والفرار من الحياة كما فعلت الرهبنـة ٠٠ وحين تطغى المـادة تقـود الانسان الى الحيوانية ٠ ٠ وعندما يتوازنان فى كيان الانسـان فانهما معاً تقودانه الى كل خير وصلاح ٠

وفى عصور الانحطاط الدينى ، تمكنت المـادية القائمة على نوازع الأثرة وقوانين المنفعة وانتهاز اللذائذ ، وتملق الغرائز ، أن تكسب الجولة ضـد الأديان التى لها مقام موقر لارتباطها بوحى السماء كاليهودية والمسيحية ثم الاسـلام ٠ ٠

كل ذلك لأن الأديان لم تعبر عن نفسها تعبيراً صحيحـاً فى المجـتمعات الانسـانية ٠ ٠ اما لأنها انسحبت من ميادين الحياة راضية عندما قبعت المسيحية فى الأديرة مختارة ، واما لأنها أجبرت على ذلك كما حـدث للاسلام عندما ضـعف أهله وخضعوا لخرافة « الفصل بين الدين والحياة » أو لخرافة « الدين عدو التطور » مع أن هذه العاهات ابتداع صهيونى استعمارى مادى يقصد به حجب أضواء الهداية عن الحياة ، حتى تعتكر آفاقها بالظلام فيتمكنوا من سرقة الضمائر والسطو على ثروات الشعوب وسحق مقوماتها ٠ ٠ لتستسلم وتنقاد ٠ ٠ وتصبح قطعاناً شاردة يسهل السيطرة عليها ، وهؤلاء جميعاً يخططون

بمنتهى الذكاء والدقة ، ويعرفون أن الاسلام هو مناط التحرر ، ومصدر الحياة ومنبع الكرامة والعزة للأفراد والجماعات . وأنه يستحيل عليهم مع تطبيق أحكامه ، وسيادة نظامه أن يقر لهم قرار فى بلاد العرب والمسلمين ٠

ولقد وقف أحد رؤساء الوزارات لبلد أوربى كبير فى مجلس شيوخه فقال لهم فى عصبية : مادام هذا المصحف فى الشرق فلن نتمكن منه ٠٠ « وكان يمسك بالمصحف فى يده » ولطالما تعرض الاسلام لحملات الدس والتشكيك ، وهو برغم ذلك يمضى فى طريق الحياة لا يلوى على شىء ٠٠ ويستقر فى ضمائر الصفوة الممتازة من أبنائه فى كل موقع من الأرض الاسلامية ٠٠ فاذا أتيح له حظ من قوة أبنائه ، أخذ طريقه الى التطبيق والممارسة فاذا اعترض اللصوص سبيله لاذ بالقلوب ، ولجأ الى المساجد ٠٠ على غير ارادة منه لأنه ليس للقلوب وحدها ٠٠ بل لتشرق أضواؤه على الحياة ٠٠ حكما وسياسة وتوجيها وقيادة

والأمل كبير فى الله ، أن يتيح لهذا الدين تمكينا وسيادة ٠ ليسود نظامه ، وتطبيق أحكامه وتخفق أعلامه ويومئذ تتحرر موازين العدل ، ويرتفع قدر الانسان ، وتتحقق مشيئة الله ٠٠ وبخاصة وأن النظم المادية جميعها قد أفلست فى تحرير الحياة من الظلم ، وفى اعزاز مقام الانسان على وجه الأرض !!

نظرة على حضارات العالم قبل القرآن :

مهما يكن من شىء فلا بد من تحليل خاطف للمجتمع الانسانى قبل البعثة المحمدية ليعرف القارىء من خلاله أى ضلال كان يسود وأى هوى كان يقود وأية وجهة شريرة كانت تتجه اليها الانسانية مستسلمة للشيطان ذاهلة عن الرحمن ٠

وقد حدثنا القرآن عن حضارات قديمة بلغت درجة رفيعة فى الامتياز المـادى ـ ولكنها عندما أخذت زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمر الله فصارت حصيداً كأن لم تغن بالأمس ثم بقيت معالمها الشاحبة أطلالا تثير الشجن ـ وتبعث على العظة والتأسى ـ وتنطق بما أصاب أصحـابها من بوار ودمار ٠٠ والقرآن يطلب الينا أن نسير فى الأرض ـ وننظر فى تلك الآثار لنستنبط العظات والعبر ـ ونتعرف على أحداث التاريخ ٠٠ من خلال هذه التأملات ولنقرأ فى ذلك قول ربنا : « أفـلم يسـيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها (١) » ٠

حضارات شادها الايمان ـ ودمرها الكفر ـ فذهبت وذهب أصحابها من الوجـود ٠

وما أكثر مايكرر القرآن هذا الطلب ٠٠ ويجعل منه مصدراً خصباً للمعرفة التاريخية ٠ ومثاراً للعظة والاعتبار ٠٠ انه لا يطلب النظرة العجلى ـ ولا الرؤية السريعة ٠ ولكنه يطلب الينا أن نتأمل الآثار بدقـة ـ ونعرف الأخبار ـ وندرس الاسـباب ونفقه النذر لنتبين من خلال ذلك أنباء قوم كانوا سادة فذلوا ـ وكانوا عتاة وطواغيت فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ولنقرأ فى ذلك قول الله تعالى « أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وماكان لهم من الله من واق (٢) » ٠

ويقول سبحانه : « أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (٣) » ٠

---

(١) آية ١٠ سورة محمد ٠ (٢) آية ٢١ سورة غافر ٠

(٣) آية ٩ سورة الروم ٠

ان القرآن يثبت لمن كان قبلنا من الأمم قوة وفراهة وآثارا ٠ ويؤكد لنا أنهم عمروا الأرض وشادوا المعاقل وأقاموا الحصون ، وتلك هى المعالم الحضارية لأولئك الأقوام ولكنهم بعد ذلك لم يستقيموا على منهج الحق ـ وانما زين لهم الشيطان أعمالهم ـ وهو عدو متربص للحضارات العظيمة ٠ ٠ فانحرفوا عن الهدى ـ وأسرفوا فى المعاصى ـ وأمعنوا فى الترف ـ وأغرقوا فى الغواية وتجاهلوا صوت الوحى ـ وتنكبوا سبيل النبوات ٠ ٠ فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ٠ ٠ وجعل حضارتهم قاعاً صفصفاً ـ لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ٠ ٠

ولنأخذ الآن فى التحليل الموضوعى لبعض الحضارات التى تحدث عنها القرآن محاولين أن نقف وقفات تأملية مستلهمين الاسرار الخوافى التى تكمن وراء الألفاظ والتعبيرات ٠

لنخرج بحصيلة مباركة تعيننا على تفهم نشأة تلك الحضارات وتطورها ٠ ٠ وازدهارها ثم ضمورها واضمحلالها حين تخالف قانون الفطرة وتناقض طبيعة التطور ٠ ٠ وتصادم قوانين الهدايا ـ وهذا لا شك نوع من الدراسة المحببة لأنه يعطى عطاء سخيا فى مجال علوم النفس ـ والحياة ـ والاجتماع ٠ ٠ ويثرى هذه المعارف بكثير من القواعد العامة والنظريات السديدة فتتألق وتزدان وتؤتى أكلها باذن ربها ٠

ان هذه الآيات بتعبير دقيق ٠ ٠ صفحات تاريخية ـ فى سجل واع ـ تترقرق بالحكمة ، وتتدفق بالعظة وتنضح بالمعرفة الصحيحة قد أسبغ عليها الحق جلاله ـ وأفاض عليها الوحى جماله فأشاع فيها الحيوية والنبض ـ وحرك أحداثها تحريكا يثير النفس ، ويلهب الحس ويلهم العظة والادكار ٠ ٠ وجدير

بالذكر ـ أن نشيد بهذه الآيات الموضوعية التى تحمل الينا أنباء التاريخ السحيق فى أجل معرض وأجمل صياغة وأروع تعبير ٠

فوق ماتحمله من تأثير عميق فى الضمير والوجدان ٠٠ بما تحدثنا به عن مأساة البعد عن الله وتجربة الاغراق فى الشهوات ـ وما كان لذلك كله من أثر فى تحطيم الحضارات ـ وتهديم صروحها الشامخة ٠٠ واشادتنا بهذه الآية تعنى أن تصبح بالذات محوراً لدراسات موضوعية تتشابك فيها معارف شتى ـ وتتشاجن فيها علوم كثيرة ـ ثم تستنبط منها العبر والعظات ٠.

ومهما يذهب الانسان بعيداً عن هذا المجال ٠٠ فسيضل فى أدغال التاريخ ٠٠ ويضيع فى شعابه ويخرج بحقائق ضئيلة تطمسها ضلالات كثيرة ٠٠ أما القرآن فنبع المعرفة السديدة التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ٠٠ وهذا وجه من وجوه الاعجاز ـ و « هو الاعجاز التاريخى » و « الاعجاز العلمى » الذى يتمثل فى قوة الايحاء وصدق الدلالة وأسرار التطور الانسانى عبر التاريخ !! والقدرة على العطاء السخى لعلوم النفس والحياة والطب والاجتماع وكل مايرتبط بالانسان أو يدور فى فلكه،سيقول أقوام من الناس فما بال هذه الدراسات التى ابتعدت عنا وأغرقت فى القدم وطواها التاريخ ؟ أليس الأجدر بنا أن نهتم بتجارب الحاضر لاننا نعيشها ونرتبط بها؟

ونقول لهؤلاء ما قاله شوقى :

واذا فاتك التفات الى الماضى

فقد غاب عنك وجه التآسى

على أن الحضـــارات كلها سلسلة محــكمة السرد ، متينة الحلقات يؤثر سابقها فى لاحقها ويتأثر حاضرها بماضيها ٠ ٠ ومالم نبن جديدنا على أســـاس من القــديم فـــان البناء يكون ضعيفاً فلنأخذ من القديم أحسنه وفى القديم جلال ، ومن الجديد أحسنه وفى الجديد جمال ولنمزج القديم بالجديد ينشأ لنا عن ذلك حياة مباركة طيبة ٠

على أن تجارب البناء الحضارى ، وأسس قوته ، اذا نبعت من القرآن يكون لها شأن آخر ٠ ٠ فى الهداية الى الحق ، والاتجاه الى الخير والعصــمة من الضـــلال ٠

قضـــايا حضـــارية :

ينبغى أن نوضــح مجموعة من القضـــايا الهامة المرتبطة بالبحث الحضارى قبل الشروع فى تحليل الآيات ٠

وأولها : أن الحضارات الانسانية ليست ملكا لأمة بعينها ولا هى وقف على جماعة من الناس لأنها صرح هائل قد أسهمت فــيه كل أمة بنصــيب ٠

ثانياً : أن هذه الحضـــارات قد تتشابه فى مظاهرها ، وفى عناصرها وفى أسلوبها ولا سيما اذ تعايشت فى جهات متقاربة يسهل أن يؤثر بعضها فى بعض ٠

ثالثاً : أن النقل الحضارى ليس عيباً ، مادام لا يلغى ذاتية الامة ، ولا يضر بخصائصهـــا ولا يسىء الى كرامتهـــا ٠ لأن الانفتاح صفة جوهرية لكل حضارة متألفة ، لا تصد بالتعصب ، ولا تتوقف بالجمود ، ولا تنطوى على نفسها ٠ ٠

رابعا : أن هذا النقل الذى لا تعاب به الحضارات ، لابد أن يساير تقاليد الأمة المنقول اليها ، ويتمشى مع آدابها ومثلها · ويكون قائماً على الاستيعاب الذكى ، الذى ينقل العصارة الصالحة ، دون الالياف الضارة ·· والأوشاب السيئة ·

خامساً : عملية النقل الحضارى ليست بالأمر السهل · فان وراءها أخطاراً مدمرة اذا لم تتم على وجهها الصحيح ·· انها تشبه الى حد بعيد عملية نقل الدم · تتم بعد معرفة فصيلة الدم وملاءمتها للمنقول اليه · وأيضاً لا بد أن تكون بقدر والا غدت خطراً يهدد بالموت ·

سادساً : أن ازدهار الحضارة وتفتحها مرتبط بالعلم الذى يجدد فى أسلوبها ويحرك فى تجربتها ، ويضمن استمرارها ·· ويحول بينها وبين الرجعية والجمود · وينفتح على آفاق الحياة من حولها ، ويقتبس لها مايزيدها فاعلية واقتداراً ، كما تتوقف على الايمان الذى يربطها بالله ، بينها وبين الرذائل ويجنبها السقوط والتردى ·

سابعاً : ليست قيمة المؤسسات الحضارية فى فخامتها وبهائها وشموخها : وانما بما تقدمه للانسان من فرص كريمة لانماء مواهبه ، واعلاء سلوكه ، وانعاش فطرته ·

ثامناً : أن الترف ، آفة تمحق الحضارات ، وتأتى على بنيانها من القواعد ، لأنه ظاهرة اجتماعية سيئة ، تنمو فى أرضه جراثيم العفن الخلقى كلها · ومفاسد الحياة جميعها وبخاصة حب الاستبداد والطغيان ·

تاسعاً : أن للحضارة دورة تاريخية ، اذا تجاوزتها · بدأت فى الأفول لتحل محلها حضارة أقدر على النهوض بمطالب

الانسان ٠ وهكذا تتعاقب الحضارات على الانسانية فى دورات متتابعة ٠ ٠ وهى ظاهرة صحية لا تدل على افلاس الحضارة السابقة بقدر ماتدل على طموح الانسان ونزوعه الى حضارة أفضل[١] ٠

لكن هناك حضارة واحدة تظل مزدهرة متألقة ٠ ٠ هى حضارة القرآن ، طالما تستمد وجودها من توجيهاته ، وماتزال فى ارتقاء صاعد ، حتى تبتعد عن مصدرها الأساسى فاذا بها تضعف وتضمحل وتنحط بقدر ما تبتعد عن القرآن ، فاذا عادت الى القرآن ، عاودها الازدهار وهكذا دواليك ٠ واليك نماذج من الحضارات القرآنية القديمة :

حضارة عاد :

ورد ذكر عاد فى نحو ثمانية مواضع من القرآن الكريم ، وتكررت بأساليب مختلفة ولهذا التكرار حكمة بالغة ، لأنه يعطى نوعا من التجدد ، ولوناً من التكامل ، ودرساً متكرراً يطالع القارىء لكل سورة من السور التى ورد فيها الموضوع ٠٠

وأجمل الآيات التى تتصدى لوصف طبيعة هذه الحضارة ، وذكر عناصرها ، هى آيات الشعراء ولكنها لا تستقل وحدها باعطاء الدلالة وانما تتآزر معها غيرها من آيات هود ، والآعراف، والأحقاف ، والفجر ، ولنحاول فهم هذه الحضارة من هذه السور كلها مبتدئين بالشعراء ، يقول سبحانه : « كذبت عاد المرسلين ، اذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ، انى لكم رسولا أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر أن أجرى الا على رب العالمين ، أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، واذا بطشتم جبارين ، فاتقوا الله

وأطيعون ، واتقوا الذى أمـدكم بما تعلمـون ، أمـدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (١) » فهذه الآيات تعرض لوحة حية معبرة لحضارة مكتملة زاهية قد استجمعت عناصر البناء والعمارة ، واقامة المصانع ، وانشاء الحصون وتمهيد الأرض ، وغرس الحدائق ، وتفجير العيون ، ووفرة المـال وكثرة الأيدى العاملة من الاولاد ٠٠ فهى كما نرى حضـارة زراعة وعمارة ٠ تمـدها السـماء بأسـباب النعمة ، وتحوطها بكل رعاية ٠ ويعيش أهلها فى سعادة ورفاه ٠

ويرتفع صوت النبى هود عليه السلام داعياً هؤلاء القـوم الى الله محـذراً من نكاله ــ مؤكداً أن تقـوى الله هى أسـاس اسـتمرار الحضـارة ، وضـمان النعمة ٠ ٠ ولكن القـوم قـد أسكرتهم نشوة النعيم وغمرتهم أمـواج الترف ، فصـموا عن صوت الداعى وعكفوا على أصنامهم وقالوا فى وقاحة : « سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين (٢) » !!

فماذا كانت النتيجة ؟ « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقيـة ؟ (٣) » وهذا جزاء من جنس العمل ٠٠ لقـد لجـوا فى الطغيان ، وبطشوا جـبارين ، وهزءوا من هود ودعوته ٠ ! فهل يعجزون الله ؟! لقد صار أولئك العمالقة الطغـاة ٠٠ « أعجاز نخل خاوية » وعندما يتحول الطاغية الفاجر الى هيكل ممدد ، لا حراك به ولا روح فيه ، بالضبط كعجز نخلة خاو ، هنا موضع التأمل ٠ ٠ ومنبع العظة ! !

---

(١) الآيات ١٢٣ ــ ١٣٥ الشعراء .
(٢) آية ١٣٦ سورة الشعراء .
(٣) الآيات ٦ ، ٧ سورة الحاقة .

وهكذا ، كل طاغية ، سيلقى مصرعه على هذه الصورة ، كما أفرط فى الطغيان يصبح عبرة وعظة للناس ، فهل من مدكر ؟!

وبذلك بادت تلك الحضـــارة ، ولقـيت مصرعها ، وذهب أصحابها وبقيت منها معالم شاخصـة تجـدد الذكرى وتبعث التاريخ ، وتثير التأمل والأسى . .

أين كانت تلك الحضـارة ؟ هنا تسعفنا آية الأحقـاف . « واذكر أخا عاد اذ أنذر قومه بالأحقاف (١) » ولكن ما زمنهـا التاريخى ؟ هنا لا نجد الا تحديداً يسيراً ، وهو أنهم كانوا بعد قوم نوح ، وليس يعنينا تحديد الزمن بقدر ما يعنينا استلهام العظة والعبرة ، ورب قديم أنفـع فى اثارة العبرة من جـديد !! وستظل هذه الآيات وأضرابها قرآناً يتلى الى يوم الدين يذكر الناس على اختلاف العصـور بمصـارع الجـبارين ، وعاقـبة الطغيان والتنكر لصوت النبوات كلما مروا بتلك الجبال الرملية قرب حضرموت من ناحية اليمن وهى المعروفة « بالأحقاف » .

هذا ونحب أن نتأمل معا قول الله سبحانه : « أتبنـون بكل ريع آيـة تعبثون ، وتتخذون مصـانع لعلكم تخلدون » وقوله سبحانه فى سورة الفجر : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلهـا فى البلاد !! (٢) » فاننا بعـد التأمل سنحس بأن عناصر تلك الحضارة تتجلى فى فن العمارة، وهندسة المبانى ، واقامة المصانع وانشاء المدن ، على نحو يبهر الألباب ، ويثير الاعجاب فمن كان يصدق أن « عادا » الموغلة فى القدم قد توصلت الى حضارة كهذه ؟ يصفها القرآن بهذا الوصف العظيم .

---

(١) آية ٢١ سورة الأحقاف .
(٢) آية ٧ ، ٨ سورة الفجر .

وتستوقفنا كلمة « مصانع » فنحس من خلال التعبير أن القوم أحرزوا صناعات ٠ وأقاموا مصانع مهما يكن من بساطتها فان لها دلالة على عبقرية العقل الانسني منذ فجر التاريخ ٠ قال ابن كثير : الريع : اختلف المفسرون فى تفسيره بما حاصله : أنه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة وآية : أى علما ـ بناء مشهورا ـ تعبثون . أى تفعلون ذلك للعبث لا للاحتياج اليه والمصانع : قال مجاهد : البروج الشيدة ، والبنيان المخلد ، روى أن أبا الدرداء لما رأى ما أحدث المسلمون فى الغوطة « قرب دمشق » من تشييد البنيان ونصب الشجر قام فى مسجدهم خطيبا ، فاجتمع له أهل دمشق محمد الله وأثنى عليه ثم قال : ألا تستحيون ؟ ألا تستحيون ؟ تجمعون ما لا تأكلون وتبنون ما لا تسكنون وتأملون ما لا تدركون انه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون ويبنون فيوثقون ويأملون فيطيلون فأصبح عملهم غرورا ٠٠ وجمعهم بورا ومساكنهم قبورا ألا ان عادا ملكت ما بين عدن وعمان خيلا وركابا فمن يشترى منى ميراث عاد بدرهمين؟ (ا هـ) ٠

روينا هذه الخطبة لأبى الدرداء لنتبين أن عادا صنعت حضارة رائعة وملكت أرضا شاسعة وجمعت ثروات واسعة ولكنها كانت عابثة لاهية ٠٠ وذلك أخطر شىء على الحضارات ، والظاهر أنهم كانوا يبنون فوق المرتفعات بنيانا يبدو للناظر من بعد كأنه منارة أو علامة ـ وأن قصدهم كان التطاول والتفاخر بالمقدرة والمهارة والفراهة والنشاط فهو توجيه لكى نقصد بما نعمل وجه الله ، ويبدو أن عادا قد بلغت من الحضارة الصناعية مبلغا حسنا حتى لتتخذ المصانع لنحت الجبال وبناء القصور وتشييد العلامات فهى حضارة صناعة وعمارة وزراعة٠ كما تلفتنا هذه التعبيرات « ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد » الى عظمة المدنية ، وتثير فينا الفضول لنعرف بعض

أخبارها ، التى بلغ من فخامتها أنها « لم يخلق مثلها فى البلاد » كما تلفتنا هذه الكلمات « جنت ، وعيون ، بنين » الى عنصر جديد من عانصر تلك الحضارة وهو عنصر الزراعة ـ والمهارة فيها ٠٠ ويرى ابن خلدون أن الزراعة أساس الحضارات الانسانية ـ فاذا أضفنا الى ذلك « الأموال والبنين » فقد اكتمل لها العنصر البشرى ، الذى يستغل الأرض ، ويدير المصنع ٠

فهى حضارة صناعية ٠٠ حضارة عمارة وبناء ٠٠ وتلك مقومات مادية لا تقود الى الخير الا اذا صحبها الجانب الروحى ٠٠ ولكن هذا الجانب قد تخلى عنها ٠ ولهذا كان مصيرها الدمار ٠٠ والآن لنمض فى جولة تاريخية مع المؤرخين العرب لنتعرف الى شىء مفصل عن تلك المدينة [عاد ارم] التى تعتبر أروع مظهر حضارى لعاد ٠٠

فقد روى (١) ياقوت والمسعودى وغيرهما أن هذه المدينة بناها شداد بن عاد لينافس بها قصور الذهب والفضة فى الجنة التى تجرى من تحتها الأنهار وقالوا : انه كتب الى عماله أن يجمعوا ما فى أرضهم من الذهب والفضة والدر والياقوت والمسك والعنبر والزعفران ففعلوا وتوجهوا بكل ذلك اليه ـ ثم جمع له الغواصون من روائع الجواهر ما بلغ أمثال الجبال ـ وأنه أمر بالذهب فضرب أمثال اللبن ـ وكذلك فعل بالفضة ـ ثم بنى المدينة على أساس لبنة من ذهب وأخرى من فضة وفصص حيطانها بالدر والياقوت والزبرجد ثم جعل لها غرفا من فوقها غرف ـ ثم أجرى تحتها واديا طليت حافته بالذهب الأحمر وجعل حصاه أنواع الجواهر وجعل بهذه المدينة ثلاثمائة

---

(١) عن كتاب عصر ما قبل الاسلام « تاريخ العرب » للأستاذ مبروك نافع ص ٣٤

ألف قصر ٠ وجعل على بابها مصراعين من ذهب مفضض ٠٠ وجعل ارتفاع البيوت فى المدينة ثلاثمائة ذراع ـ وبنى خارج السور ثلاثمائة ألف قنطرة لينزلها جنودها واستمر بناؤها خمسمائة عام » ٠٠.

أما مصير المدينة الرائعة التى لم يخلق مثلها فى البلاد فقد ذهب مع الريح !! تلك الريح التى أهلك الله بها عادا ٠ ٠ وليس يعنينا من خلال الوصف التاريخى السابق ـ الذى ذكره المسعودى ٠٠ أن يصدق كله ٠٠ كما لا يعنينا أن نعقب عليه باثبات أو نفى ٠٠ وانما الذى يعنينا هو اعطاء صورة عن تلك المدينة ان لم تصدق كلها فلن تكذب كلها بحال ٠٠ على أننى أميل الى تصديق ما ورد فان مدينة يصفها القرآن بأنها « لم يخلق مثلها فى البلاد » خليقة بهذا ـ ولا يمكن هنا أن نتحقق الا بالكشوف التاريخية ـ ولكنها لا تسعفنا فى هذه الفترة القديمة عمر التاريخ ٠٠ وقوله سبحانه : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد يشير الى مأساة تلك المدينة ـ وما حل بها من فواجع ٠٠ نتيجة لطغيان القوم وعبثهم٠٠ والخطاب لسيدنا رسول الله٠٠ ولكل من يتأتى منه التأثر والاتعاظ بالرؤية لتلك المدينة ٠٠ ومعالمها الباقية ٠ ولكل من يقرأ قصتها فى القرآن ـ والاستفهام فى صدر الآية يثير اليقظة الذهنية ـ والانتباه العقلى وقوله سبحانه « كيف فعل ربك » يوحى بشدة العقوبة ، وشناعة النكل والتعبير بكلمة « ربك » فيه من الايناس ـ والعزاء ـ والرقة ـ والحنان ما يسدى الى المضطهدين فى أى مكان من أرض الله ـ وفى أى وقت من أوقات التاريخ ، أقوى دعائم الصمود ، ضد الجبارين والطغاة لأن ربك بالمرصاد لكل هؤلاء٠ والآية تتجه بنوع خاص الى المستضعفين من أصحاب الرسول محمد [صلعم] تبث فى قلوبهم الثقة وتزرع فيها الأمل ٠ حتى يصمدوا فى وجه الشرك ٠٠ وقد جمع الله لهم فى الآية مصارع أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ ليفيض الرحمة على قلوبهم

المعناة ويملأها ببرد اليقين بأن النصر دائمـا للمؤمنين ، وبأن الدمار والهلاك للمجرمين البـاغين ٠٠ ومن شـأن ذلك كله أن يمنحهم لونا من التماسك الصامد حتى يحق الله الحق ويزهق الباطل ويوحى قوله « ذات العماد » بأن هذه المدينة قد قامت على أعمدة فخمة وسوارى ضخمة عرفت بها وسميت باسمهـا وقوله : « التى لم يخلق مثلها » يفيد ضخامة العمارة ، وجمـال البناء ٠٠ وأنه كان أعجوبة فى عصره : والاسراف فى الخيـال ، أبعد من ايحاء القرآن يعوزه الدليل ٠٠ وتفصـيل الأوصـاف يحتاج الى برهان ٠٠ لكن مهما يبالغ الواصفون فهم أقرب الى منهج الصدق الذى لا يخرج عن ايحاء قوله سبحانه : « التى لم يخلق مثلها فى البلاد » ٠٠

وقد ذكر بعض المؤرخين أنهـا طارت فى السماء بعـد تمام بنائهـا وأن بعض النـاس قد لمحهـا وهى طائرة وأن عادا لم يسكنها ، ومنهم من يقـول : انه لم يرهـا الا من أراد الله له ذلك ويروون أن رجلا يقال له عبد الله بن قلابة رآهـا فى أيام معاوية بن أبى سفيان ، وأن معـاوية استـدعاه ليعرف جليـة الخبر فأخبره أنه بينما كان يبحث فى الصحراء عن بعير ضـل منه اذا به يجد نفسـه فجأة أمام باب المدينـة وأنه دخلهـا فوجدها خاوية على عروشها فأخذه الذعر فخرج ولم يحمل معه الا بعض الحجارة التى أطلع الخليفة عليها ٠

وهذه الرواية عن مصير المدينـة ، وأنهـا طارت ـ يمكن فهمه على وجـه مقبـول ٠٠ وهو أن الريـح التى أهلكت عادا احتملت معها بعض آثار هذه المدينة واكتسحت أثاثها وهدمت عمدها ٠٠ وأبقت منها آثارا شاخصة ، وجعلتهـا خاويـة على عروشها كما يقول عبد الله ابن قلابة ٠ كما لا يبعد أن تبـقى أطلالها الى أيام معاوية ٠٠ بل الى هذه الأيام !!٠

ويرى «جورجى زيدان» فى كتابه تاريخ العرب قبل الاسلام أن عادا من الأمم الآرامية،ولذا سميت عاد ارم كما سميت أيضاً ثمود ارم ، وأنها ليست مدينة وأن الظن بأنها مدينـــة جعـل المؤرخين يبالغون فى وصفها ، ونحن نرفض هذا الرأى ٠٠ لأن الله قد أخبر صراحة بأنها مدينة ذات عمد فخمة ، لم يوجد مثلها فى البلاد ، واذا كان القرآن قد أخبرنا بأن عاداً قبيلة فما المـانع أن تكون المدينة سميت باسم عاد رئيس القبيلة الذى بناها أو باسم القبيلة نفسها وهى « عاد » ٠

هذا ولم يكشف النقابون عن شىء من أخبار عاد وغاية ما ذكروه أنهم عثروا فى الأحقاف على مقابر محفورة فى الصخور تراكمت عليهـا الرمال ٠٠

ويقول مؤرخو العرب ، انهم يسمون عاداً الثانية ٠٠ أمـا هود فيقولون : انه عاد الى حضرموت حيث مات هناك ولا تزال احدى مدن حضرموت تسمى « هود » ٠٠

هذا ومن الجدير بالذكر أن القرآن وحـده هو الذى انفـرد بأخبار عاد وهود دون غيره من الكتب السماويـة الأخرى ٠٠ ولعل ذلك وجه من وجوه الاعجاز التاريخى الذى أشرنا اليـه آنفاً ، أن ينفرد هذا الكتاب المحكم بأخبـار أمم قديمة طواها العدم ، بحيث لا نجد مصدراً لهذه الأخبار الا فى القرآن الكريم ٠٠ وكم فى القرآن الكريم من وجوه اعجـاز ستكشف الدراسـات عنهـا !!

حضارة ثمود ، عناصرها :

ورد ذكر ثمود فى القرآن أحد عشر مرة فى سور مختلفة هى : الأعراف ، وهـود ، والحجر ، والشعراء ، والنحـل ، وفصلت ،

والذاريات ، والنجم ، والقمر ، والحاقة ، والشمس ، ولهذا التكرير كما مر مغزى عميق ، وهو منهج مألوف في القرآن مع القصص الحق ، فهو وسيلة تجديد ، وسبيل عظة وطريق تكامل ، وهو بعد هذا درس متجدد يلاحق القارئ لهذه السور ويستحثه على البحث ٠٠ وتلتمح من خلال الوصف القرآنى ملامح الحضارة الثمودية متميزة بعناصرها المادية ، التى تشبه الى حد بعيد حضارة عاد ٠٠ وليس هناك ما يمنع أن تكون هذه الحضارات قد أخذ بعضها من بعض كما قدمنا ، واذا كان وراء أية حضارة مادية فكر متميز ، فان وراء الحضارة الثمودية ٠٠ فكراً وثنيا يعبد الحجر ويتنكر لصوت القدر ، والآيات فى مجموعها تحمل الينا حقيقة واضحة وهى اختلال التوازن الحضارى لقوم ثمود ٠٠ حين أعرضوا عن صوت الحق فأخذتهم الصيحة أو الرجفة ٠

فأما عناصر تلك الحضارة المادية الوثنية : فتتجلى فى بناء القصور الفخمة ، ونحت البيوت فى الجبال ، يشير الى ذلك قوله سبحانه : « واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين (١) » فهذه عناصر حضارية تعتمد على فن النحت والعمارة ٠

ثم تأتى العناصر الأخرى فى قوله سبحانه : « أتتركون فى ماههنا آمنين ، فى جنات وعيون ، وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين (٢) » ٠

---

(١) آية ٧٤ سورة الاعراف .
(٢) آية ١٤٦ سورة الشعراء .

فهذه عناصر جديدة تشير الى مواهب القوم فى فن الزراعة من انشاء الحدائق ، وغرس البستان والبساتين ، وتترك الايحاءات المختلفة التعبيرات القرآنية عن هذه الحضارة انطباعاً قويا بالمهارة الخارقة ، والبراعة الحاذقة لأولئك الاقوام وتأمل معنى هذا التعبير : « فارهين » والفراهة القوة ٠٠ وهى قوة الفن والمهارة فى النحت ٠٠ كما توحى كلمة «هضيم» بأن ثمار النخيل كانت مغذية سهلة الهضم ٠٠ وكلمة « جنات » تشع الرفاهية والسعادة لأولئك الاقوام وهى المفهوم من قوله سبحانه « أتتركون فيما ههنا آمنين » لان الأمن يحمل معنى السعادة والنعيم ٠٠ ولكن يبقى أن هذه الحضارة تنكرت لصوت الوحى الالهى أولا بالافساد وهو معنى جامع لصفات السوء وهو فساد منتشر وعام كما يفهم من الأمر فى قوله سبحانه : « ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » ٠٠ وثانيا : لانهم عصوا نبى الله صالحاً حين عاش فيهم داعياً الى الله برفق « ألا تتقون » ٠٠ وصالح نبى كريم ليس غريباً عنهم كما يفهم من قوله سبحانه : « والى ثمود أخاهم صالحا » ٠٠ ولكنه قدم دعوة رقيقة سمحة وعرض عليهم الدعوة بأسلوب ملؤه العطف والحب : « ألا تتقون ؟ » ٠

ومع ذلك كله لم يؤمنوا لأن الفساد حين يطغى على النفوس تبطر النعمة وتنجذب الى الشياطين ٠٠ ومن ثم كان جوابهم : انما أنت من المسحرين ٠

وهكذا ، عندما توازن بين دعوة هود وصالح نجد تواردهما على منهج واحد فى الدعوة الى الله ٠٠ وتلقيهما لجواب واحد من أتباعهما وهو الاعراض والرفض ٠٠ كما نجد وحدة فى العقوبة تخلير الفساد والطغيان وان تنوعت فى الوسيلة « فأما ثمود فاهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية (١) انه الاهلاك على أى حال ٠٠

---

(١) آية ٥ ، ٦ سورة الحاقة ٠

ومعنى أهلكوا بالطاغية : أى بسبب طغيانهم وفسادهم ، بالرجفة أو الصيحة أو الصاعقــة ، لقد كانت حضـــارة ثمود حضارة زراعة وعمارة ولم تكن حضارة ايمان وطهارة٠٠ومن ثم بادت كما باد غيرها ، وهكذا الأديان ترعى بنـــاء الحضـــارات وتؤسسه على تقوى من الله ورضوان وتتجه به وجهة الخـير والهداية ٠٠ انها جميعاً تتضمن الحضارة لأنها ترعى التقـدم وترمى الى ترقية الحياة وتطويرها مادياً وروحياً ٠٠ وتهدف الى اعلاء السلوك حتى لا ينحرف الانسان بقيم الحضارة الى الوجهة الحيوانية الهابطة ، ومن ثم فهو يهيء للحضارة جـواً نظيفاً تتنفس فيه ٠٠ وهكذا ٠٠ السماء تخطط ، والبشر ينفذ، والرسل تقود عملية التغيير الكبير فى المجتمعات ٠٠ وهو تغيير يقود الى الأفضل ، فاذا تجاوب البشر مع القدر حدث التغيير النافع ، وحصل التطور الصاعد فى حياة البشرية ٠٠ واذا صموا وعموا ضمرت الحياة وذبلت أغصانهـا ٠٠ ثم جفت لتصـبح هشيما تذروه الرياح !!٠٠

فالأديان تقود الحياة قيادة بصيرة مستهدية بالمنهج الالهى ولاتنساق وراء الحياة فتضل عن سواء السبيل ٠ ٠

والآيات السابقة تبين لنا أن ثمودا كانت بعد عاد فى الزمن (أى بين هــود وابراهيم) ، وأنها كانت تســكن الحجــر بين الشام والحجاز ٠ ٠ وأن صالحاً دعاهم الى الايمان بالله ونبذ ما كان يعبــد آباؤهم فــكذبوه ثم طالبوه بآية تدل على صـــدق دعوته فأجابهم : « هذه ناقة الله لكم فيها آية فذروها تأكل فى أرض الله ، ولاتمسوها بســوء فيأخذكم عذاب أليم (١) » وقوله « فكذبوه فعقروها (٢) » فأخذتهم الصيحة أو الرجفة أو الصاعقة بعد ثلاثة أيام ونجى الله صالحاً والذين آمنوا معه ٠ ٠

---

(١) آية ٧٣ سورة الأعراف .

(٢) آية ١٤ سورة الشمس .

وقد ذكر كثير من المفسرين أنه اتجه صوب حضرموت وأنه مات بها وله قبر هناك كهود ٠

روابة لها مغـزى :

هنا رواية تاريخية تقـول : ان النحـت الذى أتقنه قـوم صالح قد تعلموه من المصريين القدماء على غرار المقـابر المصرية القديمة التى شاهدوها ٠٠ وتؤكد الرواية بأن ثمودا شرذمة من الهكسوس الذين طردهم أحمس الأول من مصر وأنهم سكنوا منطقة الحجر ٠٠ وأنهم قد نقلوا معهم فن النحت ٠ ومن آثارهم التى بقيت منها طلول شاخصة حتى الآن مدائن صالح ، ولقد مر النبى بهـا فى غزوة تبوك فى العام التاسـع الهجـرى ومنع أصحابه من الدخول اليها والشرب من مياهها ٠٠ ولعل الحكمة من وراء ذلك الابتعاد عن ديار الظالمين ٠٠

ولا يبعد عندى أن تكون هذه الرواية صحيحة لأن المصريين هم أسـاتذة الفن المعمـارى وفن النحـت على مسـتوى عالمى معروف ٠٠ والحضارات الانسانية يستمد بعضها من بعض ٠٠ ولا يبعد أن يكون المصريون هم الأخرون قد نقلوها عن غيرهم ٠٠ لأن الحضارة كما مر ملك للبشرية جمعاء ٠٠

ومدائن صالح الآن : هى احدى محطات السكة الحـديدية الحجازية ولقد زارها كثير من المستشرقين وكتبوا عنها ، وكان أهم ماعثروا عليه من الآثـار هو مايعرف بقـصر البنت وقبر الباشا ، والقلعة ، والبرج ، وقد شاهدوا نقوشاً عليها بالخـط المسند والآرامى ولغتها هى العربية الشمالية التى لا تختلف الا قليلا عن الفصحى ، وتتضمن عبارات دينية وقد يستفاد منها وجود علاقات بين ثمود ودولة الأنباط التى كانت عاصمة لبطرة فى الشمال ٠

وقد نقــل جورجى زيدان فى كتابه [تاريخ العرب قبــل الاسلام] ترجمة لعهد قديم كتبه على قــبره رجل قــديم يسمى عائذ بن كهيل نصها : [هذا القــبر الذى بناه عائــد بن القبس لنفسه وأولاده وأعقابه] وفى آخــره قــوله : [ولعن ذو الشرى ومناه وقــيس كلّ من يبيــع هذا القبر أو يشتريه أو يهبه أو يؤجره أو ينقش عليه شيئاً آخر أو يدفن فيه أحداً آخر الا الذين كتبت أسماؤهم أعلاه] ١٠هـ تلك حضارة ازدهرت فى ظل دين ســماوى ، لكنها تشبثت بالوثنية ، وكان من الممكن أن تزداد تألقاً وروعة بما أتيح لها من نقل حضارى عن المصريين ، وعن النيط وهو نقل ظهر أثره جلياً فى فن النحت ، لو أنها تجــاوبت مع منطق الــوحى الالهى ٠٠ ولكن اصرارهــــا على الوثنيــة ، واغراقها فى الشهوات وامعانها فى الغى جعلها أثراً بعد عين فبادت كما بادت أخوات لها من قبل وأصبحت قصصاً تروى فى مجــال التأسى والعظة ٠

حضارة داود عليه السلام :

وهذا لون من الحضارة الربانية ــ التى تدخــل فيها عنصر الاعجــاز السماوى ، بتطويع الجــمادات وتسخير الطير والانة الحديد ــ وعمل الدروع السابغات ٠ وغيرها من وسائل الحياة المتطورة ٠

وقد انعكست آثار هذه الحضــارة الربانية على الحــياة ، فصار شعب داود (من بنى اسرائيل) ٠ يعيش فى ظلال حضارة وارفة الظلال يمتزج فيها التسخير الالهى بالعمل الصالح ٠

ولذا : أثمرت وآتت أكلها ٠

وقد عاشت هذه الحضارة فى فلسطين وما حولها ــ فقد ثبت أن نبى الله داود استولى على بيت المقــدس ســنة ألف قــبل

الميلاد ، واتخذه عاصمة . . وأراد أن يبنى هيكلا للعبادة فمنعه الرب لأنه غمس يده فى الدماء .

ثم جاء سليمان بعد والده داوود فأتم دورة هذه الحضـارة التى اكتملت حقاً على يديه .

وقد بنى الهيكل سنة ٩٧٥ ق . م . وسمى باسمه فقيل : « هيكـل سـليمان » .

ولكن هذا الهيكل هـدم مراراً وتحـول الى مزابل نكاية فى اليهود الذين عرفوا دائماً بالـدس وتدبير المؤمرات واشـعال الفتن ، وكانوا عنصراً منبوذاً من الجميع .

وتشابكت حضارة داود مع حضارة ابنه سليمان عليهما السلام وكلاهما نبى من أنبياء بنى اسرائيل ، لأنهما قامتا على أساس ربانى وتدخل فيهما عنصر الاعجاز السماوى مما جعل لهما طابعاً فـريداً بين الحضـارات ، وتعتبر الحضـارتان معاً حضارة واحدة لتعايشهما فى مقر واحد ، وبقيادة نبيين هما : داود ، وابنه سـليمان .

يدل لذلك قوله سبحانه : « ولقد آتينا داود وسليمان علما وقـالا : الحمـد لله الذى فضـلنا على كثير من عباده المؤمنين ، وورث سـليمان داود وقـال : ياأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء ان هذا لهو الفضل المبين (١) » .

وعندما نتأمل قوله سبحانه : [ولقد آتينا داود وسليمان علما] نفهم من خـلاله أن هاتين الحضـارتين قامتا على العلم الالهى ، فهما : حضارتا نبوات تخضع للمنهج الربانى .

---

(١) آية ١٥ ، ١٦ سورة النمل .

واذا كان هذا العلم مستمداً من الله فهو علم مصحوب بالتقوى والايمان مأمون العواقب لا يستبد ولا يستغل ولا يدمر ولا يقتل ولا يلحق الضرر بالأبرياء لان هذه هى طبيعة العلم الربانى الذى يفيضه الله على أنبيائه ، وينسبه الى ذاته العلية صراحة ، وناهيك بعلم كهذا ! ! وبما كان لهذا العلم من أثر طيب فى تيسير العسير وتقريب البعيد ، وتطويع العصى وحدوث الخوارق ٠٠ لأن حدود العلم الالهى واسعة وآفاقه غير متناهية ٠٠ فاذا منح الله قبسة من ذلك العلم لأحد من خلقه فقد سهل كل صعب ، وهان كل عسير ٠٠ ومانستبعده كبشر ، فى حدود علمنا الضيق انما ينشأ لأن قدرتنا متناهية محدودة الطاقة ، محدودة الأفق ٠٠ لذلك يجب أن نتلقى عن رب العزة والجلال جميع ما يصدر عنه بمنتهى الاذعان والخضوع لأن علمه سبحانه قد وسع كل شئ وأحاط بكل شئ ٠٠ والقوانين التى تحكمنا فى عملنا وعلمنا هى من صنعه سبحانه ولو شاء لرفعها جميعاً فأزال الحجب ، وألغى الحواجز وقرب البعيد !!

واذا كان العلم من أهم المقومات الحضارية ٠٠ لضمان استمرارها ، وتجددها ، وتجاوبها مع الحياة ، واستيعابها لحاجات البشر ٠٠ وبغيره تجمد الحضارة ويصوح نبتها ويعتريها الذبول ثم الجفاف والأفول ٠٠ اذا كان هذا شأن العلم مع الحضارات فما بالك بعلم يفيضه الله على عباده افاضة ٠٠ ويسهل أسبابه تسهيلا ٠٠ ويضبط مساره حتى لا يطيش ٠٠ ما بالك بعلم كهذا؟ وما ظنك بحضارة تخضع للالهام والتلقى ٠٠ وتمضى بالعمل الخارق الى غاياتها البعيدة ؟

ومن هذه الآية ندرك قيمة العلم فى بناء الحضارات ٠٠ فقد زود الله به رسله ، بناة الحضارات الكريمة أول ما زود ، لتمضى حضارتهم على نور وبصيرة ٠٠ فعلى الأمم والشعوب

اذا أرادت بناء حضارة عالمية أن تتذرع الى ذلك بالعلم النافع ، واستمداد العون من الله فان الأرض الممهدة التى هى ساحة الحضارة ومستقرها ، انما هى أرض الله ٠٠ والانسان المستخلف فيها من صنع الله ، وعناصر الكون التى لابد من تسخيرها فى بناء الحضارة انما هى من الله والى الله ٠٠ ولولا ما أوجده فى تلك الكائنات من قابلية التشكيل وامكانية التطويع والتطوير وسهولة الانقياد والتذليل ٠٠ لما أمكن بناء كوخ فضلا عن ناطحات السحاب ولما أمكن قدح زناد فضلا عن اضاءة الكهرباء لكل قطر وناد ٠٠ واستخدامها فى مصالح العباد ٠

ولما أمكن ركوب جمل أو حمار فضلا عن السيارة والقاطرة والطيارة فسبحان من سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وانا الى ربنا لمنقلبون !! سبحانه منه النشأة والبدء ٠٠ واليه المصير والرجعى ٠٠ وانا لله نشأة وابتداء وانا لله مصيراً وانتهاء ٠

وبهذا التصور تكون الحضارة ربانية مسبحة عابدة مأمونة العواقب تبنى الحياة بنور الله ٠٠ وتنشىء سعادة الانسان فى ظلال الهدى والايمان ٠

وكلمة « علما » فى التعبير الربانى تفيد الشمول فهو علم أفيض ليؤدى رسالة ربانية وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ٠٠ وهو نوع من العلم الذى لا يخطر للبشر على بال ، يسخر الطير والجن والانس والريح وينطق راسيات الجبال ٠٠ علم يتحدث الى تلك الكائنات ويفهم عنها ويتجاوب معها وتتجاوب هى أيضاً معه تجاوباً يؤدى الى البناء والتعمير والخير ٠٠ فسبحان من يعطى عطاء غير محدود ٠

واذا كان كل من داود وسليمان نبيا ـ فهما قيادتان روحيتان لشعب بنى اسرائيل ٠٠ والقيادة التى تهيمن على بناء الحضارات اذا كانت بصيرة مهتدية يكون لها أثرها فى توجيه الشعب وجهة حضارية متفتحة ٠٠ وهذا هو سر نجاح تلك الحضارات ٠

ومن خصائص العلم الربانى أنه لا يثير الغرور فى نفس صاحبه مهما أحرز به النجاح ٠٠ بل يدعوه الى مزيد من التواضع ٠٠ فنراه ينسب كل انجاز حضارى لله ٠٠ ولذا كان منطق داود : « الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » وهو منطق نبى ملهم ـ معلم من ربه مؤدب بأدب الله ٠٠ انه المنطق المثالى فى شكر النعمة والاعتراف بالجميل ٠٠ ورد ذلك كله لله ٠٠ « وقليل من عبادى الشكور » ٠٠

وكل من هذين النبيين يدرك أن النعمة عندما تغمر وتفيض تكون مصدرا للابتلاء والاختبار ٠٠ فهما لا يذهلان عن ربهما طرفة عين ٠٠ كلما ازدادا ترقيا ووصالا ـ ازدادا تواضعا وامتثالا ، ولذا كان منطق سليمان عليه السلام عندما رزق التمكين الهائل: [هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر(١)] ٠

فيا لها من يقظة واعية تكافح آفات الغرور من النفس كلما حاولت أن تغزوها أو تدلف اليها ٠٠ وأين هذا الموقف من ضلال فرعون واختلال توازنه عندما صاح فى قومه بعد التمكين عند ما صاح بعد التمكين : [انما أوتيته على علم عندى] !! شتان بين الموقفين ٠٠

---

(١) آية ٤٠ سورة النمل .

وانظر معى الى هذا الفقه فى منطق النبيين داود وسليمان « الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنـين » فهما لم يدعيا التفضيل العام المطلق على جميع البشرية ٠٠ لأنهما لم يستوعبا كنه النعم المزجاة من الله الى عباده فضلا عن أن يدعيا استيعاب البشر أجمعين فهو منحنى راشد يتمثـل فيـه الأدب والتواضع والاعتراف والحياء جميعا !!

ملامح تلك الحضارات وأسرارها وعناصرها :

ولنأخذ الآن فى توضيح ملامح الحضارة « الداودية » كمـا تصورها الآيات القرآنيـة بعيـدا عن شطحات الخيـال التى احتوتها الكتب المقدسة ٠٠ والأناجيل ــ والعهود القديمـة ٠٠ وفى رأيى أن مثل هذه الدراسة تعين على اعطاء تصور صحيح ٠٠ يصل بنا الى فقه هذه الحضارات ــ وادراك أسرارها ٠٠ وقد ذكرت تلك الحضارة فى آيات كثيرة من الكتاب العزيز ٠٠ كلها تشير الى نعم الله على داود ــ واصطفائه له ــ وتبرز مواقفـه القتالية وانتصاراته على أعداء الله ٠٠

ونفهم من ذلك أن حضارته كانت حضارة بناء وحضـارة جهاد وقتال ٠٠ وقد كان داود عليه السـلام جنـديا فى جيش طالوت المؤمن ٠٠ الذى كان يحارب جالوت الجبار فى تلك المعركة التاريخية القديمة ــ وهو الذى تمكن من قتل « جالوت » رميـا بالحجارة ٠٠ وقد زوجه طالوت بنته بعدها وآتاه الله الملك فى مشارق الأرض المقدسة ــ ومغاربها ٠

قال صاحب الكشاف : [جالوت : جبار من العمالقـة من أولاد عمليق بن عاد ــ وكان « أيشى » أبو داود فى عسكر طالوت مع ستة من بنيه وكان داود سابعهـم ــ وكان صغـيرا يرعى

الغنم ـ فأوحى الى اشمويل أن داود بن ايشى هو الذى يقتل « جالوت » فطلبه من أبيه فجاء] اهـ ٠٠

ومن ذلك يفهم أن داود ـ كان محارباً شجاعاً ـ وأن حضارته قامت على الجهاد فى سبيل الله ٠٠ وأن قيادته لشعب بنى اسرائيل كانت قيادة جندى محارب شجاع ٠٠

وأن الله ـ قد أنعم عليه بالملك ـ والحكمة ـ أى النبوة فهو ملك نبى ٠٠ وعلمه مما يشاء قال صاحب الكشاف ـ أى من صنع الدروع وكلام الطير والدواب وغير ذلك ٠٠ ويمكن تلخيص ملامح تلك الحضارة أخذا من الآيات بما يلى :

١ ـ أنها تقوم على الجهاد فى سبيل الله ـ وقد مضى أن داود منذ الصبا كان شجاعاً محارباً هو وأخوته وأبوه ٠٠ وأنه قتل جالوت الطاغية «وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة» وكل حضارة تقوم على الجندية المخلصة لله ٠٠ فانها ترهب أعداء الله ٠

٢ ـ أنها حضارة اعجاز الهى قد توفر لها ما لم يتوفر لغيرها من الخوارق الجبارة التى تساعدها على النماء والازدهار ٠ وتحقيق مشيئة الله فى الأرض ٠٠ وذلك كتسبيح الطير والجبال « انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق ـ والطير محشورة كل له أواب » ويقول سبحانه : « ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير » ٠٠ فهى حضارة مسبحة عابدة ٠

٣ ـ أنها حضارة تستثمر ألوانا من المعارف ـ وفنونا من الخوارق ـ وتستفيد من ذلك كله فى بناء عالم أفضل تزدهر فيه شريعة الله ٠ ٠ وتنتصر ارادته ٠ ٠ وتعز مشيئة الانسان ٠

وذلك كتعليمه منطق الطير ٠٠ يفقه ماتعنى ؟ ويعرف ماتريد ؟ قال تعالى : « وورث سليمان داود وقال : يأيها الناس علمنا منطق الطير (١) » ٠٠

٤ ـ أنها حضارة صناعية ـ تتخذ من العمل وسيلة لبناء الحياة ٠٠ وقد انصهر داود وشعبه فى جو العمل بحيث صار العمل فى تلك الحضارة قيمة عليا ٠٠ وكان داود قدوة لشعبه ٠٠ كان يأكل من عمل يده ٠٠ وقد ألان الله له الحديد ليعمل منه دروعا محكمة سابغة طويلة ـ وجعله فى يده كالشمع ٠٠ دون أن يدخل النار ـ وهذا هو وجه الاعجاز كما فهم البيضاوى وجمهرة المفسرين ـ ويقال ان الدروع قبله كانت بدائية مرهقة تعمل على شكل صفائح ٠٠فجعلها داود من حلق الحديد ـ فصارت مريحة تمكن من الحركة قال تعالى : « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم (٢) » أى لتمنع عنكم أذى عدوكم ٠٠ ونفهم من التخصص فى صنع الدروع ومن الانة الحديد ـ ومن جندية داود قبل النبوة ـ أن الحضارة كانت عسكرية لها معامل السلاح ـ ووفرة الذخيرة ٠٠ والاستعداد لحرب أعداء الله ٠٠

٥ ـ أن هذه الحضارة كانت قوية البنيان ثابتة الأركان بدليل قوله سبحانه [وشددنا ملكه] أى قويناه ٠ « وقال البيضاوى : معناه : قوينا ملكه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود ٠٠ وقد نصره الله على خصومه قبل الملك وبعده ـ وظل دهرا لايقوم له معارض الا غلبه ٠٠ وان حضارة تعتمد الصناعة أساساً ـ والجيش المدرب درعا ـ والعمل الدائب وسيلة لابد أن تعيش فى قوة وازدهار ٠٠ ولابد أن تنتصر على أعدائها ٠٠

---

(١) آية ١٦ النمل ٠ (٢) آية ٨٠ سورة الانبياء ٠

٦ ـ أنها حضارة ذات قيادة حكيمة ٠٠ تفصل فى الأمور بنور الله ٠٠ وتقضى بين الناس بالحق ولهذه القيادة أثر فى توجيه الحضارة وجهة ربانية حكيمة ـ حتى لاتنحرف أو تضل ٠٠ « وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب (١) » والحكمة وضع كل شيء فى موضعه والمراد النبوة ٠٠ لأنها ملاك أمر الحكمة والاتزان والفصل فى الأمور بالبصيرة المشرقة ٠

٧ ـ أنها حضارة لها دستور منزل من السماء ٠٠ تمضى على سنن منهج ربانى قال تعالى : « وآتينا داود زبورا » ٠٠ وهو مجموعة تراتيل وأناشيد تتضمن تمجيد الله وحمده والثناء عليه ـ وبعض الأخبار المستقبلة [ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون] ٠

وعند أهل الكتاب الزبور : المزامير وقد أوتى داود حسن الصوت والانشاد وضرب به المثل فى ذلك ٠٠ وليس بالزبور أحكام ولا أوامر ونواه ، وبعض المزامير ألف بعد داود بمئات السنين كالمزمار الذى أوله (على أنهار بابل) فانه بعد سبى الاسرائيليين الى بابل فى حادثة بختنصر ٠٠ ولقد حكم داود فأجاد ، وعبد الله فأحسن ، وأقام ملكه على الايمان والعلم وكانت نبوته رحمة وعدلا ٠٠ وأنزل الله عليه الزبور ٠٠ وحببه فى العمل ٠٠ ولهذا عاش محبوباً ، ولا يخفى أن كل هذه النعم التى أنعم الله بها عليه كانت وسائل حضارية تعين على صنع مدنية فاضلة تقوم على الايمان والحكمة والعلم ٠٠

انها حضارة قد أنشأت آثاراً ، وأقامت ملكا ، وأبدعت فنوناً واستخدمت قدرات هائلة وطاقات غير محدودة ومازجها عنصر الاعجاز الالهى ، لقد امتزج فيها عنصر المادة بعنصر

---

(١) آية ٢٠ سورة ص ٠

الروح فلاءمت طبيعة الانسان وأسعدت البشر واستخدمت فى الابداع والتعمير والخير العام ولنقرأ وصفاً رائعاً جامعاً ، خلابا، لتلك الحضارة الالهية وهو قوله سبحانه : « ولقد آتينا داود منا فضــلا ياجبال أوبى معه والطير وألنا له الحـديد أن أعمل سابغات وقــدر فى السرد واعملوا صــالحاً ، انى بما تعلمــون بصير (١) » .

قال ابن كثير فى تفسيرها : يخبر سبحانه عما أنعم به على عبده ورســوله داود عليه السلام بما آتاه من الفضــل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك ٠ والجنود ذوى العدد والعــدد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم الذى كان اذا سبح تسبح معه الجبال الراسيات الصم الشامخات وتقف له الطيور السارحات والغاديات والرائجات وتجاوبه بأنواع اللغات ؟ وفى الصحيح أن رسول الله سمع صوت أبى موسى الأشعرى يقرأ من الليل فوقف فاستمع لقراءته ثم قال عليه الصلاة والسلام : لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود وقال أبو عثمان النهدى : ماسمعت وهذا العطاء الواسع هو العلم النافع : وهو عنصر هام فى بناء صوت صــنج ولا بربط ولا وتر أحسن من صــوت أبى موسى الأشعرى ومعنى قوله : « أوبى » أى رجعى : ا ٠ هـ :

تأملات حضارية :

أول ما يطالعنا من الآية السابقة قوله : سبحانه : « ولقد آتينا داود منا فضلا » بعد أن عبر فى مكان آخر بقوله : « ولقــد آتينا داود وسليمان علما » وفى موضع ثالث « وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » ، فنحن أمام مادة فياضة من عطاء الله وكرمه يتفضل بها على عبده الطائع الأواب ونبيه المصطفى « داود »

---

(١) آيتا ١٠ ، ١١ سورة سبأ .

وهذا العطاء الواسع هو العلم النافع : وهو عنصر هام فى بناء الحضارة وهو علم يتجسد فى عمل ، ويترجم الى صناعة أى أنه ليس علماً نظرياً بدليل قوله : « أن اعمل سابغات » ولايتصور أن تقوم حضارة ماعلى جهل ، كما لا يتصور أن تقوم على علم نظرى • والا كانت حضارة كلام وفلسفات ونظريات ، واذا كان هذا العلم من الله فهو علم نافع مثمر يتجه لداوود فى « الفضل » أى فضل الله وكرمه ، واذا منح الانسان الى الحق ويرعى كرامة الانسان ، كما يتمثل هذا العطاء الغامر فضل ربه فقد غدا ربانياً يقول للشىء كن فيكون ولا أدل على ذلك من الانة الحديد وصنع الدروع السابغات ، وهذا الفضل عنصر حضارى له قيمته فان الحضارة المتجددة تعتمد الابداع والجمال ، وكلاهما انما يتم بفضل الله واقداره ، واذا تم انجاز الحضارى بفضل الله فهو انجاز مسخر لخدمة الانسانية لا لصلحة شخص ، أو أسرة ، أو قبيلة ، أو وطن ، أو مصلحة ، وبذلك يكون طابع الحضارة انسانيا واسعاً ، ويتجلى فضل الله على داود فى ايتائه الحكمة : وهى وضع الشىء فى موضعه، وكانما أريد بها البصيرة النافذة فى القول والفعل • • والحضارة المثالية تفتقر الى الحكمة فى بناء صرحها وتأليف عناصرها حتى لا يطغى عنصر على آخر • • فاذا اتيح لداود مع ذلك منطق فاضل وحكم عادل • • فقد أوتى الخير كله •

وهما عنصران أساسيان فى بناء الحضارات • • اذ لايحفظ سيرها ولا يضمن استمرارها الا العدل وان حضارة تقوم على الظلم لجديرة بأن تنهدم على رؤوس أصحابها •

هذا بعض ماتوحى به الكلمات « علما ، فضلا ، حكمة ، فصل الخطاب » كما وردت فى الآيات وقوله سبحانه : « ياجبال أوبى معه » وهو نداء قدسى صادر عن الله تبارك وتعالى الى الجبال الخشنة الموحشة ، يأمرها بأن ترجع مع داود وأن تردد

معه التسابيح وأن تتجاوب مع ألحان الشكر التى يتجـه بها
الى خالقه ومولاه ، وانها للحظة من لحظات التجلى ، أن يفيض
الله من أسراره على عبـده ونبيه الأواب فـاذا هو موصـــول
بالكائنات بعد أن انزاحت الحجب والعوائق بينها واتصـلت
حقيقته بحقيقتها ، فى تسبيح بارئها وبارئه ، ورجـعت معه
الجبال والطير مرددة لحنه الأغن ، اذ لم يعد هناك أى عائق أو
فاصل بين الوجودين عند مااتصلا بالله صلة مباشرة يتلقيان
من فيضـه ، يسبحـان له ، يمجـدان ذاته ، انه فى الحقيقـة
تسبيح واحد بلسان ذاكر ولهجة شاكرة تتجه الى رب واحـد
جـل جلاله ، وكل كائنات الحـياة خاضـعة لله ، مبتهلة اليه
« ولكن لا تفقهون تسبيحهم » وحين تشف النفوس ، وتتجرد
الأرواح وتصـفوا القـلوب فـان مابيننا وبين هذه الكائنات
ينزاح ، فتذهب العوائق ، وترتفع الحـجب ، وتذوب الفـوارق
فاذا بها تبوح بالأسرار واذا بنا نسبح فى الانوار ، واذا الجميع
فى لحظة التجلى موصول بالله الواحد القهار ، كل منا يرجـع
ألحان الشكر ، ويردد ترانيم المجد وينشد أنغام الجلال ، فيالها
من نفحات لدنيه يفيضها الله على من يشاء من عباده فاذا هو
فى التجلى الأعظم غارق فى النور يفهم عن الكون كله ، ويفقه لغة
الطير والحجر والشجر والجبل لا تخفى عليه من ذلك خافية ،
وهل كانت العوائق الا من الغفلة ؟ فاذا زالت تلك الغفلة فقـد
ارتفعت الستائر وارتبطت الضمائر ، وتفاهمت القلوب والمشاعر
ولم يعد هنالك فرق بين بشر وجيل آنهما معاً موصولان ببارىء
القوى والقدر سبحانه فى علاه ، وما أجل تلك اللحظة القدسية
ارتفعت الستائر وشغت الضمائر ، وتفاهمت القلوب والمشاعر
التى تردد فيها الجـبال الخشـنة نغمـة داود كمـا سمعتها ٠
وترجعها كما وصلتها دون زيادة أو نقصان !! وليس فى ذلك
أدنى غرابـة ، فالانســان مخـلوق لـه من الخصــائص العليا
مايرشحه لتلك المقامات بل لأكثر منها عندما يتجرد من كيانه

المـادى الصفيق ويرتفع عن واقعه الارضى المعتم ، عندئذ تذهب القوانين التى تعزله عن الجماد ، لأنها قوانين من وضع الله ــ وهو سبحانه قادر عى أن يلغيها فاذا بعالم الانسان ينفتح على عالم الجماد فيكشف الثانى له عن أسرار وعجائب ما كان ليصل اليها بعلمه العادى ــ أو بعقله المـادى ــ ولوعاش آلاف السنين ·

هل يستطيع العلم الحديث مهما تقدم وأبدع أن يوجد لنا الطريقة التى نفهم بها لغة النملة ولحــن الطير ــ وأن يخضــع الطبيعة فى أخشن مجاليها لارادة الانسان فترجع لحنه ــ وتردد ترانيمه ؟ ! انها التقوى تحدث من التقــدم فى حــياة البشر فى لحــظة مالا تستطيعه العلوم والمعارف فى آلاف السنين · · !
ولأمر ما يقول جل شأنه : « واتقوا الله ويعلمكم الله (١) » ·

وهو علم خــارق لا يتوقف على مدارســة أو اطلاع وانما يفيضــه الله على من يشــاء من عباده واذا زالت الحجــب بين الانســان ــ وعناصر الكون فــانه يتمكن من فـــهم أسرارهــا واستيعاب خصائصها والاستفادة منها دون قهر أو اعنات !

كل ذلك تنشئه التقوى ، التى تخضــع القــوانين المــادية للانســـان دون احــتياج الى « العلم التجــريبى » الذى يبنى الحضارة الانسانية بطريقة عادية ·

والحق أن داود قد أوتى صوتا حسناً كان يرتل به مزاميره ويتلو تسابيحه التى وردت فى العهد القديم · والآية تعطى أنه قد أوتى حظاً من الشفافية والتجرد فى تسابيحه جــعل قــلب الكون يخفق له ، ويتجــاوب معه ، ويردد أنغامه المتجــهة الى بارىء الأرض والسموات ·

كل هذا الفيض تعطيه آية « يا جبال أوبى معه » ولا يعقل أن تردد الجبال صوت داوود وهو لا يفهم عنها ولا تفهم

---

(١) آية ٢٨٢ سورة البقرة .

عنه ، لأن الشفافية اذا بلغت غايتها لدى الانسان فان يد الله تمتد الى هذا الستار المسدل بين العبد التقى الأواب ، وبين الكائنات فترفعه بترفق فاذا هما متجاوبان متعارفان متفاهمان يعرف كل منهما عن الآخر ما كان يجهله ٠

والحق أن الانسان ليس غريباً عن الأرض ٠ منها بدأ ، واليها يعود ، وعليها يكدح ٠ ومع عناصرها يتعامل ٠ ٠ فاذا تجاوب مع جبالها وطيرها وعناصرها كلها فليس ذلك بعيداً ولا ممتنعاً ٠ وسبحان من تخضع الكائنات كلها لجلال عظمته :

فعلى الانسان أن يعقد الصداقة بينه وبين عالمه مستعيناً على ذلك بالايمان والانقياد لله وبالعلم الذى يمكنه من فهم أسرار الحياة ثم يمضى فى رحلته الصائرة الى الله ٠

ويوم تتم هذه الصداقة فما أسعد بنى الانسان ، ويوم ينفصل الانسان عن عالمه فما أشقى الحياة والأحياء ، ولعل ترجيع الطير مع داود ايسر فى الفهم من ترجيع الجبال ، لأن الطير على أى حال كائن ذو حياة ٠ وهو مغرد بطبعه فلم يبق الا أن يعقل عن داود ويرجع معه ٠ وقوله سبحانه [وألنا له الحديد] قال الحسن البصرى ، وقتادة ، والأعمش كان لايحتاج أن يدخله ناراً ، ولا يضربه بمطرقه بل يفتله بيده مثل الخيوط ويقول قتادة : ان داود أول من عمل الدروع من الحلق ، ولهذا العنصر ، أثر رائع فى صنع الحضارة ٠ ٠ والحديد فى ذاته أهم عنصر حضارى للسلم والحرب ٠ فكيف اذا كان ليناً طريا مطوعاً لأى صناعة :

قال تعالى : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس (١) » وقوله : « أن أعمل سابغات » معناه أعمل من الحديد دروعا طويلات ليست كما اعتاد الناس ، بل متطورة ، على

---

(١) آية ٢٥ سورة الحديد .

النحو الذى قلنا من قبل ولقد ذكر المفسرون : أنهـا كانت من قبل تثقل الكاهل ، وترهق الانسان فغدت على يد داود متموجة لينة تسهل معها حركة الجسم وغدت محكمة لا تنفـذ منهـا السهام ولا الرماح ، وهنا لمحة حضارية لابد من تسجيلها وهى تكمن فى قوله سبحانه « ولقد آتينـا داود وسليمان علما » ثم قوله بعد : « أن اعمل سابغات » فماذا يعنى هذا ؟٠

انه يعنى أن العلم الذى يستفاد به فى تأسيس الحضارات ليس علماً نظريا ، والا غدت الحضارة به حضارة ثرثرةً وكلام٠٠ وانما هو علم يترجم الى سلاح ودروع وما شاءت الحضارة من أدوات أخرى ٠٠ وقد أثر عن سيدنا رسول الله [صلعم] قوله: « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وان نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » وقد روى المفسرون أنه كان لا يأكل من بيت مال الأمة ٠٠ بل من كده وتعبه ٠٠

وهكذا يبرز كل من العلم والعمل فى حضارة داود كقيمتين رفيعتين ٠٠ ويأخذان سمتاً متكاملا ، لأن العلم فى هذه الحضارة علم يترجـم الى عمل ، وهكـذا : العلم يخـطط والعمل ينفـذ ويطبق ٠ ٠ وعندما يتجلى الله على انسان فيؤتيه من لدنه علماً ويلهمه سر تحويل العلم الى عمل ٠ ٠ ثم يمنحه الحكمة التى تضع كل شىء فى موضعه المناسب فقد مكنه من بناء حضـارة رفيعة سامية تعبر عن خصائص الانسان وتحترم علاقته بالملأ الأعلى ٠ ٠ وتنشىء من روائع الصـنـع ماتعجـز الالسـن عن وصفه ٠ ٠ وهكذا تتجمع فى حضارة داود عناصر العلم والعمل والحكمة ٠٠ العلم يخطط ، والعمل يجسد ، والحكمة تصـوغ بدقة وتضع كل شىء فى موضعه ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيراً ٠ ٠ قوله سبحانه : « وقدر فى السرد » وهو أثر الحـكمة فى ابراز العمل فلا قيمة لعمل لا يخطط ، ولا يقدر ، ولا يوزن حتى

يأتى على أجمل وجه وأبدع صورة ، ومعنى قدر فى السرد ٠ ٠
أحكم الصنع ليأتى الدرع على قدر الجسد فى ابداع وجمال ٠ ٠
فهذا هو العمل المتقن ٠ ٠ وقوله سبحانه ٠ [واعملوا صالحاً]
معناه : اتجهوا بالعمل الى الله ٠ ٠ ولا تغتروا بما تهيأ لكم من
وسائل ٠ ٠ ولا تغرقوا فى الترف والذهاب بعيداً عن الله ٠ ٠
فهذه آفات الحضارات وهو خطاب عام لشعب داود من بنى
اسرائيل ولغيرهم ممن يتأتى لهم أن يستفيدو ٠ ٠ والعمل
الصالح : الخالص لوجه الله سواء أكان دنيوياً أم أخروياً ٠
بل انه لا فرق بينهما فى الواقع لأن العمل الدنيوى متى أريد به
وجه ذى الجلال والاكرام فقد غدا أخروياً ٠ ٠ وكلاهما لازم فى
صنع الحضارة ٠

وقوله سبحانه : [انى بما تعملون عليم] اشارة الى
الرقابة العليا التى لا تغفل ولا تنام ٠٠ وهى رقابة دقيقة
تراقب الانسان فى هجعاته ويقظاته ، فى روحاته وغدواته ٠٠ فى
بيته وفى المجتمع ، فى سره وجهره ٠٠ فى وساوس قلبه وظواهر
عمله ، وهى رقابة لا تستغل ، ولا تستغفل ولا يحتال عليها ولا
يستخفى منها٠٠فينبغى أن نعمل حسابها ونحن نمارس دورنا
الحضارى ٠٠ واذا خضعت حضارة البشر لرقابة الله واستشعر
بناتها جلاله وهيبته فان حضارتهم تكون ربانية يباركها الله
ويجعل منها مصدر خير للحياة ويلهم أصحابها الرشد ويذهب
عنهم كيد الشيطان ، وكل القوى الشريرة التى تحاول أن
تعترض طريقهم ، أو تحول مسيرتهم ٠٠ وويل لحضارة تفقد
الضمير الوازع ٠٠!!

تلك صفحة من حضارة داود ٠٠ تتألق بالضياء ٠٠
وتتدفق بالجلال والرواء ٠٠ لأنها استمدت منهجها من السماء
٠٠ وسارت فى طريق التعمير والبناء ٠٠ فكانت نافعة جليلة ٠٠

مع الحضارة السليمانية :

فى وصف هـذه الحضارة الربانيـة ، ترد آيات كثيرة فى كتاب الله ، وكل آية تتعرض لوصف جانب من تلك الحضارة. وهى تتكامل تمـاماً مع حضـارة داود عليه السلام .. فهما سلسلة واحدة .. ذات ملامح واحدة .. الا أن هذه الحضـارة أوغل فى عالم الخوارق ، وروعة المظاهر ، وكثرة التسخـير .. ومكان الحضـارتين واحـد وهو بيت المقـدس وما حوله .. وشعبهما واحد وهو بنو اسرائيل والقيادة فى كليهما ربانية.. لأن سليمان ملك نبى ، وكذلك والده من قبله ..

يقول سبحانـه : [ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ، وجفـان كالجـوارب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور..(١)]
ويقول سبحانه واصفاً تلك الحضارة :

« وورث سليمان داود وقاه يا أيها النـاس علمنـا منطق الطير وأوتينا من كل شىء ان هـذا لهو افضـل المبين ، وحشر لسليمان جنـوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون ، حتى اذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ، فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتـك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضـاه وأدخلنى برحمتـك فى عبادك الصـالحين (٢) » ثم تتوالى أحداث ومشاهد كقصـة الهدهد ، ونبأ بلقيس ..

---

(١) آية ١٢ ، ١٣ سبأ .
(٢) آية من ١٦ — ١٩ النمل .

وقوله سبحانه : « ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انــه أواب ، اذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد ، فقال ، انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب ، ردوها عى فطنق مسحاً بالسوق و الأعناق(١) » ٠

وقال سبحانه : « فسخرنا له الريح تجــرى بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين فى الأصفاد ، هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب (٢) » ٠

وقال تعالى : « وكلا آتينا حكما وعلما (٣) » ٠٠

هــذه الآيات من كتاب الله ، تتضمن وصف مــلامح تلك الحضارة ، وتشخيص عنـاصرها ٠٠ وهى حضــارة متوهجــة بالذهب ، مرصعة بالدر و الياقوت ٠٠ مزدانة بالعمائر و القصور ٠٠ مدعمة بالجيش القوى ، والجند الكثير ، تغمرها الخوارق ، وتعمها المعجزات ٠٠ وتخضع لله فى كل شىء وتستمد منه العلم، والعمل ، وتبســط جناحهــا على ما حولهــا من الممالك بالمودة والايناس ٠٠ وتستخدم عنــاصر عجيبة كالطير والريح والجن والانس ٠٠ والهدهد ٠٠

وقــد ورد ذكرها فى القــرآن مجزأة ٠ ٠ كمشــاهد مثيرة ، ومواقــف مغرية ٠ ٠ تتكامــل فى النهايــة لتعطى شــكل هذه الحضارة ، تكررت ست عشرة مرة ٠ ٠ اخترنا منها ماهو أجمع٠ وأشرنا الى الباقى ٠ ٠

وقد امتدت مملكة سليمان من خليج أيلة وفلسطين وشرق الأردن ولبنان وسوريا الى شطر الفــرات وقد تم تشييد هيكل سليمان على جبل موريا بيت المقدس (عام ٩٧٥ ق ٠ م) وقــد

---

(١) الآيات ٣٠ : ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ سورة ص ٠
(٢) الآيات من ٣٦ ـــ ٣٩ سورة ص ٠
(٣) آية ٧٩ سورة انبياء ٠

أثر عن سليمان أنه بعد أن بنى الهيكل صعد فوقه ونادى ربه نداء وجدانياً رقيقاً قائلا فى تواضع : رب لم تسعك سماواتك فكيف يسعك هذا الهيكل الضئيل ، رب اجعل نظرك على هذه البقعة من الأرض » ٠ ٠ وهذا النبى الاواب تصوره كتب اليهود على أنه ملك غوى غارق فى الخمر والنساء » ٠ ٠ فانظر الى الدس والتدليس ؟ !

وأول ما يطالعنا من هذه الحضارة عنصر الرونق والجمال ٠ ٠ فقد طلب سليمان من ربه أن يهبه ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده فرزقه الله تمكيناً هائلا فى الارض ، وسخر له الشياطين ، وعلمه منطق الطير ، وآتاه حكماً وعلما ٠ ٠ وجعل قوام جيشه الجن والانس والطير ٠ ٠ ومنحه من الخيول الأصيلة ما يستخدمه للجهاد والزينة ٠ ٠ ومكنه من الاصداف والجواهر واللآلىء تستخرجها الجن وتجتلبها له ٠

وهذه المقومات من أهم الأسس فى بناء الحضارة وقد انعكست آثارها على شكل آثار فخمة وهياكل ضخمة ومدن رائعة وأدوات بارعة ومناظر تخلب الألباب ٠ ٠ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ٠

وقد ارتكزت هذه الحضارة فى فلسفتها على [العلم ، والعمل ، والحكمة] كما مر ٠ ٠

فأما العلم فيشير اليه ربنا بقوله : « وكلا آتينا حكماً وعلما » أى كلا من داود وسليمان ٠ ٠

وأما العمل فيشير اليه قوله سبحانه : « اعملوا آل داود شكراً » وقوله سبحانه فى تسخير الجن لسليمان « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات » ٠ ٠

وان حضارة يمتزج فيها العلم بالايمان لهى أقوم حضارة وأسماها ، ولقـد استطاعت بالحكمة أن تجعل كل انجازاتها فى خدمة الأهـداف النبيلة · من أجل الهـداية والايمان ·· لقـد تمكنت من وضـع مبتكراتها من قصـور وهياكل وصروح فى خدمة الايمان ·· وفى خدمة الانسان ··

وم تجعل الانسان خادماً لهذه الأشـياء أو عابـداً لها أو مفتوناً بها · انها وسائل لمرضاة الله يحس كل فرد فى جو هذه الحضارة بأنه يتنفس فى بيئة مؤمنة ، تغمرها أضواء الايمان·· وقد أفلست حضارة اليوم فى أن توفر للانسان هذا الجو · انها حـولته الى عابد للحضـارة ·· فامتهنت بذلك خصـائصه ، وأهدرت كرامته ·· فأين ذلك من حضارة تسددها « الحكمة » ويخططها العلم ، ويبنيها العمل ·· لقد جاء فى سـفر الملـوك الأول أن العمائر التى شيدها سليمان :

[بيت الرب ، وكان على مساحة تقدر بنحو ستين فدانا ، وبيت الملك ، وسور أورشليم ، وحاصور ، ومجدو ، وجـازر ، وبيت حـورون السفلى ، وبعلة ، وتدمر فى البرية] هذا عـدا المخازن ، ومدن المركبات ، ومـدن الفرسـان وما بناه فى لبنان وغيرها من سائر مملكته فاذا أضـفنا الى ذلك ماذكره القـرآن الكريم من صنع المحاريب · وهى أماكن العبادة والتماثيل من نحاس وحجر ونحوهما ، وكانت حلالا فى هـذه الشريعـة ·· والجفان أى القصاع الضخمة ، كأنها الجوابى أى الأحـواض التى يجبى اليها المـاء ، والقدور الضخمة التى لا يمكن رفعها·

حضارة صـناعة وعمل :

كل هذه المنجزات الحضارية من عمائر وهياكل وقصور ومن أدوات أخرى كالجفان ، والقدور ، والتماثيـل ، وقد احتوتهـا حضارة سليمان ، وتحول المجتمع فى عهده الى مصنع كبـير ،

تنصهر فيه كل القوى البناءة ، وتعمل السواعد القوية ، وتتطهر الأيدى بالكد والمعاناة ٠٠ وليس فى مجتمع سليمان مكان لخامل أو قاعد ٠٠ وقد اختلط صنع الجن بصنع البشر وتمازجت العناصر المختلفة فى المصنع الكبير ٠٠ فكان موكب العمل يتألف من الجن ، والانس ولهذا كانت حضارة الخوارق ، يدل لذلك قوله سبحانه : [والشياطين كل بناء وغواص ٠٠ وآخرين مقرنين فى الأصفاد ٠ هذا عطاؤنا (١)] ٠ وقوله : « ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه » ٠٠ وهذا التسخير انما يتم لسليمان « باذن ربه » فليس له أو لأحد فى مملكته أن يركب رأسه ، أو ينسى نفسه ، أو يفتات على ربه ٠٠

انها على العموم حضارة علم يترجم الى عمل ، تسدده الحكمة الراشدة وتنشئه السواعد المؤمنة ٠٠ وتتغشاه المعجزات الخارقة ويمازجه الايمان بالله !!

وقد أصبح سليمان مضرب الأمثال فى تلك الخوارق : يقول النابغة مخاطبا النعمان بن المنذر ٠

الا سليمان اذ قال الاله له : قم فى البرية فاحدوها عن الفند
وخيس الجن: انى قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد

كما ضرب به المثل فى فهم اللغات ومعرفة أسرارها ٠ فهذا المتنبى يسير فى شعب بوان بفارس فلا يكاد يفهم لغات القوم فينشد :

ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

عنصر الاعجاز فى تلك الحضارة :

ان عنصر الاعجاز جعل من هذه الحضارة عالماً سحرياً بديع الرواء ٠٠ بل دغلا واسعاً كثير الشعاب من أين جئته

(١) آية ٣٧ ، ٣٨ سورة ص ٠

وجدت ما يروعك ·· وقد مازجتها بعض الأساطير والمبالغـات وبخاصة فى كتب اليهود ·· وعلينا فى هذا المجال أن نمضى مع القرآن الكريم ·· وفيه قدر صالح من هذه الخـوارق لتكوين فكرة واسعة عن هذه الحضارة والذى يتأمل الآيات القرآنيـة يخرج بما يلى :

١ ـ أن هذه الحضارة قد تم انجازها بقوى مذهلة متنوعة من جن وانس وطير كل واحد من هذه العناصر له مكانه فى بناء الهيكل الحضارى ؛ فللريح مكانها ، وللجن مكانه ، وللهـدهد مكانه ، وللبشر مكانهم · ويتم التنسيق بينهم بواسطة القيادة الواعية الحكيمة قيادة سليمان عليه السلام ·· ولقد بلغ من وعيه أنه كان يحشد جند مملكته الكثار على شكل استعراض عام لجيش منظم ثم يتفقد صفوفهم ·· ويبدى ملاحظاته ·· ويعرف من غاب من بينهم « وتفقد الطير فقـال : مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ، لأعذبنه عذاباً شديداً أو لاذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبـين (١) » ·· فانظر كيف أدرك غيبـة الهدهد ·· وحسم فى الأمر عسكرياً · فاما التعـذيب والذبح ، واما الحجة التى تبرر غيبته عن الحشد الهائل ·· وذاك هـو حزم القيادة ووعيها ويقظتها ··

٢ ـ أن الله جلت قدرته قد طوع لها من الكائنات وسخر لها من عناصر الكون وذلل لها من النواميس ما جعـل كل شىء ميسرا سهـلا فى يد سليمان ·· فصـنوف الجـواهر واللآلىء والأصداف التى يضطر اليها للبناء والتزيين تجتلبها له الجن والريح تستخدم وقت الحاجة لدفع السفن ، والتأثير فى الزرع بأمر سليمان وتكليفه ، وأدوات البناء كلها يتعاون الشياطين

---

(١) آية ٢١ سورة النمل .

على احضارها وتشييد القصور بها ٠٠ والهدهد يأتى بالأخبار وينقل الرسائل ، والطير كلها تنجز من المهام ما يسند اليها ٠٠ والخيول الأصيلة تتكاثر فى ملك سليمان وتكون عدة للجهاد ٠٠ منه التماثيل وأدوات الحـرب ٠٠ والحجب تزال بينـه وبين الأشياء فيفهم ممنها ويتلقى عنها ٠٠ وينتفع بها ٠٠ ماذا بعـد هـذا ؟٠٠

تيسير فى عالم الانس ، وتسخير فى عالم الجن ، وتطويع فى عالم المـادة ، وتسهيلات فى عالم الطير وعالم الجماد ٠٠!! وكل ذلك يجعل من حضارة سليمان نموذجاً للثراء والبهاء ولكنـه جمال لا يضل ولا يذهـل ٠٠ ولا يبعـد عن الله ٠٠ بل يزيـد صاحبـه قرباً من ربـه وشـكراً لآلائه وتسبيحـاً له بالغـدو والآصـال ٠٠

فانظر كيف تسخر العوالم كلهـا بارادة الله للمتقـين !! وكيف تذلل التقوى كل صعب وعسير !؟ وليس لنا أن نسأل : ما كنه هذا التسخير ؟ وكيف استخدم سليمان الجن ؟ وفهـم لغة الطير ؟

وسخر الريح ؟ وما بساط سليمان الذى احتل فى الأساطير مكاناً مرموقاً ؟

انه الاعجاز الالهى ٠ ٠ وهو سبحانه قادر على أن يلغى كل النواميس المألوفة ، ويزيل الحواجز والحجب بين الانسان وبين الكائنات من جن وطير وجماد وريح لأنها جميعاً من خلقه ، فهو أعلم بأسرارها ، وأعرف بخباياها « انما أمره اذا أراد شيئـاً له كن فيكون » ٠

وليس الأمر هنا أمر التجارب البشرية ، أو العلم الانسانى ولكنه أمر خالق الأكوان ومولج الليل فى النهار وما يليق بانسان يحترم عقله ، أن يزج به فى هذا المضمار الذى استأثر به علم الله !! لأن ذاك فوق طاقته وقدرته ٠٠ عليه أن يصدق ما ورد فى القرآن خاصا بهذا الموضـوع ٠٠ وليس له أن يتجاوز قدره فيفلسف الأمور أو يتساءل عن قوانينهـا ٠٠ كما أن علينـا أن نتجنب المبالغات التى احتوتها كتب اليهود لانهـا ضـلالات مصنوعة ٠٠ وأكاذيب موضوعة وكم لليهود من ترهات ؟!

٣ ـ أن هذه الحضارة رغم ما تهيأ لها من وسائل الاعجاز لم يقعد أصحابهـا عن العمل ـ وانما استثمـروا الكائنـات ـ واستفادوا من الفرص المتاحة ٠٠ وتحركوا بالعمل فى كل اتجاه ٠٠ فهم لم يقعدوا لصنع الجن لهم ، ولم يكسلوا لتنوب الريح عنهم ٠٠ وانما انطلقوا بهذه التيسيرات يسخرونها بأمر الله٠٠ ويستخدمونها بقدره ٠٠ وينجزون بها الأعمال الخارقة ٠

ومن ثم فنحن نلاحظ أن داود عليه السلام يتمكن من الانة الحديد لا ليقعد وينام ولكن ليصنع بيده الدروع ٠٠ ويبدع فى هذا العمل أيما ابداع ٠٠ وسليمان ينقاد له النحاس سائـلا فيتفجر كما يحب لا لينام على ذلك ولكن ليستخدمه فى الصناعة ويحوله الى أدوات ٠٠

ويصـدر التكليف العـام من السماء لآل داود جميعـا أن يكونوا قدوة فى العمل ٠٠ لينقل الناس عنهم ، ويتعلموا منهم ، فيخاطبهم الله بقـوله : « اعملوا آل داود شكراً » وهو تكليف لتلك الأسرة البانية أن تنصهر باستمرار فى جو العمل ٠٠ وأن تتخـذ منه وسيلة لشكر الله ٠٠

وشتان بين قوم هود الذين قال الله فيهم : « أتبنون بكل ريع آية يعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » ؟

وبين آل داوود الذين يوجههم الله الى الشكر الدائم ليكون عملهم فى مرضاة الله « اعملوا آل داوود شكراً » نعم شتان بين حضارة للهو والعبث والرياء والتظاهر واعلان الحرب على الله ، وبين حضارة مسبحة عابدة شاكرة لله!!الأولى طبيعة الحضارة العادية ٠٠ والثانية طبيعة الحضـارة السليمانية ٠٠ ومن ثم بادت الأولى وذهبت مع الريح وبقـيت الثانية حتى استوقف قدرها الالهى !!

٤ ـ أن التجرد لله ، والعمل بشريعته ٠٠ واخلاص القلب له ٠٠ من الرسائـل التى تمكن للانسـان فى الأرض ٠٠ والله سبحانه لا يمنح تأييده للفاجرين ، ولا للفاسدين ٠٠ وانمـا يؤيد أولياءه وأنبياءه ٠٠ ويخرق لهم قوانين الكون ونواميس الطبيعة ، ويزيل ما بينهم وبين الكائنات من عوائق ٠٠ لهذا ، فان نظام الحضارات انما يزدهر ، ويتألق ، فى رحاب الايمان ويندحر ويذهب مع الفسوق والعصيان ٠٠ وكم من حضارات شادها الايمان ثم دمرها الكفران ٠

٥ ـ أن سليمان ، ومن قبله داود ، له يتم لهما هذا التمكين ليتحولا الى آلهة تعبد من دون الله ، لأنهما نبيان معصومان ٠٠ وقد بلغا من الشفافية والضراعة والاخبات لله حداً لا نطيقه ولا نتخمله ٠٠ ومن ثم فانه ليس لهما تأثير مبـاشر فى الكون ٠٠ وانما التأثير والفاعلية لله ٠٠ لأنهما لم يصلا الى هذا المقـام الا بحسن الشكر وصادق العبادة ٠٠ أما هما كبشرين فامكانتهما محدودة لا يتصرفن فى شىء لأن التصرف مقصور على رب الكون ومنشئه ٠٠ وهو سبحانه يضع سره فيمن يشاء من عباده ٠٠ ولذا يحرص التعبير القرآنى فى هذه المقامات البـاهرة على أن يضيف التأثير كله لله وانظر معى فى قوله سبحانه : وألنا له الحديد ، وأسلنا له عين القطر ، وسخرنا له الريح ، وعلمنـاه

منطق الطير ، وعلمناه صنعة لبوس لكم ، ومن يزغ منهم عن أمرنا ، ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربــه] فأنت ترى نون العظمة تسود الموقف كله ، وترى فى بعض الآيات تصريحا بأن هذا التسخير تم باذن الله ، أو بأمره ومشيئته ٠٠

هل تحس لداود وسليمان وضعا فى هذه الآيات ؟

كل ماهناك أنهما مخلوقات تجرى على يدهما آثار القدرة الباهرة ٠٠ ولكن ليس لهمـا تصريف أو ارادة أو أمر فى هـذا المقام الأرفع ٠٠ وهذه الكائنات من جبـال وطير ونمـل وجن مأمورة مسخرة منقادة لأمر خالقها وخالق الانسان فليس لاحد بالغ ما بلغ العلم والحكمة أن يزعم لنفسه شيئا من الأمر ٠٠ ونحن نرى أن لهـذه اللمحة فى التعبـير القرآنى أثرا كبيرا فى الزام الانسان حد نفسه حتى لا يتجاوز حجمه وصدق ربنـا اذ يقـول : [ومـا أوتيتم من العلم الا قـليلا] ان النواميس الكونية مخلوقة لله فهو يبقيها ان شاء ويلغيها ان شاء كل ذلك لحكمة يعلمها ـ واذن فعلى العلم البشرى الضيق الضئيل أن يلتزم حد الأدب فلا يتدخـل فيما ليس له فيخضـع المعجزات لقوانين العلم العادى !! وعلينا جميعا أن نخلص عقيدتنـا لله وحده وأن نحصنها ضد وساوس الشرك وهواجس الشيطان !!٠

٦ ـ تزدان تلك الحضـارة بأنمـاط فخمـة من وسائـل الجمال والزينة التى لا تستطيع حضارة البشر بالغة ما بلغت أن ترتقى اليها فهى حضـارة ذوق وفن وجمال فيهـا النحت متمثلا فى التماثيل والهياكل ـ وفيها البناء متمثلا فى المحاريب والمعابد وفيها دقة الصنع متمثلة فى الجفان ، والقدور الراسيات ـ وفيها الزينة متمثلة فى الخيول الصافنات ـ وفيها الزخرفة متمثلة فى الترصـيع بالدر واليـاقوت ومـا شئت من الحلى واللآلىء والأصداف ٠٠ وناهيك بالصرح الممـرد من قوارير ٠٠

هذه بعض العناصر المادية المتشابكة لتلك الحضارة الزاهية المتألقة التى لم تستطع رغم بهائها وروعتها أن تستعبد قلب سليمان لأنه يعرف جيدا أنها ابتلاء وامتحان فلم يسمح لها أن تستخدمه ـ وانما استخدمها هو ـ وعاشت منفصلة عن قلبه ٠٠ وجعلها فى خدمة البشر ولم يجعل البشر عبيدا لها ٠٠ كما فعلت المدنية الحديثة حيث جعلت الانسان عبدا للآلة والمصنع والمال والشهوات ٠٠ ان الانسان فى حضارة داود وسليمان عبد الله فقط لكنه سيد لكل عناصر الكون ولكل منجزات الحضارة وتلك هى الحضارة الربانية التى يتجه بها الانسان الى خالقه وخالقها ٠٠ مسبحا مقدسا هاتفا من الأعماق : « هذا من فضل ربى » فهذا هو الاعتراف بفضل الله والانصراف عن لهو العيش وزائف الحياة ٠٠ « ففروا الله انى لكم منه نذير مبين » ٠٠

ومن خلال تتبعنا لروعة تلك الحضارة ، نقطع بأن سليمان قد بلغ من بطولة الايمان واليقين منزلة رائعة حيث لم يفتنه هذا الملك الكبير الذى يعبر عنه بقوله : يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء] وللملك اغواء ، وللجاه اغراء ، وللدنيا تسلط على القلوب ولكن !! أين كل ذلك من قلب نبى أواب اجتباه الله وصنعه على عينه ولم يجعل للدنيا سلطانا على قلبه ؟ !

من روائع الحضارة السبئية :

بين بلقيس وسليمان : ورد ذكر سبأ فى القرآن الكريم فى موضعين ٠٠ الأول فى سورة النمل الآيات [من ٢٣ ـ ٤٤] وفيه تفصيلٌ لما حدث بين بلقيس وسليمان ، وما كان من بين النصارى واليهود وقصة أصحاب الأخدود معروفة فى أمر اسلامها والثانى فى سورة سبأ من الآية [١٥ ـ ١٩] وفيه

حديث مفصل جامع عن جنان سبأ ، وسد مأرب ، وسيل العرم، وتفرق القبائل ٠٠ وسنتكلم عن الموضوعين بالترتيب لما احتويا من وصف رائع أخاذ لعالم حضارة زاهية جميلة ٠٠ تشابكت فيها عناصر مادية وروحية ٠٠

الموضوع الأول : كانت مملكة سبأ تقع بجنوب اليمن ، وعاصمتها مأرب ، وملكتها بلقيس التى حكمت تلك المنطقة حكما شوريا ، وكانت تحكم فى منتصف القرن العاشر قبل الميلاد لأنها كانت تعاصر سليمان وكان هو يحكم سنة ٩٥٠ قبل الميلاد ، وهى احدى ملوك حمير المعروفين وكانت وثنية تعبد الشمس لكنها أوجدت فى منطقتها حضارة زاهية تقوم على الزراعة ، وبناء السدود ، وتنسيق الحدائق ٠٠ ولا غرو فالحضارة اليمنية قديمة عريقة ، وكانت أرضه تعرف بالأرض السعيدة وقد تعاقب عليها من أجل ذلك غزاة طامعون فى حقب مختلفة من التاريخ ٠ ودارت على أرضها وقائع كبيرة وبخاصة بين النصارى واليهود وقصة أصحاب الأخدود معروفة فى القرآن الكريم وقد استعمرها الأحباش والفرس وتنازع البقاء فيها يهود ونصارى ٠٠ كانت السفن ترسو على شواطئها تجلب اليها البضائع ، من الهند الشرقية وبلاد الصين وسواحل أفريقية ٠٠ ثم تذهب الى صنعاء ومأرب لتنتقل منهما على ظهور الابل فى قوافل ضخمة الى الشام والعراق ومصر وحوض البحر الأبيض المتوسط ٠٠ وكانت مأرب تتقاضى الضرائب على البضائع المارة بها وكان هناك تبادل تجارى بين الجنوب والشمال فى شبه الجزيرة العربية ٠

وقد اشتهرت فى اليمن صناعات قديمة منها نسج المواد الخام التى كانت تستوردها من الهند ، والبرود اليمنية مشهورة ومعروفة ٠٠ وأكثر منها فى الشهرة السيوف ، كما كان أهلها مهرة فى فن العمارة والنحت يدلنا على ذلك ماخلفوا من سدود

وقصور وحصون ومدائن ومعابد وحياض لخزن المياه ، ولقد وصف الهمدانى قصر غمدان وأنه كان عشرين طبقة بعضها فوق بعض بين كل سقفين عشرة أذرع ، وقد غطى أعلاه برخامة واحدة شفافة ، وكانوا يزخرفون المبانى بالنقوش والرسوم وكان بعض مبانيهم بيضى الشكل مثل « حرم بلقيس » ولعله كان معبدا ، وقصور اليمن قد أطنب المؤرخون فى وصفها ٠٠ هذه بعض عناصر تلك الحضارة ٠٠

وقد امتازوا بعد العمارة والتجارة ، بالزراعة ، زرعوا السهول المنبسطة ، وسفوح الجبال ، وعنوا بمسايل الرى ، وحفر القنوات وأنشأوا مئات السدود لخزن الماء أيام السيول ورفع مستواه ليصل الى السفوح ، وكانوا يعنون بالكروم عناية خاصة حتى لقد ذكر الهمدانى صاحب كتاب جزيرة العرب أكثر من عشرين صنفا من أعنابهم ٠

ويمكننا أن نستخلص أن هذه الحضارة قد اكتملت فى اليمن بصورة عامة وفى جنوبها بخاصة ، عندما كانت البلاد مستقرة تعيش فى ظل عقيدة دينية سمحة يوم تم الاتصال التاريخى بين بلقيس ملكة سبأ ، وبين سليمان النبى ، ودخلت فى دينه بعد أن شاهدت أبهة ملكه وفخامة عرشه وجلال عقيدته وتأكدت أنه ليس ملكا دنيونا يبغى تكوين امبراطورية ، وانما نبى صالح يبغى بناء مدنية فاضلة وترسيخ عقيدة مؤمنة ، وعندما اندمجت مملكتها فى مملكة سليمان نعمت بعقيدة الايمان ، فسعدت بحضارة وارفة الظلال ، هى التى وصفناها قبل ذلك ٠٠

والقرآن يشير الى ذلك بوضوح فى الآيات (من ٢٤ ـ ٤٤) من سورة النمل ٠٠

ولابد لنا من وقفات تأملية أمام بعض الاشارات القرآنية لنستنبط منها معالم الحضارة السبئية ، فى تلك الفترة الخصبة من تاريخ اليمن ٠ ٠

قصة خالدة أو رحلة الايمان :

وخلاصة القصة فى وجـازة كما وردت فى القـرآن ٠ ٠ أن سليمان عليه السلام كان يحشد جيشه النظامى ، ثم يستعرض صفوفه ٠ ٠ ليوجه الجند ، ويشرف على تنظيمهم ٠ ٠ وقد حدث ذات يوم أن تفقد الطير من بين الصفوف فلم يجد الهدهد ٠ ٠ فتهـدده بالوعيـد الشـديد ان لم يبرر تخلفـه عن حضـور الاستعراض ، وهو التعذيب أو الذبح ٠ ٠ فأنبأه الهدهد ، وكان قد حضر ووقف على مقربة منه بأن لديه خبراً عجـيباً يريد أن يفضى به اليه ٠ ٠ ثم شرع يقص قصته ٠ ٠ لقد ذهب الى أرض سبأ ، فوجد ملكتهم امرأة ، تملك أمرهم ، وتحكم بينهـم ٠ ٠ ولها عرش عظيم ، وسلطان واسع ٠ ٠ بيد أنها تعبد الشمس ، فكتب سليمان النبى كتاباً ، ودفع به الى الهدهد وأمره أن يتجه به الى الملكة ويسملها الخـطاب ٠ ٠ وأنه سيعرف صـدقه أو كذبه من خلال تنفيذ هذه المهمة ، وكان الخطاب دعوة الى الايمان وطلب فيه ألا يعلوا عليه ٠ ووصل الهدهد بالخطاب وقـذف به الى الملكة ، وقرأته مندهشة ٠ ٠ ثم جمعت قومها لتأخذ رأيهم فى أمر هذا الخطاب ومضمونـه ٠ ٠ فأكدوا لها جميعاً أنهم أقوياء ، فاذا رأت الملكة أن يحاربوا فهـم على استعداد ، فوضوا لهـا الأمر ٠ ٠ ولكن المرأة تعرف نتائج الحروب فأشارت عليهم بأن تسلك مع هذا الملك مسـلكا سلمياً ، تبعث اليه بهدية فخـمة تترضاه ٠ ٠ وتكشف عن دخيلته ٠ ٠ وفعلا نفذت ذلك ٠ ٠ لكن سليمان رفض الرشـوة ، واحتقـر المـال ٠ ٠ وأكد لهم أن الله منحـه ماهو أسمى من ذلك كله وهو الايمان ٠ ٠ وأنها ان لم تذعن وتحضر اليه مسلمة فسيرسل اليها جيشه القوى ٠

وعلى أثر هذا التهديد جاءت تسعى الى سليمان ٠٠ الذى أعدلها مفاجأة تتجلى فيها القوة والسلطان ، وهو احضار عرشها وتغيير بعض مظاهره ٠٠ ليعرف أهى ذكية تعرف ؟ وكان الذى أحضره رجل صالح ممن عنده علم من الكتاب ٠٠ ثم بنى له صرحاً من زجاج ووضعه على سطح الماء اظهاراً لفخامة ملكه وعظمة سلطانه ٠٠ فأما هى فعجبت حين رأت العرش وأبدت دهشتها ولم تقطع بأنه عرشها ٠٠ بل اكتفت بقولها : « كأنه هو » أما الصرح فقد شمرت عن ساقها ظناً منها أن الصرح ماء فقيل لها : « انه من قوارير » تبدو كالماء وماهى بالماء ٠٠ فهتفت بعد مارأت جمال الحضارة وجلال الايمان :

« رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » والمفسرون يذكرون أن سليمان تزوج منها وجاء بولد يزعم بعض ملوك الحبشة أنهم من نسل ذلك الولد ٠٠ فهم أبناء سليمان ٠

« بين بلقيس وسليمان » من وحى الآية :

١ ـ قوله سبحانه على لسان الهدهد : [أحطت بما لم تحط به] يخاطب بذلك سليمان ، يدل على ذكاء هذا الهدهد ، فقد استطاع أن يمتص نقمة سليمان عليه بهذا الاعلام المثير : « أحطت بما لم تحط به » وأى انسان يسمع أحد أتباعه يقول له ذلك ، ثم لا يلتفت اليه بكل قلبه ويذهل عما هو فيه ؟ !

وهنا أسرار ربانية لا تخفى ، فهذا هدهد يعرف مالا يعرف نبى كريم ، وينطق بما يفهمه سليمان ، ويفهم عن سليمان مايقول ٠٠ ويقدر الموقف الرهيب الذى تتهدده فيه عوامل الموت بسبب تخلفه ٠٠ فمن ألهم الهدهد كل هذا ؟ من استودع فيه تلك الأسرار ؟ ثم ماهذه الفصاحة التى يتحدث بها الهدهد

وماهذه الغيرة على الايمان ؟ حين أنبأ سليمان أن القوم يعبدون الشمس من دون الله ، وأن الأحرى بهم أن يسجـدوا لله الذى يعلم الأسرار ، ويولج الليل فى النهار ·· لا غرو فالهدهد جندى من جنود سليمان ؟ وعضــو فى مجتمعه · · فهو ليس هدهـداً عادياً وسبحان من ألهمه وعلمه !!

٢ ـ قوله سبحانه على لسان الهدهد : [انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء الخ]

يعطى التعبير أنها كانت ملكة تحكم قومها حكما شوريا ، ولذا قال : « تملكهم » ولم يقل : تحكمهم وانه ليدل كذلك على عظمة ملكها ووفرة مالها ، وكثرة أسلحتها · · وسعة ثروتها · · ولذا ورد على لســان حاشيتها : « نحن أولو قــوة وأولوا بأس شديد » فهى مع شعبها تحيا فى ظل حضارة تملك الثراء وتملك القوة · · ويدل هذا الرد من جــانب الحاشية أن الشــعب كان متلاحما مع قيادته يتجــاوب معها · · ويتحمس لفكرها · · بدليل أنهم بعد أن أعلنوا عن بأســمهم وقــوتهم · · أكدوا لها الولاء بقولهم : « والأمر اليك » · وممــا يؤكد أن حكم هذه الملكة لشعبها كان شوريا ، أنها لم تقطع فى الأمر دونهم ، بل جمعتهم لتأخذ رأيهم وتتشاور معهم فى هذا الأمر الخطير · · الذى يشكل تهـديداً مباشراً لملكتها · · فهذا أشبه بمؤتمــر عام موســع تستفتى فيــه القاعدة الشعبية ·· اذن : فهــذه الملكة كانت تعيش تجربة سياسية مع شعبها تقوم على الشورى واحترام ارادة الشعب ، ومن خلال ذلك نستنبط أنه ما من تجربة يصل اليها العالم المتمدين الا ولها وجه فى التاريخ القديم غالبا ·

كما أننا نستنبط عراقه الحكم الشورى وامتداد جذوره فى أغوار التاريخ !!

وما أجمل قول المؤتمر : « والأمر اليك » انه يعطى حسن الأدب مع القيادة ويبرز وجها من وجوه الردود « الدبلوماسية » فى مواجهة القيادات ولو كانت نسائية !!

ولقد كانت هذه الملكة كما وضحنا تملك ولا تحكم ، أو قل كانت تحكم بواسطة الشعب ٠٠ ولهذا أحبوها ،

٣ ـ فى بدء خطاب سليمان قوله : [انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم] براعة استهلال ، وصفاء بصيرة ، وحسن توفيق ٠٠ فهو يحمل أولا معنى التواضع ٠٠ من سليمان مجرداً لا من الملك أو النبى أو ماشئت من ألقاب تحشد حشداً فى هذا المقام لا تستطيع الجمال حملها ٠٠ والبدء باسم الله سمة الرشاد ، وطابع الهداية الربانية ، فهو يدعو باسم الله لا باسمه ، ولا باسم مملكته ٠٠ وبقية الكلمات لها نباهة شأن فى الهداية : « ألا تعلوا على » هل هناك تواضع أكثر من هذا ؟ انه يعرض الهداية ٠٠ ولعرض الهداية أسلوب ملؤه اللين ، والرقة والتواضع ، وصدق التوجه الى الله ٠

وقوله : [وائتونى مسلمين] فيه مايوحى بسمو العقيدة ، وأنه لا يملك الا أن يبررها فى اطار من التسامى والعزة ٠٠ لأنهم لن يأتوا اليه صاغرين ٠٠ بل مسلمين ولمن الاسلام ؟

انه لله رب العالمين ٠ ٠لقد تواضع سليمان فيما يتصل بأمر نفسه ٠٠ أما الدعوة فلابد أن تعرض فى اطار العزة والتسامى ٠٠ لأنها لله رب العالمين ٠٠ ولذا نرى التهديد فى قول سليمان للرسول الذى جاء يقدم له الهدية : « ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » ٠

لماذا هذا الوعيد ؟ لأنها دعوة الحق ٠٠ والقوم يريدون أن يعبثوا ٠٠ فلابد أن يشعروا بالجد والحزم ٠

٤ ــ فى قول الملكة : « ان الملوك اذا دخلوا ٠٠ الخ » ما يوحى بأن الملكة أرادت أن تمتص حماسة الجند ، عندما أبدوا استعدادهم للحرب ٠٠ وكأنما غلبتها طبيعة الأنثى ٠٠ فأشارت لهم الى ويلات الحرب ٠٠ وأن الملوك عندما يتمكنون من بلد فانهم يذلون الأعزاء ٠٠ ويفسدون فى الارض ٠٠ انها من أجل ذلك تريد حلا سلميا ، فالهدية تؤلف القلب ، وتبرز نية هذا الملك ٠٠ ولهذا ساد منطق السلام ٠٠ وهدأت حدة الشعب ، وأيدوا رأى الملكة ٠٠ وذلك يعطى انطباعا بأن رأى القيادة اذا أحسن عرضه لاقى القبول من الشعب ٠٠ وبخاصة اذا كان الشعب ملتحماً مع القيادة واثقا فى آرائها ٠٠ يكن لها الولاء والاجلال كما يظهر ذلك فى قولهم : « والأمر اليك » ٠

٥ ــ فى قول بلقيس : « انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان » معنى رائع ينبغى أن نقف معه لحظات ، ذلك أنها عندما شاهدت الأمر على حقيقته تأكدت أن أمر سليمان ليس أمر ملك دنيوى ، وانما الأمر هو أمر العقيدة والايمان ٠٠ وأنه لا يساوم على العقية بالمال ، ولو كان من ملوك الدنيا لقبل الهدية وفرض الاتاوة ٠٠ ثم ان ملكه كبير ، له من الروعة والجلال مالا يتهيأ لملوك الدنيا ٠٠ كل ذلك هيأ قلبها للايمان ٠٠ ووجهه لله ٠٠ ولذا أعلنت عن هذا الايمان من غير تحفظ ٠٠ وكذلك الايمان عندما يغزو القلوب يندفع عنيفاً كالسيل لا يعبأ بشىء من تهديد أو وعيد ٠٠ ولا يبقى على شىء من ثروة أو ملك فكل ذلك تافه الى جوار العقيدة ٠

وعندما تعلن عن ايمانها ٠٠ تبدأ عهداً مع الله ٠٠ بقولها « رب » ٠٠ وما أجملها من كلمة رقيقة عذبة ٠٠ تصعد الى حيث يصعد الكلم الطيب ٠٠ تنقل فى لحظة واحدة قائلتها من وثنية مجوسية تعبد الشمس الى مؤمنة نقية تتجه الى الله ٠٠ وفى

قولهـا : « انى ظلمت نفسى » تعبير عن الاقتنـاع بالايمـان ، واقرار بأن ما كانت عليه زور وزيف وبهتان ٠٠ وطلب للمغفرة من الله ٠٠.

وفى قولها : « وأسلمت مع سليمان » يفيد : أن اسلامهـا لله وليس لسليمان انها أسلمت معه ولم تسلم له !!٠٠ وأنها صارت بهذا الاسلام كفئاً للنبى الأواب ٠٠ تمضى معه على طريق الايمان ٠٠ مسلمة وجهها لله رب العالمين ٠٠

فهذه عزة الايمان عندما يخامر القلوب ٠٠ تجعـل المؤمن صنوا للمؤمن مهما يكن مركز الثانى لأن العقيدة ترفع الى أعلى المستويات ٠ وفيه أنها لم تسلم خوفاً من بطش ٠ بل أسلمت لله وخضعت لأمره لا لامر سليمان وجيشه ٠٠ ومن ثم ازدهرت حضارتها فى ظل هذا الايمان ونقلت شعبها من ظلام الوثنيـة الى نور الايمان ٠٠ وأصبحت حكايتها فى القرآن دليل عظمـة ورمز فخـار ترددها المـلايين بروح الاعجـاب والاكبـار لأن صاحبتها لم تصر على الباطل بل انقادت الى الايمان ٠٠

من معالم الحضـارة السبئيـة ـ سد مأرب :

فى الآيـات التى أوردناها سابقـاً اشـارة الى سـد مأرب وتصدعه والمؤرخون يؤكدون أن هذا السد قد تصدع أكثر من مرة ففى سنة ١١٥ ق٠م وفى سنة ٤٥٠ ق٠م وفى سنة ٥٤٠ ق٠م حدثت تصدعات هائلة لذلك السد ، والقرآن الكريم يشير الى أن سبأ بعد التصدع قد فقدوا كيانهم ، وضاعوا فى أرض الله٠٠ لكن هل هو التصدع الأخير ؟ أم هو تصدع حدث من قبل ، ثم تلاه ترميم السد ٠٠؟ معظم المؤرخين يشير الى أن التصدع الذى أشار اليه القرآن ليس هو الأخير ٠٠ لان القوم قد رمموه بعـد واستأنفوا الحياة ٠٠

كتب الهمدانى فى كتاب الاكليل منذ عشرة قرون يقول :
[سبأ كثيرة العجائب ، وكان لها جنتان عن يمين السد وشماله وهما غامرتان وانما عفتا لما اندحق السد أما مقاسم المياه من مداخل السد فقئمة كأن صنعها فرغ من عملها بالأمس] وهو كلام يوحى بعظمة هذا السد ، ويدل على ارتقاء القوم فى سلم الحضارة ٠٠ وتمكنهم من السيطرة على مياه الأمطار واقامة الخزانات ٠٠ وبسبب هذا كانت أرضهم مخصبة ولقد أقيم هذا السد كخزان طبيعى يتألف جانباه من جبلين ، جعلوا على فم الوادى سداً بينهما ٠٠ به عيون تغلق وتفتح واحتجزوا وراء السد كميات ضخمة من المياه وتحكموا فيها وفق حاجتهم فكان هذا مورداً مائياً عظيما ٠٠ ومما يدل على عظمة هذا السد ، أن كثيراً من المستشرقين قد زاره وكتب عنه ٠٠ فالمستشرق الفرنسى أرنو يزور مأربا سنة ١٨٤٣ م ، ويشاهد السد ويرسم له خريطة ويصفه وصفاً يجىء مطابقاً لما يقوله الهدانى ، وورد فى الجزء الثانى من كتاب « رحلة الى بلاد العرب السعيدة » للأستاذ نزيه العظم آخر من زار مأرب ما خلاصته : « على مسافة ١٤٥ ك٠م الى الشرق الشمالى من صنعاء تجتمع سيول اليمن الغربية مع السيل الذى يأتى من الشمال والسيل الذى يأتى من الجنوب وتؤلف هذه السيول شبه بحيرة كبيرة مستديرة ومرتفعة من جهة الغرب والشمال والجنوب ومنخفضة من جهة الشرق حيث تسير جميعها شرقاً فى مجرى سيل واحد » ثم يستطرد فى الوصف : « ثم يأخذ فى الضيق الى أن يبلغ ١٧٥م فى مخرجه بآخر الجبلين بمكان يقال له : مربط الدم وهو المكان الذى بنى فيه سد العرم ، ولم يبق سيل العرم للسد هنا أثراً غير مخرج الماء »

هذا خلاصة ما كتبه آخر زائر للسد استطاع أن يحصل على تصريح من امام اليمن يومذاك سنة ١٩٣٦ م ويظهر أنه

لس ببلاد اليمن أنهار دائمة الجريان لكن السيول تنزل بهـا كثيراً ٠٠ فاضطروا الى اقامة الخزانات لضبطها والتحكم فيها لحاجتهم الى ذلك والحاجة أم الاختراع ٠

وسد مأرب كما يصفه الهمدانى هو أحد ســدود اليمن ، وتوجد سواه سدود كثيرة ، ويصفه بأنه حائط ضخم أقيم فى عرض وادى أذنه ويبلغ طوله ٨٠٠ ذراع وعرضــه من أسفل ١٥٠ ذراعاً وارتفاعه بضعة عشر ذراعاً وكان ينتهى من أعلى بسطحين مائلين على زاوية منفرجة تكسوها طبقة من الحصا ، والظاهر أنه بنى بالتراب والحجارة وكانت به منافذ يتسرب منها المـاء الى الجنــان عن يمــين وشمال ـ مقفـلة بعوارض ضخمة من الخشب والحديد لاستخدامهـا وقت الحاجة وتقـع مدينة مأرب الى الشمال الشرقى من السد وبينها وبينه متسع من الأرض تبلغ مساحته ثلاثمائة ميل مربع ـ كان قفراً قاحلا فأصبح بعد بناء السد غياضا وبساتين المعبر عنهـا بالجنتين عن يمين وشمال ٠٠ لكن من الذى بناه ؟٠٠

معظم كتب التفسير وعلى رأسها الكشاف أنها بلقيس ـ وكذلك معظم المؤرخين ٠٠ وقيل ، حمير وقبل سبأ ـ والظاهر أن السد لم يتم فى عهد واحد ـ لأن هناك أسماء كثيرة منقوشة قد اشتركت فى بنائه ٠٠ وهذا معقول لأنه عمل حضارى رائع فلابد أن تشترك فى بنائه أياد كثيرة ٠

وقد أثبت المستشرق مولر بعد ترجمة كتابته أن سمعهلى ينوف بن زمر على مكارب ســبأ اخترق « بلق » وبنى ســداً لتسهيل الرى ٠٠ ويمكن أن يفسر بأنه بنى جانباً منه على ما أثبته الأستاذ العظم ٠٠ ومعظم من اشتركوا فى بنائه من ملوك القرن الثامن قبل الميلاد ٠

تصدع سد مأرب : يرى الأستاذ الخضرى أنه لـمـا تطاولت الأزمان على ذلك السد أهمل من شأنه فتصدعت جوانبه ـ ولم

يصبح قادراً على حمل هجمات السـيل ـ فتصـدع وكان ذلك حوالى ١١٥ أو ١٢٠ قدما أى قبل الهجرة بسبعة قرون ونصف قرن تقريباً · كما قال العالم سيديو ·· وكان تصـدعه الحـد الفاصل بين سقوط سبأ وقيـام حمير ·· وقد رمم عدة مرات كما أثبتت النقوش ··

وهناك أسطورة تقول ان تصدع السد بسبب فأر قد قرضه فأفسده من أسفل ·· وهو كلام لا يعقل ·

وقد ثبت أن أبرهة سنة ٥٤٢ م كتب الى أهل البلاد بأن يعـاونوه فى ترميم هـذا السد بحمـل الأحجار والاخشـاب والرصاص ـ وأنه استغرق فى العمل زهاء سنة ·

ويرى المستشرقون : أن تصدع السد كان نتيجـة اهمال من جانب أمة آخذة فى الانحطاط وهذا هو الرأى الراجـح ·· الذى يرشحه القرآن الكريم حيث ذكر أن التصدع حدث بسبب الاعراض عن الله ·· ومن أعـرض عن الله أنسـاه واجبـه فى الحياة !! وجعله عبرة للناس ··

القرآن والحضـارة السبئيـة :

يصف القرآن الكريم هذه الحضارة وصفاً رائعاً أخاذا ·· حين كانت تستظـل بظـلال الايمـان ·· ثم يعرض لمـأساة الانفصال عن الله وبطر النعمة ـ وعقوق الترف ـ وغير ذلك من الآفات التى تهوى بشوامخ الحضارات فتجعلها حديثاً يروى وقصة تذكر فى مجال التأسى والعظمة فيقول سبحانه : [لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له ·· بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط

وأثل وشىء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى الى الكفور ٠٠ (١)] ٠

والآيــة تعرض تقلب الحضـــارة الانسانيــة بين الايمان والكفر ـ بين الارتباط بالله والانفصال عنه فهى كانت فى ظل الهداية والايمان حضارة ذات جنات وارفة الظـلال عن يمين وشمال ٠٠ أى أن القوم كانوا مستمتعين بالنعم السوابغ ٠٠ والأرض الخصبة ـ والمـاء الغـامر ـ والتجارات الرابحــة ـ والصناعات الكثيرة ٠٠ وأنهم كما تشير الآية قد تمكنــوا من انشاء حضارة سعيدة ٠٠ وهذه الجنان عن يمين وشمال هى رمز الخصب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل ومن ثم كانت نعمة من الله ؛ ويوحى التعبير القرآنى بأنهــا كانت تأخـذ شكلا هندسياً جميــلا عن يمين الســد وشماله ٠٠ بدليــل وصفهما بأنهما « آيــة » ٠٠

وفيهدليل بعد هذا على وفرة الثمار ٠٠ وتنوعها وســهولة تناولها وقوله سبحانه « كلوا من رزق ربكم » دليل على أنها منحة من الله تعالى ٠٠ وأنها مهيأة لهم ٠٠ ليأكلوا منهــا ـ وقد ذكرهم بأنها من رزقه حتى لا يبطروها ـ وينفصلوا بهــا عن الله ٠٠ ولهذا طالبهم صريحاً بشكره ٠٠ بعد أن وضــح لهم أنها من رزقه ٠٠ وأى نعمة أعظـم من نعمة البــلد الطيب والرب الغفور ، سماحة فى الأرض بالنعمة والرخاء ، وسماحة فى السماء بالصفح والغفران ، فماذا يقعدهم عن الشكر ؟!٠

قا ابن عباس : كانت هذه البقعة أخصب البلاد وأطيبها، تخرج المرأة وعلى رأسها المكتل فتعمل بيديها وتسير بين تلك الأشجار فيمتلىء المكتل « تلقائياً » بما يتساقط فيه من الثمر ٠

---

(١) آيات ١٥ ، ١٦ ، ١٧ سورة سبأ .

وكلمة « طيبة » توحى بأنها خصبة ـ ليست سبخـة ولا ضعيفة · وقال صاحب الكشـاف : لم يكن بها بعـوض ولا برغوث ولا ذباب ولا عقرب ولا حية ـ ثم ذكر أن القوم أعرضوا عن الله وطغوا فأرسل الله اليهم ثلاثة عشر نبيا يذكرونهـم فكذبوا وقالوا : ما نعـرف لله نعمـا علينـا !!

فماذا ينتظر لقوم هذا شأنهم مـع الله ؟·· لقـد وصف القرآن موقفهم من ربهم بعد ذلك بقوله : « فأعرضـوا » هكذا بالتعبير الوجيز المعبر ·· أداروا ظهورهم لربهم ·· وقاطعـوا شكر انعمة تلك هى الطبيعة الانسانية الكنود ·· اذا بشمت بطرت ، وذا شبعت ركلت ·· واذا استغنت طغت ·· والتعبير بالاعراض يوحى بالصدور والنفرة والتولى والتـأبى ، فماذا كانت نتيجتهم ؟ هى ما تقرؤه فى قوله : [فأرسلنا عليهم سيل العرم ··] ويفيد التعبير بالفاء أن العقاب كان حاسماً سريعاً حين عبروا عن موقفهم من ربهم بالاعراض الذى لا يترك أمـلا فى استصلاحهم ، وسيل العرم : وسيل مجتاح مدمر يحمل معه الحجـارة ··

وكان من أثره أن حطم السد فانساحت المياه فطفت وأفسـدت وتحولت الجنان الفيح الى صحارى للشوك والخمط والأثل · · كفروا بالمنعم فأزال عنهم النعمة [وبدلنا بجنتهم جنتين ذواتى أكل خمـط وأثل وشيء من سـدر قليل] هذا هو أثر السـيل فى الجنان · · يالله !! أين الجنان النضرات عن يمين وشـمال ؟ أين الزهرات التى كانت بالأمس مخضـلة بالنـدى ؟ بـل أين الورود التى كانت ناعسـة فى الغلائل ، أين قطوف العنب التى كانت متدلية كالجدائل ؟ أين ثمرات ناضجات مختلفات الطعوم والأشكال ؟ لقد صوح النبت وجف الشجر ، وغاضـب المياه ، واندثرت الخلجان ؟ ونبت الشوك والأثل والخمط مكان الزهر

والثمر والورد ٠٠ وكذلك الاعراض عن الله يحول خصب الحياة الى جدب ، ومخضل الغصون الى خشب ، ورياض الأرض الى حشائش وعشب ، وهذا درس يجب أن يستوعبه بناة الحضارات وبخاصة فى عصرنا هذا ٠٠ فماهم ، مهما اخترعوا ، بمعجزين !! وكذلك يجب أن يتنبه له أصحاب النعم ٠٠ وهو أن تظل نفوسهم خصبة بشكر الله ٠٠ حتى تظل أرضهم خصبة بالزهور والثمرات ويوم تجدب القلوب من الشكر يوم تجدب الأرض من الزرع ٠٠ والله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ٠

والخمط : الأراك وكل شجر ذى شوك ، والاثل : شجر يشبه الطرفاء والسدر : النبق وكلها نباتات لا تسمن ولا تغنى من جوع وبالمقارنة بين حالى الجنتين قبل السيل وبعده نرى أنهما تلائمان حال النفوس خصبا وجدبا ، ولقد ثبت أن أهل سبأ أقاموا رغم الشدائد والمكاره التى حلت بهم على الضنك والحرمان والمسغبة وعاشوا فى شدة بعد لين ونعمة ، مكثوا فى قراهم على هذا الحال البائس والعيش الضنك ، ثم زادت قلوبهم استغلاقا فطلبوا ابعاد الأسفار لتطول رحلاتهم بعد أن كانت المسافات بين قراهم قريبة ، وكذلك بينهم وبين الشام ، وكانت رحلاتهم الهيا مأنوسة لاخوف فيها ولاعناء وذلك قوله سبحانه : [وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدرنا فها السير ، سيروا فيها ليالى وأياما آمنين] معناه أن الله يسر أمر السفر لهم ، وقرب قراهم بعضها من بعض ٠٠ بحيث تبدو كل قرية ظاهرة للعيان ٠٠ وجعل رحلتهم مأمونة بالليل وبالنهار لايخافون عدواً ولايحملون معهم زاداً ٠٠ ولكنهم أمعنوا فى الفساد فقالوا « ربنا باعد بين أسفارنا » قال صاحب الكشاف ٠ بطروا النعمة ، وبشموا من طيب العيش وملوا العافية فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو اسرائيل الثوم

والبصل بدل المن والسلوى ا ٠ هـ ولسبب هذا الاعراض عن الله، والتطاول فى السفه مزق الله شملهم وفرق جمعهم ، وجعلهم أباديد ٠ ٠ ففقدوا هديتهم وضلوا فى أرض الله لحق غسان بالشام وأنمار بيثرب ، وجذام بتهامة والأزد بعمان ٠ ٠ وهكذا أصبحوا خبرا يروى وقصة تحكى موعظه تساق فى معرض التأسى ٠ ٠ وستظل هذه القصة حافزا يدعو الى شكر النعمة مابقى فى الدنيا قرآن يتلى ٠ ٠ وحتى يرث الله الأرض ومن عليها ٠ ٠

عظة وعبرة :

تلك حضارات قد ورد ذكرها فى الكتاب العزيز فى معرض العبرة والعظة لتكون درساً بليغاً لأصحاب الحضارات حتى يتنبهوا الى العوامل التى تؤدى الى ازدهار الحضارة والأسباب التى تؤدى الى انتحارها ٠

ومن البدهى أن هذه الحضارات كانت اقليمية ازدهرت فترة من الزمن ٠ ٠ حتى اكتمل دورها ثم توارت لتحل محلها أخرى ٠ ٠ لأنها لم تزود من العليم الخبير بما يجعلها مستمرة ، وعالمية تضىء الحياة ، وتخصب الوجود وتصلح لكل الأجيال ٠ ٠ لقد كانت ومضات مشعة أضاءت فترة ثم انطفأت حين انقضى دورها ٠ ٠ أو ذبالة تألق سناها حين كان الزيت يمدها حتى اذا نفذ الزيت انطفأت الذبالة ، كانت كل حضارة من الحضارات السابقة أشبه بشبكة كهربية ضعيفة تضىء قرية فهل يمكن أن يستخدم تيارها لاضاءة مدينة ؟ ذلك بالضبط هو ماحدث للحضارات التى ازدهرت فى ظل الأديان السماوية ٠ ٠ رغم أن بعضها فعلا قد استقام على أمر الله ، وأدى رسالته فى الحياة كالحضارة الداودية والسليمانية ٠ ٠ ولكنهما لم تعمرا أكثر من عمرهما المقدور لأن طاقتهما محدودة ٠ ٠ ولن نجد الحضارة التى

تستمر وتضىء آفاق العالم كله الا الحضـــارة الاسلامية ، التى سنتعرض لها بالدراسة المفصلة فى الجزء الثانى من هذاالكتاب ٠

كم من مواكب بشرية أقامت على ظهر الأرض ، ورتعت فى النعم ، ومكن الله لها ٠ ٠ فازدهرت وسعد أصحـــابها ٠ ٠ حتى اذا أعرضت عن الله أذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ٠ ٠ كم من حضارات عمرت الأرض ـ وابتكرت أروع الوسائل وملكت أفخم القصور ٠ ٠ ونحتت فى الصخر ـ ومهدت الطرق ـ وأنشأت الخزانات ٠ ٠ وفجرت الينابيع واستخدمت المصانع ٠ ٠ ولكنها مع ذلك لم تثبت على الايمان فكان جزاؤها الضياع والدمار وذهب أصحابهـــا لم يعبأ بهم التاريخ ـ ولم يكترث بهم القدر « فما بكت عليهم الســماء والأرض وماكانوا منظرين (١) » « فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمـد لله رب العالمين (٢) » ٠

---

(١) آية ٢٩ سورة الدخان ٠

(٢) آية ٤٥ سورة الأنعام ٠

البـــاب الرابـــع

العالم قـــبيل القـــرآن

نظرة على العالم فى القرنين السادس والسابع الميلاديين :

عاشت الانسانية هذين القرنين وهى تعانى قلقا فى الروح وجدبا فى العواطف وانحداراً رهيبا فى الأخلاق وانفصالا شائنا عن الله جعلها تضــل فى عالم الظلمات ، وتفقــد خصائصهــا الانسانية التى زودها الله بها وتهدر طاقاتها الهائلة فى حروب مجرمة لا تحــق حقا ولا تزهق باطلا ، وانمــا لتزيد الشــهوات الحادة سعاراً ونهما ، والامبراطوريات الشرهة رفاهية وجشعا ، والسلاطين المتألهين عتواً واستكباراً ، واستعبد البشر بعضهم بعضا فاستذل الأقوياء رقاب الضعفاء وساموهم سوء العذاب ، ولم تعد الأديان السماوية قادرة على تلطيف حدة هــذا السعار والاستقامة بالحياة على منهج الواحد القهار لأنها فقدت صفاءها وضــياءها ، بعــد ن نال الديانتــين الكريمتين من التشــويه والتحريف ما جعلهمــا جســداً بلا روح وكيــانا بــلا طموح ، لقد لوثتهما ارادة البشر وجعلت منهما أداة طيعة لخدمة الأهواء والمطامع ، فضعف أثرهما فى نفــوس البشر ، وأهدرت كرامــة رجال الدين ٠ فانسحبوا من الحياة ، ولاذوا بالأديرة : وبذلك خفت صوت النبوات فلم يكن نديا كالعهد به ، قويا كالمعروف عنه ، وانما أضحى ضعيفا لأن ارادة الجبارين لا تريــد له أن يرتفع حتى لا يهدد مصالحها وحتى لا يذكر الناس بانسانيتهم المحتضرة ، وكرامتهم الضائعة ، وقيمهم المهدرة ٠

لقد استحال كون العالم الى فساد ، وتفككت حضارتــه بالترف ، تحكمت سياسته بالأثرة ، واتسمت عقائده بالتعصب، وأهدرت دماء الناس سفها وبغياً لغير مبدأ ولا هدف ، واشتعلت الحرب بين الروم والفرس فما تهدأ حدتها ، وما تنطفىء نارها ٠٠ وانما تزداد حدة وسعاراً ، لأن كلا من الدولتين الكبيرتين قد فقدت مثلها العليا ، فحياتهما حيــاة الســوائم ومدنيتهما مدنية القطيع ، وحضارتهما حضارة الغاب ووجودهما عبء على الحياة وثقل على الوجود ، ضرائب اثر ضرائب ، واتاوات اثر اتاوات ، وهــوى يتحــكم فى كل الأمور ، وشهــوات تتنزى وتتعطش الى مزيد من الدماء وللسادة والأشراف امتيازات لا سبيل الى نقضها أو الانتقاص منها والناس بعد هــذا وذاك عبيد مستذلون بالسخرة ٠٠ لا يملكون لأنفسهم أمراً ؛ فهــم يكدحون ليقدموا نتــاج كدهم وعرق جبينهم ذهبــا نضــاراً يضاف الى خزائن النبلاء ٠ ويزيد فى ثروة الأشراف ٠ وليست هناك مبادىء أخلاقية ، تعصم الشعوب الذليلة من هذا الظلم ، وتحمى حقوقهم من هذا الهوان ، أو تضع حداً لتسلط النبــلاء أو ترسى قواعد المجتمع على أسس من الفضيلة والحياء ، وانما سارت قافلة الحياة الضالة فى طريق مظلم ، لا تتضح وجهتها ٠ ولا تعف غايتها يقودها أبالسة البشر ، وزبانية السوء فلا اله يومذاك الا الهوى ولا حكم الا للشهوة ولا كرامــة الا للمال ولا هدف الا المعدة والبطن ٠

الأديان السماوية والحياة :

ولم تستطع اليهودية كديانة سماوية أن تصلح الفاسد من أوضاع الحياة ولا أن ترد اليها بعض كرامتها : لأنها لم تعد، كما أراد لها الله دينــا ينعش الأفئــدة ويشرق على النفــوس بالحنــان والرحمة ويرطب من جفاف الحيــاة ، وانما انقلب أصحابها الى مظهر للحقد الأعمى والتعصب الذميم والقســوة

الرهيبة طبيعتهم الغدر وخليقتهم الافساد فى الأرض وسجيتهم عب الدماء من أشلاء الضحايا ، ومذهبهم جمع المال واشاعة الربا ٠٠ ولم تصبح وحيا أساسه الهداية بل آصرة بين فريق من الناس يستقلون بجمع المال وأكل الربا واشعال الحروب وصك المؤامرات ٠

لقد انقلبت مادية جشعة اختنق فيها صوت الروح ، وانطلق فيها صوت المادة فأضحت كما مر دين بطش وفتك وضراوة ، وتمشت خلال « صهيون » فى أوصال القوم وسرت فى دمائهم فلم تعد قلوبهم تخفق بخفقة حب أو حنان وانما امتلأت كنوداً وأثرة وحقداً ، ولم يعد الرب فى نظرهم الا ربا خاصا بهم لا يشركهم فيه أحد من الناس وتنكرت هذه الديانة للتوراة وتفننت فى أكل السحت ونقض العهود ٠

وأدارت ظهرها نهائيا لتعاليم السماء « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين (١) » فأى وفاء للتوراة مع ترك العمل بها ٠ لقد كلفوا العمل بها فنبذوها وراء ظهورهم ومضوا فى طريق الربا والشيطان ، ولقد سجل القرآن صحيفة سوابقهم جلية لتظل جرائمهم البشعة فى وعى الأجيال وذاكرة الزمان ، فهل تصلح ديانة تعبد العجل وتأكل السحت وتقتل الأنبياء لبناء حضارة انسانية ٠

« فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما

---

(١) آية ٥ سورة الجمعة .

وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم (١) » ٠

ويقول سبحانه واصفا خلائقهم :

« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما (٢) » ٠

ولم يفصل القرآن خلائق أقوام مجرمين كما فصل خلائق الأفاكين من اليهود لتظل قرآنا يتلى ، فيقذف باللعنة الى أولئك الذين هددوا ومازالوا يهددون أمن الحياة واستقرارها ، ولم تكن المسيحية أسعد حالا من اليهودية يومذاك فقد نالها مز أتباعها ما نال اليهودية فقد حاربت الفكر ، وامتهنت العقل ، واحتكرت العلم ، وبدأت بالألوهية تثليثا وانتهت بها توحيداً على غير منطق ، وتسرب اليها ذلك من عقيدة قدماء المصريين ـ ومن الهندوكية والبوذية ، وجعلت من المسيح عيسى بن مريم قربانا للتكفير عن خطايا البشر ٠ وسرت اليها تلك الفكرة من القبائل المتوحشة التى كانت تقدم القرابين الى معبوداتها لرفع الضر أو جلب الخير ـ وبذلك انعدمت فيها قاعدة الجزاء ، وصار من حق الخاطئين أن يطرحوا خطاياهم على القربان المقدم فوق مذابح الخرافة « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وماهم بحاملين من خطاياهم من شئ انهم

---

(١) آيات ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ سورة النساء .

(٢) آيتا ١٦٠ ، ١٦١ سورة النساء .

لكاذبون (١) » وقد انفصلت المسيحية عن الكتاب المقدس « الانجيل » كما انفصلت اليهودية عن التوراه ٠٠ وكلاهما أدار ظهره لأنبيائه وأخذتا تتراشقان التهم وتتبادلان السباب وتتباريان فى الكذب على الله ورسله وتتنكران لمبادىء الوحى المقدس « وقالت اليهود ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب (٢) » ٠

« وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا (٣) » « وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا » « لقد كفر الذين قالوا : ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد (٤) » ٠

وزعمتا معا ، أن الله يحابيهما وينظر اليهما نظرة خاصة ٠ « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق (٥) » ٠

وبهذا التصور العنصرى ، نظروا الى الناس ، فمارسوا أقبح ألوان التفرقة العنصرية قديما وحديثا ٠٠ وكأنما يريدان معا أن يطبقا هذه النظرة على الله ٠٠ فهو يحابى ويجامل وينظر الى الناس من خلال الجنس أو اللون ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ومازلنا نسمع خرافة « شعب الله المختار » هذا التحريف الذى أصاب الديانتين الكبيرتين جعلهما معا عاجزتين عن النهوض بتبعات الحياة ، وأصابهما بالعقم والعجز وحولهما

---

(١) آية ١٢ سورة العنكبوت .
(٢) آية ١١٣ سورة البقرة .
(٣) آية ٣٠ سورة التوبة .
(٤) آية ٧٣ سورة المائدة .
(٥) آية ١٨ سورة المائدة .

الى طلاسم ورموز ، ونقلهما الى كهانة ، وجباية وتأتى اديان السماء الا أن تكون للهداية ٠٠ واتخذنا من البشر الها يعبد من دون الله [اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الهاً واحداً (١)] ٠

ولقد أصبح نبى الله موسى مشجباً يعلق عليه اليهود أخطاءهم ويحملونه كل نزعاتهم المادية وصار نبى الله عيسى رمزاً للسلبية والفرار من الحياة ٠٠ ولو بعث النبيان العظيمان ورأيا ماأصاب ديانتاهما من المسخ والتشويه لهالهما الأمر وأفزعهما هذا المصير ٠٠

نعم : لقد نقلت المسيحية أتباعها الى الأوهام والخرافات والضباب بعد أن انفصلت عن غمار الحياة المائج بالحركة والنشاط ٠٠ وزعمت أن نظافة الجسم تنافى نقاوة الروح وحاربت العمل من أجل الحياة وتحولت الى رهبنة قاسية عنيفة ترى فى الأديرة المهجورة والاماكن النائية ملاذاً لانعاش الروح ٠٠ واثبتت بذلك افلاسها فى قيادة الحياة ٠٠ وتركتها لزبانية البشر يصوغونها كما تشاء أهواؤهم الضالة ، ونفوسهم الشريرة ، وشهواتهم الرعناء ٠٠ وما بالروح وحدها يحيا الانسان !!

مثالب ونقائص !!

ان المسيحية بهذا التصور ناقصة لأن الانسان مادة وروح، وهى قد أدارت ظهرها للمادة واتجهت الى الروح ٠٠ ولقد نجحت فى رسم مثل أعلى للحياة الروحية وطبعت الحياة بهذا الطابع ٠٠

---

(١) آية ٢١ سورة التوبة .

ولكن ذلك لا يكفى فالانسان انسان مهما تحاول المسيحية برأه الله مادة وروحاً ٠٠ فلابد من احترام ملكاته واقرار شهواته ٠٠ أما محاولة سحق هذه الشهوات فعمل عدوانى ضد الفطرة التى فطر الناس عليها ٠٠ لابد من الملائمة بين المادة والروح فى الحياة ملائمة دقيقة كما لابد من الملائمة بينهما فى كيان الانسان ٠٠ لأن طغيان أحد العنصرين على الآخر فى نظام الفطرة خطر يهدد الانسان والحياة فى وقت واحد ٠٠ لو طغت الروحية لتحول الانسان الى راهب وانسحب من نظام الحياة ٠٠ ولو طغت المادية لتحول الى حيوان يعيش لشهواته وينطلق على هواه ٠٠ ولو تم التوازن بين العنصرين لاتسق خطو الانسان على درب الحياة !!

ان الحياة البشرية لا تتصل مواكبها ولا يطرد نشاطها ولا تزدهر حضارتها من خلال الكبت فى الأديرة والكنائس ، بل لابد كذلك من حزم الشهوات المتقدة ، وغاية ماهناك أن الدين ينظم غرائز الانسان ويوجهما وجهة طيبة بدلا من أن تصطرع فى ذات الانسان فتدمر كيانه ٠

وماأشبه عمل الدين فى هذا المجال بالقنوات المحكمة التى تنظم ماء السيل وتتحكم فى مواعيده وتوزيعه وضبطه حتى لايتحول الى طوفان مدمر مجتاح ٠٠ وعلى ذلك فالدين ينظم الشهوات ولايسحقها لأن قتل الشهوات والغرائز يعنى أن نسحق معها ارادة الحياة ، وانما الدين يحول انسياب الغرائز الفوضى الى نظام محكم ومثمر فى حياة الانسان ويتجه به الى سلوك مشروع ٠ وعندما حرم الاسلام الربا مثلا أباح البيع والشراء والقراض والتجارة لامتصاص النشاط المادى عند الأفراد ٠

وعندما حرم الخمر أحل لذائذ المشروبات وأنواع العصير الحلال ٠

وعندما حرم الزنى والفجور أحل الزواج ، وعندما حرم لحم الخنزير أباح لحوم الضأن والدجاج وتلك هى الحيوية الرائعة فى مواجعة المشكلات والتى تتضمن تنظيم الغرائز والشهوات لا اهدارها ٠

وتلك أيضاً هى الواقعية التى تقبل التطبيق ، لا أن تغلق الأبواب فى وجه الغرائز فتدمر كيان الانسان ٠

ونظام الرهبنة الذى لجأت اليه المسيحية نظام بعيد عن الروح الانسانى ، وله آثاره المدمرة ونتائجه السيئة فمن خلال الكبت تتكون العقد ، وتحدث الانفجارات العاتية ، وتنشأ العلاقات المشبوهة حين تنقلب الرهبنة ، على الرغم من أصحابها ، الى نظام حيوانى جامح !!

وما هكذا يكون تهذيب الغرائز !! أنحارب الحياة ، وتعطل قانون العمل ونتخلى عن الواجبات وننافق فى تهذيب الشهوات تم ندعى التدين ؟ !! كيف تبنى الحضارات اذن ؟ وكيف يطرد سير الحيا ؟

وكيف نحصل من خلال التربية الدينية على أشخاص أسوياء ؟ ! وهل الأديان للآخرة فحسب ؟ وهل يمكن فصل الدنيا عن الآخرة !

ماأجمل ماقاله رسول الاسلام معبراً عن روح الدين الحق ، الذى يرعى الحياة : [اذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة

فليغرسها] والفسيلة : نخلة صغيرة (١) ٠٠ وبهذا نترك الدنيا عامرة ، ولاندعها خربة ، ونعبر عن وجودنا بالعمل والكفاح ٠٠ وبذلك كله لا نبنى الآرة على حساب الدنيا لأن صلاح الآخرة نتيجة حتمية لصلاح الأولى ٠٠ [ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا]

وللمسيحية فوق اهمال مطالب الجسد ، نقيصة أخرى ترتبط بالمجتمع ٠٠ فهى تقتصر اهتمامها على حياة الفرد ، تتعهد روحه ، وتقتل شهوته ٠٠ ولا تكاد تلتفت الى المجتمع بشىء ٠٠ انها عاجزة عن ادراك ما للعلاقات الانسانية المتشابكة من قيم روحية ٠٠ وحيثما تفر من الحياة ، فان المجتمع لايجدها ٠٠٠

يقول الفيلسوف ناومان فى كتابه « بحوث الدين » : [ان المسيحية البدائية لم تجعل قيمة مالحفظ كيان الدولة ولم تحفل بالتشريع والتنظيم والانتاج بل لم تفكر فى أحوال المجتمع الانسانى قط ، ومن ثم فاما أن نتجه الى أن نكون من غير حكومة فنلقى بأنفسنا بين برائن الفوضى متعمدين ، واما أن نجعل لأنفسنا عقيدة سياسية الى جانب عقيدتنا الدينية ٠

واذن : فالمسيحية لا تقيم وزناً للحياة ، ولا لتشريعاتها وقوانينها ، ولا لنظام العيش فيها ٠٠ ولا تكاد تهتم بالنواحى السياسية والاجتماعية للناس ٠٠ ولا ترعى التطور البشرى فى قليل أو كثير ٠٠ انها ناقصة لا يمكن تصور أن تعنى بحاجات الناس ، وما دامت قد انسحبت من الحياة فماذا يعنيها من أمرها !؟٠٠ على أنها من قبل ومن بعد كاليهودية ديانة اقليمية

---

(١) من كتاب الاسلام والطاقات المعطلة للأستاذ محمد غزالى بتصرف
(٢) من كتاب تجديد التفكير الدينى فى الاسلام لمحمد اقبال ص ١٩٠

زمنية فهما معا لا تصلحان لقيادة الحياة على المدى الطويل ٠٠ لأنهما لم تزودا من العلى القدير بما يجعلهما للاستمرار والعالمية !! كلتاهما لا يمكن أن تنشيء حضارة عالمية !!

لقد سقطتا معاً ، كدين عالمى بناء ينضر وجه الحياة بالأمل ، ويرعى تقدمها بالعمل ، وكيف تنشأ حضارة فى ظل المادية المجرمة ٠ أو فى ظلال السلبية المنطوية !؟

ومن عجيب الأمر أن المسيحية قد تحولت الى مجموعة ضخمة من الخرافات اليونانية والوثنية الروحية ومسحة يسيرة من تعاليم السيد المسيح ، وأصبحت بزيادة المخرفين ، وتأويل الجاهلية بعيدة كل البعد عن الفكر والعلم ثم صارت الى وثنية قبيحة يقول سالى مترجم القرآن الى الانكليزية : [أسرف المسيحيون فى عبادة القديسين والصور المسيحية حتى فاقوا فى ذلك الكاثوليك فى هذا العصر] ٠

واقع تاريخى مؤلم :

فى هذين القرنين حدثت صراعات وانقسامات داخل العقيدة المسيحية ، كما حدث انحلال اجتماعى وفساد خلقى ، وكانت مصر مركز صراع عنيف ٠٠ ولقد كان هذا الانقسام المروع فى صميم العقيدة المسيحية ٠

كما كان هذا الانفصام بين الديانتين الكبيرتين على نحو ما فصلنا من قبل ٠٠ وقد أدى هذا الانقسام الى تمزيق كيان الدولة الرومية ، وأنهك قواها ، كما أدى الى مجازر ودماء ، لأن كلا الفريقين المتصارعين كان حريصا على ابادة الآخر ٠٠ لقد كانت الملكانية تؤمن بازدواج طبيعة السيد المسيح ، أما المنوفيسيون فكانوا يؤمنون بوحدة طبيعة السيد المسيح ،

ويعدون الرأى الأول أمراً ادا ٠٠ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، كانوا يؤمنون على حد تعبيرهم أن طبيعة السيد المسيح واحدة وهى الآلهية ، والتى تلاشت فيها طبيعته كما تتلاشى قطرة من خل فى بحر واسع عميق ٠

ووصل هذا الخلاف الى ذروته فى القرنين السادس والسابع الميلاديين ٠

يقول الدكتور ألفردبتلر : [ان ذينك القرنين كانا عهد نضال متصل بين المصريين والرومانيين نضال يذكيه اختلاف فى الجنس واختلاف فى الدين ، وكان اختلاف الدين أشد من اختلاف الجنس اذا كانت علة العلل فى ذلك الوقت تلك العداوة بين الملكانية والمنوفيسية ، وكانت الطائفة الأولى حزبا يمثل مذهب الدولة الامبراطورية وحزب الملك والبلاد ، وكانت تعتقد العقيدة السنية الموروثة ، وهى عقيدة الازدواج ٠٠ على حين أن الطائفة الأخرى وهى حزب القبط المنوفيسيين أهل مصر كانت تستبشع تلك العقيدة وتستفظعها وتحاربها حربا عنيفة فى حماسة هوجاء يصعب علينا أن نتصورها أو نعرف كنهها فى قوم يعقلون ، بله يؤمنون بالانجيل] ا هـ ٠

تدخل سياسى :

وقد حدث أن منع هرقل [٦١٠ ـ ٦٤١] م الناس عن الكلام فى طبيعة السيد المسيح مكتفين بأن لله ارادة واحدة ، واستعمل الوسائل الرهيبة، ولكن المصريين استماتوا فى سبيل عقيدتهم ، واستعذبوا التقتيل والتحريق والتغريق طيلة عشر سنين على يد قيرس وكانت المأساة رهيبة لم تستطع الدولة على المستوى الرسمى ولا رجال الدين أن يوقفوها ٠

ولست أدرى : ماذا يهم المسيحى هنا أو هناك عن ادراك طبيعة السيد المسيح ؟! ولماذا يفترض فيه أنه اله ، أو جزء من الاله .. أليس المسيح ابن مريم رسولا بشرا ، يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق ، ويدعو الى الله ؟ هل الامر يستدعى كل هذه الدماء بين أبناء الديانة الواحدة ؟..

وهل هناك مشكلة حقيقية يعجز العقل عن حلها ؟ اللهم انها العصبية الضيقة والطبيعة الكزة المتحجرة التى تجمد على الجهل ، وتفنى فى التعصب !! وهل يتحمل السيد المسيح تبعة هؤلاء الضلال ؟ وهنا نجد القرآن يفصح عن طبيعة المسيح فى ايجاز وبلاغة عندما يقول : [ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام (١)] .

ونلمح التبرؤ من القوم على لسان المسيح نفسه يخاطب ربه : [ما قلت لهم الا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم (٢)] .. بهذه البساطة تتضح طبيعة السيد المسيح وطبيعة أمه ؟

ومهما يكن من شىء فقد أخذ الخلاف بين الفئتين المتنازعتين شكلا نريا متعصبا ، استأثر بكل الجهد ، وبخاصة عند المصريين ، وشغل الناس فى النظر عما سواه .. وانتهز الروم ذلك فأوسعوا المصريين ضربا ، وأشبعوهم تنكيلا ، وأثقلوا ظهورهم بالمغارم الباهظة ، والضرائب الفادحة فى غير رفق ولا رحمة ، فكانت مصر لهم بقرة حلوبا تدر المال والثراء .. فهل هذا حكم يرضى الله ؟

يقول ألفرد بتلر : (لقد أضحى اختلاف الناس ومناظراتهم

---

(١) آية ٧٥ سورة المائدة .

(٢) آية ١١٧ المائدة .

العنيفة كلها قائمة على خيالات صورية من فروق دقيقة بين المعتقدات وكانوا يخاطرون بحياتهم فى سبيل أمور لا قيمة لها ، وفى سبيل فروق فى أصل الدين ، وفلسفة ما وراء الطبيعة يدق فهمها ويشق ادراكها) ويقول عن الضرائب :

« ان الروم كانوا يجبون من مصر جزية على النفوس وضرائب أخرى كثيرة العدد ، هى فوق الطاقة وتجرى على غير عدل » ٠٠ وهكذا عاشت مصر فى عهد الرومان مضطهدة معذبة مسخرة مستغلة يهددها الاستبداد ـ ويضنيها الاستعباد ـ وتجتاحها الخلافات الدينية ويمتصها أعلاق الرومان ٠٠

انحلال يتمشى فى كيان الامبراطورية الرومانية :

فى ظل هذا العسف وذلك الطغيان ساد الفساد فى الدولة الرومانية الشرقية ، وقد أخذ هذا الفساد طريقين مختلفين : فساد فى الطبيعة الانسانية التى تهدر كل القيم النبيلة وتستبيح الظلم والاضطهاد والتحريق والقتل وتفرض الضرائب والاتاوات ولا تكاد تقيم وزناً للعدل ٠

وفساد فى الأخلاق والمثل فقد وصل الناس فى القحة والتبذل الى أحط الدركات وعاشوا عبيد شهواتهم المجرمة وحيوانيتهم الآثمة وانتشر التسول بالأعراض وآثر الناس العزوبة على الزواج حتى يستمتعوا بمن يشاءون ، وكان الترف المفرط من أقوى العوامل التى أدت الى انهيار الدولة الكبيرة وعجل بفنائها، وهكذا كل دولة تنحرف عن سنة العدل ، وتسخر قواها للشيطان ، ولا يتصور أن تعيش حضارة فى ظل الجور ، وفى أجواء مفعمة بالفساد والانحلال كهذه الأجواء ، ولم تكن مصر وحدها تعيش تلك المأساة ، ولكن الدول الأخرى كانت تعانى من تلك الضراوة الرومانية ، فقد كانت الحبشة على المذهب

المنوفيسى وكانت تابعة للكرسى الاسكندرى كما قضى مجمـع « نيقيـــة » :

أوربا فى ذلك الوقت :

كانت تعيش حياة فوضوية لا نظـام ولا علم ولا عقيـدة فهى تتردى بين وثنية وبين نصرانية مرهقة ، ولم تكن تحمل أى مشعل من مشاعل الحضارة ولم يلتمع منها قبس من ضياء تخاف الجن والعفاريت وتلوذ بالتمائم ، وتخشى ركوب البحار بل كانت ممعنة فى التخلف ســادرة فى الغى غارقة فى الجهالة وتؤمن بكل الخرافات المنحطة ؛ يقول ويلز :

« لم تكن فى أوربا الغربية فى ذلك الوقت أمارات الوحـدة والنظـــام » •

ويقول روبرت بريفلت : « لقد أطبق على أوربا ليل حالك من القرن الخامس الى القرن العاشر وكان هذا الليل يزداد ظلاماً وسواداً ـ وقد كانت همجية هذا العهد أشد وأفظـع شأناً من همجية العهد القديم ـ لأنها كانت أشبه بجثة حضارة كبيرة قد تعفنت ـ وقد انطمست معالم هذه الحضارة وقضى عليها بالزوال وآلت الأوطان التى ازدهرت فيها الحضارة قديما وبلغت أوجهاً كايطاليا وفرنسا الى حالة من الفوضى والدمار » •

اليهـود على مسرح الأحـداث :

أكان العنصر اليهودى المنبث فى أوروبا وآسيا وأفريقيـا صالحاً لانشاء حضارة • وتأسيس مدنية الواقع أن علم اليهود وحده ليس كل شىء فى بنـاء الحضـارات ـ كما أن الدين حين يتحول الى مسائل نظرية للجدل والثرثرة ليس أيضا كل شىء •

واليهود شاهد صدق على ذلك فقد كانوا على علم بالدين وفهم لشيعته ووعى لأحكامه ـ وكانوا يعرفون من العلوم والمعـارف مالم يعرفه غيرهم ٠٠ الا أن خسة نفوسهم ٠٠ وما يحملون من التعصب والحقد ، والنزعات العنصرية الشاذة ، وما يتمثـل فيهم من الخبث والنفاق وحب المـال ، واهدار كل كرامـة فى سبيله ٠ ٠ كل هذه الخلائق جـعلتهم عنصرا منبوذاً من شتى الأجناس ، ومن جميع الامم فلم يستقروا فى وطن ٠ ولم يهجعوا فى بلد ، وانما عاشوا مطاردين أذلاء لاشتغالهم دائما بالدس ، واشعال الفتن والمؤمرات ٠ ٠ وعلى الرغم من المعرفـة الدينية لديهم الا أنهم استخدموها فى الشر وسخروها فى جمع المـال ٠٠ ولا شـك أن النفـس الشريرة تزداد بالعلم شراهة وجشـعا : وتفتح آفاقا للتضليل والتزييف وتستخدمه فى أبشـع صـور الضلال ٠ وقد تصدى الكتاب الكريم لرذائلهم وعدد أنماطاً منها واذا كانوا على هذا المسـتوى من الانحـطاط والانحـدار فهم لا يصلحون لقيادة الأمم ولا لسياسـة الشـعوب ٠

لقـد سيطرت عليهم المـادة ـ فأينما وجـدوا وجـد معهم الاستغلال والربا والتكالب على الحـياة حتى لقـد صار المـال بالنسبة اليهم الهاً يعبد من دون الله ٠ ٠ ٠

وماقيمة دين لا يزكى خليفة ولا يطهر نفساً ـ ولا يسـمو بالسلوك ؟ لهذا سقط اليهود من حساب الناس يوم سقطوا من عين الله ٠ ٠ واتخذوا دينهم وسيلة لجمع حـطام الحـياة ٠ ٠

بين اليهود والمسيحيين :

ولم يكن اليهود منذ أقدم العصور يكنون للمسيحيين أى تقدير أو عاطفة ـ وكذلك كان المسيحيون بالنسبة لليهود ٠٠ ولم تستطيع كتبهم المنزلة أن تهذب فيهم غرائز الحـيوان ـ

ولا أن تصفى قــلوبهم من الحقــد ــ ولا أن تجعل منهم جــبهة متحابة متآلفة « وما اختلفوا الا من بعد ماجــاءهم العلم ــ بغياً بينهم » ٠ ٠ ولقد كان كلا الفريقين يهتبل فــرص قوته ليغرى السلطان بالآخر ويحــرضه عليه ٠ ٠ وكثيراً مادس اليهود على المسيحيين ــ وكثيراً ماحدث العكس ٠ ٠

ويقولْ المقريزى فى كتاب الخــطط : « وفى أيام فــوقا ملك الروم بعث كسرى ملك فارس جيوشه الى بلاد الشــام ومصر فخربوا كنائس القدس وفلسطين وعامة بلاد الشــام وقتــلوا النصارى بأجمعهم وأتوا الى مصر فى طلبهم وقتلوا منهم أمة كبيرة وسبوا منهم سبياً لا يدخل تحت حصر ٠ ٠

وساعدهم اليهود فى محاربة النصارى وتخريب كنائسهم ــ وأقبلوا نحو الفرس من طبرية وجبل الجليل وصــور وبلاد القدس فنالوا من النصارى كل منالْ وأعظموا النكابة فيهم ــ وخربوا كنيستين وأخــذوا أماكنهما وســلبوا قطعــة من عود الصليب وأسروا بطرك القدس وكثيراً من أصحابه » ٠

ولقد اقتص النصارى لأنفسهم فأوقعوا باليهود فى معركة صور رغم أن عدد اليهود كان عشرين ألفا وعند ماتغلب هرقــل ملك الروم بقسطنطينية على الفرس وسار ليمهد ممالك الشام ومصر ويجدد ماخربه الفرس خرج اليهود من طبرية وغيرهــا ليقــدموا له الهدايا ٠.٠

وطلبوا منه أن يؤمنهم وأن يحلف لهم على ذلك ثم دخــلْ القدس فتلقاه النصارى بالبخور والشموع والأناجيلْ وشــاهد بعينه ماحل بالقدس من تخريب وتدمير ، وسأل عن ذلك ٠ ٠ فأخــبره النصــارى بتواطؤ اليهود مع الفــرس فى ذلك عليهم ، وأنهم كانوا أشد نكاية من الفرس وحثوه على أن يقتص لهم من

اليهود فأخبرهم بأنه عاهدهم ، وأمنهم ، وأقسم لهم فأفتاه الرهبان والقساوسة بأنهم سيكفرون له عن يمينه بأن يأمروا أتباعهم بصوم جمعة فى كل عام على مر الزمان تكفيراً عن هذا اليمين !! فمال الى قولهم ، وحصد اليهود فى مواقع رهيبة أبادهم جميعهم فيها ، حتى لم يبق منهم فى مصر والروم والشام الا من اختفى .

هذا ماروا صاحب الخطط وهو شىء يؤسف له أن يتعاون اليهود ، أهل الكتاب ، مع المجوس الفرس ، ضد اخوانهم النصارى ثم ماأقبح ماأشار به المسيحيون على هرقل من فكرة التكفير عن يمينه .. أى فتوى هذه ؟ ثم ماهذه الضراوة الحاقدة بين أصحاب الديانتين الكبيرتين ، أتصلح كلتاهما أو احداهما لانشاء حضارة انسانية تقوم على مبادىء الأخلاق والفضيلة ؟!

لعمرى انهما معاً لفى حاجة الى شىء من تعاليم اليهودية والمسيحية تحول بينهما وبين تسخير الدين للمطامع والشهوات وليس للدين ذنب فى ذاته !!

فهو صالح لأن يملأ الحياة حباً وسلاماً ، وبراً وعدلا ، ولكن الذين استحفظوا عليه قد أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ! ! ولو حملت هذا الدين نفوس طيبة لاستفادت به ، وأضاءت الحياة بنوره ، وقيمة الأديان السماوية انما تكمن فى تطبيقها تطبيقاً صحيحاً كما أراد الله ، وليس فى حجبها عن الحياة ، أو استغلالها فى المطامع والشهوات أو تحريفها عن غاياتها أو حفظها فى الرأس دون الاستفادة منها فى تطهير النفس .

على أن نظام المدنية يأبى الا يكون توازنا بين الروح والكم بين الغائية والسببية ، حتى اذا حدث اختلال فى هذا التوازن

هوت المدنية الى الحضيض ٠ ٠ وكلتا الديانتين لم ترع يوما هذه التعادلية ٠ ٠ من أجل ذلك كله سقطتا كأساس حضارى للعالم ، يريحه من كلال ، وينقـذه من وبال ، ويطلق مواهبه لتزدهر وتصنع الحياة على عين الله !!

وماذا عن فارس فى ذلك الوقت : ؟ !

كان القوم يتسمون مع الروم سيادة العالم ، وقيادة البشر، واستعباد الناس وكانت كل منهما دولـة كبيرة ذات مراسيم ونظم ، ورفاهية وترف بلغا حدهما قبيل الفتح الاســلامى ٠٠ واذا كان لكلٍ حضارة دورة تاريخية تتوقف بعدها فان حضارة هاتين الدولتين كانت قد وصـلت الى القمة ، ثم بـدأت تنزلق رويداً وتجنح الى الغروب وتعكس على الحياة لونا باهتا شاحبا ينذر بالفناء والموت ، ولم تكنْ كلتاهما تملك دستور هداية من السماء ولا قانون عـدل من الأرض

لهذا : ظلمنا وفجرنا وضلتا عن سواء السبيل ولعب الترف فى كل منهما دوراً عجلْ بفنائهما ٠

ولعل ماقـدمناه فى البحوث السابقـة يعطى تصـوراً بأن الحـرب بينهما كانت مشتعلة ، وهى حـروب « لا أخلاقـية » يذكيها بين الفريقين المتنازعين حب الغلب ، وفرض النفـوذ ، وتكوين الامبراطوريات الضخام ٠

وكان العالم كله موزعا بين هاتين الدولتين ، فقد كان لهما من الضخامة والهيولة ماجعل العالم كله مناطق نفوذلهما ٠ ٠ واصـطنع كلاهما من الأحـلاف والاصـدقاء مايمـكن له فى السـيطرة ٠ ٠ كان المناذرة العـرب صنائع الفـرس ، وكان الغساسنة العرب أيضا صنائع الروم،وكثيراً ما كانا يتصادمان

بسبب الدولتين الكبيرتين ٠٠ أى أن أساليب الاستعمار قديمة بقدم التاريخ ، وكذلك مناطق النفوذ ، ووسائل التجسس ٠

مجتمع منحل :

كانت فارس تلك الدولة العظمى فى ذلك الوقت تشيع فيها نزعات مجرمة منحلة تفتك بالمثل الأخلاقية والمبادىء الساميه ، كما كانت مرتعا لنظريات هدامة خسيسة ٠٠ ونحل أرضية شاذة كان زواج الأخت والبنت عملا سائغا ، وشرعا معمولا به ، بل كانوا يتقربون بذلك الى الله فى الشريعة الساسانية ، وكذلك استباحوا زواج المحرمات جميعا ، ولا شك أن ذلك أمر تنفر منه الطباع السليمة وتعافه النفوس الكريمة ، وتتجه اليه من غير دين ولا شرع ٠ ٠ وقد أطبقت الشرائع والأعراف على تحريمه واستبشاعه واستقباحه ، تزوج يزدجرد الثانى فى أواسط القرن الخامس الميلادى ابنته ثم قتلها وتزوج بهرام جوبين الذى حكم فى القرن السادس بأخته ، كما تزوج جشست قبل أن يتنصر بالمحرمات كلها ، ولقد أشار الرحالة الصينى (هوئن سوئنج) الى هذا الزواج المحرم بقوله : « ان الايرانيين يتزوجون من غير استثناء » ٠

مانى يثور على البوهيمية :

لا نستطيع أن نتصور أن مبادىء البشر تستطيع أن تقتلع نزعات الشر المتأصل فى النفوس أو تدرأ أفكار السوء المستقرة فى الرؤس ، أو تطهر وجه الأرض من أدناس البشر ٠ ٠ وسوءات الناس ، لأنها نظم لاتجد حصانة من السماء ، ولا مستنداً من الأرض فهى خليفة مهما كانت جادة وثائرة أن تكون صيحة فى واد أو نفخة فى رماد ٠ ٠ وانها لتذهب فى نباح الكلاب وعواء الذئاب كما تذهب النسمة الرخية فى الأدغال الشواجن ٠

فهل نتصور أن مبادىء مانى مهما كانت حكمته تستطيع أن تكتسح الفساد الذى طغى على المجتمع الفارسى ؟ وتضع مكانه قواعد الخير وأصول الفضائل ؟ كلا : وانما تتطهر الأرض من كل ضلال ، وتتحرر النفوس من كل ضيم بقوانين الدين ، وأحكام السماء :*:*:

لذلك : لا ننتظر من دعوة مانى أن تصادف هوى من نفوس القوم ، أو توقظ أعصابهم المخدرة بالشهوة والنوم ٠٠ لا سيما وهى دعوة منحرفة عن الفطرة ، وان يانت رد فعل على الرذيلة ٠

لقد انحصرت هذه الدعوة فى محاربة النزعات الشهوانية المنحلة ، فدعا مانى الى حياة العزوبة لحسم مادة الفساد والشر من العالم ، فحرم النكاح وعطل السعى وأبطل العمل واستعجل فناء البشر لينقذ الناس من شرورهم وآثامهم ٠٠ وبذلك ينقطع النسل وتعقم الحياة وينتصر النور على الظلام ٠
وكان يرى أن الشر يتمثل فى اختلاط النور بالظلمة ، ولهذا عمل جاهداً على الفصل بينهما ٠

وكان مصيره القتل على يد بهرام فى القرن الثالث الميلادى سنة ٢٧٦ م *.

كلا : لا هذه ولا تلك : فليست الحياة اما اباحية ، واما رهينة ٠ ولكن هناك الحياة المرتبطة بالفضائل ، التى تمضى على منهج الخير ٠٠ وهى حياة ليست اباحية ، وليست مترهبة واذا أنكرنا منهج التحلل فانا لا ترتضى الترهب فكلاهما ضد الطبيعة البشرية :*:

بين الرهبنة والاباحية : كانت تعاليم مانى مجحفة للغاية ٠٠ لأنه حاول قتل الناس لتقتل معهم الرذائل فهو كمن

يقتل المريض للتخلص من المرض ٠ ٠ ولهذا رفضـها الشعب الفارسى وتطلع من جـديد الى حـياة حيوانية ملؤها الفجـور والشهوة ٠ ٠ كما تعود أن يحيا ٠

وهكذا ٠ ٠ ظهر مزدك بفلسفة الشهوة وكان وجـوده فى فى القرنين الخامس والسادس فقد ولد حوالى (٤٨٧) م ٠ ٠

مبادىء مزدك : أعلن عن المساواة كأساس لمذهبه ، وليتها مساواة فى الحقوق والواجبات ، وانما مسـاواة فى الاشـباع الجنسى ، والانطلاق الحيوانى واستباحة المرأة والمـال وما دام الناس قد خلقوا متساوين فلابد أن يشتركوا فى هذين العنصرين اشتراكهم فى المـاء والكلأ والنار ٠ ٠ وذلك لأن النفوس تضن بهما فاذا أبيحا انحسمت مادة الشر من الوجـود وذهب أصـل الخلاف من المجتمع ٠ ٠ ونتيجة لهذه النحلة الشاذة فان الرجل صار لا يعرف أولاده والأولاد لا يعرفون آباءهم لقد صار المجتمع الفارسى مجتمعا ضائعا بلا « هوية » ولا نسب ٠٠

يقول الشهرستانى : [ان مانى أحل النساء وأباح الأموال وجعـل الناس شركة فيهما] ٠

وحظت هذه الدعوة بمؤازرة الدولة على المستوى الرسمى ، ناصرها قباذ ومكن لها ونشرها ٠ ٠ حتى انغمست ايران كلها فى معين الشهوات وقد وجد فيها الشـبان والمترفون ضـالتهم المنشودة ، وابتلى الناس بهم كما يقـول الطبرى : [صاروا يدخلون على : الرجل فى داره فيغلبونه عل منزله ونسائه وأمواله لا يستطيع الامتناع عنهم ٠ ٠ وتبعهم قباذ على نشر المبدأ فلم يلبث أن آزرهم حين هددوه بالخلع [ولقد حاول قباذ هذا نشر تلك النحلة فى الجزيرة العربية ولكن المنذرين ماءالسماءتصدىله،

وحارب المبدأ وعادى تعاليمه فخلعه قباذ وولى مكانه الحارث بن عمرو الذى وافق على قبول المذهب الشاذ ، ولكن المنذر عاد فاسترد ملكه وأباد الحارث ٠ ٠ وهكذا يصنع الترف ويفعل الانحلال بالمدنيات الغاربة والحضارات الذاهبة ٠ ٠ وانظر كيف يضل الناس فى غيبة الدين الحق ٠ ٠

عبادة الذات :

ان أيسر ما تعكسه هذه الأخلاق المنحلة على المجتمع الشارد عن الحق من سوءات أنها تنتج ذاتاً ضالة ، وضيعة ، تساعد الحكام على التأله ـ وعبادة الذات ـ وهذا هو ماحدث فى ايران٠ فلقد اعتقد هذا الشعب أن حكامه يجرى فيهم الدم الالهى ٠ ٠ ومهما انحرفوا أو أترفوا أو فسقوا فهم مقدسون يأكل الناس فتات موائدهم وتمتنع الألسن عن هتك سيرتهم ، ويكف البشر عن نقدهم ، لأن لهم حقاً على كل فرد ، وليس لاحد حق عليهم ٠ وبذلك عبدوهم وقدموا لهم الخراج عن طيب خاطر ، وآثروهم بالتاج دون غيرهم ، وابتعدوا عن مجالستهم توقيراً لهم وأصبح البيت « الكيانى » معمظا كل التعظيم لا ينافسه فى الملك الا نذل أو لئيم ٠ والطفل من هذا البيت مسموع الكلمة ـ لا يعدلون عن توليته الملك اذا اقتضى الأمر ، كما يولون المرأة عند الضرورة ولم يخطر ببالهم أن يحكموا عليهم قائداً أو عظيما خارجا عن بيت الملك ٠ ٠ وهكذا رضوا بالذلة والصغار ، وعميت قلوبهم وبصائرهم ، وانها لنكبة حلت بتلك الحضارة ، لأنها تخلت عن الله ٠ ٠ ولم تكن تمتلك مورداً صافيا من الحكمة يكفكف عنها الغواية والفساد ، أو يردها الى انسانيتها الضائعة ، وخصائصها المتهنة لقد تقلبت بكل أسف بين هذه الفلسفات الشاذة المنحرفة التى ضللت خطاها على طريق الحياة وعجلت بفنائها المحتوم فعاجلتها الدولة الاسلامية الفتية بضربة عاجلة

أطاحت بهذا الفساد ، ومكنت لكلمة الله فى الأرض ٠ ٠ وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ٠

التفاوت الطبقى فى المجتمع الفارسى : ليس بعيداً على مجتمع يعبد الشهوة ، ويقدس البشر ، أن يختصهم بأرضه وعرضه ، ويبيح لهم أن يملكوا دونه ٠ ٠ فلم يكن لأحد من الشعب الذليل أن يتطلع الى حياة الأسرة والامراء وحسبه أن ينال من فتات موائدهم كصدقة مباركة ، لأنهم من طينة أخرى غير طينة البشر ، لهم عقولهم ومواهبهم ونفوسهم المتميزة ، ولا يحق لأحد من الشعب أن يشترى عقار أمير أو حاكم ، وقد أدى ذلك الى خلق مجتمع طبقى رهيب ، بين كل طبقة وأخرى هوة شاسعة ، لا يقوم عليها جسر ، وكان هذا التفاوت قائما على النسب والحرفة ٠ ٠ فعلى كل انسان أن يرضى بحرفته ، وليس له أن يفر منها أو يحاول تغييرها لأن الناس هكذا خلقوا ٠ ٠ لكل واحد مركز لا يعدوه ٠ ٠ وكان مجلس الأمراء محرما على الشعب ، يجلس الناس منه مزجر الكلب ٠

درس من السماء :

ومن الطرائف (١) أن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه أثناء الفتح الاسلامى لفارس استدعاه رستم القائد الفارسى المعروف فى الأساطير ليتحدث اليه ويتعرف منه على وجهة العرب ، وحين دخل المغيرة سلم وحيا بكل اباء وعزة ثم قفز ليجلس معه على السرير ٠٠ هكذا تصرف بكلُ بساطة وماذا فى هذا ! لكن الفعلة شنعاء من وجهة النظر الفارسى لأنهم يجلسون من القائد كما تجلس الكلاب ومن ثم استفظعوا الأمر واجتذبوه ولندع الطبرى

---

(١) عبقرية خالد للعقاد نقلا عن الطبرى ج ٤ ص ٨

عليه فترتروه وأنزلوه ومغثوه (أى أنزلوه وأنبـوه) فتعجب المغيرة من صنع الجند وقال لهم : قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوما أسفه منكم ، انا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضا الا أن يكون محاربا لصاحبه ، فظننت أنكم تواسـون قومكم كما نتواسى ، (أى تساوونهم كما نتساوى) ، وكان يقص علينا القصة بأسلوبه يقول : « أقبـل المغيرة وله أربـع ضفائر يمشى حتى جلس معه على سريره ووسادته ، فوثبـوا أحسن من الذى صنعتم معى أن تخبرونى أن بعضـكم أرباب بعض ، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ، وأنا لـم آتكم ولكنكم دعوتمونى ، اليوم علمت أن أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون ، وان ملكا لا يمكن أن يقوم على هذه العقول ولا على هذه السيرة) فهذا درس من السماء ساقه القدر الى هؤلاء لوكانوا يعقلون ، وتلك كلمات من نور لكن عقول القوم مظلمة جامدة ٠٠ لقد تكلم الرجل الذى صنعته حضارة القرآن الى القـوم الذين استذلهم الشـيطان ٠ تكلم الرجـل الذى صنعته الحضـارة الشابة الشارقة الى القـوم الذين صنعتهم الحضـارة المكتهلة الغاربة ، تكلم الرجـل بكل ما يحمـل من نبض العزة وشرف الاباء وكرم الاسلام ٠٠ الى قوم فقدوا العزة والشرف والضمير فغدوا سوائم ضالة ٠٠ ورسوما متهالكة ، لقد كانت كلماتـه سهاماً مسددة الى قلب الحضارة المترهلة الآفلة ٠٠ وأيا ما كان : فقد قال الرجل فحسن القول ، وأعلن الثورة على العبودية الذليلة أمام الدولة ممثلة فى قائدها وجيشها دون خوف أو رهبـة لأن العبودية فى شريعة حضارته لا تكون الا لله ـ كما ثار على تلك الفوارق بين البشر لأن المساواة أصل فى دينه وتجربة يعيشها المسلمون بكل بساطة ويسر ٠٠ وعندما وعى هذه المثـالب فى حضارة القوم لم يكتف بما تحدث به ، وانه لخطير ـ ولكنـه نصب من نفسه قاضياً ـ وأصدر حكماً بالاعدام على حضارة وصل التزييف فيها الى هذا الحد ٠٠ فلله در العربى المسـلم ،

الذى تكلم من صميم الحكمة ، ودل على مقاتل القـوم ، وعبر عن أدق نظريات علم الاجتماع ٠٠ دون أن يدرس أو يسمع عن هذا العلم وانما هو حكم الفطرة السليمة التى فتح الله بالقرآن مغاليقها ٠٠ ففاضت عن كنوز ثمينـة لا عهد للحياة بمثلها ٠٠ وتا الله لو أن غير هذا الجندى المسـلم فى موقفـه بين القـائد والجند لما وسعه الا أن يبتلع الألم ويسكت خوفا من القوم أن يفتكوا به ولكنها الارادة القوية ، التى صنعها الحق لتجتث الرذائل من المجتمعات ، فهل يتصور لها أن تجامل أو تخاف ؟ ولله فى خلقه شئون ٠٠.

ولقد كان القدر لا يضن على هذه الامة المتعجرفـة من آن لآخر بعربى مسلم يلقنها درسـاً فى الكرامـة ، ومعرفـة حدود النفس كما فعل المغيرة بن شعبة ٠

فقد حدثوا أن يزدجر ملك الفرس جهز جيشاً بقيادة رستم لصد الجيش الاسلامى الزاحف على القادسية فلما سار رستم بجيشه لقيه فى الطريق عربى من الجيش الزاحف فلقنه درساً خالداً لا ينسى ٠ قال رستم للعربى : ما جاء بكم أيها العـربى الى هنا ؟ وما تطلبون منا ؟ فرد العربى الذى صنعته حضـارة القرآن : جئنا نطلب ما وعدنا الله بملك أرضكم وأبناءكم ان أبيتم أن تسلموا ٠٠ قال رستم مستهينا : فان قتلتـم قبـل ذلك : قال العربى : من قتل منا دخل الجنـة ومن بقى أنجـزه الله وعـده فنحن على يقـين قال رستـم : لقد وضعنـا اذن فى أيديكم !! قال العربى : أعمالكم وضعتكم فى يدينا فأسلمكم الله بها فلا يغرنك ما ترى حولك !!

فهذا فيلسوف آخر يواجه رستم بهذا الفـكر الجرىء ٠٠ رغم نه عربى طامح الى الفتـح يخاطب قائداً أعجميـا مطموعا فيه !! لكن العقيدة هى التى تتكلم والمبادىء هى التى تفصـح

وثقة الجندى بدينه وربه جعلته فى مأمن من رستم ·· ومن هو أعظم من رستم ·· ومن يدرى لعلها حولت هذا القائد العملاق الى ذبابة فى نظر الجندى المسلم ·· وما أروع ما تلهم العقيدة أصحابها فى المواقف الصعاب !! وانظر الى هذه الثقة التى تغمر قلب العربى ·· وهو يحدثه عن وعد القرآن للمسلمين · فاما الجنة دار الكرامة والخلود ·· واما الفتح العظيم ·· لابد من النصر على أى حال :

ثم ما هذه الجرأة التى تجعل مثل هذا الجندى الأعزل يقول للقائد : أعمالكم وضعتكم فى أيدينا ، يا لله !! انها المواجهة الحاسمة التى تصارح بالعيوب دون مداورة ·· ودون خوف أو خشية ولا عجب أن تنقاد لأمثال هؤلاء فارس ، بل الدنيا كلها ليعلموا الناس الحكمة ، ويقودوهم الى صراط العزيز الحميد !·

عبادة النار : دعا « زرادشت » صاحب النحلة الفارسية الى التوحيد ، وأبطل الأصنام، لكنه انحرف فزعم أن نور الله يسطع فى كل ما يشرق أو يلتهب فى الكون فالنور رمز الاله ومن ثم وجب الاتجاه الى الشمس والنار وقت الصلاة كما أمر بضرورة تقديس العناصر الأربعة : النار ، والتراب ، والهواء ، والماء ، وعدم تدنيسها ثم توالى الحكماء بعده فحرموا على الناس الاشتغال بما يدعو الى استخدام النار والاقتصار على الزراعة والتجارة ، ثم تدرجوا فعبدوا النار وبنوا لها المعابد والهياكل وغلبت هذه العبادة على غيرها وانحدر الشعب الى المجوسية الحمقاء ·· وفيما عدا أوقات العبادة ، انحدر الناس الى شهواتهم وما تملى عليهم نفوسهم ومصالحهم : واستباحوا كل رذيلة ومنكر ·

وهكذا ·· صارت الفرس الى المجوسية ، والى الاباحية ، وتقلبت عليها نحل شاذة منحرفة لأنها حرمت الهداية الربانية

التى تسدد خطاها ، وتقود مسيرتها ، وتهىء لها الحياة الشريفة النظيفة ، والمجتمع الطيب الكريم ·· ولا غرو فمن لم يجعل الله له نورا فما له من نور !

ماذا عن الصين ؟! :

لم يكن بالصين فى هذين القرنين ، ديانة سماوية تحل الحلال وتحرم الحرام وتخطط للناس شئون دينهم ودنياهم ، وانما سادتها فلسفات أرضية ، كانت الواحدة منها تزدهر ثم لا تلبث أن تنتحر بتأثير غيرها ، ولم تحاول واحدة منها ربط الناس بالايمان ، وانما ربطتهم بالبشر وأغرقتهم فى الجهالة وغطت حياتهم بسحب الضلال والفساد ··

سادت فى المجتمع الصينى مبادىء « لاوتسو » و « كنفوشيوس » و « البوذية » وكلها من صنع البشر ، ونتاج عقولهم ، حتى البوذية التى كثر الكلام عنها واختلف الناس فى أمرها أهى مبادىء توقر وتحترم ، أم ترفض وتنبذ ؟· انها رغم ما تحوى من آداب وفضائل ومناهج للسلوك لم يزل وجود الاله بها موضع خلاف وشك عند فلاسفتها ومؤرخيها··والواقع أن البوذية كغيرها من النحل بضاعة أرضية ليس لها صلة بالسماء ·· غاية ما هنالك أنها اهتمت فى مناهجها برياضة النفس وتهذيب السلوك · وقمع الشهوات ، وتحصيل المعرفة والبعد عن مصادر الألم والتخليق بالقيم الحمندة ·· لكنها لم تكن ذات صلة بالوحى المقدس ، ولا ببقايا الديانات السماوية· انها مجموعة حكم لا أكثر ولا أقل ·· وان كانت قد سادت فى ربوع الهند وازدهرت نحو ألف عام ··

وقد أصيبت البوذية فى أخريات أيامها بالانحطاط حين استسلمت للبدع والخرافات واندمجت فى البرهمية وذابت

فيها ·· أما مبدىء « لاوتسو » فقد تحولت الى وثنية واهتمت بالنظريات وابتعدت عن التطبيق ، وجنحت الى التقشف والزهد والرهبنة ، وخاصمت المرأة وقاطعت الشهوة ·· حتى نفر الناس منها لقسوتها ·· ولأنها نحلة مريضة سلبية تنفر من الحياة ·· وأما « كونفوشيوس » فقد سار فى مبادئه على أساس مناقض « للاوتسو » اهتم بالحياة سياسة وتخطيطاً وادارة وولى وجهه شطر الدنيا لا يلتفت الى الآخرة ·· وأباح لأتباعه حرية العبادة فعبدوا الانهار والاشجار وغيرها ·· انها مجموعة قوانين ترعى الحياة وتنظم شئونها وقد ابتعدت عن منهج الوحى وحكمة السماء ·· ولم يكن لهذه النحلة صفة الالزام فمن شاء عمل بها ومن شاء أهملها ··

ثم ما لبثت الصين أن تحولت الى متحف كبير للتماثيل والآلهة والهياكل عندما تمكنت البرهمية من القوم وأخضعت البوذية لها ·· وتحولت هى الأخرى الى الوثنية وأقامت التماثيل العديدة « لبوذا » ثم غمرتها البدع وجنح دعاتها الى المال والثراء وجذبوا المنافع الى أنفسهم وفقدت النظام ، ودخل فيها السحر وتخللتها الأوهام وتوارت تعاليم بوذا خلف ركام الوثنية ·· وهكذا تمكنت البرهمية الفتية أن تبتلع كل النحل الوديعة ومنها البوذية بعد أن عاشت ألف عام بالهند تمنح الحكمة وتهذب الناس ··.

وكذلك عاشت أمم آسيا الوسطى والشرق، كالمغول والترك واليابان بين ضلالات البوذية والوثنية لا يملكون حظاً من هدايات السماء ·· ولا حضارة من صنع البشر ·· معظم شعوبها تحيا فى طور السذاجة والبداءة ·· وبعضها فى عهد الانتقال الى الحضارة وهكذا غامت الآفاق كلها بظلام البدع والخرافات وضلال الفساد والشهوات !!

ماذا عن الهند ؟

مجتمع الهند : يمكن أن نعبر تعبيراً مختصراً عن المجتمع الهندى فى ذلك الوقت بأنه « مجتمع الشهوة الجنسـية » فلم تتمكن هذه الشهوة من أمة كما تمكنت من الهند ، ولم تتحدث عنها نحلٌ وتسف فى وصفها كما تحدثت نحل الهند القديمة ٠٠ وصفت هذه النحل الاختلاط الجنسى بين الآلهة ، وتحدثت عن نتائجه ٠٠ وعن نوع الحوادث ونشوء الأكوان وأقاصيص أخرى يندى لها الجبين ٠٠ كاغارة الآلهة على بعض البيوت الشريفة للنزوات والشهوات ٠٠ وكان القوم يرددون هذه المجانة بحماسة وايمان لأنها عملُ الآلهة ٠٠ وهكذا تخلق الجهالة مناخاً تزدهر فيه الخرافة والشهوة ٠٠ ولقد انحط القوم فكرياً وعاطفياً كما انحطوا فى هذه العقيدة حيث عبدوا آلة التناسـل للاله الأكبر « مهاريو » واجتمع الناس على ذلك عذارى ونساء ورجال وأطفالٌ وبعضهم كان يعبد المرأة الجميلة عارية ، وبعض النساء يعبدن الرجال العراة ٠٠ والكهنة تحولوا فى ظل الفجـور الى فحـول لقاح لا عمل لهم الا الشهوة والخيانة ، حتى لقد حولوا المعـابد الى مواخير ، وكذلك تحولت قصور الملوك وبلاط الحكام وبيوت الأغنيـاء فما تورعوا عن منـكر ، أو فسـاد ، يختلط الفتيـان بالفتيـات بعد شرب الخمر ٠٠ فتكون العـربدة والفاحشـة ، وسقطت الأخلاق فى مهاوى الرذيلة ٠٠ وتفنن القوم فى تعاطى المهيجات التى تثير الشهوة وتحرك الغريزة ٠٠ وتحدثت عنهـا كتب الديانات ٠

أيمكن لأمة كهذه أن تسمو الى مجد ؟ أو تتحرك الى شرف؟ نعرف أن أمماً كثيرة عاشت فى ظلام الجهل ، بعيداً عن الدين ، ولكنا لم نقر انحرافاً فاسقاً زنيماً كهذا الانحراف ولا سمعنـا به ولله الأمر من قبلُ ومن بعد ٠٠

الوثنية الهندية : بلغت آلهة الهند فى القرن السادس ثلاثمائة وثلاثين مليوناً من الآلهة وقد عبدوا كل ما هو رائع أو جذاب ٠٠ عبدوا كل شارق وغارب ٠٠ وكل شخص نابه تمثلوا الاله نهراً يجرى ، فعبدوا نهر الكنج ، ونسجوا حوله الخرافات، فهو قد خرج من رأس « مهاريو » الاله وما يزال مقدساً حتى وقتنا هذا تحرق جثث الموتى ، وتتحول الى رماد ثم تذر فيه ، مع احتفال مهيب !! ، وتمثلوا الاله فى الجمال فعبدوا المرأة ، وفى المعادن فعبدوا الذهب والفضة ، وفى آلات الحرب والكتابة والتناسل وفى حيوانات عديدة أهمها البقرة ٠٠ وعبدوا الأجرام الفلكية ٠٠ ولم ينج ملك ولا صعلوك من عبادة هذه الأشياء ٠٠

حكى الرحالة الصينى الشهير « هوئن شوئنج » الذى قام برحلته بين (٦٣٠ ــ ٦٤٧ م) قال : أقام الملك احتفالا عظيما فى « قنوج » اشترك فيه عدد كبير جداً من علماء الديانات ، السائدة فى الهند ، وقد نصب الملك تمثالا (١) ذهبياً لبوذا على منارة تعلو خمسين ذراعاً ، وقد خرج بتمثال آخر لبوذا أصغر من التمثال الأول فى موكب حافل ، قام يجنبه الملك « هرش » بملة ، وقام معه الملك الحليف « كامروب » يذب عنه الذباب ويقول الرحالة « ان بعض الشعب والكهنة من عباد « شو » وبعضهم من عباد « بوذا » وبعضهم يعبد الشمس ، وبعضهم يعبد « وشنو » ولكل واحد من القوم أن يختص باله أو يعبد الجميع حتى يفر ببركاتهم » ٠

الطبقية فى المجتمع الهندى :

يؤمن المجتمع الهندى بنظام الطبقات ايمانا مطلقا ولم يعرف التفاوت الطبقى المرهق كما عرف فى الهند ، وهو تفاوت

---

(١) من كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٤٨ « نقلا عن رحلة هوئنج شنج » لأبى الحسن الندوى ٠

تؤازره وتمكن له الديانات والقــوانين والمجتمــع الجاهلى ٠٠
وخضعت الهند لذلك النظام آلافا من السنين دون أن تثور عليه ٠٠
وكان سبب ذلك التفاوت هو تأثير الحرف والصناعات والآلات
٠٠ وما أحدثته من ثورات فى آخر العهد « الويدى » للمحافظــة
على السلالة الآرية المحتلة ونجابتها ، ثم جاءت « البرهمية »
قبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون فوضعت قانونا على يد (منو)
كان نكبة وشراً أكثر من ذى قبل ٠٠ فقد امتهن كرامــة الناس
الى أبعد حد وقسم الناس الى : كهنة ، أى «رجال دين براهمة»
وشترى أى « رجال حرب » ، وويش أى « رجال زراعة وتجارة »
وشودر أى « رجال خدمة » وهم المنبوذون ويقول مؤلف هــذا
القــانون :

« ان القادر المطلق قد خلق البراهمة من فمه لمصلحة العالم
وهــم الكهــنة رجال الدين وشــترى من سواعــده وويش من
أفخاذه ، والشودر من أرجله ثم وزع عليهم فرائض وواجبات
لصلاح العالم ، فعــلى البراهمة تعليم ويد أو تقــديم النــذور
للآلهة ، وتعاطى الصــدقات ، وعلى الشترى حراســة الناس
والتصدق عليهم ، وتقديم النذور ودراسة (ويد) والعزوف عن
الشهوات ، وعلى ويش رعى السائمة وتلاوة (ويد) والتجارة
والزراعة ، وليس لشودر الا خدمة الطبقات الثلاث ٠٠

والبرهمى الذى يحفظ « رك ويد » مغفور له ولو أباد العوالم
الثلاثة ، وملأ الدنيا شروراً ولا يجوز أن يجبى منه جباية حتى
فى أشد حالات ضنك الدولة ، كمــا لا يصــح أن يموت برهمى
جوعا ، ولا يقتل بعقوبة مهما فعل ، وغاية ما يناله من عقاب
أن يحلق الحاكم رأسه ٠٠ وغيره يقتل بذنبه ، ويليهم فى الفضل
الشترى ، والبرهمى الذى بلغ سن العاشرة يفوق الشترى الذى
ناهز المــائة كما يفوق الوالد ولده ، أما شودر فهم المنبــوذون

الأشقياء حقـا كانوا أحط من البهـائم ، وأذل من الكلاب ومن سعادتهم أن يخدموا البراهمة وليس لهم أجر أو ثواب بغـير ذلك ‥ ولا يجوز لهم الادخار أو الاقتناء لأن ذلك يؤذى البراهمة واذا مد أحد المنبوذين عصا أو يداً الى برهمى قطعت يـده واذا رفسه غاضبا فدعت رجله واذا هم بمجالسة برهمى كوى استه ونفى واذا سبه اقتلع لسانه واذا ادعى بأنه تعلمه سقى زيتا فائراً وكفارة المنبوذ ككفارة القطة والضفدعة والوزغة والغراب٠ كل ذلك ينص عليه القانون ‥

أما المرأة فى المجتمع الهنـدى :

فما أذلها ، وما أحقرها انها أمة عندهم قد يخسرها الرجل فى قمار ‥ أو مراهنة ، وكانت ممتهنة يتزوجهـا عدة رجال ، واذا مات زوجها عضلت أى منعت من الزواج ، وتعرضت لحملات التشهير وظلت فى بيت زوجها المتوفى تخدم الأحماء ولها أن تحرق نفسها بعد وفاة زوجها تفاديا للشقاء المرتقب ٠

هذه هى بلاد الحكمة ، صارت بالبعد عن الله مسخا للضلال، ومعقلا للوثنية ووكراً للفساد ، وماخوراً للفسق ومعقلا للاقطاع والطبقية وكذلك يصنع البعد عن الله ولقد كان هـذا الفسـاد الضارب ينتظر الفتح الاسلامى ليكتسح هذا الغثاء كله ويضع مكانه عقيدة الاسلام لترد الى النـاس آدميتهـم وكرامتهـم ، وكأنما الهند كانت على موعد مع البطل المسلم الشاب محمـد بن قاسم الثقفى الذى تم له فتح السند ولم يتجاوز الثامنـة عشرة من عمره ٠

المجتمـــع العربى :

لم يصل المجتمع العربى فى الجاهلية الى مثل ما وصل اليه الروم أو الفرس أو الهنود من تحلل وانحطاط وفساد وترف ،

ولم تكن أخلاق العرب من الرخاوة والترهل والفساد كما كانت أخلاق أهل زمانهم فى تلك الفترة من عمر الزمن ، أى فى القرنين السادس والسابع الميلاديين ٠٠ لأن البادية قد نشأتهم على سجاياها المرسلة فشبوا على الكرم والايثار والنخوة والحفاظ على العرض وتلبية الصريخ ٠٠ وايقاد النيران فى الليل ليهتدى بها الضال ٠٠ الا أن هذه الفضائل كانت قد اختلطت بالرذائل حتى جاء الاسلام فنقى فضائلهم وطهر شمائلهم واستبعد من هذه الأخلاق ما لا يتلاءم مع الحياة الفاضلة كالعصبية والثأر وغيرها ٠٠ نعم لقد أسقط الاسلام من أخلاقهم ما كان بعيداً عن الحق غاليا فى التطرف سادراً فى الغى ٠٠ لقد كانت فيهم الفصاحة والبلاغة والفروسية بشمائلها النبيلة ، كالشجاعة والصراحة والوفاء والكرم ٠٠ كانت لهم النفوس الكبيرة والأذهان البصيرة والحيكة والمعرفة ، بعضها من نتاج عقولهم، وبعضها من خبرتهم وتجربتهم ٠٠ وان لغتهم العربية بما فيها من الخصوبة والمرونة والحيوية والشاعرية واستيعاب المعانى والعواطف والمشاعر والخلجات لدليل على أن العرب فعلا كانوا على حظ من العظمة والابداع ٠٠ لان الأمم التافهة لا تصنع لغة راقية ٠٠ يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات [ولعمرى (١) ما يكون التمدن اللغوى الا بعد تمدن اجتماعى راق فى حقيقته وان لم يرق فى شكله ، عام فى أثره وان لم يعم فى أهله] ٠٠

ولو لم يكن العرب أهلا لكل مكرمة ، لما اختارهم الله لرسالة الاسلام ، ولما أنزل بلغتهم القرآن ولما جعل منهم أئمة يعلمون الناس الحكمة ، ذلك دليل على أنهم أمة قد نضجت فيها عناصر الخير ولذا آثرهم الله بالرسالة ٠٠ دون الفرس أو الروم أو الهند تلك الأمم التى ترهلت بالترف ، وأغرقت فى

---

(١) ص ١٢ من تاريخ الأدب العربى ٠

اللذائذ وأصبحت واهنة ذليلة قد استعبدتها الشهوات من كل جانب ٠

واذا كان هناك ضلال فى المجتمع الجاهلى ، فهو ضلال محتمل بالنسبة لغيره ٠٠ وبالنسبة لتلك الفترة التى سماها القرآن « جاهلية » ٠٠.

يقول صاعد الأندلسى واصفاً ديانتهم : « كانت ديانات العرب مختلفة ، كانت حمير تعبد الشمس وكنانة القمر ، وتميم الدبران ، ولخم وحزام » المشترى وطيى سهيلا ، وقيس الشعرى العبور ، وأسد عطارد ٠ ٠ وكانت ثقيف واياد تعبدان صنما بأعلى نخلة يقال له : اللات وكان لحنيفة صنم من حيس ، فلحقتهم مجاعة فى بعض السنين فأكلته فقال فيهم الشاعر :

أكلت حنيفة ربها	عام التقحم والمجاعة
لم يحذروا من ربهم	خوف العواقب والتباعة

ولقد انبثت فى صحرائهم جميع الديانات المعروفة من عبادة الأوثان واتخاذها شفعاء الى الله ثم ما لبثوا أن عبدوهم ، وكان لكل قبيلة صنم ، بل لكل بيت صنم فى بعض الأحيان ٠

يقول الكلبى فى كتابة الأصنام : [كان لكل دار من مكة صنم يعبدونه فاذا أراد أحدهم السفر كان آخر مايفعل أن يتمسح به ، وكذلك عندما يحضر من السفر ، وقد تنصب بعض القبائل صنما أمام الحرم أو فى جوف الكعبة ، وفنائها ٠٠ وقد بلغ ذلك نحو ثلاثمائة وستين حجراً] ٠

وروى البخارى عن أبى رجاء العطاردى قال : كنا نعبد الحجر ، فاذا وجدنا حجراً خيراً منه ألقيناه وأخذنا الآخر ٠ ٠ فاذا لم نجد حجراً جمعنا حثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه وطفنا به » ٠

وقال الكلبى : [كان الرجل اذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار فنظر الى أحسنها فاتخذه رباً وجعل الثلاث أثاقى قدره ، أى حجارة يوضع عليها القدر ، واذا ارتحل تركه » ٠

وانتشرت اليهودية والنصرانية فى جهات من الجزيرة العربية ، وانتشرت المجوسية قليلا ، كما كان هناك بقية طيبة من دين ابراهيم عليه السلام ، قد طال عليها العهد ، وكانت الكثرة على الوثنية ، أما القلة فكان بعضها على اليهودية فى اليمن ، وفى يثرب وماجاورها من تيماء وخيبر وبعضها على النصرانية بنجران والحيرة وفى قبائل طيىء والغساسنة بالشام ٠٠

ولقد ظهر جماعة الحنفاء قبيل سطوع شمس الاسلام ، استبشعوا عبادة الأصنام واستدلوا بالكون على الله ٠٠ وتحدثوا فى البعث واليوم الآخر ومخافة الله ٠٠ ومنهم أمية بن أبى الصلت ، وزهير بن أبى سلمى ، وقس بن ساعدة ، وورقة بن نوفل ٠٠ فهؤلاء طلائع مثقفة عاشوا حياة نظيفة ٠

وكانت هناك مجموعة أوهام وأباطيل ترتبط بعقيدة العرب كزجر الطير والضرب على الرمل والطرق بالحصا والكهانة والعرافة ولهم أخبار فى ذلك مضحكة كذلك كانوا يؤمنون بالهامة ، وهى طائر لا يزال يطالب بدم القتيل حتى يؤخذ بثأره ، واستهواء الجن ، وتعليق الحلى على الملدوغ ٠٠ وأن دم الرئيس يشفى من الكلب والجنون ، وهى معتقدات ساذجة ٠٠ وقد سماها القرآن جاهلية لأنها كانت سفيهة ٠٠ ولقد حرص القرآن على تقبيح هذه الحياة بعد اسلام القوم كلما نزعوا اليها بعد أن شرح الله صدورهم بالاسلام فيقول : « أفحكم الجاهلية يبغون (١) » ، وقد قالها رسول الله لصهيب بعد أن عير بلالا

---

(١) آية ٥٠ سورة المائدة .

بأمه السوداء حين خاطبه بقوله : انك امرؤ فيك جـاهلية كما كان صلوات الله عليه يهاجم العصبية التى كان القوم يتورطون فيها من حين لآخر ٠

البـــداوة والحضـــارة عنـــد العـرب :

سكن العرب شبة جزيرتهم الجافة القاحلة التى لا تصلح للزرع ولا للاستقرار ولا تلائم الحضارة ومن ثم كان أهلها بدواً رحـلا يتتبعون مسـاقط الغيث ومنابت الكلأ والعشـب ٠٠ ويعيشون تحـت الخـيام ٠ ويولعون بصـهوات الخـيل ٠٠ ويطعمـون من لحـم الابـل والأنعـام ويشربون من ألبانها ويكتسون من أصوافها ٠٠ وهذه الحياة اتسـمت بالسـذاجة والبساطة وعرفـت بأنها حياة البداوة ٠

أمـا قـريش فـكانت متحضرة لمكانتها الدينية ومنزلتها الاجتماعية وغناها من الايلاف وترحالها للتجارة ، وقدوم العرب اليها للحج ، وللأسواق ٠٠ وكذلك كان القحطانيون متحضرين لحظ ديارهم من الخصب ووفرة الغلات والثمـار ٠٠٠ ولقـد اعتمدوا الغارة والحرب والقتال أسلوباً لحياتهم لمكان العصبية منهم ، فكانوا لا يصبرون على ضيم ، ولا يقيمون على هوان ، وقد جر عليهم ذلك فساد القلوب ودوام الحروب وتعدد الثارات ونزوة العصبيات وماحروب داحس والغبراء وحرب البسـوس ويوم حليمة الا صفحات مخضـبة بالدماء ٠٠ وقـد اخـتفوا بالذكرو وكرهوا الاناث ٠٠ ومارسوا الوأد ، اما خوف العار ، أو الفقر ولم تكن كل القبائل تفعله ٠٠

ولم تكن لهم مـدنية اجـتماعية ـ بل نزعـات فـردية أو قبلية ٠٠ كان مجتمعهم مجتمع القبيلة والخـيمة لا مجـتمع الحكومة والأمـة ـ وان ازدهرت فى بعض النواحى حضـارات عربيـة كحضـارة المناذرة بالحـيرة والغسـاسنة بالشـام

والسبئيين باليمن السعيدة ـ وكان لرؤساء القبائل امتيازات وأحكام يتقبلها الأفراد ولو كانت مخالفة لآرائهم ٠٠ وطبيعى أنهم لم يعرفوا النظم العسكرية ولا الحكومات السياسية ـ اللهم الا فى بعض الجهات المتصلة بفارس أو الروم كما وضحنا٠

فقد كانت دولة الغساسنة بالشام والمناذرة بالحيرة ـ يحكمها الملوك المتوجون ٠٠ ويخضعون لنظم سياسية واجتماعية أرقى ٠٠.

أخلاقهم وطبائعهم :

اذا كانت لهم فضائل قد تحدثنا عنها فى صدر هذا الفصل ـ فانها لم تكن خالصة نقية بل كانت مختلطة بالرذائل فمن اكرام للضيف الى استلاب لعابر السبيل ـ ومن احتفاء بالقبيلة الى اغارة على ابن العم ـ ومن اجابة للصريخ الى سطو واغتصاب ومن حفاظ على العرض الى امتهان للمرأة ٠ وكانت لهم أخلاق سيئة قد أسرفوا فيها من تهالك على الخمر ولعب للميسر قال قتادة : [كان الرجل فى الجاهلية يقامر على أهله وماله فيقعد حزيناً سليباً ينظر الى ماله فى يد غيره فكانت تورث بينهم عداوة وبغضا] ٠

وكان الحجازيون يستعملون الربا ـ وكان فيهم فاشيا ـ ولعل لليهود أثراً فى اشاعة الربا ٠٠.

وكانوا يسرفون فى استعماله الى حد الغلو والقسوة قال الطبرى : [كان الربا فى الجاهلية فى التضعيف وفى السنين يكون للرجل فضل دين فيأتين اذا حل الأجل فيقول له تقضينى أو تزيدنى ؟ فان كان عنده شىء قضاه والا زاده الى السن (أى الجمل أو الناقة) التى فوق ذلك ان كانت ابنة مخاض يجعلها ابنة لبون فى السنة الثانية ثم حقة ثم جذعة ـ وفى العين يأتيه فان لم يكن عنده أضعفه فى العام الآتى وهكذا تكون ومائة

فيجعلها فى القابل مائتين ثم يجعلها فى القابل أربعمائة ان لم تكن عنده وهكذا] ٠ ٠

وكان الزنا ـ موجوداً فى بعض نواحى شبه الجزيرة ـ ولم يكن منتشراً ٠ ٠ فقد كان الرجل يتخذ الخليلات دون عقد ـ وكانت الاماء تكره على الزنا قال ابن عباس : [كانوا فى الجاهلية يكرهون اماءهم على الزنى ـ ويأخذون الأجور] ٠

وقالت عائشة : [ان النكاح كان فى الجاهلية على أربعة أنحاء ٠ ٠ فنكاح كنكاح الناس اليوم يخطب الرجل الى الرجل وليته أو بنته فيصدقها ثم ينكحها ـ والنكاح الآخر يقول الرجل للمرأة اذا طهرت من طمثها أى حيضها ـ أرسلى الى فلان فاستبضعى منه ويعتزلها زوجها فلا يمسسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه ـ فاذا تبين أصابها زوجها اذا أحب وانما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد فهذا نكاح الاستبضاع ـ ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فاذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع أرسلت اليهم فلم يستطع أحد منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها : تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم وقد ولدت وهو ابنك يافلان تسمى من أحبت باسمه فلا يستطيع أن يمتنع من الحاق الولد به ٠ ونكاح البغايا : كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً فمن أرادهن دخل عليهن فاذا حملت احداهن ووضعت حملها جمعوا لها القافة ـ أى المتخصصين فى معرفة الأنساب ـ فألحقوا الولد بالذى يرون ـ ويدعى ابنه فلا يمتنع] ٠ ٠

وهذا الذى تتحدث عنه أم المؤمنين عائشة لم يكن منتشراً فى كل الأوساط ٠ ٠ بل فى بعضها وعلى ندرة لان العربى معروف بالحفاظ على العرض ـ يغض طرفه عن جارته ٠

والمرأة فى الجاهلية كانت موضع التكريم فى الغالب ـ ولم تمتهن الا فى بعض القبائل ـ التى تمارس الوأد والعضــل ـ وتجعل المرأة متاعاً يورث بعد وفاة زوجها ٠ ٠

لكن الزوج العربية ـ كانت ذات مكانة ـ يجلها زوجها فى نفسه ـ ويشركها فى أمره ويتغنى بها فى شعره ويفخر العربى بنسبه الى أمه كما يفخر بنسبته الى أبيه ـ وكان الارتباط بين الزوج وزوجه يتم بعقد غالباً ـ ومن غير الغالب ماذكرته عائشة ـ وهناك زواج كانت تعقده الأســنة والســيوف ـ وكان هذا يحــدث اذا لقى رجــلٌ آخــر ليس من قبيلته ومعه ظعينه (١) فيتقاتلان فاذا قهره ســباها واستحــلها ـ وكان التعــدد بين الأزواج الاناث مألوفــاً ـ ويحــلون التزوج من امــرأة الاب ـ ويحرمون زواج البنت والأخت والخالة والعمة ٠

علومهــم ومعارفــهم :

لم يكن لدى العدنانيين علوم ولا معــارف بالمعنى وانمــا اشتهروا بأشياء استنبطوها بالعقل أو اكتسبوها بالتجربة أو توصلوا اليها بالاستقراء والوهم ـ عرفــوا مبادىء من الطب والبطرة ـ والعيافة والنجــوم وانواء والفراســة وبرعــوا فى الأنساب والاخبار والشعر ـ ثم عرفوا الكهانة والزجر ٠ ٠

أما تبابعة اليمن ، ومناذرة الحيرة وغساسنة الشام فكانوا على حظ من العلوم يدل عليه ماأقاموه من سدود ، وأحيوه من الأرض وعمروه من المدن ولكن درجة رقيهم وحقيقة علومهم لم نتوصل اليها كاملة ولعلٌ الكشــوف تنبىء عنها وقــد ســبق الحديث عن سد مأرب وحضارة سبأ ٠ ٠ وبعد :

---

(١) المراة في الهودج ٠

فتلك لمحة خاطفة عن حال المجتمع الجاهلى العربى فى القرنين السادس والسابع لينتكامل بها وصف شامل لحالة العالم كله قبل القرآن ، وماكان يغشيه من ظلمات بعضها فوق بعض وما كان يحتويه أحياناً من حضارات تزدهر ثم تنتحر ٠ لأنها لا تطرد مع الترف ، ولا تستمر مع الطغيان ، انه عالم قد تمكن منه الشيطان فصده عن ذكر الله ٠ ٠ وأضله عن سواء السبيل ، وكانت الانسانية المضطهدة المريضة تئن من وطأة الظلم وقسوة الحياة ٠ ٠ وتترنح تحت سياط المستبدين ، فتسقط جثة هامدة ٠ ٠ أو تظل تنزف الدم الزكى دون أن تجد من يضمد جرحها ـ أو يمنع نزفها لم يكن هناك ملجأ ولا معتصم ٠ ٠ فقد ضل الهداة ، وسكت الحداة ، وتاه الركب فى ظلمات الحياة ٠

وسكت صوت الحق بالمرة ، وتفشت فى العالم نحل مريضة منحلة فهوت بالبشر الى الحضيض فهل يمكن أن نتصور فساداً أكثر من هذا ٠ وهل يترك الله الأرض مسرحاً للشيطان ومباءة للفساد والطغيان ومستقراً للشهوات الآثمة ٠٠ ومواخير للفسوق والاجرام أكثر من هذا ٠ كلا ٠ وانما لابد للقدر العالى أن يحسم فى الأمر ، وينسف الضلال وذلك بنزول القرآن ، منبع الحضارة الحقة ومستقر الهداية الراشدة ومنارة البشرية التائهة فى دنيا الظلمات يحمله الى العالم الظامىء الى الهداية رسول كريم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ٠٠ أما كيف تمت المعجزة وحدث البعث الجديد للبشرية فذلك ما سنتحدث عنه فى الجزء الثانى من هذا الكتاب والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ٠

كلمـــة ختاميـــة

يطيب لى أن أتجه بالثناء والشكر الى الله الذى منح من الجهد والوقت والفهم والمراجع ما أعاننى على بلوغ الهدف الذى كنت أصبو اليه ٠٠ وأمدنى بالصبر الجميل على القراءة والاطلاع ، فى موضوع من أخطر الموضوعات ، وأعمقها ، وأكثرها صلة بعلوم النفس والحياة والفلسفة والاجتماع !

وقد استطعت ـ والحمد لله ـ أن أعطى تصوراً واضحاً عن فلسفة الحضارة وفقهها وعناصرها ، ودورتها التاريخية ، وارتباطها بالايمان الذى يسقيها بالماء النقى لتخرج أطيب الثمرات ، ويضبط مسارها على طريق الهداية حتى لا تنحرف عن سواء السبيل كما وضحت ـ دور العلم ـ التطبيقى المتخصص فى بناء الحضارات الانسانية ، وأكدت أنه لابد أن يتعاون العنصران معاً : الايمان والعلم لكى تزدهر بهما حضارة كريمة تضع الانسان فى مقامه الرفيع ـ وتحترم خصائصه العليا ، وتمكنه من أداء واجبه فى الحياة ، ويوم يتم ذلك فسوف تستريح الحياة من شهوات الغرب ، ومادية الشرق ، ويتبوأ القرآن مكانه الأسمى لينضح على الوجوه طهراً وأمنا واستقامة تنقذه من بلاء ماحق ، وشر مستطير ٠٠

وكم يهفو قلب كل مسلم يؤمن بالله وكلماته الى تلك الفرصة الطيبة التى تتمكن فيها الأمة المسلمة من بعث الحضارة

الانسانية من جديد لتكتب قصـــة العــدل والكرامـــة وتحقق مبادىء الخير والسلام لعالم أوبقه الفساد وشفه الفسوق وعبث به الشيطان ، وأخذ يتطلع من جديد الى حضارة القرآن ٠

واليــوم ونحن فى مصر الكريمة قلب العــالم الاســلامى ، ومنارة الهــدى والخــير ، وأمل المسلمــين فى مشـــارق الأرض ومغاربها ، اليوم ، ونحن نبنى دولة العلم والايمان على تقوى من الله ورضوان ـ نتقدم بهذه الدراسات ـ كاسهام متواضع فى تحقيق الهدف الكبير الذى نهفوا اليه جميعاً وهو بناء الدولة العصرية نواة الحضارة الاســلامية العالميــة ـ والله من وراء القصد ، ينفع بهــذا الكتاب ، ويجزى عليــه بقدر ما فيــه من اخلاص وجهد ٠٠ وهو حسبى ونعم الوكيل ٠

توفيق محمـد سـبع

مراجــع الكتــاب

(ا) كتب تاريخية :

١ ـ تاريخ الطبرى
٢ ـ سيرة ابن هشام
٣ ـ عصر ما قبل الاسلام ـ الأستاذ مبروك نافع
٤ ـ قصص الأنبياء ـ المرحوم الاستاذ عبد الوهاب النجار
٥ ـ تاريخ الاسلام السياسى ـ الدكتور حسن ابراهيم حسن
٦ ـ الملل والنحل ـ للشهرستانى
٧ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ـ جورجى زيدان
٨ ـ مقدمة ابن خلدون
٩ ـ الخطط للمقريزى

(ب) التفاسير :

١ ـ الكشاف للزمخشرى
٢ ـ تفسير الفخر الرازى
٣ ـ تفسير ابن كثير
٤ ـ تفسير المنار للمرحوم الشيخ رشيد رضا
٥ ـ تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده
٦ ـ تفسير الشوكانى (فتح القدير)

(ج) كتب فى شرح الحضارات :

١ ـ نحن والحضارة الغربية ـ لابى الأعلى المورودى
٢ ـ تجديد التفكير الدينى فى الاسلام
للفيلسوف محمد اقبال

٣ ـ الاسلام والحضارة العربية محمد كرد على

٤ ـ المستقبل للاسلام
الأستاذ مالك بن نبى تعريب شعبان بركات

٥ ـ حضارة الاسلام ـ المستشرق (جوستاف)

٦ ـ أسس الاقتصاد بين الاسلام والنظم المعاصرة
للمودودى

٧ ـ من روائع حضارتنا ـ المرحوم مصطفى السباعى

٨ ـ انسانية الاسلام ـ أحمد عبد الغفور

٩ ـ بين الديانات والحضارات ـ طه مدور

١٠ ـ الاسلام فى المعترك الحضارى ـ عمر بهاء الدين

١١ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين
لأبى الحسن الندوى

١٢ ـ الاسلام والطاقات المعطلة ـ ظلام من الغرب
للأستاذ محمد الغزالى

١٣ ـ أثر العرب فى الحضارات الأوربية
للمرحوم عباس محمود العقاد

١٤ ـ فى أصول الأدب ـ للمرحوم حسن الزيات

١٥ ـ القرآن والعلم ـ للأستاذ جمال الدين الفندى

الجزء الأول (قيم حضـارية)

محتويات العـدد

الموضـــوع — الصفحة

البـــاب الأول

الباب الثانى

الباب الثالث

الموضـــوع	الصفحة

البــاب الرابع

العـالم قبـل القـرآن

الموضـــوع	الصفحة

رقم الايداع ٨٤/٤٢١٥

دار الفتح الاسلامى للطباعة

تصــويب الخطأ

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصــواب
١٦	٣	ونالهما	ما نالهما
٢٢	٧	قطلبت	فطلبت
٢٧	١٦	(٧٣٣—٧٠٨ هـ)	(٧٣٣ — ٨٠٧ هـ)
٢٩	١	لظالمين	الظالمين
٢٩	١٨	النقص	التقصى
٣١	٥	وادساتير	والدساتير
٣١	٣ـــ	يستوعيها	يستوعبها
٣٣	١٣	مقومتها	مقوماتهـــا
٤٤	٤ـــ	يتوفروا	يتظافروا
٤٧	٥ـــ	يتميز	يميز
٥٠	٢ـــ	الظلماذ	الظلمـــات
٥١	٥ـــ	الآلهية	الالاهيه
٥٣	١٠	الفطر	الفطره
٥٥	٣	ينتالها	ينتابهـــا
٧٨	١١	الفطر	الفطره
٧٩	٨	كراهلهم	كواهلهم
٧٩	١٥	بيـــديه	بيـــديه
٨٤	١١	وتركيها	وتركبها
٨٤	١٤	النبعيه	التبعيـــة
٨٥	١	والأض	والأرض
٨٦	٨ـــ	أتى	اللتى
٨٨	٣	لاولى	الأولى
٨٩	٩	ومنى	ومتى
٩٠	١٠	سسله	سلسلة
٩٤	٢ـــ	لقبودا	ليقودا
٩٥	٢	يعيشه	يعيشـه
١٠٤	١٦	علبنا	علينـــا
١٠٧	١٠	يتفاعله	بتفاعله
١١٥	٨ـــ	شخصيه	شخصـــه
١٢٠	٥	سبيلها	سبيلهـــا
١٢٣	١٦	للشر	الشر
١٢٣	٤ـــ	انسانيه	انسانيته

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٢٤	١٥	الحرام	الحـرم
١٢٥	١٥	من	من الله
١٢٦	٩	بتوقيف	بتوفيق
١٢٨	١١	وحققت	وحقت
١٢٩	١٦	الملائيه	الملائكة
١٣٣	(٢) الهامش		(آيتا ١١٨ ، ١١٩ سورة طه)
١٣٤	١٢	الفتنه	الفتنـة
١٣٩	ـــ٤	وقوله	وقواه
١٤٠	٧	أنو	النمو
١٤٧	الأخير	المعدله	العـداله
١٤٨	٥	مبنهجه	بمنهجه
١٤٨	٧	هبوت	هبوط
١٤٨	الأخير	عنصصر	عنصر
١٥٤	ـــ٢	متألفه	متألقة
١٥٨	ـــ٦	قعل	فعـل
١٦٠	٢	جنت	جنـات
١٦٩	ـــ٢	قامنا	قامتا
١٧٦	١٣	ذك	ذالك
١٧٨	١٤	لصلحا	لصلحـبة
١٧٩	ـــ٧	وجيل آنهم،	وجبل لأنهما
١٧٩		السطر الخامس من أسفل زائد ويشطب	
١٨٠	الأخير	عنها عنها	عنها
١٨٤	ـــ٩	وقله	وقال
١٨٤	ـــ٨	افصل	الفضـل
١٨٥	٤	عى	على
١٨٧	٦	وم	ولم
١٩٢	١٦	له	لم
١٩٤	١٢	ففروا الله	ففروا إلى الله
١٩٦	ـــ٧	منيونا	دنيويا
١٩٧	١٦	ويسملها	ويسلمها
٢٠٣	٤	فقئمه	فقائمه
٢٠٣	٤	صنعها	صانعها
٢٠٤	١	لس	ليس
٢٠٦	ـــ٣	قا	قال

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصــواب
٢٠٧	ـــ٢	وغاضب	وغاضت
٢٠٨	٧	خصبه	خصبه
٢٠٨	ـــ٧	فها	فيهـــا
٢٠٩	١٣	البدهى	البديهى
٢١١	ـــ٩	بعدن	بعـــد أن
٢١٥	الهامش (٣)		آية ٢٠ سورة التوبة
٢١٥	الهامش (٤)		آية ٧٣ سورة المـــائدة
٢١٦	٢	واتخذنا	واتخذتا
٢١٦	٧	التبيان	البنيان
٢١٩	ـــ٨	برائن	براثن
٢٢٢	ـــ٧	نريه	نظريا
٢٢٦	١٣	النكابه	النكاية
٢٢٨	٦	يتسمون	يقتسمون
٢٢٨	١٤	ظلمنا وفجرنا	ظلماتا وضلتا
٢٢٩	١٥	يتنص	يتنصر
٢٢٩	ـــ٣	خليفه	خليقه
٢٣٠	ـــ٦	رهينه	رهينه
٢٣٠	ـــ٤	لا ترتصى	لا نرتضى
٢٣١	ـــ٣	فباز	قباز
٢٣١	الأخير	المنذرين	المنذر بن
٢٣٢	١٦	معمظا	معظـــما
٢٣٤	السطرين ٦،٧ يرفعا الى أول الصفحة ليصير السطر ١ هو ٣		
٢٣٥	١٥	قلقنه	فلقنـــه
٢٣٥	ـــ٢	رغم نه	رغم أنه
٢٣٧	ـــ٦	الحمنده	الحميده
٢٣٨	٩	شئونها	شئونها
٢٤٧	١٥	قناده	قتاده

اذا سبق ـــ رقم الصفحة تعـــد الا سطر من أسفل الصفحة

أخى الكريم .. رجاء تصحيح نسختك من هذه الأخطاء المطبعية

بسم الله الرحمن الرحيم

دار المنـــار للنشر والتـــوزيع
القاهرة ـــ ص.ب ٦١ هليوبولس

قيم حضارية في القرآن الكريم

العالم الذى صنعه القرآن

تأليف

توفيق محمد سبع

الجزء الثانى

دار المنار للنشر والتوزيع
القاهرة — ص.ب ٦١ هليوبولس

مقدمة الطبعـة الثانية

بقلم : فضيلة الشيخ توفيق محمد سبع مؤلف الكتاب

لهذا الكتاب قصة ، كانت من أكبر الحوافز على تأليفـه ، فقد ضمنى مجلس مع لفيف من الأخـوة ذات ليلة ـ وكنا حين نلتقى نتحدث فى كثير من قضايا الفكر ، ويمتد الحوار طويـلا فيما بيننـا ، وكان لنا صـديق مفتـون بما يكتب عن تاريخ الحضارات ، يردد ما يقـرأ من أفـكار حول الغرب وتقـدمه ، ونهضته العلمية الشاملة ٠٠ وينهى حديثـه بعبـارة تقليدية كثيرا ما كان يقولها ٠٠ حتى عرف بها ٠٠ وهى قوله : لابد أن نكون منصفـين ـ ونعترف بأننا استفـدنا الكثـير من تلك الحضارة فأيقظتنا من نوم ثقيل ، وحركت فينا حوافز البحث، وأمدتنا بمنهج الفكر ، فانطلق كتابنا ينشئون ويبدعون !!

وكنا نناقشه كثيرا فى هذه الأفكار ونؤكد له أن حضـارة أوربا مقتبسة من حضارة المسلمين ٠٠ يوم أتيحت لهم فرص التلاقى مع الشرق فى فترات من الزمن أخصـبها فترة الفتـح الأندلسى الاسلامى ٠٠ الذى جعلَ أوربا المتخلفة يومذاك تقطف من رياضنا،وتكرع من حياضنا، وكانت لنا المدارس والجامعات التى ارتادها لفيف من الدارسـين الأوربيين ٠٠ وتلك حقيقـة يقترنون هم بها ٠٠ بل ويتغنون بآثارها ٠٠!!

هـذا هو القـول الحق !!

كنت أجلس بين المتنـاقشين صامتـا لا أتكلم ، هادئا لا أتوثب ـ ولكن عقلى كان يشتعـل ، وذهنى كان يستوعب آراء

هؤلاء وهؤلاء ٠٠ كان يرتب المقدمات ويستخلص النتائج ، فى عملية ذهنية صرفه ، لا تحس ولا تسمع ٠٠

وقلت لنفسى : لم لا أكتب فى موضوع كهذا ٠٠ لأوقع الحيف عن حضارة أصيلة ظلمها أصحابها ؟! ثم عقدت العزم وانطلقت فى المكتبات أقرأ وأفقه وأستفيد ٠٠ حتى امتلأت ٠٠ ثم جاشت هذه الأفكار فى نفسى وتحفزت للظهور ٠٠ فاعتمدت على الله !! وشرعت أكتب ٠٠ وكان مقدرا ان أصدر جزءا واحدا ، أستوحى مادته من القرآن ٠٠ ولكن القدر هيأ فرصة الاقامة بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم شهرا ٠٠ فكان ذلك مددا غمرنى بما لم أكن أتوقع من فكر ومعرفة ٠٠ وأمام هذا الالهام الغامر كتبت جزأين وقدمتهما الى مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر الشريف ٠٠

غرة ربيع الأول ، فما أن قرأه المغفور له المرحوم الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار ـ أمين المجمع يومذاك ٠٠ والذى صار فيما بعد شيخا للأزهر ـ حتى أصدر أمره بتقديم الجزأين كليهما الى المطبعة ـ وقدم لهما بقلمه الخصيب !! فما حل شهر جمادى الآخرة حتى صدر الجزأين متتابعين !

وتقبلهما الناس بقبول حسن ٠٠ وأخذا حظهما من الثناء ، والانتشار !! ومنذ تم التوزيع ، ونفذت الطبعة ، وأنا حريص على اعادة طبع هذا الكتاب ٠٠ واليوم ٠٠ وقد تهيأت الأسباب أجدنى سعيدا كل السعادة باعادة الطبع ليبرز الكتاب فى ثوب جديد ٠٠ وقد أضيفت اليه بعض الأفكار ٠٠ وتم تنظيمه على نحو بديع ٠٠ وهأنذا أقدمه هدية الى الشباب الظامىء الى المعرفة ليجد فيه ما يروى ظمأه ، وما يحصن عقله ضد آفات الغزو الفكرى والعقدى ٠

والله أسأل أن ينفع به ، وأن يفتــح له ، لقــاء ما بذلت فى تأليفه من جهد ، وهو حسبى ونعم الوكيل ؟

المؤلف
توفيق محمد سـبع
الأستاذ بكلية اللغة العربية
جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
المملكة العربية السعودية ـ الرياض فى غرة رمضان سنة ١٤٠٤هـ
يونيو سنة ١٩٨٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

لفضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار
الأمين العام لمجمـع البحـوث الاسـلاميـة

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ٠ فاستقام على جـادته أجيال والتزموا ٠ وكانوا رواد هـدى ٠ وكان مجتمعهم هو المثال الأتقى والانقى ٠

وصلوات الله وسلامه على سيدنا رسول الله ٠ محمد بن عبد الله ٠ أنزل عليه القرآن ليكون للعالمين نذيرا ٠ ففتح الله به أعينا عميا ٠ وقـلوبا غلفا ٠ وأذانا صـما ٠ تقـدموا ركب الانسانية فى مسيرتها فقادوها الى مرفأ الأمن فى نور القرآن :

وبعـــد ٠

فمما لا جدال فيه أن العالم كله مشرقا ومغربا قبل اشراق القرآن كان يعانى من الاضطراب غايته : سادة مسـتبدون ٠ وعبيد مرهقون ٠ أخلاق هابطة ٠ وقيم مؤرقة ٠ قهر سـادر ٠ وحقوق مضيعة ٠

وأينما ولى الانسان وجهـه ونظر ناحيـة من أرض الله الواسعة ٠ لاتقع عينه الا على مأساة انسانية ٠ ولا يرتد طرفه الا بما يملأ صدره ألمـا وهما ٠

ذلك ماكان · وماسجله التاريخ · لا يستطيع مكابر أن يمارى فيه ·

وشاء الله الرحيم بعباده أن ينزل القرآن خاتم الكتب على سيدنا محمد خاتم الرسل · فيبشر به · ويهدى اليه حتى قامت دولة الاسلام على أقوى ما تقوم دولة من دعائم · أرسى قواعدها هدى ر بالعالمين الذى يعلم ما يصلح عليه خلقهم وما يسعدهم ويثرى حياتهم الدنيا التى جعلها سبحانه معبرا الى حياة أخرى أرحب وأوسع ·

وانتبه التاريخ الراصد الى قيام تلك الدولة التى سجل لها فى أزهى صفحاته مالم يسجل لدولة من قبل ·

ومنتهى اليقين أن التاريخ كان مبهورا وهو يسجل أمجاد الدولة الاسلامية · اذ كان يسجل فيما يسجل واقعا حضاريا بأدق ما تحمل كلمة الحضارة من معان وأبعاد ·

ذلك أن التاريخ يفقه حق الفقه أن الحضارة فى مفهومها الصادق تعنى أول ما تعنى تحقيق انسانية الانسان ·

وانسانية الانسان فى التحليل الأمين هى كرامته وأمنه وتفاعل فكره وعقله مع ما خلق الله لاستنباط ما يشبع حاجته · وانشاء ما يعبر عن وجوده فى سيرة الأجيال على طريق الحياة ·

وتوخى هذه المعادلة الرشيدة كانت طابع الحضارة التى أقامها المسلمون على هدى القرآن · فكانت بحق حضارة انسانية · كرم فى ظلالها الانسان · وأمن وسعد وأثرى بها الحياة أيضا ·

ولعل المقارنة المنصفة بين الحضارة التى قامت على قواعد القــرآن وهــداه ٠ والحضـــارة المعاصرة التى روعت الانســـان واضطربت بها حياته وشفيت تنتهى بالمفكرين الصادقين الذين يبتغون خير الانسان وأمنه الى التمهل المطمئن والتعقل المتزن لاختيار الطريق الأمثل لمسيرة الانسان ٠

وليس الطريق الأمثل الا طريق القرآن ٠ وقد جرب فسعد ٠ والتجربة هى المعيار الأصيل ولســـان الحق الذى لا ريب فيه ٠

وكتاب « قيم حضارية فى القرآن الكريم » للأستاذ « توفيق محمد سبع » الذى نقدم له يعالج القيم الحضارية فى القــرآن الكريم ٠ ويبرز أبعادها مادية وروحية ٠

نسأل الله العلى القدير أن ينفــع به فى مسيرتنا الموفقــة بأذن الله على طريق العلم والايمان وهو سبحانه الموفق والهادى الى أقــوم ســبيل ؟

دكتور : محمد عبد الرحمن بيصار
الأمين العام لمجمع البحوث الاسلامية

مقـــــدمة المؤلـــف

الحمد لله أغدق النعم على الانسان ـ وعلمه الحكمة والبيان ـ والصلاة والسلام على رســول الله ـ محمــد بن عبد الله ـ استثمر خصائص الانسان فى بناء مجتمع أفضل ٠٠ وتأسيس حضارة أمثل ٠٠ تجد فيها الانسانية المعذبة أمنها وسعادتها٠٠ وتمضى بها قدماً الى صراط العزيز الحميد ٠

فقد كنت مولعا منذ الصبا الباكر بقراءة المؤلفات الكثيرة التى تتناول شرح الحضارة الاسلامية ٠٠ ونوازن بينها وبين الحضارات القديمة والحديثة ٠٠ وكنت أحس بالمتعة والسعادة عندما أقرأ الاجماع الرائع على أن حضارة الاسلام هى حضارة التقدم الانسانى والعالمى ٠٠ لأنها تحترم خصائص الانسان ـ وتطلق يده فى بناء الحياة مستهديا بمنهج الله ـ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ٠٠ ولأنها لم توضع لجنس من البشر ولا لبقـــعة من الأرض وانمــا وضــعت للحـــياة كلها وللانسانية جميعها من غير تمييز ولا تفــرق ٠٠ ولأنها ليست حضارة ثرثرة وكلام ٠٠ وانما حضارة عمل ونظام ٠٠ تجـد فــيها البشرية تحـقيق ذاتها ـ وتمثيل ميولها ونزعاتها ٠٠ وشحذ مواهبها وملكاتها لتملأ رحاب الحــياة بالعمل المثمر ـ والجهاد البناء ٠٠ وكنت أشعر بأن الحديث عن هذه الحضارة لا يحتاج من الباحثين الى الأدلة الكثيرة ليثبتوا هذه المعانى ٠٠ لأن هذه الحضارة قد تحققت فعلا فى واقع الحياة ـ وعاشــتها البشرية تجربة خصبة غنية تتطلع اليها الدنيا فى تلك الآونة كما تتطلع الى الفجر المنبثق من خلال الظلام ٠٠ أو الى الأمل النابع من قطوب اليأس ٠

ومع تقديرى لكل الجهود المبذولة فى هذا الصدد واستفادتى منها الا أننى كنت دائم التطلع الى كتابة من طراز جديد ٠٠ كنت مشوقا أن أرى عنوانا لكتاب جديد يحدثنى مباشرة عن حضارة القرآن ٠٠ مقوماتها ـ عناصرها ـ آثارها ٠٠ خصائصها !! بحيث يعطى تحليلا وقعيا للعالم الذى صنعه القرآن ٠

نعم : كنت متحمسا لمثل هذا الكتاب الذى يعالج بالبحث الدقيق ـ القيم الحضارية فى القرآن الكريم ـ ويبرز جوانبها المادية والروحية ويحل الأسس الكريمة التى قامت عليها ـ والأخلاقيات السامية التى اتسمت بها ـ والذوقيات الرفيعة التى صقلت مشاعر البدو الجفاة فصنعت منهم تلك النماذج الفريدة فى تاريخ البشرية والتى وصفها الحق تبارك وتعالى بقوله : [كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله (١)] ٠

كنت مشغوفا بكتاب يركز الأضواء على تلك الدفعة الحضارية الرائعة التى أمد بها القرآن الحياة والأحياء ٠٠ يوم كان الناس عبيدا أرقاء فأصبحوا بفضل القرآن سادة كرماء !!

وكنت أحس بأن على الكتاب أن يستمدوا فى هذا الموضوع من كتاب الله الخالد مباشرة ويستقوا من نبعه الطهور ـ ليقدموا لتلك الفترة الضالة من حياة البشر نموذج حضارة عصرية متكاملة تقوم على العلم والايمان وتنقذ البشر كما أنقذته أول مرة ٠

ودراسة كهذه تكون بالغة الأهمية !!

---

(١) آية ١١٠ آل عمران ٠

لأن هذه القيم الحضــارية ـ حين تلتمس فى القــرآن ٠ ٠ وتستمد منه مباشرة فانها ستمنحنا الثقة ـ وتبث فى قلوبنا العزم ونقبل على تطبيقها بمنتهى الاذعان والحزم !!

وذاك أجـدى علينــا من أن نلتمس الدراســات فى كتب التاريخ ٠ ٠ فـتتوزعنا دوربه ومنعطفاته وتضــللنا شــعابه ومنحنياته ٠ ٠ ونعود فى خاتمة المطاف بما لا بطمئن قلبا ـ ولا يريح ضــميرا لأنه ـ مهما يبلغ من الدقــة والتحــرى ـ كلام يصـدق أو يكــذب !!

وعملية البناء الحضارى ـ لاتتم كما ينبغى الا يوم تثق البشرية فى صدق التوجيه وسلامة الأساس ٠ ٠ وان منهجـا يضعه رب الناس لهو المنهج الحــق ٠ ٠ الذى تتقبله البشرية بكل الجد ٠ ٠ وتجـد فيه مايلائم طبيعتها ســواء فى غرائزها الفطرية ـ أو فى أشواقها المتسامية ـ وصــدق الله العظيم اذ يقول : « هو أعلم بكم اذ أنشأكم من الأرض واذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم » ٠

هذا العلم الحقيق المستوعب هو الذى يضع للبشرية دستور حضــارتها ـ ومنهج ســيادتها ٠ ٠ لأنه موضـــوع على علم وبصــيرة ٠ ٠ ولن تســتطيع مناهــج البشر أن تنهض بهـذه التبعات ٠٠ لأنها تجهل طبيعة الانسان ـ واحتياجاته ـ كما تجــهل ميوله واســتعداداته ٠ ٠ ومايزالْ هذا الانســان رغم تطور الدراسات العلمية لغزا عصيا من أين جاءه علم البشر ؟ وجد جــهلا كثيفا وحجبا صفيقة ـ وماخفى من أمر الانســان أكثر مما عــرف ٠

---

(١) آية ٣٢ سورة النجم ٠

ان هذا المنهج الربانى الموثق بكل ضمانات القوة والفاعلية قد احتواه القرآن الكريم ويوم نتجه اليــه لاستجــلاء أنواره وأسراره فسيفضى الينا بالكثير ٠

ويوم تتجه عزائم المسلمين لتطبيق شريعتــه وأحكامــه فسيصنع لهم عالمــا ربانيا موحد القلب والفكر والشعور والعمل، يسوده نظام واحد وتسرى فيه نغمة واحدة ٠

وتلك أمنيــة غاليــة على قلب كل مسلم يهفــو اليهــا من الأعماق ٠٠ لتنقذ حياة البشر من التشرد والضياع ٠٠ وتعيد الى العالم تلك التجربة الحضارية التى عاشها محمد صلى الله عليه وسلم والذين معه ٠٠ فاستنقذت حياة البشر من الجاهلية الأولى وصنعت مجتمعا انسانيا كريما عز فيه الذليل ـ وطعم الجائع ـ وتعلم الجاهــل وازدهرت آمال الحيــاة ، فأشرقت بنــور الله !!

وما أحوج المسلمين ٠٠ بل ما أحوج البشرية جمعــاء الى منهــج كهــذا ٠٠ فى وقت ذلت فيــه كرامــة الحيــاة وامتهنت خصائص الانســان ٠٠ وعاش ظامىء الروح والوجــدان بين حضارة مادية حيوانية ٠ لا ترعى فيه الا ولا ذمة ٠٠ بعــد أن سلبته دينه وعقيدته وتركته نهبا للهواجس والهموم وفريسة للقلق والضياع تمزقه الحيرة وتضنيه الحسرة وتعتصره الآلام وهو يشهد مصرع الحياة على أيدى « المتحضرين » القســاة ٠٠ بل الغــواة الذين راحــوا يفزعون البشرية ويؤرقون حياتهــا ويشردون وجودها ويضعونها كل لحظة على فوهة بركان ثائر يهدد بالضرم ويقذف بالحمم وينذر بالويل والثبور !!

ولم يستطع ترف الحضارة المــادية أن يسرى عن الانسان ٠٠ بل ان الذين يعيشون فى قلب تلك الحضــارة قوم تعســاء

لأنهم غرباء بين معالم تلك الحضارة يحملون روحا ضالة تائهة وانهم لفى ظمأ الى سكينة الروح ٠٠ وهدوء المشاعر ٠٠ انهم فى احتياج الى حضارة القرآن لا الى حضارة الرجل الأبيض أو الرجل **الأحمر** !!

وان فطرة الانسان كما برأها ربه مادة وروح فلا بد من حضارة تنهض بهما معاً ، وتلائم بينهما ملاءمة دقيقة ، أما أن تطغى المادة على الروح فتلك هى الحيوانية الفاجرة ٠٠ واذا ما طغت الروح على المادة فتلك هى الرهبانية الخانقة التى تفر من الحياة ٠٠ وتأخذ منها موقفا سلبيا ، وما بهذا أمر الله !!

والاسلام فى منهجه السديد ينهض بفطرة الانسان مادة وروحا ٠٠ فيجعل قلبه دائماً زاخرا بالايمان وضميره موصولا بالله ثم يطلق يده فى بناء الحياة ٠٠ انه يتعهد الانسان ببناء داخله ليبنى العالم من خارجه ٠٠ ويجعل من ايمانه الايجابى رقيبا عليه وهو يمارس دوره فى بناء الحياة ٠٠ هكذا الاسلام فى منهجه : ايمان يحرس الحياة ٠٠ وعمل جاد يترجم عن العقيدة وعلم متخصص يخطط لذلك كله ٠٠ وبذلك تستجمع هذه الحضارة خصائص رفيعة من عقيدة تنير القلب ـ وعلم يشحذ العقل ـ وعمل يبنى الحياة ٠٠ وضمير يراقب الله ٠

وفى هذا الجزء من الكتاب ـ وهو الجزء الثانى ـ تحدثت عن البعث الجديد وخصائصه ٠٠ وكشفت عن أسراره الخالدة التى تمكنت فى أقصر فترة من عمر الزمن أن تنشىء عالما ربانيا ترفرف عليه راية الهدى والسلام ٠٠ وأن تستنقذ الفطرة الانسانية من قبضة الشيطان لتعيد اليها صفاءها وبهاءها ٠٠ ثم تطلقها تعمل وتدأب على عين الله !!

ثم انتقلت بعد ذلك الى توضيح معالم حضارة القرآن ـ وشرح مقوماتها ـ وتحليل عانصرها الأصيلة وقيمها الرفيعة ٠٠ التى صنعت انسان القرآن ٠٠ ثم عالم القرآن ٠

وكان لابد لى أن أتحدث عما أحدثته هذه الحضارة من أثر عالمى ·· وما أفادته منها أوربا بالذات من علم ومعرفة ·· وما أسدته الى العالم كله من سعادة وتقدم ·· وكيف أن الحياة قد وجدت كرامتها الضائعة ·· وانسانيتها الضالة ·· وايمانها بالله ·· فمضت فى ضياء عقيدتها تبنى عالمها المثالى على تقوى من الله ورضوان !!·· وتابعت المسيرة الحضارية الجليلة حتى فترة التألق والازدهار ·

وبينت بعد ذلك كيف بدأت تلك الحضارة تنزلق عن مرقاها العالى حين مال أصحابها الى الترف ·· واستسلموا لدواعيه ·· ثم ما كان من انقضاض العالم الكافر عليها ·· ليحتجب ضياؤها عن الحياة فتتمكن حضارتهم الفاجرة من جذب العالم الى الجاهلية مرة أخرى ·

لقد فصلت هذه العوامل ـ التى أدت بالتدريج الى اسقاط هذه الحضارة المثالية ـ ثم وضحت بعد ذلك سبيل الخلاص·· ورددت على مسامع الامة التائهة برنامج عمل حضارى رائع متمثلا فى خطبة الوداع التى بدأ فيها رسول الله ـ قائد تلك الحضارة ـ وكنما يبصر واقعنا المرير اليوم ·· ويرى ما تعانيه حضارتنا من كيد أعدائها ·· وضعف أبنائها فأطلقها فى أرجاء الدنيا وعلى مسامع نحو مائة ألف من المسلمين ·· احتشدوا فى عرفات ليأخذوا عن نبيهم :

« أيها الناس !! انى قد تركت فيكم ما ان أخذتم به لم تضلوا بعدى ·· كتاب الله !! » ·

نعم أيها الرسول الكريم ·· ان محنة المسلمين اليوم تكمن فى انفصالهم عن كتاب الله ·

ومن هنا تبدأ المـأساة ٠٠ ولن تسترد هذه الأمة مجدها ٠٠ الا يوم ترتبط بكتاب الله ٠٠ تطبيقا لنظامه ، وتنفيذا لأحكامه ٠٠ وسيرا على هداه ٠٠ ولن يصلح آخر أمرنا الا بما صلح بــه أوله بذلك ٠٠ وبذلك فقط تبدأ حضارتنا من جديد ٠٠ ولن يجد العالم كله شرقيه أو غربيه أسـعد من تحقيق هـذه الفرصـة المباركة ٠٠ ليعيشوا مع انسانيتهم فى وئام !!

وقد يكون من يمن الطالع ـ أن تخرج هـذه الدراسة ـ فى تلك الفترة الرائعة التى تقوم فيها مصر المؤمنة ٠٠ قلب العالم الاسلامى ٠٠ ومهد الفـكر المستنير ٠٠ ومقـر الأزهر الشريف ببنـاء دولة العلم والايمان ٠٠ وان هـذه الدراسـة ٠٠ اشارة ضوئية على هذا الطريق ٠٠ تقدم المنهج ٠٠ وتعطى الدليل ٠٠ عسى الله أن يجعل من بلدنا الطيب ٠٠ نواة حضـارة قرآنيـة عالمية تقوم على العلم والايمان ٠٠ وما ذلك على الله بعزيز ٠

وستظل المملكة العربية السعودية باستمرار عامـل جذب للاسلام وحضارته ٠٠.

وأملى فى الله كبير ـ أن ينفع بهـذا الجزء من الكتاب ٠٠ على قدر النيـة الطيبـة فى تأليفـه ونشره ٠٠ وأن يؤنس بـه وحشتى يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم؟

المؤلف
توفيق محمد سبع
الأستاذ بجامعة الامام محمد بن سعود
الاسلامية

الباب الأول

البعث الجديد

أسراره وعجائبه :

لم يكن معقولا أن تنسدل ستائر الظلام على الكون فتلف الحياة والأحياء ـ أكثر مما وصلت اليه فى تلك الفترة القاسية التى سبقت مبعث محمد صلى الله علية وسلم ٠٠ ونزول القرآن الكريم ٠٠ ولم يكن معقولا ولا منصوراً أن تتقلص « انسانية » البشر وتنكمش كما تقلصت وانكمشت فى تلك الفترة الرهيبة ٠٠ كما لم يكن مستساغا أن ينطمس نور الفطرة ويختفى وهجها المشع ـ وتتراكم عليها مخلفات القرون البالية ـ وتقاليد البيئات الساقطة ـ وأوزار المذاهب الأرضية كما حدث فى ذلك الوقت بالذات ٠٠

لقد تحول العالم كله الى فساد وأسلم زمامه للشيطان يقود مسيرته ويضلل خطاه « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون (١) » لهذا كله كانت البشرية تتطلع فى شتى الآفاق ـ وقد شاقها ـ أن تمارس انسانيتها المهدرة الضائعة ـ وأن ترد اليها كرامتها السليبة ٠٠ منتظرة بزوغ فجر جديد يحيى الآمال المهيضة ـ ويطلب القلوب المريضة ويضع حدا لهوان الانسان !!

---

(١) آية ٤١ من سورة الروم ٠

والله سبحانه قد يترك البشر لأنفسهم فى بعض الفترات التاريخية ٠٠ تتلقفهم فـيها غوائل الحـيرة ـ وتسـتبد بهم عوامل القلق وتتخطفهم هواجس الشـك ٠٠ ويقـوى نزوعهم وتطلعهم الى هـدايات السـماء ٠٠ ليذكروا نعـم الله عليهم بارسال الرسل ، وانزال الكتب ، وتوضيح السـبل ، واعطاء المنهج والدليل ٠٠

وهى نعم جليلة ـ تستدعى الشكر ـ وتستوجب الثناء ـ وتتقاضى الانسانية أن تظل ذاكرة لا تنسى ـ شاكرة لا تذهل ـ عارفة لا تجهل حتى تدوم النعم ـ وتطرد الامدادات !!

ولكن سبحانه ـ وهو الرحـيم بعباده ـ لا يؤاخـذهم فى فترات التيه ـ على ضلال وقع منهم ـ أو انحراف صدر عنهم ـ لأنه بهم رؤوف رحيم ٠٠

وانه جل جلاله ليطمئننا على ذلك ـ ويؤكد لنا تلك الرحمة ليزرع الأمل فى النفـوس ويقـر الهداية فى القـلوب ٠٠ ويملأ الأفق حول الانسانية الضعيفة بدواعى الثقة والرجاء فيقول جل شأنه : [وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا (١)] ٠

ويقول سبحانه موضحا الحكمة العالية فى ارسال الرسل : [ليهلك من هلك عن بينة ـ ويحيا من حى عن بينة (٢)] ٠٠٠

ويصرح القرآن بأن على رأس هذه الحكم كلها ـ أن تنقطع حجـة الناس على الله [لئلا يكون للناس على الله حجـة بعـد الرسل (٣)] ٠

---

(١) آية ١٥ سورة الاسراء ٠
(٢) آية ٤٢ سورة الأنفال ٠
(٣) آية ١٦٥ سورة النساء ٠

وهنـاك حقيقة كبرى تفرض نفسها على الموقف • وهى أن البشر عاجزون عن ادراك الايمـان ككل • • وبخاصـة ماكان مرتبطا بالجزاء والبعث واليوم الآخر كله وقضاياه • • والرسل هم الذين يقودون البشر قيادة حكيمة ـ على أساس من الايمان الصحيح • • والاعتقاد الجازم فى حقائق الايمان كله • • سواء منها مايتعلق بعالم الشهادة ـ أو عالم الغيب • • قد يستطيع البشر ـ أن يتوصلوا الى نظم تكفل لهم الراحة • • وتقودهم الى الفضائل وتربطهم بالحـق والخير ـ وقـد يستقل العقـل البشرى بفهم هذه الأمور • •

لكنـه يعجز العجز كله عن فهم العالم الآخر • • وعن معرفة صفات الله • • وكلها مسائل على جـانب خـطير من الأهمية لتصحيح نظرة الانسان الى الحياة ـ وتحديد هدفه فيها • • فمن أين للبشرية أن تستقى لتصل الى هذه المعارف ؟ !

لقد ضلت الفلسفة ضلالا بعيدا حين وضعت نفسها فى هذا الموضوع • • وجاءت بما لا يستقيم فى عقـل أو يستسـاغ فى منطق • وزادت من شقـاء الانسـان وحيرته • • وصـاغت لـه المعانى صياغة معقدة • • أما الأديان فانها تقدم المعرفة عن هذه الامور فى بساطة ويسر وبطريقة سهلة مقبولة • • وبصيغة نهائية لا تقبل شكا أو جدلا • •

ولو ترك النـاس لعقولهم ـ على المدى الطويل ـ لانعكست الحقائق فى عالمهم ـ وضلت تصوراتهم ضلالا بعيدا • •

أما ترك البشر من غير رسالة لمدة معينة • • فقـد حـدث بالفعل ـ وقـد يكون من وراء ذلك حـكمة أعلى من ادراكنا • • وأكبر من عقولنا ـ فان الانسـان عندما ينصهر فى جـو القـلق والحيرة والشك فى تلك الفترات الخاطفة من عمـر التاريخ • •

يدعوه ذلك الى استخدوام عقله واستعمال فطرته ـ والاستضاءة بفكره ـ وهى عناصر من نعم الله ـ وأفضاله لها نصيبها من ادراك قيم الخير والشر ٠ ٠ وهو نصيب يكبر أو يتضاءل تبعاً لاستخدام هذه الطاقات وشحذ قواها ونفض الغبار عنها واستعمالها فى الادراك والفهم :

قد يكون هذا ـ هو بعض مراد القدر الالهى من ترك الناس فى فترة زمنية دون رسالة أو رسول ٠ ٠ لتتحقر فيهم قوى التفكير المهملة وتتحرك طاقات الوعى المعطلة !! ولكنه ـ جل جلاله ـ لا يترك البشر لأنفسهم طويلا ٠ ٠ الا ريثما يعرفون قدرهم ٠ ٠ ويدركون حجمهم ـ ويقدرون مدى احتياجهم لعون الله وهدايته ٠ ٠فاذا استقرت هذه الحقيقة فى وجدانهم ـ جاء فضل الله ـ كما يجئ الغيث المبارك الى أرض ظامئه ـ طال تشوقها الى السقى ـ وتشوقها الى السقى ـ وتشوقها الى الماء ٠ ٠ فتكرع من هذا الفيض الغامر لتزدهر وتخصب ٠ ٠ وتنبت شتى الأزاهير ٠ ٠ وتتحول الى بستان نضير ٠

وهكذا الانسانية قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ٠ كانت الجاهلية تلفها من كل جانت فى الفكر والتصور ، فى السلوك والعمل ، فى العقيدة والعبادة ٠ ٠ حتى لقد عبدت البشر من دون الله ٠ ٠ كانت هذه الانسانية تضرب فى تيه العماء ٠ ٠ وكانت مشوقة الى رحمة الله تنقذها من ضلال ـ وتريحها من كلال ٠ ٠ وترد عليها انسانيتها وكرامتها ٠ ٠ فلم يطل ترقبها وانتظارها طويلا بعد أن بلغت ما بلغت من الانحلال والضياع ٠

واذما تجلى الله عليها فبعث اليها محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا من نفسها ـ ونبيا من جنسها ـ تعرف حياته

كلها ــ وتقدر فضائله جميعها ‥ وتراه بعينها بشرا يغـدو ويروح له من صفات الكمال والنبل ما يعلى شأنه ـ ويعظم قدره ‥ ويجعله معروفا « بالصادق الأمين » وبهـذا يطمئن قلبها الخائف ــ ويسكن فؤادها الواجف ـ وتستمع الى مـا يصدر عنه بكل الاجلال والتوقير ‥ وتأخذه بمنتهى الانقياد والطاعة ‥

رسول من أنفسكم :

والى هذا يشير الحق تبارك وتعالى بقوله : [لقد جاءكم رسول من أنفسـكم عزيز عليه ما عنتـم ــ حريص عليكم ــ بالمؤمنين رءوف رحيم (١)] ٠

فهذه الآية الكريمة من كتاب الله ‥ منارة تضىء فى ظلام الحياة التى شفها الفسوق وهدها الظلم‥ وأوهنها الطغيان‥ ومزقها الفساد ، ولفها الظـلام ‥ وستظـل مرفأ الأمن كلما اعتكرت الظلمات ، وران على الدنيا ظلم وظلام !! ستظل عامل الانقاذ لهذه الأمة المسلمة كلما انحرفت عن منهج الله ــ وهدى رسوله ‥ تجد فى العودة الى تعاليم ذلك الرسول ما يردهـا الى الكرامة والأمن ‥ ويثبت زمام الحضارة فى أيديها !!

ولنتأمل لحظات فى ايحاء هذه الآية وما تمنحه من عطاء !!

« أولا » : قـوله سبحانه : [لقـد جاءكم] فيـه تكريـم للانسانية ــ ورعاية لحقها فى الهداية ــ ومغالاة بخصائصها ــ حيث جاءها الرسول صلوات الله عليه ‥ ساعيا الى هدايتها ــ داعيا الى رشـدها وكرامتها ــ باذلا أقصى الجهـد ليحفظ عليها قيمتها كيلا تتبدد فى ظلام الجهل‥أو تضيع فى ركام الجاهلية ‥ أو تتلاشى فى ظـلال البغى والطغيان ‥

---

(١) آية ١٢٨ سورة التوبة .

والتعبير بقوله سبحانه « جاءكم » يعطى كل هذه الايحاءات .. فهو صلوات الله عليه قد جاء الى الانسانية المعذبة ـ على قدر وموعد .. دون أن تجىء هى اليه .. نعم جاءها رسولا من رب العالمين .. يحقق لها من وسائل العيش الكريم ، ودواعى الأمن والسلام ، ومقتضيات الكرامة والعزة ما هى فى أمس الحاجة اليه .. حيث كانت مهددة مضيعة فى كل مكان من أرض الله الواسعة .. تحس بالتمزق والفراغ ـ وتستشعر اليأس والمذلة .. وتعانى من القهر والاستعباد مالا يدخل تحت حصر .. وبينما هى فى ذلك الجو الخانق ـ واذا برحمة الله تتجلى عليها فتبعث اليها بالهداية الراشدة .. التى تعصمها من كل فساد وشر .. فهو الرحمة المهداة ـ والنعمة المزجاة الى البشرية جمعاء فهى لم تبحث عن القيادة التى تلتف حولها ـ ولم تتكلف مشقة السعى اليها .. ولا مؤنة السؤال عن حقيقة أمرها .. ولا التدقيق فى المنهج الذى جاءت به .. لم تتحمل المشقة فى شىء من ذلك .. وانما جاءتها الهداية الراشدة .. بالمنهج القويم من لدن رب العالمين !!

فأية قيمة للانسان أغلى من تلك القيمة !

تجيئه الرسالة الكريمة ساعية اليه .. لتبحث عن مواطن الخلل فى كيانه ـ وفى العالم من حوله فتصلحها بيد الله ـ ومنهج القرآن .. ودعوة الحق ..

وتلك هى أسمى مظاهر الاعتزاز .. ومن هنا تبرز القيمة العليا للبشرية .. وأنها كريمة على الله .. لا يجوز أن تستذل بالظلم ـ أو تستعبد بالبطش ، أو تزدرى بالتحقير .. ولطالما لقيت الانسانية قبيل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم من ذلك الاذلال والامتهان .. وان أية حضارة لا تحترم خصائص الانسان لا يمكن أن تخلد ولا أن تعمر لأن الانسان أهم ركن فى بناء الحضارة .. وهو عزيز على الله بالاستخلاف ..

ولقد حرص صلوات الله وسلامه عليه ـ أن يكتسب ثقة الانسانية من أول لحظة ٠٠ لا بالخداع والغش ٠٠ بل بالحرص البالغ على هدايتها ـ والنصح الكامل لها ـ والسعى الدائب لاستنقاذها من الظلام ٠٠ وبادله أصحابه أرق المشاعر وأنبل الأحاسيس وقدموه على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ٠ وبهذه الثقة المتبادلة تم تشييد الصرح الحضارى على أساس من الوعى الدقيق ـ والحب العميق ـ والطاعة الفاهمة ٠

وما يزال التاريخ حتى اليوم حائرا فى فهم تلك الثقة التى تررزت فى كل الميادين ٠٠ حتى لو كلفتهم أن يضحوا بأنفسهم ٠٠ ويقف المستشرقون بالذات أمام حجم هذه الثقة موقف المذهولين ٠٠ يجىء أصحاب الرسول من الجهاد الشاق ـ ليوجهوا الى جهاد أشق للتو والساعة فلا يتخلف منهم أحد ، ولا يشذ فرد واحد ٠

ويضرب الصديق من أعداء الله ضربا مبرحا يسلمه الى الاغماء ـ ويحمل الى بيته ـ ويعتقد عتبة بن ربيعة ومن معه من زعماء الشرك أنه قد مات لا محالة ٠٠ حتى اذا استفاق شيئا ما آخر النهار تكون أول كلمة ينطق بها : ما فعل رسول الله ؟ ويرفض أن يتناول طعاما أو شرابا حتى يعرف ما فعل رسول الله ؟ وحين يجاب الى سؤاله بأنه سالم صالح لا يكتفى بذلك بل يصر على أن يذهب بنفسه ـ وهو فى تلك الحالة ليطمئن عليه ٠٠ ويخرج بين أم جميل بنت الخطاب ـ وبين أمه ٠٠ الى دار الارقم بن أبى الارقم ـ حتى يدخل على رسول الله ٠٠ وحين يطمئن عليه ـ يعود صحيحا معافى ويتناول طعامه !!

وهذا خبيب رضى الله عنه ـ يرفعه المشركون على الخشبة ويمعنون فى تعذيبه ٠ ويقولون له أتحب أن محمدا مكانك ٠٠

فيجيبهم لا والله العظيم ·· ما أحب أن يشاك بشوكة فى قدمه ليفدينى بها ·· فيضحكون عليه ويتركونه ·· أى أن خبيثا يؤثر أن يظل على ما هو عليه من الصلب على الخشبة ·· ولا يشاك محمد بشوكة !!

وامرأة من الأنصار تخرج يوم أحد وقد قتل أبوها وأخوها وزوجها ·· فلا تسأل الا عن رسول الله قائلة : ما فعل رسول الله ؟ فيقولون : خيراً فتقول : أريد أن أنظر اليه فلما اطمأنت عليه قالت : كل مصيبة بعدك جلل !! « أى يسيرة » ··

ولو ذهبنا نستقصى دلائل التفانى فى الحب ـ لفاتنا الاستقصاء · فلقد وضعه أصحابه فى قلوبهم وعيونهم وحل منهم محل الروح ·· فكان الواحد منهم لا يطيق أن يحرم من مجلسه ساعات ·· ومصدر تلك الثقة يكمن فى قوله سبحانه : [لقد جاءكم رسول ·· الخ] ·

لقد بادلوه حبا بحب ووفاء بوفاء ·· ونجلت هذه الثقة فى أحرج الظروف ·· ويأبى الايمان الا أن يكون تضحية وحبا وبذلا لله وفى الله !!

والخطاب فى قوله سبحانه : [لقد جاءكم] للعرب لأن رسالته بدأت فيهم ـ وانطلقت من أرضهم ·· وقد اتخذ صلوات الله عليه من ذلك منطلقا عاما لهداية البشرية جمعاء لأن رسالته شاملة لا تقتصر على العرب ·· وانما تنساح فى بقاع الأرض ·· كما هو الواقع التاريخى لتلك الدعوة ·· فقد اتخذ منها نواة لبناء حضارة عالمية تقوم على الايمان والعلم ·· وتتجلى خصائصها الربانية للعالم بأسره ولطالما هتف فى البشرية النائمة بقوله : [يأيها الناس انى رسول الله اليكم

جميعـا الذى له ملك السمـوات والأرض لا اله الا هـو يحيى ويميت (١)] • فهى بذلك رسالة ذات أفق عالى ••

« ثانيا » تأمل معى قوله سبحانه : [لقد جاءكم رسول] يتضح لك أن القيادة الحضارية ـ لا تكون ذات أثر فعـال فى دنيا الناس ـ الا اذا كانت ربانيـة على شكل رسالة ساميـة تحمل أزكى التعاليم عن رب السماء •• وبذلك تتوفر لها دواعى الثقة •• وتتضح أمامها معالم الطريق •• وتتجـلى منـاهج الاصلاح •• وتتقبل البشرية منها كل ما تنقـله عن الوحى ، وما تحدث به عن الله ويكون لهذه القيـادة أثرها فى احـداث تغييرات نفسانية فى المجتمعات الانسانية •• تشبه التغييرات التى حدثت فى الطين بعد النفخ فيه من روح الله ••

وتتميز مانهج النبوات بمقدرتها الفذة على التغيير سواء فى داخل النفس أو فى خارج المجتمع وهم يتخذون من الأول منطلقا الى الثانى •• لأن النفس اذا زكت من الداخل ـ استطاعت أن تبنى من الخارج ـ وأن تنشر الصلاح والاصلاح فى البيئة من حولهـا ••

وعندما يتم بنـاء النفس من الداخـل ـ على أساس من الفضائل والمثاليات ـ فانها تغدو أصيلة ذات صبغة ثابتة لا تتلون ـ ولا تتغير ـ ولا تتقلب تبعا للمصالح والشهوات ••

وهذا هو المنهج السديد فى التربية •• لابد من ربطه بالعقيدة لينشأ عن ذلك قوة تهيمن على وساوس النفس واتجاهاتها • ولا تصبح قشوراً ملصقة تسـقط فى مضطرب الريح •• أو ألواناً باهتة تذهب فى ضوء الشمس •• أو خداعا ولؤماً تلبس زى المصلحة •• ومن هنـا فان لقيـادة الرسل •• أثرا ضخما فى

---

(١) آية ١٥٨ سورة الأعراف .

تحويل الحياة ــ و احداث التغيرات فيها .ولقد جاء محمد[صلعم] الى الناس ٠٠ وكل شيء فى الحيــاة فاسد ٠٠ وكل أوضاعهــا مقلوبة وكل فجاجها ظلام ٠٠ فما لبث أن صنع بالتربية المثالية رجالا أحراراً صادقين ثم انطلق بهم فى رحاب الحياة يصــلح الفاسد ٠٠ ويقوم المعوج ٠٠ وينشيء التقدم ٠٠ أى أنه بــدأ الاصلاح من نقطة محددة ٠٠ وهى « الانسان » وبعد أن استوثق من بناء الانسان ٠٠ سهل أمامه اصلاح الحياة ٠٠

ولا شك أن النفس الفاضلة تشيع الفضل فيما حولها من الأرجاء ٠ وتصنـع الكمال للحياة والاحياء ٠٠ والقاضى الفاضل يكمل نقص القانون بعدله وفضله ٠

أما النفس الفاسدة فانها تفسد الحيــاة من حولهــا ٠٠ وتميل بالقوانين مع شهواتها ٠٠ وتستغل كل شيء لمصلحتها ٠

ومن هنا فان علينا ــ أن نبدأ فى عملية البناء الحضــارى بالانسان نكون ضميره وأخلاقه وفضائله ٠ ٠ ثم نطلقه ليعمل بهــذه القــيم النظيفــة ٠ ٠ ولا يتم ذلك الا بمــنهج الله الذى استودعه كل ما تحتاجه حياة البشر ــ ومصالح العباد ٠

كل ذلك توحيه كلمة « رسول » لأنها تحــدد منهج العمل الحضارى ٠ فهو منهج ربانى ٠ ٠ وليس منهجا من وضع البشر لأن الرسول لا يقود البشرية الا بمنهج الله ٠ ٠

كما أن هذه الكلمــة توحى الثقة ٠ ٠ وأى ثقــة أسمى من الثقة فى رسول رب العالمين ٠ ٠ وحين تتم الثقة فسيتم النفع ــ ويحدث التغيير ٠ ٠ ويوم تنعدم الثقة فــلا أمل فى اصلاح ٠ ٠ مهما كثرت الدساتير ٠ ٠ والقوانين ٠ ٠

وتوحى الكلمة أيضــاً ٠ ٠ بالبصيرة فى الاصلاح ٠ ٠ لأن منهجا يضعه رب العباد لابد أن يكون مستوعباً لكل احتياجات البشرية ملبيا لجميع مطالبها ــ محققاً لسعادتها وأمنها ٠ ٠

كما توحى كذلك بالالتزام ٠٠ لأن الرسول القائد لا يملك من أمر هذا المنهج الا أن يسهر على تطبيقه ـ وتنفيذه ٠٠ والارتباط به ـ لا يخرج عليه ولا يزيد فيه ٠٠ تلك كلها ايحاءات طبيعية تمنحها كلمة « رسول » فى الآية الكريمة ٠٠

« يأيها الرسول بلغ ماأنزل اليك من ربك ـ وان لم تفعل فما بلغت رسالة (١) » ٠

« ثالثاً » لنتأمل معاً فى قوله سبحانه : [من أنفسكم] ولنتدبر ايحاءها ٠٠ فماذا تعنى ؟

يقول أبو السعود فى تفسيرها : [من جنسكم عربى قرشى مثلكم وقرئ بفتح الفاء ـ أى أشرفكم وأفضلكم] ا هـ ٠

وأقول : هذا تكريم جديد للبشرية اثر تكريم ٠٠ وتقدير لخصائصها بعد التقدير السابق ـ ورحمة حانية عليها ـ ونعمة سابغة عليها لا يمكن وصفا بحال ٠٠ ذلك أن القياة الحضارية لم تجئ غريبة عليها ـ ولا بعيدة عنها ٠٠ وانما جعلها الله رسولا من نفسها ونبياً من جنسها تعرف حياته كلها ـ وتقدر فضائله جميعها وتراه رأى العين يغدو ويروح بينها ٠٠ بما يتحلى به من صدق وأمانة وشرف ونبل وتواضع وبما يحظى به من محبة واجلال ٠٠ لقد لقب قبل البعثة بالصادق الأمين ٠٠ وتبنى المكرمات النبيلة « كحلف الفضول » الذى كان يقول عنه بعد النبوة : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ماأحب أن لى به حمر النعم » ومن ثقتهم به أن حكموه فى أخطر قضية تهدد وجودهم وهى مسألة وضع الحجر الأسود وماأخذوا عليه نقيصة قط ٠٠ ولا مغمزاً فى خلق أو سلوك ٠٠

---

(١) آية ٦٧ سورة المائدة .

فاذا جاءهم هذا الذى عرفوه واطمأنوا الى أخلاقه رسولا من رب العالمين ٠٠ فسيأنسون به ـ ويطمئنون اليه ٠٠ ويقبلون عليه ٠

وكلمة من « أنفسكم » تحمل معنى التمازج ـ والتعانق ـ والوحدة فهو قطعة منهم وبضعة من نفوسهم ٠٠ ومن ثم فهو لن يغرر بهم ولن يخدعهم ـ ولن يضللهم ٠٠ وهل يخدع الانسان نفسه ؟ ! ٠ واذا كانت الوشائج متينة والروابط أصيلة الى هذا الحد فلن يطول بحثهم عنه ـ ولا تعرفهم عليه ـ ولا يجهلون منزلته وفضله :

ولهذا كان من رحمة الله الكبرى أن يكون الرسل الكرام من بيئات أقوامهم [والى عاد (١) أخاهم هودا ـ والى مدين أخاهم (٢) شعيبا ـ والى ثمود (٣) أخاهم صالحا] ٠

انه الرفق بالبشرية ـ على امتداد التاريخ ٠٠ حتى لا تتورط فى الضلالة !! ٠

ومن هنا كان لابد أن تكون القيادة الحضارية من قلب المجتمعات التى تعمل فيها ـ لا أن تكون طارئة عليها لأن ذلك ٠٠ أدعى الى النفرة منها وعدم الانقياد لها ٠٠ أو على الأقل فانه يدعو الى تكلف المشاق فى البحث عن (هوية) القيادة وأخلاقها حتى يتم الأخذ عنها ٠٠ والثقة بها ٠

واذا كان الرسول عربيا ـ وكان القرآن عربيا ـ فان مجال دعوته وساحة حضارته هو العالم بأسره ٠٠ وليس المسنم

---

(١) آية ٦٥ سورة الأعراف ٠

(٢) آية ٨٥ سورة الأعراف ٠

(٣) آية ٧٣ سورة الأعراف ٠

العربى أكرم على الله من مسلم أعجمى ٠ ٠ لأن التفاضل فى الاسلام وعند الله ٠ ٠ ليس باللون ـ ولا بالعرق ـ ولا بالجنس ـ بل بالتقوى والعمل الصالح ٠ ٠ « ليس لعربى فضل على عجمى ٠ ٠ ولا لأبيض فضل على أسود الا بالتقوى » « وان أكرمكم عند الله أتقاكم (١) » ٠ ٠ ولن تستطيع أية حضارة بشرية أن تدعى ـ مجرد ادعاء ـ بأنها عالمية لأنها تتهم فوراً بالاسراف والجهالة والادعاء ٠٠ اذ كيف تجترىء على أن تدعى لنفسها وضع منهج حضارى يلائم الحياة كلها والانسانية جميعها ؟ !

انه لن يقدر على ذلك الا رب الانسان ٠٠ الذى شاءت ارادته أن يحقق ذلك بالفعل على يد محمد « صلعم » لتظل تجربته قمة سامية فى أفق الانسانية ترنو اليها بالنظر الرغيب ٠ ٠ لتحاول الوصول اليها ـ أو الاقتراب منها ٠ ٠

ويوم يتم تنفيذ المنهج ٠ ٠ فسيتم لا محالة تحقيق هذا النمط من الحضارة !!

ان كلمة « من أنفسكم فى الآية » تشع كل العواطف الانسانية النبيلة التى تمنح الثقة فى الداعية ٠ وتجذب القلوب نحوه وتعطف الأفئدة عليه ٠ ٠ وهل يسع الانسان الا أن يثق بنفسه ـ ويقبل عليها ـ ويكرمها ؟ !

انها بهذا التصور كلمة ذات حساسية عاطفية ترمز الى فضل الله على الانسانية وتحفز الى حسن الاقتداء والامتثال !!

والقراءة الثانية « من أنفسكم » بفتح الفاء من النفاسة ٠٠ أى أن الرسول من أنفس القوم وأفضلهم وأشرفهم ـ وهذا حق ٠

---

(١) آية ١٣ سورة الحجرات ٠

وانه ليوحى مع مامر بأصول « القدوة » أى أن القيادة ـ لابد أن تكون « قدوة » لتتعلق بها القلوب ٠٠ وتألفها النفوس وتتمثلها فى العمل والسلوك ، وتقلدها فى كل مايصدر عنها ٠

ولعل هذا هو السر فى اخفاق القيادات البشرية لأنها لم تكن « قدوة » يوما ما ٠٠ والرسول لا شك قدوة رفيعة ٠٠ وانه ليحمل وساماً رفيعاً من رب العزة والجلال تتضاءل أمامه كل الأوسمة وذاك هو قوله سبحانه يخاطبه : [وانك لعلى خلق عظيم] ٠

والبناء الحضارى اذا لا يترك للظروف بل لابد من القيادة٠ التى تتوفر لها « القدوة » ٠

« رابعاً » : قوله سبحانه : [عزيز عليه ماعنتم ـ حريص عليكم ـ بالمؤمنين رؤوف رحيم وتلك كلها صفات تحمل فى مطاويها صدق الداعية ـ واخلاصه فى هداية قومه ـ وحرصه على ايمانهم ورحمته بهم ـ ورقته معهم ٠٠ وهكذا تكون القيادات !!

وتأمل معى قوله سبحانه : [ماعنتم] أى وقعتم فى العنت أى المشقة والتعب ٠٠ فالرسول بهذا التصور الرائع ٠٠ يحمل من العواطف الكريمة للبشرية مايجعله دائماً يضن بها على الحرج ، ويحول بينها وبين المشقة ٠٠ انه لا يدفع بها الى المهالك ، والحروب ، ليتخلص منها كما تفعل الدول الحديثة اليوم ٠٠ وكما فعلت القيادات التى سيطرت قبل النبوة ٠٠ فقد ثبت أن البشرية كانت قد هانت عليهم ـ فدفعوا بها الى حروب لا هدف لها ٠٠ ولا غاية وراءها سوى السيطرة والتسلط ـ وسعة الملك وقوة النفوذ ٠٠ ومنهم من كان يزج بالجنود

فى الحروب ليتخلص من خطرها ونفـوذها ٠ واليوم حين نرى حروب العالم الحديث نرى أنها لا تخـرج عن ذلك ٠ ٠ والآية تؤكد لنا أن الرسول ـ كان رحيما بالانسانية ـ حريصـا على أمنها وسلامتها ـ لا يدفعها لحروب شيطانيـة ٠ ٠ بل لاحقاق الحـق وازهاق الباطـل ٠ ٠ ويمضى معها قـدما الى المعارك وساحات الجهاد ٠ لتتعلم منه الحرب والسلم معا ٠

وهذه الآية ـ يوضعها فى آخر سورة التوبة ـ انما تأتى فى السياق بعد آيات القتال والجهاد فى سـبيل الله ـ لتبرز هذا الجانب الهـام ٠٠

وقد نفهم من عموم قوله « ماعنتم » مع مامر ـ أن الرسول كان حريصاً على استنقاذ البشرية من العنت والارهاق والمذلة التى كانت عليها قبلُ مبعثه ٠ ٠ وأى عنت أشق من أن تمتهن كرامة الانسان ـ وتحتقر آدميته ـ وتستعبد ذاته ـ فيسجـد للبشر ـ والحجر ـ والشجر ؟ ! ٠

فالآية بهذا التصور ـ توضح لنا ما كان عليه البشر قبل محمد صـلوات الله وسلامه عليه من مأسـاة البعـد عن الله ـ والخضوع للبشر وهى مأساة تهدد البشرية فى قيمتها الرفيعة التى منحها الله اياها ٠٠

وقوله سبحانه : [حريص عيكم] تؤكد المعاناة الشاقة ، والتجربة القاسية ، التى مارسها محمد صلوات الله عليه فى سبيل هداية قومه ٠ ٠ لأن هذا الحرص ، على هداية الانسانية يستتبع بذل أقصى الطاقة لتحقيق الهدف المنشود ـ ولقد بلغ الرسول فى ذلك درجة عالية جـعلت ربه يهدىء قلبه بقـوله : [لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ـ ان نشأ ننزل عليهم

من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين (١)] وبقوله : [ان عليك الا البلغ (٢)] ·

ويقول : [وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين (٣)] ·

ويقول [ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء (٤)] ويقـول : [فـلا تذهب نفسـك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون (٥)] ·

كل هذا الكم الهائل من آيات التسلية لـماذا ؟

لأنه صلوات الله عليه ـ بما طبع عليه من رحمة ·· بل انه الرحمة المرسلة ـ كان يبذل من قلبه ونفسه وروحه فى سبيل هداية الناس فوق ما يتحمـل البشر ·· فأراد الله أن يرده الى القصد والاعتدال حتى لا تتلف نفسه ·· صلوات الله وسلامه عليك يارسول الله هذا الايحاء كله يمكن أن يستفاد من الآية ·· وكم للقرآن من ايحـاء واسـع ودقيق يمنـح الدلالة ـ ويعطى الثمرة ـ ويحفز الطاقات !!

هذا ـ وماأحب أن أقف بالآية الكريمة عند الدلالة الضيقة للفظ فأجعل كل مراميها للعرب ·· ولكنى أفهم ـ بأن الخـطاب أن يكن للعرب فلأن رسالة محمـد قـد بدأت فيهم ·· ولكنها كانت نواة مباركة للحضارة العالمية ··

وكذلك لا أحب أن أقف عند المعنى الضيق « للعنت » وانما أجعله شاملا لـما يقوله المفسرون من مشقة الجهاد ومن العنت الذى كان يسود العالم قبل محمد ـ وبما بذله الرسول الكريم فى سبيل ذلك من جهد كبير ··

---

(١) آية ٣ سورة الشعراء ·
(٢) آية ٤٨ سورة الشورى ·
(٣) آية ١٠٣ سورة يوسف ·
(٤) آية ٢٧٢ سورة البقرة ·
(٥) آية ٨ سورة فاطر ·

نعم : لقد جاء محمد صلوات الله عليه يحمل مدنية العالم كله ـ وحضارة الحياة كلها ـ وسعادة البشر أجمعين ـ فكان « تمدين » العالم مناط رسالته وجوهر دعوته وأساس هدايته ـ وهل يتم ذلك الا برسول ومنهج ؟ !

قـيادة ومنهـج

لا يمكن لحضارة القرآن ـ أن تتحقق فى دنيا الناس الا بقيادة حكيمة ـ ومنهج رشيد ٠٠ وغاية هذه الحضارة : اسعاد البشرية ـ وتوجيهها وجهة ربانية ٠٠ لتعبد الله وحده ، وتحيا قوية منيعة ٠٠٠ وقد تم بالفعل تحقيق هذه الحضارة ، وقيامها على يد القيادات الكريمة المؤيدة بالوحى فقد انحصرت القيادة الكريمة المؤيدة بالوحى فقد انحصرت القيادة كلها فى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته ٠٠ فكان قائداً دينياً ٠٠ وسياسيا ـ وعسكريا ـ واداريا ٠٠ ووجدت هذه المهام فى شخصه النبيل مجالا خصباً فازدهرت وآتت أكلها وقد استعان بأصحابه الذين رباهم على نهج القرآن ـ وتعهدهم بروحه فحولهم الى « قيادات » لا صلة بينها وبين نفسها أولا الا فى الجسم ٠٠ نعم لقد أصبح أبو بكر وعمر وعلى وعثمان والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص ـ وأبو عبيدة عامر بن الجراح وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وبلال وعمار وصهيب وغيرهم ـ أصبحوا خلقا جديداً بعد أن صبهم الرسول المربى فى قالب القرآن وصاغهم صياغة فريدة ٠٠ وخلق منهم شخصيات عالمية لا يستعصى عليها شىء من شئون الدين أو الدنيا فهم زهاد ، وعباد ، وقادة ، وعلماء ، وفقهاء ، ومحدثون ، وسياسيون ، ومحاربون ٠٠ لا تعدم فيهم صفة من صفات الجلال والعظمة ٠٠ وتلك معجزة القرآن وعجائب آثاره فى

التربية ٠ ٠ ٠ لقد صـــار أبو بكر مثلا بهذه التربية القــرآنية رجل حكم وأمير المسلمين ورأى التاريخ منه العجب ، حين ضرب بيد قوية على حركة الردة ـ ونهض بأعباء الحكم بعد الرسول كأحزم مايكون الخليفة ٠ ٠ ووجــه الجيوش الاسلامية لتأمين الحدود وقمع التمـرد ٠ ٠ ٠ فأين كانت تلك المواهب قــبل أن يمسها الرسول بتربيته الفريدة ؟ !

وهذا عمـر بن الخــطاب ـ الذى كان يرعى الابــل لأبيه الخــطاب وينهره ٠ ٠ ٠ ويمضى بين أقــرانه فلا يعملون له أى حساب ٠ ٠ ويبدد قوته فى العصبية والخـمر ٠ ٠ اذا به بعــد التربية النبوية يفجأ العالم كله بذلك النمط الفريد من الحكام ٠ فيؤسس الدولة الاسلامية ـ ويقهر كسرى وقيصر ، ويبتكر من النظم الادارية مايكون معجزة عصره ، ويحقق العدالة فى ربوع هذه الدولة الواسعة ٠ ٠ ويسير الجيوش ويخطط لها ٠ ٠ وترتفع سمعته ومكانته حتى يغطى على كل حكام الدنيا وعظمائها ٠ ٠

فأين كانت تلك المواهب ؟ وهذا خالد بن الوليــد لم يكن له من أثر فى بيئته الضيقة الجاهلة سوى أنه فارس القبيلة ٠ ٠ كل مواهبه الحــربية محصــورة فى ذلك النطاق المحلي ـ لكن التربية النبوية حين تعهدته وصقلته سلطت عليه الأضواء ٠ ٠ فبرز سيفاً لامعاً من سيوف الله لا يقوم أمامه شىء الا حصده ٠ ٠ ورأى التاريخ منه عجــائب القيادة العسكرية ٠ ٠ فسجــل له أروع الصفحات ٠

وسلمان الفــارسى كان ابنا (لموبذان) فى احــدى القــرى الفارسية ٠ ٠ ثم أخذ يتقلب فى الرق والعبودية اذا به يفاجىء أمته حــاكما جليلا لعاصمتها ٠ ٠ وقــد كان الى الأمس القريب راعيا من رعاياها ويظل بعد ذلك المجد على ورعه وزهادتــه لا يغيره المنصب ولا تخدعه الوظيفة لأنه صناعة قرآنية ، وبلال

الحبشى .. يبلغ فى الفضل مبلغاً يجعل عمر بن الخطاب يلقبه بالسيد .. ويصبح وزير اعلام الاسلام .. فيصدح بصوته الندى من فوق الكعبة مؤذنا بنهاية عهد الجاهلية وابتداء عهد الاسلام ، وهذا سالم مولى أبى حذيفة ، يتمنى عمر وهو يجود بأنفاسه أن لو كان حيا لاستخلفه فيقول :

لو كان سالم حياً لاستخلفته ..

وغيرهم ـ وغيرهم من نأخذ ومن ندع .. وهم فى الفضل حلقة مفرغة .. تحولت بقدر الله الى معجزات التاريخ ـ وقيادات العالم كله .. فسدوا كل نقص ـ وملأوا كل فراغ .. ونهضوا بما أسند اليهم من الأعمال بكل كفاءة واقتدار ..

وكان منهم الحكماء الذين تتفجر البلاغة من جوانبهم .. وينصت التاريخ لآرائهم .. وتستجيب الدنيا لتوجيههم .. لأن محمداً الرسول رباهم على عينه .. !!

وهكذا ـ فى حياة الرسول .. كان عمله بناء الرجال .. الذين سيقوم البناء الجديد على سواعدهم فلما قبضه الله اليه .. لم يحدث الفراغ الذى يزعزع الأمور ـ ويهزم النظام ـ ويطمع الأعداء لان القيادات التى رباها محمد كانت خليقة أن تسد هذا الفراغ .. ولأن الايمان بالله ساد الموقف فخسعت الاصوات للرحمن .. ثم بويع الصديق .. ومن بعده توالت تلك السلسلة الذهبية من الخلفاء الراشدين الذين قادوا الأمة بمنهج الله ـ ومبادىء الرسول ـ فازدهرت بهم الحضارة القرآنية وآتت أكلها باذن ربها .. والى هذا تشير الآية الكريمة :

« كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد(١) » وهذا الكتاب هو القرآن

---

(١) الآية الأولى من سورة ابراهيم .

الكريم منبع الحضـــارة الخالدة وأساس الهـداية الراشدة ـ ودستور الخير والنور ٠٠ وقد تجلى أثره فى تلك النقلة الجبارة ـ وهى اخراج النـــاس من الظلمات الى النـــور ٠٠ وهى تعنى انقاذهم من براثن الضلال والهمجية والجهالة والوحشية لتزج بهم فى آفاق النور ٠٠ آفاق المدنية الفاضلة والحضارة الكريمة والقيم النظيفة ، وانما يتم هذا الانقاذ ٠٠ وتحدث تلك النقلة « باذن ربهم » أى بارادته سبحانه ومشيئته وبقوانين الحكمة العالية ـ التى تلائم فطرة البشر ـ وتتجاوب مـع أرواحهـم ومشاعرهم ٠٠ مما يكفل لها البقاء والاستمرار صاعدة وصامدة لتظل تعمل عملها فى حياة الناس ووجودهم فالقرآن هو المنهج ـ الذى تجد فيه الحضارة الانسانية كل آمالها ٠٠ وكل مقوماتها ـ وكل قيمها الرفيعة ٠ وكل التجارب الانسانية الواعيــة ٠٠ وكل الخلاصات المباركة للوحى الالهى المـوزع على الأمصــار والاعصار والذى تتحقق بقيادته تلك الملاءمة الدقيقة بين المــادة والروح ٠٠ فهو لجسم الانســان وروحه ـ لمسجده ومجتمعــه ـ لدينه ودنياه ـ لعبادته وقيادته ٠٠ لنظام حكمه ـ وأصـول عبادته ٠٠ لقوانين تشريعه وسياسته٠٠ لنظام حياته كفرد٠٠ ولعلاقاته بأسرته وجماعته ٠

وهكذا لا يدع القرآن مجالا الا ازدهر فيــه ٠٠ فهو كتاب الحياة الخالد ٠٠ تجد متنفسها الطلق فى رحابــه ٠٠ وتذوى زهراتها ـ ويصوح نباتها ان انفصلت عنه ٠٠ وتأبى أحــكام القرآن الا أن تطبق فى رحاب الحياة ٠٠ وتأبى الحياة أن ترشد وتسعد الا بكتاب الله ٠٠ وما الفصلُ بين الدين والسياســة الا بدعة مجرمة تسلطت على المسيحية قديماً لانطوائها على نفسها واعتزالها حياة الناس وجنوحها الى السلبية ٠٠ وفى ظل ذلك العجــز ٠٠ مضت الحيــاة فى طريقهــا لا تلوى على الدين ٠٠ وانفصل العــلم عنها فما يألفهــا ٠٠ لأنهــا قهرته وأفســدته

وسلطت على علمائها الحديد والنار!!٠٠لكن الاسلام لا ينسحب من الحياة الا مرغماً ـ ولا يشجع العلم فقط بل يوجبه ٠٠ ولذا كانت سمته الدين والدنيا ٠٠ العلم والعمل !!

وفى قوله سبحانه : [الى صراط العزيز الحميد] ايماء الى أن سبيل الحضارة الراشدة هو طريق الله طريق العزيز الحميد بكل ما يتطلبه هذا الطريق من بذل الجهد ـ وادمان السعى ـ ومقاومة المعوقات ٠٠ وانما تتم الاستقامة على هذا الدرب ـ درب العزيز الحميد ـ بهذا الكتاب الذى أنزله الله على رسوله ـ وبغيره لا تتم هذه الاستقامة ـ وانما يحدث الاختلال والاضطراب والانحراف والضلال !!

وقد يحاول البشر ـ كما قدمنا ـ انشاء نظم حضارية ـ أو بتعبير أدق ابتكار دستور حضارى يضمنونه كل متطلباتهم واحتياجاتهم ـ وبذلك يستقيمون على طريق الحضارة كما فعلت وتفعل بعض الأمم قديماً وحديثاً ٠ ٠ ونحن نؤكد ٠ ٠ بأن قوانين البشر ناقصة كما أن عقولهم ناقصة مهما بلغوا من العلم ـ لأنهم لم يعرفوا ذلك الانسان حق المعرفة ـ حتى يضعوا له ذلك الدستور الذى يلائم روحه ـ وعقله وطاقته واستعداده وفطرته وميله ويلبى كل هواتفه ونوازعه وأشواقه ٠ ٠ لأن الانسان كائن معقد وجهاز مركب ٠ ٠ ماخفى من أمره أكثر مما ظهر ٠ ٠ كل عصب من أعصابه ـ بل كل خلية من خلاياه فى حاجة الى تحليل ـ حتى تعرف معرفة دقيقة ٠ ٠ وأنى للبشر جميعاً بهذا الأمر ؟ ! ٠ ٠ ٠ وهناك عوالم خفية فى الانسان لم يجترىء العلم حتى وقتنا هذا على أن يقول فى أمرها شيئاً ووقف حيالها عاجزاً كليلا فكيف يطمع فرد أو أفراد أو جماعة ـ أو حتى جيل من العلماء ـ أن تضع لهذا الانسان دستوراً حضاريا يلبى كل احتياجاته ومتطلباته ٠ ٠ انه لا يعرف ذلك

الا من خلقه وسواه وركب كل خلية من خلاياه واطلع على سره ونجواه « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير (١) » ٠

على أنه من جهته الواقع التاريخي لم نظفر حتى الآن بقوانين بشرية ـ ولا بنظم حضارية قد كفلت لأصحابها السعادة ٠ ٠ وعلى الرغم مما يبدو فى بعضها من مظهر خادع ٠٠ فانها مصابة بشتى الأمراض والعلل ٠ ٠ ولو ذهبنا نفتش فى سوآت تلك النظم ـ وفى انعكاساتها السيئة على مجتمعاتها لوجدنا مالا يوجد نظيره فى البلاد المتخلفة ٠ ٠ انها لم تورث أصحابها الا الشقاء والحيرة بما تضمنت من مأساة البعد عن الله ٠ ٠ فقد نزعت منهم ايمانهم ٠ ٠ووضعت مكانه ترفا ماديا رخيصاً ـ لا يبل أوام الانسان ولا يروى ظمأ ٠ ٠ لقد أماتت هذه النظم روحه وأحيت شهواته وجعلته حيواناً منطلقاً !! وهكذا يصنع البعد عن الله ٠ ٠ لا نستثنى من ذلك أى نظام بشرى ، شرقى أو غربى ، كله فى الشر سواء !! لأن البشرية فى ظل هذه النظم تسقى بما آسن وملح أجاج !! بعد ابتعادها عن نبع الله الطهور ٠ ٠

على أن هذه النظم ـ من ناحية أخرى ـ كثيراً ما يصاحبها الضعف الانسانى ٠ ٠ الذى يجعلها أداة لخدمة طائفة دون أخرى ولتحقيق مصالح فريق دون فريق ٠ ٠ وهل يصلح البشر بمطامعهم وشهواتهم أن يرتفعوا عن المصلحية والنفعة ؟!

ولنسأل المجتمع الأمريكى الذى يدعى أنه وصل الى قمة الديمقراطية والحضارة ٠ ٠ كيف يجعلون القوانين فى خدمة البيض دون السود ٠ ٠ وكيف يسخرون جندهم فى حروب مجرمة لمجرد اظهار القوة ابراز العضلات ؟٠٠ كيف يتحيزون

٠(١) آية ١٤ سورة الملك ٠

فى ظل هذه الأنظمة للظلم الصارخ ٠٠ فيدعمون الصـهيونية العالمية بالمـال والسلاح والبشر ؟ وهكذا مما لا حصر له !!

أيمكن أن تتصـور فى ظل حضـارة قرآنية مثالب كهذه ؟ أيمـكن أن تكون الحـروب لمجـرد الاستغلال واسـتعراض العضلات ؟ كيف والقرآن يخاطب أصحابها بقوله : « ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين (١) » أيمكن أن تكون القوانين لخـدمة فريق دون فريق ٠٠ كيف والقرآن يخـاطبهم : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقـكم من نفس واحـدة (٢) » ورسـولهم يناديهم : « الناس سواسية كأسنان المشط » ٠

ولقد شهد العالم من عجائب هذه الحضارة ماجعله يتجـه اليها طائعاً مختارا لينعم بالعدل والحرية والاخاء والمساواة ٠٠ تلك المعانى التى كان يسمعها نغما ثم يفتقـدها تطبيقاً ونظماً لقد وجدها فى ظل الحضارة القرآنية حقائق مجسدة يتمثل فيها الكمال الانسانى كله ٠

ان هذا المنهج الالهى هو الذى يرعى خصائص الانسان ـ ويحترم انسانيته ٠٠ وأما ماعداه من نظم البشر فانها تهدر كرامة الانسان وتستعبد روحه وتلغى طموحه وتبدد أشواقـه وتدمر انسـانيته وتمرغ كرامته فى الأوحـال ـ وهل عـرفت الانسان حتى تعترف له بكرامة ؟! انها اما أن تحوله الى آله ـ أو الى حيوان لأنها تجهل طبيعة خصائصه العليا ـ كما تهمل انسانيته حين تجعله عبداً للآلة ـ أو أسيراً للشهوات ٠٠

ذلك بعض مايوحيه التعبير الالهى « كتاب أنزلناه اليك » ٠

---

(١) آية ١٩٠ من سورة البقرة .

(٢) الآية الأولى من سورة النساء .

من خصـائص البعـث الجـديد

يمكننا فى عجـالة سريعة أن نستنبط من الآية السابقـة بعض خصائص هذا البعث الجديد الذى أحدثه الرسول الكريم فى الحياة ٠٠ فهيأ لها من النظم الحضارية الرفيعة ماعجزت عن تحقيقـه فى عصـور العلم ـ والمدنية ٠٠ وماهى الآن فى أمس الحاجة اليه لتمارس انسانيتها كما أراد لها وبها ، ومن عجب أن تتفجر هذه الحضارة من قلب الصحراء كما ينبجس المـاء الصافى من قلب الصخر ـ لتملأ الحياة خصبا وأملا ٠٠ وتبث فيها أزاهير الربيع وأنفاسه ٠٠ وتغدق عليها من البركة والخير والحركة ما يجعلها أمل الحياة وروحها السارى ونظامها المحكم الدقيق وهذه الخصائص الرائعة ـ لها سمات عامـة وملامـح واضحـة نجملها فى :

١ ـ أن هذا البعث الذى أيقظ النيام وبدد الظـلام وكافح الجهالة لم يكن ممكناً ولا مستطاعاً فى أى تصور أن يتم فى هذا الظرف الوجيز ـ وبتلك السرعة العجيبـة ـ وبهـذا الشمول المستوعب ـ وعلى المستوى العالمى الا بدستور سماوى يضـع مواده الذى خلق الانسان وعلمه البيان ٠٠ وأى حضارة تقوم على ظهر الأرض لابد لها من دستور يخطط وجهتهـا ـ ويحدد غايتها ويوضح مسارها ويبرز خصائصها ومقوماتهـا ، والا كانت حضارة عشوائيـة مضطربة ـ فهـل كان ممكنـاً لذلك الجهل المتفشى فى العالم أن تنقشع سحبه بغير دفعـة الهيـة يمنحها كتاب مقدس لا يتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميـد ؟! وما يزال العـالم كله يعجب العجب كله كيف استطـاع محمد بهـذا الدسـتور أن يفجـر من قلب

الصحراء حضارة عالمية تعايش الانسانيــة و أجمل المــدن ــ وأرقى الحواضر بل تنشىء لها وجوداً حضارياً متميزاً لا يشبهه نظام هنا أو هناك ٠٠ ولا يعتريه خلل فى يوم من الأيام ٠٠ ولا يحتاج الى اكمال نقص ــ أوسد ثغرة أو اضافة جديدة تستدعيها الحياة ٠٠ ولا تبلى نصوصــه ــ أو تهرم فتصــبح عاجزة عن الأداء ــ أو محتاجــة الى الرونق والمــاء كعهــدنا بالنصــوص البشرية حين يتطاول عليهــا الزمن ٠٠ بل العجيب حقــاً ٠٠ أنها تزداد على الزمن جدة ونضارة وتألقاً واستيعاباً لمشكلات الحياة !!

وبهذا الدستور العجيب يبنى محمد والذين معه هيكل تلك الحضارة وهم الجفاة الحفاة رعاة الابل والشاة ٠٠ كيف انتقل هؤلاء بوحى الله ــ وقيادة رسوله ــ الى أئمة وهــداة من رعاة غنم الى قادة أمم من مفاليك وصعاليك قد استعبدتهم شهواتهم ــ الى سادة فضلاء يعلمون النــاس الحكمة ــ ويقودونهــم الى الحق والى صراط مستقيم !! كيف رسموا سياستهم ؟ وبنوا مجتمعهم ؟ وحاربوا عدوهم وعبدوا ربهم وعبروا مــع كل ذلك عن فطرهم البشرية تعبيراً سوياً متزنــاً ٠٠ لم يكبتوا شهوة ــ ولم يعطلوا غريزة ــ ولم يعيشوا حياة خاصة يصعب ترسمها أو الاقتداء بها ــ وانما قاموا وناموا وصاموا وأفطروا وتزوجوا النساء وزكوا أنفسهم بين صخب الحياة وضوضائهــا وبرزوا الى الحياة بكل الطهر ــ وكل النبل ٠٠ لتسطع خصائصهم ــ وتنفح عطورهم ــ فتزدان بهم الدنيا وتنتفع بمواهبهم ابنــاءة وملكاتهم الصنــاع !! نعم لقد عاشوا بشراً من البشر ــ كما عاش نبيهم وقائدهم ــ وتكونت منهم باقة انسانيــة رائعــة لكل زهرة منها عطر ولكل وردة سحر ــ ولكل واحدة مكانة !! تلك معجزات الدستــور الالهى ٠٠ دستور الحضــارة الخالدة التى تستمر وتستقر وتفيض الخير والبركة على الوجود لأنهــا من

وضع العليم الخبير ٠٠ وذلك بعض الايحاء الذى تتركه آيـة [كتاب أنزلناه اليك] ٠٠

٢ ـ قوله سبحانه : [أنزلناه] تترك انطباعاً يقينياً لدينا بسر هذا البعث وقوته ـ ومقـدرته على احداث الأثر القوى فى العالم بأسره ٠٠ وحركته الدافعة التى جددت نسيج البشرية ـ وغيرت مسار الحياة ونقلت العالم نقلة كبرى الى حياة النـور والعرفان والحضارة ـ وذلك لأن دستور هذه الحضارة من وحى السماء وليس من افك البشر ٠٠ ومن الحقائق الثابتة ـ وليس من الأوهام الملفقة ٠٠ انه دستـور « منزل » وليس بملفق ولا مزيف ولا مستعار ولا مستورد ولا نابت من الأرض ولا نابـع من مطامع النـاس ٠ ولا هو نتيجة لجهلهم ـ وقصورهم وضيق عقولهم وعجزهم عن استيعاب الاجيـال والانواع الانسانيـة والحقب الزمنيـة المتطاولة ـ فأهم خاصية لهذا البعث أنه الهى له منهج منزل من السماء ٠٠

وليس معنى هذا أن نعطل الجهود البشرية عن الاجتهـاد والمعرفة والفقـه الدائم لأسرار الكون والحيـاة ٠٠ فان هـذا الدستور يشحذ هذه المواهب ولا يعطهـا بحال ٠٠ ويغريهـا بالبحث والدراسة والجد لتستمر مسيرتها الحضارية فى تطور صاعد وصامد ٠٠ انه يضع البشرية أمام حقـائق التشريع ـ وأصول العقائد ـ وصور العبـادات ٠٠ وأنماط المعامـلات ٠٠ يحل لها الحلال ويحرم الحرام ٠٠ وتلك قواعد ثابتة ٠٠ وأمور لا يدخلهـا التطور ٠ أما مسائل العـلم ـ ووسائل النهـوض بالمجتمع ـ وتطبيقات المعارف الانسانية فهى متروكة للعقـل البشرى فى اطار الأصول والمناهج العامة لهذا الدين ٠

فهنـاك أمور تتغـير مع سير الحيـاة كالنظم السياسيـة والاجتماعية ونتـائج البحث العلمى المثمر ٠٠ فهـذه أمور قد

أعطى الاسلام فيها الاطار العام مع أساس من اجمال ما يتغير مع سير الحياة ·· تاركا للعقل البشرى أن يحدث عملية التكيف مع زمنه ومجتمعه وبيئته ··

وهناك أمور ثابتة لا تتغير كالعبادات ·· والعقائد ·· وتصورات الحياة الآخرة فهذه مسائل ثابتة لا تقبل التطوير·· وبذلك يستطيع الاسلام أن يتقدم بالحياة على أساسين : الآصالة التى تحفظ الشخصية والتجديد الذى يخصب الحياة بالتفاعل المستمر مع الحاضر من أجل غد أفضل ومستقبل أمثل! ··

وبذك يكون الدين جهداً مستمراً يزيد الحياة نماء وبركة ، ويزيد الانسان تقدما ·· ويحطم القيود التى تعوق مسيرته الكريمة نحو الغد المرتقب ·

وقد بذل محمد صلوات الله وسلامه عليه من الجهود الشاقة النبيلة ــ وهو ومن معه من الصفوة الممتازة حتى أخذت المسيرة الحضارية خطها الواضح المستقيم فقد عذبوا وشردوا وتحملوا من المشاق والمتاعب مالا تكفى موسوعات الكتب لشرحه ··

وفى سبيل عقيدتهم ضحوا ببلادهم ــ فتركوها وانطلقوا الى حيث وجدوا البيئة الصالحة لترتيل آيات العفاف والطهر ·· وبناء الدولة الجديدة ·· وهى المدينة المنورة ·

وقد خاضوا هناك معارك ضارية وسقط منهم الشهداء والضحايا ·· انها جهود مباركة قد بذلت ·· لأن المنهج الالهى لا يتحقق بنفسه · بل لابد من جهود تبذل ليصبح واقعاً للبشرية ولكن هذه الجهود التى بذلها محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وخلفاؤه من بعده جهود موجهة وليست جهوداً

عشوائية ·· فهـذا الكتاب المنزل قد رسـم للمسلمين سبيل الحياة الكريمة ـ ووسائل الكفاح الشـاق ـ ومعالم الهـداية الراشدة ·· فهم ان حاربوا فعلى بصيرة ـ وان سالموا فعـلى نور ـ وان باعوا أو اشتروا أو تزوجوا أو مارسوا أى عمل فى الحيـاة فان هـذا الكتاب المنزل يوضـح لهم مسائله ويحدد وسائله ، ولهذا فانه بعث يتميز بالبصيرة ـ والوضـوح ، كل حركة من حركاتـه موجهـة فى خطوطهـا الكبرى من الله رب العـالمين ··

وهكذا يصبح بعث الحياة ونشورها على يد محمد صلى الله عليه وسلم مستمداً من كتاب ثابت ودستـور منزل يوضـح الحقائق ويبين المعالم ـ ويضع الأسس ـ ويعلم النـاس ـ وهو كتاب لا يهمـل ناحيـة من نواحى وجودهم وانما يسـتوعب مطالبهم فى السلم والحرب ، ويلاحق قضـاياهم المتجـددة ، ويضع الحلول السليمة لمشكلاتهم المعقدة ··

وفرق كبير بين أن تقاد الحياة الانسانيـة بمثـل هـذا الدستور الخالد الثابت ـ وبين أن تقاد بالتجارب الانسانية ـ أو الدساتير البشرية التى توقع فى التخبط والجهـل ـ وتفضى الى الشقاء والتعاسة ·

٣ ـ قوله سبحانه [لتخرج الناس] تشير الى الجهد الذى بذله الرسول ومن معه ـ والذى يبذله كل داعية لتحقيق مشيئة الله فى الأرض ـ وهو جهـد يرتبـط بالدستـور المنزل فحقق نتائجه الطيبة وأثمر ثمرته المرجوة ·· وكأنما الآية تشير الى أن هذا الانجاز الحضارى الذى تحقق بهذا البعث تم بأمرين :

الأول : ارادة القـــدر ·

والثانى : جهود البشر ·

وأن الثمرة لا تتحقق الا بهما معا ٠٠ فجهـود البشر مهما تبذل ليست شيئا يذكر ما لم تقترن بالمنهج وتدعمها مشيئة اللـه ٠٠

اذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده والمنهج الخالد ٠ لابد أن يقترن بالجهد البشرى ليتم تطبيقه فى دنيا الناس ٠٠ والا كان مجـرد نظريات لا أثر لها فى واقـع الحياة ٠٠ ولا فى سـلوك البشر ٠٠ وقـيمة أى دسـتور انما تكمن فى تطبيقه تطبيقا حاداً لا هزل فيه وليس فى نصـوصه النظرية ٠

وهذا الكتاب المنزل لا يعمل بطريقة سـحرية تبعـده عن الواقعية وانما يعمل طبقا للفطرة ووفقا لطاقات البشر ــ ونظام الكون ــ وتبعا للجـهود المبذولة مقـترنا ذلك كلـه بتأييد الله وعونه ، واذن فمن خصائص هذا البعث أنه تم بدستور السماء ــ وطاقة البشر ٠

ومن هنا ــ فان هذه التجربة الرائدة التى تحققت بمحمد وبمن معـه ــ يمكن أن تعود اذا تحقق لهـا الجهـد المبذول ــ والارتباط بالمنهج ــ والصدق فى تطبيقه ٠

وذلك لأن التجربة واقعية مرتبطة بشروط ٠٠ ولم تحقق على يد السـابقين بسر الاعجـاز بل بواقـع العمل ــ وصـدق التطبيق والاخلاص فى البذل ٠

٤ ــ قوله سبحانه : [لتخرج الناس] يعطى التعبير أهم خصائص هذا البعث ٠٠ وهو عالميته وعمومه لجميع البشر ٠٠ فليس محمد رسولا اقليمياً ــ ولا قبلياً ــ ولا وطنياً ، ولا لأمة ولا لجنس دون جنس ٠ وانما هو رسول عالمى للناس كل الناس

لا فرق بين أحمرهم وأسودهم وأبيضهم ٠ ولا بين عربيهم وعجميهم ٠٠ ومن ثم فأفق حضارته عالمى ٠٠ للانسانية السادرة فى الغى - السابحة فى بحر الظلمات ٠٠

وهذا يجعله بعثاً فريداً متميزاً على سائر الرسالات السابقة والكتب السماوية الأخرى ، فهى كانت لفئة من البشر فى بقعة من الأرض لمدة من الزمن ٠

ولذا كانت فاعليتها محدودة لأنها لم تزود من الله بما يجعلها عامة شاملة ٠٠

ان بعث محمد صلى الله عليه وسلم يعطى الدفعة الحضارية لكل البشرية المعذبة المعناة ٠٠ ومن خصائص هذا العموم أنه بعث يتجاوب مع العالم بأسره ويهز أعماق البشرية كلها لا فرق فى التعاطف معه بين جيل وجيل - ولا بين جنس وجنس - ولا بين أمة وأمة - ولا بين رجل وامرأة ٠٠ انه للناس جميعاً وصدق الله العظيم اذ يقول : [وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً (١)] ويقول : [لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين(٢)]ويقول : [وما أرسلناك الا رحمة للعالمين(٣)]٠

فأية قدرة نستطيع أن تحقق لدستور ما كل هذه الضمانات ؟ ٠٠ وأية خسارة تصيب البشرية عندما تنفصل عن هذا الدستور ؟ أو تلتمس التقدم فى غيره ؟!

٥ - قوله سبحانه : [لتخرج الناس من الظلمات الى النور] يحدد التعبير القرآنى النقطة التى بدأ منها البعث وهى[الظلمات]

---

(١) آية ٢٨ سورة سبأ ٠
(٢) آية ٧٠ سورة يس ٠
(٣) آية ١٠٧ سورة الأنبياء ٠

والغاية التى انتهى اليها وهى [النور] فهو بعث محدد البدء والنهاية وقد تحقق فعلا وواقعاً كما رسمت الآية الكريمة ٠٠ وتوحى كلمة [تخرج] بالجهد المبذول ٠٠ لأن هذا الاخراج لا يتم الا ببذل الطاقة على نحو ما قدمنا ٠٠ من توفر القوة المنفذة المطبقة المحركة لهذا الدستور ليتحول بالممارسة والعمل الى تجارب واقعية تحقق الحضارة وتصنع التقدم ٠٠ وكلمة [الظلمات] تشير الى الواقع المرير الذى كانت البشرية تعيش فيه ولا تجد كلمة تجمع من المساوىء المادية والمعنوية مثل كلمة الظلمات ٠٠ فهى توحى بالوحشة ـ والتخبط ـ والجهالة والضلال ـ والتيه ـ وغير ذلك مما كانت تعانيه البشرية قبل محمد وهى وحشة جعلت البشرية تعبد الصنم ـ والبشر ـ والشهوة ـ والمال ، والحيوان ٠٠ وتعب من معين الشهوات٠٠ ومن هنا فان كلمة [ظلمات] تحدد أبعاد الجهالة التى كان عليها العالم كله قبل البعثة النبوية ٠٠

وقوله سبحانه : [الي النور] توحى بالأنس والهداية والمعرفة والسعادة وهى كلمة جامعة تحمل فى مطاويها كل خصائص البعث الجديد الذى أضاء فجاج الدنيا ـ وطارد مردة الانس ـ وأبالسة الشر وجهالات الناس وأزاح عن الفطرة ركام القرون البالية ومخلفاتها العفنة ٠٠ فأضاءت بنور الله ٠

ولعلك تلمح أن كلمة [الظلمات] وردت بصيغة الجمع وكلمة [النور] وردت بصيغة المفرد ٠٠ فهل لذلك من سر ؟ ان كلمة [الظلمات] توحى بأن للشر سبلا كثيرة متنوعة وشعاباً مختلفة متباينة ٠٠ انها طرق ابليس وما أكثرها !!

أما [النور] فيشير الى الحق والخير وسائر المعانى الجميلة المضيئة ٠٠ فليس له الا طريق واحد لا يختلف ولا يتعدد ولا

يتباين وما أيسر أن نسلك سبيل الحق ·· انه سبيل الله ··
وسبيل الخير والرشاد ·· ومن ثم فهو مريح واضح مستقيم ·

وما أشق أن نسلك الطرق الى الباطل ·· انها طرق ابليسية ضالة موحشة قلقة ·· تكمن فيها مخاطر الظلام ·· وشروره ·· وما أشد التواءها ·· وما أكثر سبلها وطرقها وما أروع أن نقرأ قول الحق تبارك وتعالى : [وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلك وصاكم به لعلكم تتقون (١)] ··

الأول فى الآية طريق الله المستقيم ·· والثانى طريق الشيطان الملتوى المتعدد المسارب فلنسلك سبيل الحق ـ ولنستضىء بنوره ·· فهو سهل مريح وهو واحد لا يتعدد !!

ولنتجنب سبل الباطل فهو شاق ومرهق ·· تكمن فيه الوحشة والمخاطر والضلال ، والآية توحى بأن الالحاد وعر المسلك لأنه ضد الفطرة فطريقه مظلم عسوف أما الايمان فسهل المسلك لانه تعبير عن الفطرة فطريقه نور وضياء وسبيله سهل مريح وبهذا نعلل سرعة تجاوب الناس مع البعث الجديد لأنه تعبير عن فطرتهم التى طالما امتهنت ـ وتحقيق لكرامتهم التى طالما وئدت ·· ولأن طريقه مستقيم مأنوس مضىء ومن ثم تقبله الناس ـ واجتمعوا عليه ـ والتفوا حوله واستفادوا به وظهر أثره فى الحياة بصورة رائعة ··

٦ ـ قوله سبحانه : [باذن ربهم] يعطى الخاصية الجليلة لهذا البعث وهو أنه ربانى ·· ولولا أنه كذلك لما استطاع البشر أن يحققوه وما ظنك ببعث يتم بمؤازرة اسماء ؟

---

(١) آية ١٥٣ سورة الأنعام ·

ولعل هذا التعبير يضع قضية هذا البعث فى اطارها السليم ·· فهى قضية ــ مهما يختلف الناس فى تعليل أسبابها قد تمت [باذن ربهم] وعندما يأذن الله فلا معوق لجهود البشر ــ لابد أن تصل الى غاياتهــا ·· واذا كان الأمر كذلك فما يجــوز أن يخدع البشر عن أنفسهم ــ ويركبهم الغرور ·· لأنه لولا عناية الله لمــا تم هذا البعث وكأنما هــذا الايحاء لون من التهــذيب الخلقى والتربية النفسية وتعهد للرســول والذين معــه حتى يظلوا مع الله فى كل حركة يتحركونها ــ وفى كل خطوة يخطونها ·· ومع كل ثمرة من ثمرات هذا البعث ·· وأنه لا ينبغى أن يركبهم غرور ولا صلف فيذهلهم عن تلك الحقيقة الكبرى التى لا يمكن للحضارة أن تستمر الا بها ·· تلك الحقيقة هى التوجه الى الله فى كل لحظــة ·· والمستشرقــون الذين ينظــرون الى الأمور على قاعدة الاسباب والمسببات ــ أو المقدمات والنتــائج ·· ولا يلتفتون الى عنصر العون الالهى ·· يعجبــون العجب كله عندما يبحثون فى أسرار هذا البعث ــ وعن نتائجه المذهلة ــ وسرعتــه الخاطفــة ·

يقول ويلز : [لم يعــد التاريخ مصلحاً أيقظ النفــوس ــ وأحيا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة فى زمن قصير كما فعل محمد وقد امتاز بيسر كلامه ووضوح دينــه] وهذا الذى يذكره ويلز صحيح ·· وعندما يذكر الرجل سهولة الدين الاسلامى ووضوحه فلأنه قد عانى من كهانة المسيحية ــ وغموضــها ــ واحتــكار أسرارها ·· وكثرة التأويلات المربكة التى تكسبهــا تعقيــداً وبعــــداً عن الواقــــع ·

أما الاسلام فدين يتميز بوضوح الرؤية وليس فيه كهانة ولا كهان ·· فيه علماء دين ــ وليس فيه رجالُ دين يتعيشــون من الكهانة وينقطعون للدير ··

وذلك من الأسـباب التى جعلت للبعث الجـديد جاذبيـة وجمالا ٠ لأنه يتميز بالبسـاطة والوضـوح ٠٠ واليسر ٠٠ والسهولة ٠٠ ومعانقة الفطرة السليمة والانسجام مع الواقع ٠٠ ومن ثم انتشر الدين الجديد فى أقصر مدة كما يقول ويلز وبأقل جهـد ٠٠

ونقول بأقل جهد ٠٠ مع علمنا بما بذله الرسول وصحابته من جهود صادقة ـ وبما قدموه من دماء وشهداء وبما خاضـوه من حروب !!

فذلك كله لا يقاس بالنسبة الى ما حققه من آثار عالمية ٠٠ ولا بما يسفك من دماء أو ينصب من مشانق أو يقام من مجازر عندما يريد البشر احداث أقل التغييرات فى النظم السياسـية والاجتماعية ٠٠ فلا تسـل عن الملايين التى يضحى بها ـ ولا عن حمامات الدماء التى يغرقون فيها الحياة ٠٠ بينما لا تحقق ثمرة ترجى لأنها تعبر عن التسلط والاغتصـاب واللصـوصية والقرصـنة !! ٠

وقد تحقق فعلا لهذا السبب معنى لم يتحقق لغيره ـ وهو ابتعاده عن الغرور وخداع النفس ٠٠ لأنه ربانى فى منهجـه ـ ومقوماته ـ وقيمه ٠٠ فلم نسمع أن واحـداً من أصحاب محمد [صلعم] ٠٠ قد خدعته نفسه ، أو استحوذ عليه مركب النقص، فنسب لنفسه شيئاً من هذا البعث العظيم ٠٠ أو راح يتبجح بما أنفق من جهد ومال ٠٠ بل لقد كانوا يحبـون أن يعيشـوا جنوداً مجاهيل لا تلمع أسماؤهم ـ ولا تبرق صنائعهم ٠٠ وكم من مواقف رائعة يعرفها الناس ولكنهم لا يعـرفون أصحابهـا فى الاسلام ٠٠ فأين هذا من صلف الحضارة الحديثة ـ وما تدعيه لنفسها من آثار فى الحياة ـ وما يتبجح به أصحابها من غرور طائش وكاذب مع أنه لم يثمر الا الشر والشقاء ؟!

ولقد كان القرآن حريصاً كلُ الحرص على أن ينقى نفوسهم من آثارهذا الغرورالخادع ويكافح كل أسبابه ودواعيه فنسمعه يخاطب الرسول فى غزوة بدر [فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ــ وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى (١)] ٠

وهكذا ٠٠ كل فوز أو انتصار أو نجاح فمرجعه لله ٠٠ وبمثل هذه التربية تنشأ القيادات التى تسود الدنيا ــ وتعلم الناس ٠٠ انها تلتقى فى الايحاء والهدف مع قوله سبحانه [لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم] كلتاهما تتعهد أرواح المؤمنين بنوع من التربية المثالية التى تجعلها دائماً مرتبطة بالله مصيراً وقدراً ٠٠ وتنفى عنها الادعاء وحظوظ النفس من الغرور والاستعلاء ٠٠ لأنها آفات لو تمكنت منهم لما استطاعوا أن يكملوا المسيرة الرائعة ــ التى بدأها معهم وبهم محمد رسولُ الله ٠٠

٧ ــ قوله سبحانه : [الى صراط العزيز الحميد] التعبير يبث الثقة ــ ويشيع الطمأنينة فى قلوب البشر ــ ويؤكد لهم أن طريق هذا البعث يوصل الى غاية واضحة ونهاية قاصدة ونتيجة طيبة متمثلة فى صراط العزيز الحميد ٠٠ وكلمة [العزيز] توحى بأنه غالب على أمره ومن ثم فهو يدافع عن هذا البعث ــ ويحرس التغيير الذى يحدثه فى الحياة ويرعى جهود القائمين عليه ويدفع عنهم كيد الشيطان٠

وقوله : [الحميد] توحى بواجب الشكر على هذه النعم ٠٠ التى لا يحمد عليها الا الله ٠٠ ومن حقه سبحانه على البشرية أن نحمده على ما أسبغ علينا من نعم كثيرة أهمها : الايمان والهداية وهما قد تحققا للحياة كلها عن طريق ذلك البعث ٠٠

كل تلك الخصائص التى شرحناها تعطيها الآية الكريمة فى غير عسر ولا مشقة ٠٠

---

(١) آية ١٧ سورة الأنفال ٠

من آثار هــذا البعث

استطاع هذا البعث الجديد أن يكتسح فى فترة وجيزة تلك النحل الأرضية التى كانت أشبه شيء بانطفيليات السامة ٠٠ وأن يقتلعها من جذورها لينمو النبت المبارك مكانها ٠٠ فيملأ الحياة خيراً وبركة ٠٠ وكانت تلك النحل قد أغرقت الناس فى دوامة الفجور والرذيلة والانحلال وقد استطاع هذا البعث أيضاً أن يكتسح معها بقايا الأشباح المتخلفة التى انحرفت عن الجادة ٠٠ وداخلتها بــدع وخرافات ما أنزل الله بهــا من سلطان ـ فلا تعليم « بوذا » ولا مراسيم « كونفوشيوس » ـ ولا مبادىء البراهمة ـ ولا وثنية الروم ولا اباحية فارس ـ ولا شهــوات الهنــد استطاعت أن تقف أمام المــوج المكتســح الجارف التى نسف الخرافة والكهانة وقضى على المفاسد ٠٠ ومكن لكلمة الله فى الأرض ٠٠ وأضاء معالم الوجود بنوره ورفع رؤوس البشر المنكســة الى السمــاء ٠٠ وأطاح بالمستبــدين والغــاشمين ـ والأشراف والنبلاء الذين طالمــا استعبدوا الناس ، واستــذلوا رقاب البشر ليضع مكانهم على أريكة الحكم أناساً يؤمنــون بالله واليوم الآخر ، لا يريدون علوا فى الأرض ولا فساد « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ـ ونمكن لهم فى الأرض (١) » ٠

كان الاسلام فى عنفوانه ـ شبابا يزخر بالحيوية فما لبث أن ضرب بقبضته القــوية ضربة أطاحت بالفســاد من أرض الله ٠٠ ثم ارتشفته البشرية رحيقاً حلوا ٠٠ وعصيراً مفيــداً تمشى فى أوصالها المقرورة فأشاع فيها الدفء ، وبعث الحيــاة

---

(١) آيتا ٥ ، ٦ سورة القصص ٠

من جديد فى تلك الأطراف اليابسة التى كانت تكسوها صفرة الموت ٠٠ فبث فيها ربيعاً جديداً أنبت ابراعم والأزاهير ونضر وجه الحياة بالمنى ـ وملأ جوها بالعطر فانتعش العاثر وصح المريض وأشرقت الأرض بنور الله وصدق الله وتمت كلمته اذ يقول : [هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (١)] ٠

وهكذا لم يعد للنحل السابقة وجود يذكر فى ظل الاسلام ، وصار الناس بنعمة الله اخوانا تجمعهم عقيدة التوحيد ـ وتظلهم مبادئه ـ وتقودهم أحكامه لا يستعلى أحد على أحد ولا يعبدون الا الله ٠٠

بين نظامين :

وعن طبيعة تلك النقلة الرائعة التى أعزت الوجود كله ٠٠ وأسعدت البشرية ٠٠ وهيأت لها مكانة رفيعة تزدهر فيها أخلاقها وخصائصها ـ يحدثنا ربعى بن عامر رسول المسلمين الى يزدجرد القائد الفارسى فى مجلسه حين سأله عن طبيعة هذا الدين الذى يحاربون من أجله وعن الدعوة التى يستشهدون فى سبيلها فيقول :

« ان الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ـ ومن ضيق الدنيا الى سعتها ـ ومن جور الاديان الى عدل الاسلام » ٠

ولعل يزدجرد أدرك من خلال الكلمات المضيئة الواثقة أن عهده قد انقضى ـ وأن بساط الجور والظلم والفساد يوشك أن ينطوى ٠ وأن الاسلام بالغ قصده ومدرك غايته ٠٠ حتى لا يعبد الا الله فى الارض ٠٠

---

(١) آية ٩ سورة الصف .

لقد استطاع ربعى أن يشرح أهداف الدعوة الجديدة فى بلاغة وقصد ٠٠ وأن يجعل كل كلمة من كلماته سهما مسموماً موجها الى قلب الدولة الفارسية التى طالما استباحت استغلال البشر ٠٠ وتشويه معالم الفضيلة ٠٠ دون خوف أو تردد ٠

وهذا الفهم الواعى لرسالة الاسلام هو معنى عالميته فهو ليس لجنس ولا لشعب ولا لأمة ولا وطن وانما هو دين البشرية جمعاء ٠ وبهذا تصبح حضارته عالمية الأفق ٠٠ تخرج الناس من المعانى الضيقة الى المعانى الرحيبة ٠٠ ومن خصائص الجنس ومميزات اللون والعرق الى خصائص البشر جميعاً ومميزات الانسانية كلها ٠٠ انها تخرج الناس من ضيق الأرض الى سعتها وكفى بذلك امتداداً للساحة الحضارية القرآنية ٠٠

ولنستمع فى اجلال وخشوع الى الفرق بين النظامين ـ نظام الجاهلية ونظام الاسلام ٠٠ والى طبيعة الانسان الجديد الذى صنعه القرآن :

وذلك على لسان جعفر بن أبى طالب يخاطب النجاشى عندما سأله عن حقيقة دينه ٠٠ وكانت قريش قد بعثت بوفد منها على رأسه عمرو بن العاص ٠٠ تطالب بتسليم المهاجرين الى الحبشة ٠٠ كما تصنع الدول الحديثة اليوم عندما تطالب بتسليم « اللاجئين » وانتهز جعفر بن أبى طالب تلك الفرصة ٠٠ فأخذ يشرح قضية الاسلام ويوضح اضطهاد قريش فقال للنجاشى : « كنا قوماً أهل جاهلية (١) نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسىء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا

---

(١) ابن هشام جزء أول ص ٣٠٤ ، ٣٠٥

منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا الى الله لنعبده ونوحده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ـ وأمرنا بصدق الحديث وأداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ماجاء به من عند الله فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً وحرمنا ماحرم علينا ـ وأحللنا ماأحل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ٠٠ وأن نستحل ماكنا نستحله من الخبائث » ٠

أى تحليل رائع للفرق بين النظامين كهذا التحليل ؟ وأى فهم متفتح لقضايا الاسلام وخصائصه العليا كهذا الفهم ؟ ولو أن كاتباً معاصراً أراد اليوم أن يكتب فى الفرق بين الجاهلية والاسلام لما توصل الى هذا ٠٠ مع الاستيعاب والانسجام والانطلاق ٠٠ وحقاً لقد أصاب جعفر جاهلية القوم فى مقتلها ٠٠ وأنصف الدعوة الجديدة ووضعها فى المكان العالى ٠ وكانت الموازنة دقيقة يخرج منها السامع بقبح أمرها ، وفساد طبيعتها ، وجلال الاسلام وسمو مكانته ٠

فاذا لاحظنا ـ أن جعفر بن أبى طالب كان تلك اللحظة يقف موقف اللاجىء المضطهد الذى تطالب بلده بتسليمه والقاء القبض عليه ـ عرفنا الى أى حد كانت مبادىء الاسلام تضع أصحابها عقيدة وثقافة ووعياً وثباتاً فى أصعب المواقف وأقساها ٠٠ لقد شرح جعفر القضية شرحاً موفقاً ٠٠ لم يستطع وفد الشرك أن يفنده ـ ولا أن يطعن فيه ـ ومن ثم ظفر الوفد بتقدير النجاشى ٠٠ الذى استمع اليه بكل الوعى والاهتمام ٠٠

وطرد سفراء قريش رغم ماحاولوه من رشوته ٠٠ وجـذبه الى صفهم بتلك الوسائل الرخيصة ٠٠ ولم تفلح دعاية قريش فى تشويه القضية وان كان وفـد اعلامها يملك المـال والوسائل المختلفة والمغرية ٠٠ لأنه وفد الضلال والكذب ٠٠ ونجح وفد المسلمين ـ لافى رد الوفد القرشى مخذولا فحسـب ـ ولكن فى الدفـاع عن موقفـهم والدعاية لقضـيتهم ـ ودحض أكاذيب العدو ٠٠ واحداث التوازن فى الرأى العام ٠٠ لأن الحبشة كانت تمثل قطاعاً كبيراً من الرأى العام ومن خلال ذلك نعرف كيف أن المسلمين ـ كانوا ينهضون بكل المهام التى توضح ظروفهم مع أعدائهم ٠٠ ولم تكن هجرة عشوائية ـ وانما كانت لها ـ أهدافها القريبة والبعيدة ٠٠ فهى من ناحية : فرار بالعقـيدة الى جهة آمنة ٠٠ ومن ناحية أخرى : اعلام رائع بعدالة قضية المسلمين وصدق دعوتهم وكذب المشركين وسوء مقصدهم وقد أدت فعلا هدفها !! ٠

ولم يكن عمرو بن العاص زعيم وفد المشركين رجلا قليـل الحـيلة أو ضـعيف البيان وانمـا كان سـياسياً بارعاً ٠٠ ومفاوضاً لبقاً ـ ولكنه فى هذا الموقف لم يكن مدفوعا بعقيـدة صالحة ٠٠ ومن ثم سقط دفاعه وذهب أدراج الرياح !!

حتى اذا مسـته نفحـة من روح الاسلام فيما بعـد ٠٠ واستقرت عقيدته فى فؤاده ٠٠ رأى العالم منه الأعاجيب ٠٠ وأصبح شخصية عالمية تسلط الأضواء على مواقفـه ، وهكذا الاسلام يصنع الرجـال ٠٠ ويكفى أن عمـرو بن العاص هو الذى فتح مصر واستخلصها من قبضة الرومان !!

ولنرجع الى صميم الموضوع فنسأل أنفسنا سؤالاً ٠٠ أيمكن لهذه المبادىء التى شرحها جعفر بن أبى طالب أن يصـد عنها أحـــد ! ؟ اللهم الا أن تنطمس منه البصـيرة ـ أو تغلبه

شهوة الحرص على مصالحه ـ أو شهوة النفوذ فى قومه ـ وهم قلة على أى حال ومع ذلك ٠ ٠ فقد جذبتهم روعة المبادىء ٠ ٠ فأقبلوا واحداً بعد واحد وفريقا اثر فريق يدخلون فى دين الله ٠ حتى جاء نصر الله والفتح ٠ ٠ وهؤلاء الذين دخلوا فى الدين بعضهم قد ضحى بمصلحته ـ وبعلاقاته ـ وبعضهم قد انسلخ من تبعية غيره دون خوف أو جبن ٠٠ لأن العقيدة تصنع الأبطال ٠

يقول ابن حزم : [كانت العرب بلا خوف قوما (١) لقاحا لا يملكهم أحد كربيعة واياد ومضر وقضاعة ـ أو ملوكا فى بلادهم يتوارثون الحكم كابراً عن كابر ـ فانتادوا كلهم لظهور الحق وآمنوا برسول الله وهم آلاف آلاف وصاروا اخوة كبنى أب وأم ـ وانحل كل من أمكنه الانحلال عن ملكه طوعا بلا خوف غزو أو اعطاء مال ـ ولا مطمع فى عز ٠ ٠ ٠] الى أن يقول : وهكذا كان اسلام جميع العرب أولهم كالأوس والخزرج ثم سائرهم قبيلة قبيلة ٠ ٠ لما ثبت عندهم من آياته وبهرهم به من معجزاته ٠ ٠ وما اتبعه « أى الرسول » الأوس والخزرج الا وهو فريد طريد قد نابذه قومه حسداً له اد كان فقيراً لا مال له ولا أخ ولا ابن ولا ولد ، أمياً لا يقرأ ولا يكتب ـ نشأ فى بلاد الجهل يرعى غنم قومه بأجرة يتقوت بها فعلمه الله تعالى الحكمة دون معلم وعصمه من كل من أراد قتله] ٠ ٠

وهذا التحليل يعطينا انطباعاً كاملا بأن العقيدة الجديدة قد جذبت القوم جميعاً ٠٠ ولهذا تحولوا فى لحظات مباركة الى صف الدعوة ٠٠ وصاروا لها جنداً أوفياء ٠٠ يبذلون أرواحهم من أجلها فى سخاء ٠ ٠ بعد أن عاشوا فى جاهليتهم

---

(١) عن تاريخ الاسلام السياسى للدكتور حسن ابراهيم حسن ص ٢٤٤ جزء أول طبعة أولى .

تجار حروب ، وأرباب فجور وفسوق ٠٠ لقد مستهم نفحة عامرة من روح النبوة فبعث انسانيتهم الضائعة وردت خصائصهم المغمورة تحت ركام الجهل ٠ ٠ فاذا هى تدأب وتسعى بقدر الله !!

لقد استطاع محمد ـ صلوات الله عليه ـ أن ينفذ بمنهج الوحى الى قلوبهم وضمائرهم ٠ ٠ وأن يبعث مواتهم الأدبى ٠ وأن يعيد بناء شخصيتهم التى عبث بها الشيطان ٠ ٠ وأن يرتب عناصرها وينظم كيانها ٠ ٠ كما استطاع كذلك أن يصلح الفاسد من أوضاع المجتمع وأن يرد الى المواهب الانسانية كيانها ٠ ٠ تلك المواهب المهمنة الضائعة ٠ ٠ وأن يصنع معها وبها عالماً نظيفاً ٠ ٠ قد وضع فيه كل شىء فى مكانه الطبيعى ٠٠

وقد أنس العالم كله الى هذه الدعوة التى لم تجنح الى الاقليمية أو العصبية ٠ ٠ ولم يتجه بها قائدها الى جنسه ٠٠ وانما أطلقها عالمية تسوى بين البشر جميعاً فى الحقوق والواجبات وتخرج الناس من جور الأديان الى سماحة الاسلام ومن تقديس العباد الى عبادة الله وحده ولقد رأى صلوات الله عليه فى مجتمع الجاهلية صورة للعالم الذى لعب به الهوى وأوبقه الشيطان رأى الانسان وقد هانت عليه انسانيته فسجد للصنم والوثن وعبد الشجر والحجر ٠ ٠ ورأى عقولا ضالة تؤمن بالسحر والخرافة والهامة وتفنى فى عصبيات ضيقة ماأنزل الله بها من سلطان ، رأى المواهب البشرية خامات مبعثرة تنتظر الصائغ الذى يسبكها ويوجهها الوجهة الطيبة فى الحياة ٠ ٠ ٠ رأى الشعراء يرتعون فى الأشلاء ٠ ٠ ويثيرون العداوة والبغضاء ويترنمون على قيثارة الثأر والحرب والفتك والضراوة ٠ ٠ ٠ رأى العالم كله جائراً مستعبداً يتخذ

الناس بعضهم عبيداً وخدماً رأى الرذائل الانسانية كلها من خمر وربا وخلاعة وفجور وطمع وشهوة ومال وتأليه للبشر ٠٠ نعم رأى ذلك فى أنحاء العالم كله ٠ ٠

رأى الفساد متغلغلا فى نفوس البشر ـ وعر المسالك فى كيانها ٠ ٠ قد اختلط بدمها وجرى فى عروقها ٠ ٠ فكان لابد ليجتث هذا الفساد من تربية الهية ٠ ٠ تقوم على منهج سماوى وتنهض على مرونة المربى !! وقد التقى المنهج بالمربى التقاء طيباً مباركا ٠

فكان من نتيجة ذلك ٠ ٠ أن أثمر ثمرته وحقق هدفه ٠ ٠ ولو أن وسائل الدعاية فى العالم كله جندت لمهاجمة الباطل فى العالم يومذاك مااستطاعت أن تهدم رذيلة ٠ ٠ أو تقيم فضيلة لكنها التربية النبوية ٠ ٠ ذات الوسائل الالهية التى تتعهد الضمائر فتركز فيها العقيدة ٠ ٠ وتملأ القلوب بدواعى الايمان وتغرس المبادىء فى أعماق النفوس فتتحول الى قوة رائعة توجه الشخصية ٠ ٠ وتخلق دوافعها النبيلة !!

واذا تصورنا الظلمات ـ وماتحمل من جهالة ووحشة وخوف ٠ ٠ والنور وما يحمل من أنس ومعرفة وطمأنينة أدركنا أن النقلة كانت كبيرة ٠ ٠ وأنها استغرقت وقتاً واستنفدت جهداً ٠ حتى تحقق لها النجاح ٠٠ ولقد تحقق فعلا نقل العالم من الظلمات الى النور واذا قلنا ـ ان البعث الجديد ـ قد تحقق بهذه الدعوة ٠ ٠ فاننا نؤكد أن هذا البعث كان عميقاً ـ وواسعاً ـ وشاملا ـ وقوياً ٠ مما يجعله عجيبة من عجائب القدر ولقد دافعت الجاهلية عن نفسها دفاع المستميت ٠ ٠ ولم تستسلم طائعة من أول مرة ٠ ٠ ثم أذعنت للدعوة ٠ ٠ وانقادت لله بعد أن قاومت وتلكأت وأعرضت عن الله ٠ ٠ ٠

لماذا سهل تقبل الناس للدعوة الجديدة ؟

تميز الاسلام بالبساطة السمحة المحببة ٠٠ والواقعية التى لا تستعصى على التطبيق ٠٠ وبالسهولة التى تبتعد به عن التعقيد ـ وبالوضوح الذى يجعله أليفاً للروح ٠٠ متجاوبا مع الحياة ٠٠ وبالملاءمة للعقل فى تشريعاته ٠٠ وبالموافقة للفطرة وحسن التعبير عنها والانسجام معها باعتباره [مادة وروحا] وليس فيه كهانة ولا رهبنة تحتكر المعرفة وتفتات على الناس ٠٠

يقول ويلز (١) : [كان الاسلام فى أول أمره خاليا من التعقيدات اللاهوتية التى طالما ارتبكت بها النصرانية وأحدثت شقاقا قضى على الروح النصرانى وليس للاسلام كهنة بل علماء ومعلمون ووعاظ وهو حافل بروح الرأفة والسخاء والوفاء والاخاء كما أنه ينطوى على عاطفة النجدة التى تنبت فى الصحراء ولهذا جاز الى عقول الناس دون أن يجد ما يصده فى غرائزهم] ٠٠

وهذا الفيلسوف الأجنبى يشرح : كيف أن مولد الاسلام كان حربا على الكهانة وثورة على الخرافة ٠٠ خلصت الضمير البشرى من الأوهام ونزهت الذات العلية عن المشابهة ـ وعقدت الصلة بين الانسان وربه دون وساطة ٠٠؟

---

(١) الاسلام والحضارة العربية ص ٦٤ محمد كرد على ٠

ومن واقع التجربة القاسية التى عاشها هذا الفيلسوف ـ وهو يشهد الصراع بين العلم وبين الكنيسة وكيف كان سلطانها وبطشها بالمفكرين الأحرار يتحدث بهذه الحرارة ٠٠ لقد تحرر هؤلاء وأولئك بدعوة الاسلام ووجدوا فيها منطلقاً كريما للحرية ـ وفتحا للطريق المغلق أمام العقل الباحث ليكتشف ويرتاد ووضوحا فى تشريعاتها وأحكامها ٠٠ وبذلا سخياً للمعارف الدينية دون ادعاء أو احتكار فمن حق كل مسلم أن ينال حظه من المعرفة ـ ومن واجب العلماء أن يوضحوا ويشرحوا ٠٠ والقرآن ٠٠ كتاب مفتوح واضح البيان ـ مشرق الدلالة يقرأه العام والخاص ٠٠ والنبى محمد صلوات الله وسلامه عليه ٠٠ يعلم البشرية كلها أمور دينها ودنياها ٠٠ يفسر الوحى المبارك ، ويقيم مناسك العبادة ٠٠ ويترك للبشرية أن تنقل عنه وتتكلم منه وانه ليقف فى معبده الخاشع ليصلى وراءه من أراد الصلاة ٠٠ ويتعرف على أسرار الدين ويسأله ببساطة عن كل ما يجهله ٠٠ وما هكذا الكهانة !!

ويشير « ويلز » الى خاصية ثانية فى الاسلام ٠٠ وهى احتضانه للأخلاق الاجتماعية التى تجعل الفرد يحس بأنه عضو فى جماعة يسعد بسعادتها ويشقى بشقائها ٠٠ ومن ثم فهو يحارب الأثرة التى تجعل المرء منطويا على نفسه ـ ويشجع الايثار الذى يدفع الفرد الى الامتزاج بالجماعة ٠

وهذه الأخلاق الاجتماعية مثل النجدة والوفاء والاخاء والرأفة ٠٠ أخلاق لا تجد بجسيداً فى المسيحية المترهبنة التى اعتزلت الحياة وانسحبت من المجتمع ـ واستقرت فى الدير

منطوية على نفسها ـ كما لا تجد صداها فى اليهـودية ـ التى مسخت كل الفضائل الاجتماعية مسخاً رهيباً ـ ووجهتها وجهة نفعيـــة مادية عنصرية !!

ولطالمـا قاست البشريـة من تلك الأثرة الشحيحـة ٠٠ قبيل البعثة المحمدية ٠٠ حتى اذا جاء محمد بهـذا الدين الذى يحتضن تلك الفضائل اندفع هؤلاء القاطنون اليـه !!

وان ديناً يبذل المعرفة فى وضوح وسخاء ٠٠ ويتبنى القيم الاجتماعية ليطلقها فى الحياة لهو دين العـالم بأسره ٠٠ ودين الوجود كله ٠٠ فى ظله تنمو الذات الحرة ـ وبتعاليمـه تزدهر الارادة الشخصية ٠٠ ويتحرر الضمير الانسـانى من الانقيـاد الأعمى ٠٠

من أقوال المستشرقين

يقـول المستشرق الهولانـدى هورغورنجـه : [من أراد الاعتصـام (١) بعقيدة الاسـلام لم يتمـكن من طاعة حكومـة مسيحيـة] ••

ذلك أن الاسلام يربط بين المسلم وربه برباط مباشر •• فليس فى حاجة الى شفيع أو وسيط وبهذا فانه يتجه بالعمـل الى ربه مباشرة ـ دون أن يرهق نفسه بترضى الكاهن أو تملق الكنيسة ـ أو الخضوع للحكومة المسيحية ••

وفى الاسلام ميزة أخرى رائعة حقا •• وهى مقـدرته على أن يمنح أصحابه آراء نهائيـة فى الكون والحيـاة والتشريـع والأخلاق •• وبذلك يطبع شخصيتهم بطابع الثبات والاتزان ويكون لهم ذاتاً رصينـة •• « يثبت الله الذين آمنـوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » (٢) •

ومن هنا فان الاسلام يكره لأبنائه أن يمبلوا مع الاتجاهات المختلفة •• وأن يتحولوا مع الآراء المتعارضة ، وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : [لا يكن أحدكم امعة] « أى تابعاً لغيره لا رأى له » •• انها عقيدة تبنى شخصية المسـلم على أساس ثابت وطيد ••

---

(١) من كتاب حاضر العالم الاسلامى لشكيب ارسلان .
(٢) آية ٢٧ سورة ابراهيم .

ومرجع المسلم فيما يفتقر اليه من أمور دينه ودنياه كتاب خالد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه [ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون (١)]٠

فاذا قارنا بين الشخصية التى تبنيها عقيدة الاسلام ٠٠ وبين الشخصية التى تنشئها حضارة الغرب وجدنا الأولى ذاتاً رصينة تستمد المعرفة من دستور خالد ثابت لا يتغير ولا يتبدل ٠٠ ووجدنا الثانية ذاتاً ضالة تبحث عن نفسها بين شتى النظم والدساتير ٠

يقول الفيلسوف محمد اقبال : [ان مثالية أوربا ـ لم تكن من العوامل الحية المؤثرة فى أبنائها ـ ولهذا أنتجت ذاتاً ضالة تبحث عن نفسها بين ديمقراطيات لا تعرف المثل الأخلاقية ـ وكل همها استغلال الفقير لصالح الغنى ـ وصدقونى أن أوربا أكبر عائق فى سبيل الرقى الأخلاقى للانسان ـ أما المسلم فان له من هذه الآراء النهائية القائمة على أساس من تنزيل يتحدث الى الناس من أعماق الحياة (لا من المثالية البعيدة عن الواقع) والوجود وما تعنى به هذه الآراء من أمور خارجية فى الظاهر يترك أثره فى أعماق النفوس ـ والأساس الروحى للحياة عند المسلم : هو « ايمان يستطيع أقلنا استنارة أن يسترخص الحياة فى سبيله » ٠٠ ان هذا الكلام المضئ يؤكد مجموعة من الحقائق عن الاسلام هى :

أن حضارة القرآن تملك المنهج الذى يشرح الحقائق ويرسم الطريق ويمنح المعرفة الثابتة الصحيحة ـ لأنها مستمدة من كتاب خالد ـ فهى من أجل ذلك معرفة نهائية لا تتغير ولا تتبدل

---

(١) آية ١٨ سورة الجاثية ٠

ولا تتناقض ولا تضطرب ٠٠ وان آثارها الفذة لتنعكس على الفرد المسلم ثباتاً فى المواقف وتضحيــة فى الشــدائد وقوة فى الرأى وبصراً بالأمور انهــا تنتــج الذات البصــيرة الثابتــة المهتدية ٠٠٠

أما أوربا فقد حاولت بمثاليتها التى تبتعد عن واقع الحياة وتنفصــل عن وجود النـــاس وبحيرتهــا بين شتى المــذاهب الديمقراطية ٠٠ التى لا تعطى الآراء النهائية فى الكون والحياة والدين ٠٠ حاولت أن تصنع شخصية مثاليــة ٠٠ لكنهــا لم تفلح لأنها لا تستند الى منهج ثابت ٠٠ ولهــذا أنشــأت ذاتاً ضالة تهيم على وجهها بين شتى الآراء ويشير الكاتب الى حقيقة ثابتة فى الاسلام ٠٠ وهى أن الحضارة القرآنية حضارة واقعية تستمد من كتاب واقعى يتحدث الى الناس من قلب الوجــود والواقع ٠٠ ولا يستعلى عليهم ـ ولا يرتفع عن أفهامهــم ـ ولا يقــود البشر بالوسائــل الصناعيــة والتجارب البشرية بــل بالوسائل الطبيعية والمناهج السماوية ٠٠ وهو من قبــل ومن بعد كتاب الفطرة السليمة السمحة البسيطة التى تجد فى رحابه السمح ما يســاعدها على الازدهار ٠٠ وينشــأ عن ذلك كله أن أخلاقيات الحضارة القرآنية واقعية ـ ترتبط بواقع الانســان وتبنى شخصيته المهذبة ـ وتحرس حركته فى الحياة ـ وترعى تطوره الصــاعد ٠٠ دون أن تحلق فى الخيــال ٠٠ أو الأحــلام الطائرة الهوجاء !!

أما أخلاقيات الحضارة الأوربية ٠٠ فهى المثالية ٠٠ التى تقرأها فتسر ٠٠ وترى واقعها فتأسى ٠٠ انها لا ترتبط بالواقع ٠٠ ولا تتحقق فى الوجود ٠٠ هى شعارات خادعة براقة لا تجد طريقها الى الحياة الواقعيــة ٠٠ لأنهــا لم ترتبــط بالعقيــدة الايمانية التى تشعلها وتضرم وقودها ٠٠ وتبعثها قويــة فى

الحياة ·· وهذا هو السبب فى أن الفلسفات المجردة لم تؤثر فى الناس الا قليلا فى حين أن الأديان تستطيع أن تسيطر على قلوب الجماهير ·· وتقود سلوكهم فى الحيـاة وتهيمن على كل قوى الانسان!!ولهذا أحدثت التحول فى حياة البشر ونقلت المجتمعات الانسانية من حال الى حال ··

نعم لم يستطع الفلاسفة أصحاب النزعات العقلية ـ أن يؤثروا فى مجتمعاتهم ـ ولا أن يكونوا جماهير تؤمن بهم ـ ولا أن يحدثوا التحـول فى حيـاة البشر ·· لأن دعواتهـم جامدة يعوزها شعاع الروح ، وجافـة تفتقـر الى رشحات العاطفـة ترطب هذا الجفاف ، ومضطربة تفتقر الى سند صحيح يدعمها ، وقلقة لا تثبت على شىء ·· ومتناثرة كلما تكون مذهباً متكاملا ·· ومثالية أحياناً ترتفع على الواقع وتسبح فى الخيـال ·· وتستعصى على التطبيـق ، على أن الفلسفـة مهما تبـلغ من النضج لا تخرج عن كونها طفح عقول بشرية أفسدتها متاهات الفروض وشطحات العقول ·· فهى لا تمنح الثقة بحال ··

أما المعارف التى تأتى عن طريق الأديان فمضيئة سمحـة تدعم الثقة وتنعش الروح ·· ونجد من الانس بها ما يدفعنـا الى تمثلها وتطبيقها ··

وأخيراً هـذا البعث قـد طهر الحياة من رجسها ـ وبعث الانسانية من رمسها ـ وسقاها من رحيق الله السلسل فاهتزت وربت وأنبتت من كل زرع بهيج ـ وأشاع فى هيكلها الرميـم قوة محركة انتفضت بها فقامت تدأب وتسعى ـ وانطلقت بقدر الله ـ وقيادة رسوله ـ تحرر العالم ـ وتطهر الوجود ـ وتبنى الحياة ـ وتصنع حضـارتها على أساس من كتاب الله وسنة رسوله ·· وهما النبع الصافى لمدنية العالم بأسره ··

الباب الثانى

من خصائص الحضارة القرآنية

١ ـ استمدادها من القرآن وتجددها المستمر :

. الأساس الذى قامت عليه : تقوم الحضارة الاسلامية ـ على أساس منهج الهى يتمثل فى القرآن الكريم ٠ ٠ فهو كتابها الخالد ـ الذى يبرز مقوماتها ـ ويحدد مسارها ـ ويوضح غايتها ٠ ٠ ويشرح قيمتها ٠ ٠ ويبين أثرها ٠ ٠

والقرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية المنزلة فهو كلمة الله الأخيرة الى البشرية ، وافاها بعد أن قطعت شوطا بعيداً فى الرقى المادى والعقلى والروحى ٠ ٠ وبعد أن تجاوزت مرحلة الطفولة ٠ ٠ واكتملت عاطفيا وفكريا ٠ ٠ فهو متضمن لكل القيم والمبادىء والنظريات والأحكام التى تلائم هذ: النضج وتؤازره وتساعده على الازدهار والاكتمال ولقد بدأت رحلة الحياة منذ فجر التاريخ ورافقها فى هذه الرحلة الخالدة رسل وأنبياء وفلاسفة وحكماء ـ وكتب سماوية ـ ومعارف أرضية ٠ ٠ لكن ذلك كان يمثل المعرفة البدائية فى طور الطفولة البشرية ٠ ٠ وكلما شبت الانسانية عن الطوق ٠ ٠ تدرجت معها تلك المعارف لتساير تطورها الصاعد ٠ ٠ وتساند تقدمها المطرد :

بين الكتب السماوية والقرآن :

كانت كل الكتب السماوية التى سبقت القرآن كالتوراة والانجيل كتبا اقليمية زمنية ٠ ٠ محدودة الطاقة تمثل فترات من التاريخ ٠ ٠ ثم يجىء غيرها ليحل محلها فى هذه البقعة أو تلك من الأرض ، ، وليس من بين هذه الكتب ـ مايصلح

لتأسيس حضارة عالمية ممتدة وصاعدة ٠ ٠ لأنها لم تزود من العليم الخبير بالطاقة الهائلة التى تجعلها قادرة على الاشعاع المستمر عبر الزمان والمكان ٠ ٠

لكنها دائما ملائمة لعقول الناس ٠ ٠ ملبية لسنة التطور لا تتناقض ولا تتعارض ويصدق بعضها بعضا ٠ ٠ وتتشابه فى أصول الدعوة الى الله ٠ ٠ وكل رسالات الأنبياء على هذا القانون من الصدق والتطابق وملاءمة ظروف البيئة ومقتضيات التطور لأنها تمثل المنهج الالهى ٠ ٠ وتصدر عن رب السماء ،

على أن هذه الكتب السماوية ـ قد نالها من التحريف والتشويه على يد أصحابها ماأفسدها وأبطل من فاعليتها وحجب ضيائها وقلل من الثقة بها ٠ ، وجعلها ممتهنة ضعيفة وفى ظلها نشأت عبادة الأشخاص ـ وعبادة المال ـ واستباحة الربا والأعراض ، وقتل الانبياء ـ وعبادة العجل ٠ ٠ وتحول أصحابها الى تماثيل جامدة للكهانة والجهالة والادعاء ٠ ٠ وفقدت المعرفة البشرية كرامتها فى ظل الكنيسة بعد أن اصطنعت الكهانة ـ واحترفت الرهبنة ولاذت بالدير ٠

فهل تصلح كلتا الديانتين لاقامة حضارة مزدهرة نامية ؟

ان المسيحية ـ قد انسحبت من الحياة تماما ٠ ٠ فهى لا تصلح الا لتأسيس حضارة مريضة ٠

أما اليهودية : فقد عبدت المال ـ وأشاعت الربا فهى لاتصلح الا لتأسيس حضارة مادية تمتهن خصائص الانسان!!

ولكن ينبغى هنا أن نؤكد بأن انحراف الديانتين قد نشأ من عبث أصحابهما وتحريف كتبهما ٠ ٠ فهو انحراف بشرى

قاد الى افساد الكتب المنزلة ٠٠ وقد كان من الممكن أن تقود هذه الكتب أصحابها قيادة سليمة ٠٠ لو استمسكوا بها وساروا على هديها فالكتب السماوية فى ذاتها قادرة على أداء رسالتها بشرط أن تظل على نقائها وصفائها أما حين تعتكر بفعل البيئة ـ أو تحرف بيد البشر فليس العيب فيها وانما هو فى طباع الناس ورواسب البيئات الساقطة ٠٠ وهكذا ينزل الحق صافيا من السماء ثم لا يلبث أن يعتكر بأفاعيل الناس !!

ومما ساعد على تحريف هذه الكتب أنها لم تنزل باللفظ والمعنى من رب السماء وانما هى معان حكيمة ـ مستلهمة من الله احتفظ لها رسل الله موسى وعيسى بجلالها وتأثيرها ووضاءتها وجاذبيتها ٠٠ وسرت على ألسنتهم نغما مقدسا يلهب العاطفة ويوقظ الروح فلما ذهب الرسل الى ربهم نالها من الأتباع والقديسين ماجعلها فاسدة لا تصلح لشىء وتعددت الأناجيل ـ والعهود ٠٠ تعددا أفقدها كل قيمة وكثرت التفسيرات والتعقيدات فى الديانتين وتحولتا الى كهانة وألغاز وأحاجى ـ كما كثر الدس لجذب الدين الى مصالح الناس ٠٠ ومازالوا كذلك حتى انحرفوا عن عبادة الله الى عبادة البشر :

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وماأمروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون (١) » ٠

وتورطت الكنيسة فى العصور الوسطى ٠٠ فقامت بحركات القمع والارهاب للعلماء والمفكرين ٠٠ وادعت السيطرة على المعرفة وهى لا تملك منها قليلا ولا كثيرا ٠٠ وسخرت الدين بذلك للشهوات والأغراض ٠٠ مما زهد الناس فيه وبغض

---

(١) آية ٣١ سورة التوبة .

الكنيسة اليهم فتركوها تسبح فى جهلها ورجعيتها وانطلقوا فى مضمار العلم من غير دين ٠٠ ومضت حضارتهم منذ ذلك الوقت تستمـد من العقـــل وحـده وتتنكر للدين وتنهض على العلم وتخاصم الله ٠

وانسحبت الكنيسة عن ميادين التوجيه ـ بعد أن انتصر الالحاد عليها ـ وتمكن منها ـ فلم يعد يأبه بها أحد ـ أو يعرج عليها مخـلوق ٠٠ ولذا شرعت أخيرا تستـدرج الشـباب اليها بوسـائل الشـهوة والمتاع الرخـيص ٠٠ وتخلط بين الفتيان والفتيات فى حفلات مخمورة !! ومما أسقـط هيبتها الى الأبـد ترحيبها بالعلاقات الشـاذة الآثمة ٠٠ واصـدارها للفـتاوى المجرمة فالتقت بذلك مع كل المذاهب الاباحية وزادت فسخرت وسائل الاعلام ـ وأدوات التوجيه لاثارة الغرائز الدنيا ٠

تلك لمحـة متدرجـة عن تاريخ الديانتين السـماويتين الكبيرتين ٠٠ وما نال التوراة ـ والانجيل من عبث العابثين ٠٠ نؤكد من خلالها أنهما لا تصلحان لانشاء أية مدنية فاضلة ٠٠

ومافـظائع الصـهونية اليوم وتبنيها لحـركات الهـدم الآخـلاقى ـ والتقـويض العمرانى الا انعـكاس لـا أحـدثوه بالتوراة من تشـــويه ٠٠ وأين هم من التوراة ـ ومن موسى الكليم ؟ ! لكنهم مايزالون يتحدثون عن التوراة ـ ويحـاربون باسمه ويفسقون على حسابه !!

وما المـادية التى تجتاح الغرب الا انعكاس لـا أحـدثوه بالانجـيل الذى مايزال القـــوم حتى الآن يـرددون ترانيمه ممسوخة فى الكنائس والأحفال الدينية ٠ وأين هم من الانجيل؟ ومن السيد المسيح !!

أما القرآن الكريم : فقــد نـزل بـاللفــظ والمعنى من لدن رب العالمين [وانـه لتنزيل رب العالمين نـزل بـه الروح الآمين ـ على قلبك لتكون من المنذرين ـ بلسان عربى مبين (١)] ٠

فلم يحدث فيه ماحدث فى غيره من الكتب المنزلة من تحريف أو تشويه وانما ظل متألقا يرسل النور فى كل اتجاه ـ ويبعث بـالضــوء فى كل أفق ـ يقــرأه الناس جميعا بلســان واحــد ـ لا تترجم ألفاظه لأنـها فوق قدرة المترجمين ـ ولا يتعدد المصحف كما تعددت الاناجيل ـ ولاتتناقض آياته كما تنـاقضت آياتها ـ قد تحرف كلمة واحدة من المصحف فتقــوم الدنيا وتقــعد لهذا التحــريف اليسير ٠ ٠ وهناك هيئات متخصــصة للسهر على سلامة المصحف ، وتلاوة القرآن ـ وقراءته ليس لها عمل الا هذا وصدق الله العظيم اذ يقــول : [انا نحــن نزلنا الذكر وانا له لحافظون (٢)] وكم أرادت الصهيونيــة العالمية ـ ومن قبلهــا الفرق المضللة أن تشوه المصحف ـ ولو بتغيير حركة أو سكون فما استطاعت الى ذلك سبيلا !!

والعجيب أن القرآن يزداد على الزمن جدة ونضارة كأنما نـزل من السماء الآن ٠ ٠ ويلاحق أحداث الحياة ملاحقة عجيبة ـ ويرعى تطور البشرية ـ ويلائم الفطرة الانسانية ٠ ٠

ولا يتصادم بحال مع الســنن الكونية ـ ولا مع قــوانين العلم التى استقرت وأخــذت وضعها ٠ ٠ أما النظريات التى ماتزال فى طور التجــربة ٠ ٠ فهى عرضة للخــطأ ومظنة للوهم ولهذا فهى لاتعــد قانونا علميا الا حين يستقــر أمرها وتثبت

---

(١) آيات ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ سورة الشعراء .
(٢) آية ٩ سورة الحجر .

صحتها عندئذ تجد من القـرآن مايشجعها ولا يتصـادم معها بحـال ..

ان القرآن لا يتبع الظن ـ وانما يشجع الحق ـ ويدعمه ويمضى معه فى طريق واحد ولقد ذم الله أقواما يجرون وراء الظنون فقال : [ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ـ ولقد جاءهم من ربهم الهدى (١)] .

وهو قول فصل فى هذا المقام .. يؤكد بأن القرآن لا يؤيد الظنون ولا يشجعها .. لأنها تخضع لهوى الانفس وضلال الشيطان . ويوضح أن الحقائق هى طريق القرآن ومنهج الله .. وذاك هو المعبر عنه بقوله [ولقد جاءهم من ربهم الهدى] .

والهدى : هو الدليل الموصل الى الحق ـ المفضى الى التوفيق . وذاك هو طريق الله وطريق العلم الصحيح ـ اذى يستهدف الحق لا الباطل .. واليقين لا الظن وبهذا التصوير يصبح القرآن كتابا عالميا تجد فيه الحياة كلها ما يسدد خطاها ويدعم تطورها ويرعى قضياها .. وتجد فيه الانسانية كلها ما يرفع شأنها .. ويعلى قدرها .. ويسمو بخصائصها ومواهبها وملكاتها .. وله من قوة الاشعاع ـ وقدرة الطاقة ما يؤازر على تحقيق هذا الدور الحضارى الكبير .. ولقد قام القرآن فعلا بذلك الدور الكبير .. وامتدت رقعة نفوذه فشملت العالم كله وردده القاصى والدانى . ومـا زال يردده الى ذلك الوقت رغم

---

(١) آية ٢٢ سورة النجم .

وحشــية القمع ، وعسف الارهاب ـ وما زلنا نجـوب بلادا فى أرض الله ·· لا نتوقع أنها تنطق حرفا واحدا عربيــا لرطانة لهجتها ـ فاذا بنا نسمع القرآن على ألسنة أبنائهــا عربيــا صافيا واضح النبرات والقسمات ولله فى خلقه شئون ·· ومن أراد ذلك فليتتبــع أفواج الحجيج ويستمع اليهم ·· فسيرى الأعاجيب فى هذا الباب ·

ان كل الحقائق التى أفضــنا فى شرحهــا ـ فيما يتصــل بالفرق بين القرآن الكريم والكتب المنزلة قد نتهم فى تقريرها·· ولكننا عندما نسمعها قوية أخاذة على ألســنة المستشرقين ـ الذين تنزهوا عن التعصب والمذهبية ولو لساعات قليلة ـ نرى أنها لا مبالغة فيها بل هى الواقع الذى لا يشك فيه ··

ولنستمع الى الخصائص الحضارية التى استودعها الله كتابه الخالد على لسان رينان الفيلسوف الفرنسى ـ الذى كان يعــانى ازدواجا فى شخصيتــه حينما ينتصر للحق ـ وحينما ينحاز لآراء قومه ·

القــرآن نبع حضارى متجدد

يقول رينان : [ان القرآن هو أساس الاسلام ، وقد احتفظ بكينونته القديمة بدون أن يعتريه أقل تبديل أو تحريف ـ وعندما نستمع الى بعض آياته ومافيها من بلاغة وسحر تأخذنا رجفة الوله والوجد ـ وبعد أن نتوغل فى دراسة روح التشريع التى تنطوى عليها بعض تلك الآيات الالهية ٠٠ لا يسعنا الا أن نعظم هذا الكتاب العلوى ونقدسه ـ وقـد دلتنى تحرياتى العلمية أنه لا صحة مطلقاً لما أريد الصاقه بالنبى محمـد من كذب وافتراء مصـدرهما بعض المباينـات العرفيـة والعادات القومية التى أراد بعض المتحاملين مثل [فولتير] أن يوجهوها اليه ٠٠ وهى افتراءات ذميمة وقحـة كقـولهم : انه كان يميل الى التسـيد والسيطرة مع أن التاريخ يثبت أمانته وصـدقه وتواضعه وأنه لا يحمل الحقد لأحد وكانت طباعة نبيلة وقلبه طاهراً ـ رقيق الشعور (١)]

ثم أردف ذلك ببيان أن هذه العصمة تخص القرآن وحده ٠

وعندما نلقى بعض الضوء على كلام رينان نرى أنه يتضمن مجموعة من الحقـائق الضـخمة التى تؤيد ماتذهب اليه ـ وما قررناه من أن القرآن الكريم وحـده هو نبع الحضـارة العالمية وذلك لأنه أولا وكما يقـول [رينان] ـ كتاب علـوى يحتفـظ بكينونته القديمة ـ تلك الكينونة التى تجعله قادراً على التأثير فى العقول والقلوب ٠٠

---

(١) من كتاب بين الحضارات والديانات لطه مدور ص ١٢٦ ــ ١٢٧

والتى يظهر أثرها فيمن يقرأ هذا الكتاب الخالد ـ أو يستمع اليه اذ تعتريه انتفاضة التأثير ـ ورجفة الوله وهزة الوجد ونشوة الفرح وذلك تبعاً لآياته التى تتوزع على الوعد بالجنة والوعيد بالنار ٠٠ أو وصف أحوال الأمم وتاريخ الدول وأوضاع الرسل مع أقوامهم وصراع الحق مع الباطل ٠٠ كل ذلك يتتابع فى مد متلاحق ٠٠ ويرمى بأمواجه فى النفس الانسانية فتتحرك معه انقباضاً وانبساطاً ٠٠

[وريناان] يؤكد ـ أن تلك الخاصية مقصورة على القرآن الكريم وحده من بين سائر الكتب المنزلة ـ لأنه كتاب قد سلم من التحريف والدس ٠٠ واحتفظ بنقائه وصفائه ومقدرته على التأثير أما نصوص التوراة والانجيل فقد تحولت الى نغمات سمجة ثقيلة تتردد كالترانيم فى الكنائس والبيع بعيدة عن أى تأثير ٠٠ فاترة باردة لا تورث خشية ، ولا تحدث أثراً ٠٠ !!

ولا شك أن المنهج الحضارى يفتقر الى كتاب ثابت المنهج ، قوى التأثير حتى يندفع الناس به بناة لصرح الحضارات على تقوى من الله ورضوان ٠

والخاصية الثانية : وهى حضارية ـ تكمن فى روح التشريع التى ينطوى عليها الكتاب الكريم ٠٠ ففيه من النصوص الحية المتجددة مايلائم روح التطور وما يدفع بعجلة التقدم الى الأمام وانها لتشريعات تتناول الحياة كلها ولاتترك شأناً من شئونها ٠٠ وهذه الخاصية التى يتميز بها الفقه الاسلامى من حيث نماؤه ـ ومقدرته على الاستيعاب والشمول ٠ لأنه يستقى الاحكام من كتاب يفيض بروح التشريع ، للعبادات والمعاملات والعقائد ، ونظم الحكم وأساليب المجتمع وفلسفة الأخلاق ٠٠ فهو بهذا نظام متكامل للحياة الانسانية يرسى

قواعدها على أسس سليمة ٠٠ ويخصب العلوم والمعارف التى تستمد منه ـ وتأخذ عنه فهو يخصب الفقه ويمده بالأحكام ٠٠ وهو يخصب علم الكلام ويزخره بالعقيدة الصالحة وما شئت من معرفة حقيقية بالله ورسله واليوم الآخر ٠٠ وهو يثرى علوم الاجتماع بما يمدها به من قوانين الحكم ـ ونظام الحياة ـ وسير الحضارات ٠٠ ويمر التاريخ بأحوال الأمم القديمة وما أصابها من قوة أو ضعف وكذلك سائر المعارف الأخرى ٠٠

أنه بذلك محيط زاخر بالمعارف السديدة ـ والعلوم الصحيحة ٠٠ وقد تمكن بناة النهضة القرآنية من تأسيس علوم ومعارف كلها تستقى من نبع القرآن وتأخذ عنه ٠

ولكن يبقى بعد ذلك ٠٠ أن نؤكد بأن هذه الخاصية تجعل منه أساساً للعلوم والمعارف وتجعله قادراً على العطاء السخى للحياة من جميع نواحيها ٠٠ تؤكد العلاقة بين هذا الكتاب الخالد وبين الحياة فهو يمنحها القوانين ـ والمثل الاخلاقية ٠٠ ووسائل التقدم والنهوض ويعكس عليها الجلال والجمال ٠٠ ويمضى بها على طريق الهداية والخير ويصب بكل مافيه من هداية ومعرفة فى محيطها الكبير فتزكو وتسمو وتتقدم ٠

ويوم يسود نظامه ـ وتطبق أحكامه ٠٠ يوم تعز الحياة عنه ٠٠ تضل وتميد ويلعب بها الهوى والشيطان ٠٠

فقيمة هذا الكتاب الخالد تكمن فى تطبيقه ليكون نظام الحياة المتكامل ٠٠ يعبد به الله وتحارب به الجيوش ـ وتحكم به الجماعة وتساس به الأمور كلها ٠٠

هذه الخاصية التشريعية التى يشير اليها [رينان] لاتوجد فى كتاب آخر ٠٠ ولا تتوفر الا فى القرآن ٠٠ فهو كتاب الحياة ـ ومستودع الحكمة ـ ومستقر المعرفة ٠٠ ونظام السياسة والاجتماع ٠٠ كتاب العلم النافع الذى يثير العقل ويحركه ٠٠ لينطلق جواباً فى ملكوت السموات والأرض ٠٠ من حكم به عدل ـ ومن مل به أجر ـ ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم ٠٠

وما دام القرآن هو كلمة الله الأخيرة ، فهو يربط الناس بالتطور حتى لا تقف عجلة التاريخ فحضارة القرآن خصبة ولود تمضى كما صورنا مع ركب الحياة السائر ملبية حاجات البشر متجاوبة مع أهدافهم مستوعبة لمشكلاتهم ٠٠ تجد لكل مشكلة طارئة حلا موفقاً ولكل سؤال جواباً سديداً ٠٠ فلا تجمد أمام ماترد به الأعصار والامصار من مسائل جديدة ٠٠ لم تكن فى العهد الأول للاسلام ٠٠ بل تقيس الحاضر على الماضى ـ وتلحق الفرع بالأصل ـ وتنظر فى علة الحكم التى تشملها ٠٠ وتجتهد كذلك فى الأقضية والاحكام ٠

وبهذا يأخذ التشريع الاسلامى سمته الحضارى ويبسط سلطانه على الحياة فلا تتفلت منه ـ أو تلوذ عنه لانه يلاحقها ملاحقة متطورة ويصدر عليها الأحكام الملائمة وماأجمل أن تتعانق روح التشريع مع قضايا الحياة ٠٠ فتمضى الحياة كلها مسددة الخطا كريمة الأهداف لانها تخضع لله ـ وتحكم بشرعه ٠٠ وماأقبح أن يلعب الشيطان بالناس فيضلهم عن شرع الله ودينه فيحكمون بغير ماأنزل الله ـ وكتاب الله بين ظهرانيهم !!

وهكذا يجب أن تتألق حضارتنا فى رحاب القرآن وفى جو الايمان لتزدهر وتونق ٠٠ وتؤتى أكلها كل حين باذن ربها ـ وبذلك تضمن التجدد وتمضى فى طريق النماء المتصاعد مع آمال البشر ـ وتقدم الحياة ٠ وينبض قلبها دائماً بنبض الحياة ويخفق فؤادها بآمالها ويطرد سيرها على طريقها فتكون حضارة مؤمنة ربانية ـ حضارة الرقى المادى والروحى معاً ٠

ولا يمكن لهذه الحضارة أن تجف أو تذوى أو يصوح نبتها الاحين تنفصل عن كتابها الخالد ٠٠ وما هى الا أن ترتبط به فتجرى فيها دورة الحياة ويعود اليها النماء والازدهار ـ والحيوية والنبض ـ وبهذا تظل قادروة على مواجهة التحديات الحضارية الأخرى عبر القرون لانها مزودة بما يكفل لها القوة والقدرة والصمود والاستمرار والتجدد ـ وسيظل القرآن يمد تلك الحضارة بالايمان لتضىء جوانب الحياة بالأمل والخير والحق والعدل والسلام وكل المعانى الطيبة والقيم النبيلة ٠٠ حتى يرث الله الأرض ومن عليها ٠

مكانة العقـــل فى حضارة القرآن

لم تعرف الدنيا دينا يعتمـد على العقــل كما عرفـت ذلك للاسلام ـ كما لم تعـرف كتابا يعتز بالعقـل ٠٠ ويطلقـه من اساره ويرد عليه كرامته كما عرفت ذلك للقرآن الكريم ٠

فالعقل ـ فى حضارة القرآن ٠٠ هو الذى يتفاعل مع عناصر الكون ليبنى صرح الحياة ـ وهو الذى ينظر فى ملكوت السموات والأرض ليتدبر آيات الله ٠٠ وهو الذى يمضى فى رحلته المباركة باحثا عن أسرار الطبيعة ـ مكتشفا لقوانين العلـوم ـ محركا لروح التشريع ٠

ويكفى أن القـرآن الكريم آيات لقوم يعقـلون ـ ولقـوم يتدبرون ـ ولأولى النهى ـ ولاولى الالباب ٠٠ وأن كما هائلا من آياته تخاطب العقل وتستحثه وتستثيره ليتحرك فى رحاب الله ـ ويتدرج فى دراسة آثاره وأسراره ٠

وأحكام الشريعة كلها انما تستنبط بالعقل الرشـيد من كتاب جامـع لمعالم الخير ـ ودلائـل الحق ٠٠ وبدون العقـل يجمد التشريع ٠٠
ويتحجر ٠٠ ويصبح الفقه الاسلامى قـوالب جـامدة وهياكل محنطة ٠٠ لا يتزيا بزى العصر ولا يلبس ثوبه الجديد ٠

وهكذا ـ نجد أحكام الشريعـة لاتزدهر الا فى بيئـة تعتز بالعقل ـ وتعتد باستنباطه وقياسه واجتهاده ٠٠ وفى العصور التى تألقت فيها المواهب العقلية ـ ازدهر الفقه الاسـلامى ٠٠ واتسعت آفاقه ٠٠ وفى العصـور التى انكمش فيها العقـل ٠٠ ضمر الفقه وأصيب بالعقم والهزال ٠

فالحضارة القرآنية ـ حضارة العلم ـ الذى يرتكز على العقل ـ ويعتز بكرامته ٠

وحضارة الايمان ـ الذى يتغذى بآثار القدرة الالهية ـ ومشاهد الكون ومظاهر الطبيعة ٠٠ التى يجد فيها العقل الانسانى مجالا للفهم والادراك وتقديس آلاء الله ٠

وحضارة التقدم ـ التى تستند الى العقل فى استنباط الأحكام ـ ومعرفة قضايا التطور فهل هناك اعتداد بالعقل أكثر من هذا ؟

لقد امتهنت كرامة العقل وصودرت أحكامه ٠٠ فى ظل الحضارات الأخرى القديمة والحديثة لكن حضارة الاسلام لا تقول بهذا ٠٠ بل تمنح العقل صلاحيات يمضى بها قدما ليؤدى رسالته الحرة فى بناء الحياة ٠٠ وما نريد أن نكرر مأساة العقل الانسانى فى ظل الكنيسة ـ ولا محنته فى ظل النظم المادية المعاصرة ٠٠ فالويل لمن يفكر تفكيرا حراً أو ينتقد مالا يستسيغ من الأمور فى ظل هذه النظم !!

ومن وسائل تكريم العقل فى الاسلام ٠٠ أن المسلم لا يكون عبداً الا لله ٠٠ ويتحرر عن كل ما سواه ولنقرأ قوله سبحانه [اياك نعبد واياك نستعين] وهى آية يرددها ملايين المسلمين فى صلواتهم مرات عديدة فى اليوم الواحد ٠٠ وهى تعنى أن الولاء كله لله ـ والاستعانة كلها بالله ٠٠ وأنه لا خضوع ولا ضراعة الا لجلال عظمته ٠

ان هذه الآية تعنى تحرير العقل البشرى من الخضوع لغير الله سبحانه ٠٠ وتجعله سيداً للكون كله والحياة بأسرارها ٠٠ فأى تكريم هذا ؟

ان ذلك كله يعنى ـ أن الحضارة القرآنية ٠٠ تجد فى العقل الانسانى ما ساعدها على الاستمرار والتجدد والنماء ٠٠ وهل الحضارة الا تطور وتجدد ونماء ؟

من آثار العقل فى حضارة القرآن

أعظم ما للعقل الانسانى من آثار فى هذه الحضارة القرآنية ‥ هو تمكينه من استنباط الأحكام - التى يصدرها على القضايا الجديدة والأحداث الوافدة ليظل الفقه الاسلامى متجددا مرنا يلاحق الحياة ويمضى مع تيارها ‥ ولا يتوقف عن ملاحقتها .

وبذلك (١) « يصبح الدين جهدا مستمرا وعطاء دائماً يزيد الحياة خيراً والانسانية تقدما ويحطم القيود التى تعوق مسيرته نحو غد أكثر اشراقا وهو جهد يبدأ من الله واليه الرجعى » .

وبهذا يظل العقل الانسانى فى مكانة مرموقة - من حيث اعماله فى قضايا العصر ليجد حلا ملائما لها فى كتاب الله أو فى سنة رسوله - أو فى أعمال السلف الصالح - أو فى فتاوى الصحابة والتابعين - وهنا يدخل عنصر الحركة فى حضارة القرآن - فلا تتوقف بل تمضى قدما مع الحياة وهذه الخاصية تجعل من القرآن كتاب حضارة متجددة ‥ مستمرة الى ما شاء الله ‥ يقول صلى الله عليه وسلم [لمعاذ] حين بعثه الى اليمن قاضيا :

« بم تحكم يا معاذ ؟ قال : بكتاب الله !! قال : فان لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله ؟ قال : فان لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيى لا آلو - أى لا أقصر - فضرب رسول الله فى صدره [استحسانا لحديثه] وقال : « الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله » .

---

(١) من كلمات الدكتور عبد العزيز كامل « مواقف اسلامية » ص ٦

لمــاذا استحسن رسول الله كلام معاذ ؟

والجواب : لأنه تهدى الى روح التشريــع الاســلامى ٠٠ وجعل من اجتهاد العقل أساساً للحكم ـ وقاعدة للقضاء ٠٠ اذا لم يجد نصاً فى القرآن أو الحديث ٠

ومن كلمات عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ فى عهده لأبى موسى الأشعرى حين ولاه القضــاء وقد اعتبره المسلمون قاعدة للأحكام وأساساً للنظام ودستوراً للقضاء العالى :

« الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة ثم اعرف الاشباه والامثال فقس الامور عند ذلك واعمد الى أقربها عند الله وأشبهها بالحق » وهكذا ـ يجد العقل مجاله فى التشريع الاسلامى ـ فيقيس ويجتهـد ـ ليصـل الى الحق ـ ويصدر الحكم الصحيح٠٠ ولاشك أن كلا من الاجتهاد والقياس عمل عقلى صرف وهما يأخذان وضعاً كريماً فى التشريــع على عهد عمر ـ وبعده حين تتسع أمور الدولة وتستجد مسائل ٠٠ ليس لها نص فى القرآن أو السند ٠٠ فلا يكون لها الا العقل ٠٠ وقد اجتهد أئمة المسلمين فى قضايا عصرهم ـ واجتهد من بعدهم فى أمور دنياهم ـ وكانت حضارة الاسلام فى تجدد مستمر ٠٠ ثم حلت بالمسلمين كوارث ماحقة فى عهود الانحطاط والجمود ٠٠ وكان من آثار ذلك أن أصيب العقــل الانسانى بالشلل فأغلق باب الاجتهاد ٠٠ لكن من الذى أغلق هذا الباب ؟

انه الجمود والتخلف ـ والعجز عن مسايرة الأحــداث ٠٠ ومواجهة تيــارات الحيــاة وكان اغلاق باب الاجتهــاد ظاهرة مرضية دلت على عقم الأفكار وجدب القرائح ونضوب الملكات ـ وتوقفت تبعاً لذلك حركة الحضارة القرآنيــة ٠٠ وفقــدت أعز عناصرها وأروع خصائصها ٠٠

حركات الاصلاح الدينى :

بعد المـد القوى الذى تميز به الفقـه الاسلامى فى عصور الازدهار وبعد عصر الأئمة الاربعة ٠٠ وكلها عهود خصبة ولود ٠٠ أثرت الحضارة ـ ونضرت وجهها ٠٠ وكان الدين عامل بعث ـ ودعامة تقـدم ونهوض ٠ ٠ بما يحمل من قوة دافعة وعقـيدة روحية سامية ـ وأهداف تقدمية للحياة ٠٠

ولكن الحضارة الاسلامية ٠٠ تأخذ فى الانحدار رويـداً رويداً بسبب عوامل كثيرة سنفصلها فى الفصل القادم ان شاء الله ٠ ويصبح الدين بمرور الزمن مجرد شكل لا مضمون له ٠٠ فلا حركته تنظم الحياة ، ولا سره يزكى النفس ، ولا عقيـدته تكافح البدع والخرافات ، ولا أحكامه تطرد بالاجتهاد والقياس ٠

وهكذا منـذ الدولة العباسـية يغرق الدين فى المظاهر ٠٠ ويبدو أثره فى المواكب ٠٠ وتدور شعاراته حول تأييد الخلفاء ٠٠ ثم يمعن فى هـذا الاتجاه ٠٠ حتى تتجمد حركتـه ـ وتتوقف نهضته فى عهود الأتراك ـ وتتانوشه الفتن والكوارث على يد التتر والصليبيين ٠٠ وينـاله من التشـويه ـ والمسخ فى تلك العصور ما يصيره جسداً من غير روح ٠٠

ويغلق باب الاجتهاد ٠٠ فـلا يوجد من يفتى فى المسـائل الجديدة أو يعالج القضايا الطارئة وتلك آفات كبار ، تعوق المد الحضارى ٠٠ وتوقف تياره ٠

وما من شك فى أن ما أصاب الدين من مسخ وتشويه هو من أهم أسـباب الشلل الحضـارى ٠٠ وقد تنـادت أصوات المصلحين من هنا وهناك لتحاول رد الدين الى مكانه من الحياة ٠٠ وتحرير العقائد من البدع والخرافات ـ وتنقيـة جوها من الشرك والوثنية ٠٠

والعودة بالشريعة الاسلامية الى مصادرها الأصلية ومواردها العذبة ٠٠ ليرجع اليها صفاؤها وجلالها ٠٠ ثم معالجة الجمود الذى تمكن من الشريعة بفتح باب الاجتهاد ليتمكن العقل من أداء رسالته فى الدين ـ وفى الحياة البشرية ٠٠

لقد قام لفيف من المصلحين ـ فى حقب متقاربة من هذه العهود ـ ينفخون فى هذا الهيكل الرميم وينادون بضرورة الاصلاح ولكن نداءهم كان فى الأعم الغالب صيحة فى واد ، أو نفخة فى رماد ، وبعضهم أصاب الهدف ـ وبعضهم اقترب منه ٠٠ ولكنهم جميعاً كانوا مخلصين ٠٠ على تفاوت بينهم فى التطرف أو الاعتدال ٠٠

كانوا رواداً دينيين ٠ ٠ يريدون أن يغيروا وضع الدين فى المجتمع ويعيدوا اليه جلاله ـ وجماله ـ ليسطع من جديد فى آفاق الوجود فيبدد حاشية الظلام وعلى رأس هؤلاء جميعاً ـ ابن تيمية ـ وابن القيم ٠

ومنهم محمد بن عبد الوهاب كان متأثراً بابن تيمية ـ وقد ازدهرت دعوته فى نجد ـ وأثمرت ثماراً طيبة ولكنها ظلت اقليمية لم تمتد الى العالم الاسلامى ٠٠ وان امتدت روحها فى الحركات الاسلامية الأخرى ٠٠ وتهدف الى تنقية الاسلام من شوائب الشرك والوثنية ـ ومنع التوسل بالانبياء والاولياء والصالحين ـ ومحاربة البدع ـ والعودة الى كتاب الله وسنة رسوله ٠

وقد لقى هذا الشيخ تأييداً من أمير الدرعية (محمد بن سعود) فاحتضن دعوته وناصرها ومازال هذه المبادىء سائدة فى السعودية حتى وقتنا هذا٠٠وكانت وفاة الشيخ عام١٢٠٦هـ٠

ثم جاء الأفغانى ٠٠ الذى طوف فى العالم الاسـلامى كله يحمل الاصلاح الدينى ـ ويدعو الى الوحدة الاسلامية ٠٠ ليدفع بها غائلة المستعمر والى الحكومة الدستورية ليفمع شرة المستبد ٠٠وكان يرمى الى تحرير العقلية الاسلامية ليعود اليها صفاؤها فتجتهد وتقيس ٠٠ وتفهم أسرار الوجود ـ ومراد الوحى المقدس ٠٠ كما كان يأسى لتخلف المسلمين فى مضمار الحضارة وقعودهم عن ملاحقة الركب ٠٠ واستكانتهم للمستعمر ٠

ولقد كان ثائراً شديد الثورة ٠٠ ولكنه كان فصيح المنطق قوى الحجة ـ جريئاً لا يرهب أحداً فى الحق ـ وكان يحمد اللهأن آتاه من الشجـاعة ما يعينه على أن يقول ما يعتقـد ويفـعل ما يقول : ومن امتزاج هذه الشمائل فيه ، اتسعت حوله الأرض وامتد أمامـه الأفق وانصرف همـه البعيـد عن الـدار والزوج والعشـيرة الى الوطن الاسلامى كله ـ وقد آمن بدعوته ايمانه بالله حتى رأى فى سبيلها السجن رياضة والنفى سياحة والقتل شـــهادة ٠

وقد أثر فى عصره ـ وترك من بعده تلاميذ تبنوا مذهبه ـ وساروا على نهجه ٠ ٠ ولم يكن تلاميذه فى مكان واحد من الوطن الاسلامى بل هم متفرقون فى جنباته ٠ ٠ وعندما نقـوم دعوة [جمال الدين] بروح الانصاف ٠ ٠ نقول انها ذات بواعث دينية مخلصة ـ أراد من ورائها أن يبدأ بتغيير نظـام الحـكم ٠ ٠ فاتخذت طابع الثورة والعنف وامتزجت بالسـياسة منذ أول لحظة ٠ ٠ واذا لم تكن قد نجحت فيما هدفت اليه فقد أوجدت مدرسة تؤمن بالعقل ـ وتناقش بالمنطق ـ وتركز على الوحدة الاسلامية ٠ ٠

لقد أوجد [الأفغانى] فى العالم الاسلامى رأيا عاماً متفتحاً ـ يؤمن بالتطور ٠٠ ويهتف بالحرية ٠٠ ويندد بالمستبدين ٠٠ ومات سنة ١٨٩٧ م ٠

وجاء من بعده بل من أعظم تلاميذه [الشيخ محمد عبده] ـ الذى رأى أن الاصلاح الدينى لا يتم الا عن طريق التربية الدينية ٠٠ فسلك اليه سبيلا رفيقاً ـ متأنياً ٠٠ وبدأ باصلاح علم الكلام ٠٠ والاعتماد على العقل فى تفسير القرآن وفتح باب الاجتهاد ومكافحة البدع والخرافات ٠٠ وقد اشترك فى السياسة ثم عاد فاجتواها ولعنها ولم يترك مؤلفات كثيرة لأن المناصب التى شغلها حالت بينه وبين التأليف ٠٠ وله كتاب الاسلام والنصرانية ـ وتصدى للمبشرين بردود قاطعة ورده على هانوتو الفرنسى مشهور معروف ٠٠ ومات الامام عام ١٩٠٥ م

ولقد قام الكواكبى ٠٠ يدعو الى حرية الفكر ـ وكرامة العقل ـ ومكافحة المستبد ـ وتطهير الدين من الخرافات ٠٠ وهو شامى حلبى ، وكان صحفيا بليغا ، ومسلما متحرراً ، وهو من تلاميذ الامام ، الذين اشتهروا بمقاومة الاستبداد التركى ـ ودعوا الى العلم الذى يحرر أصحابه من العبودية والرق ٠

ومن دعاة الاصلاح والتحرير الدينى ، الفيلسوف محمد اقبال ، وماتزال كلماته النابهة أجراسا قارعة على دروب التجديد ـ وثورة على الجمود والرجعية ، ودعوة صريحة الى فتح باب الاجتهاد وتطوير أساليب الدعوة الى الله لتساير منطق العصر :

ومن هؤلاء أبو الأعلى المودودى ، وأبو الحسن الندوى ٠ ٠ وكلهم ينادى بتحرير الفكر الاسلامى من الجمود ليتمكن الدين من قيادة الحياة ، وتتمكن حضارة القرآن ، أن تسود من جديد ، ولقد نظر هؤلاء المصلحون ـ الى جوهر الدين ـ ورأوا بثاقب فكرهم أن المسلمين لا يتقدمون فى بلادهم الا بدفعة دينية قوية٠

ورأوا فى اغلاق باب الاجتهاد جريمة شنعاء بعد أن فقهوا قول ربهم [ان فى ذلك لذكر لمن كان له قلب ـ ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون] وهى آيات كثيرة فى كتاب الله تهيب بالعقل البشرى أن يؤدى دوره فى استنباط الأحكام وتطوير الحياة ـ وملاحقة أحداثها ٠

الاجتهاد وأثره فى تطوير الفكر

يقول محمد اقبال فى كتابه الخالد « تجديد الفكر الدينى فى الاسلام » :

« ان القرآن هو الأصل الاول للشريعة ــ وهو ليس موسوعة قانونية ــ لأن غرضه الاساسى أن يبعث فى الانسان أسمى مراتب الشعور بما بينه وبين الله ــ وبما بينه وبين الكون من صلات ــ وليس من شك فى أنه يقرر بعض المبادىء والأحكام العامة للتشريع » ..

ومغزى هذا الكلام .. أن على العقل البشرى أن يمضى مع تيار الأحداث المعاصرة مستهديا بالقرآن والسنة مجتهداً ماوسعه الاجتهاد .. لأن القرآن ليس موسوعة قانونية فيها كل الاحكام ــ والقوانين .. بل انه يتعرض للخطوط العامة وأمهات المسائل الكبرى ..

ويقول بعض الكتاب المعاصرين الباحثين فى الفقه الاسلامى (١) :

« على أن المذاهب الأربعة مع احاطتها وشمولها ليست الا تفسيرات فردية لم يهجس بخاطر واحد من أئمتها الزام أحد باتباع مذهبه وانما تركوا الباب مفتوحاً على مصراعيه للناس، وهم الذين أغلقوه بعد أن فشا الجهل وتغلبت الأهواء على

---

(١) من كتاب تاريخ التشريع واحوال الفقه للمرحوم احمد ابو الفتح ص ١٩٣

العقول فأجمع الفقهاء على اغلاق باب الاجتهاد المطلق المستقل وأن يكون العمل بمقتضى المذاهب الأربعة » ٠

وهذا الكلام يزيد ـ على ما مر ـ بأنه وضح لنا سبب اغلاق باب الاجتهاد وهو تغلب الأهواء وانتشار الجهل ـ وأن الفقهاء بسبب ذلك قد أجمعوا على تعطيل الاجتهاد المطلق المستقل واقتصروا على المذاهب الأربعة ٠

والحقيقة أننا نرى أن الحاجة ماسة جداً الى نوع من الاجتهاد وهو الذى يتناول المسائل الجديدة فحسب ـ تلك المسائل التى بات الافتاء فيها واجباً ٠٠ فقد أوجدت النظم الاقتصادية المعاصرة ألواناً من المعاملات ٠٠ ما يزال الافتاء فيها خاضعاً لهوى الأفراد ، منهم من يحل ومنهم من يحرم ٠٠ ولابد من هيئة متخصصة (كمجمع البحوث) تقول رأيها صريحاً واضحاً لا لبس فيه ـ وما أكثر المسائل التى تنتظر البت فيها، أما الموضوعات التى أفتى فيها الأئمة الاربعة فليس هناك مقتض لاعادة النظر فيها الا عندما يظهر عدم ملاءمتها ٠٠

ولأن الاجتهاد هو سر حيوية الفقه ، وازدهار التشريع ، نسمع مستشرقاً مثل « فون كريمر » يقول معللا هذه الحيوية :
انما كان ذلك لما تحلى به فقهاؤه من عمق ودقة فى التشريع واجتهاد فيه] ٠

ان هؤلاء جميعاً يرون فى الاجتهاد مزية رائعة بالنسبة لحضارة القرآن فهو الذى يجعلها أشبه بالماء المتجدد لا الماء الراكد الآسن الذى تتولد فيه الحشرات ويرتع البعوض ٠

وهذه المزية تجعل من هذه الحضارة منطلقاً يمتد ويترامى ليغطى احتياجات البيئة المتجددة ويلبى نداءها ـ ولقد مارسه

الثقات الأعلام فى عصور التاريخ الزاهرة ، اجتهد عمر فى الغاء سهم المؤلفة قلوبهم ـ بعد أن ذهبت الحاجة اليه لأن الله أعز الاسلام ولم يعد أحد فى حاجة الى تأليف ·· فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، كما اجتهد فألغى حد السرقة فى عام المجاعة لأن السارق مضطر ومعرض للموت ، كما أنه جمع المسلمين على صلاة التراويح عشرين ركعة ·· وأنهى ما كان يسود المجتمع من خلاف فقد كان بعضهم يصليها ثمانى ركعات ·· وبعضهم يصليها عشرين ·· واشتد الخلاف بين الفريقين فجمعهما عمر على خطة سواء ·· ورأى فى هذا الاجتماع مظهراً من مظاهر الوحدة الاسلامية ، ولقد اجتهد هذا الخليفة العظيم فى كثير ·· وله فكر اقتصادى متميز ·

واجتهد غير عمر ممن جاءوا بعده ـ وما يزال الخير موجوداً فى هذه الأمة الى يوم الدين فهناك علماء قد نجهل أسماءهم وشخصياتهم ، وفيهم أهلية الاجتهاد ··

ولسنا ممن يقول : لم يترك الاوائل للأواخر شيئاً ·· ولكنا نقول كم ترك الأوائل للأواخر أشياء وهل يطالب الاوائل باختراع قضايا ومسائل ليست فى عصورهم ليوجدوا لها حلولا ملائمة ؟ ·· ان لكل عصر سمته ومشكلاته وقضاياه ·· وقد تعقدت أموره ـ وجدت مسائل لم تكن من قبل فلنجتهد كما اجتهدوا وجزاهم الله عنا خير الجزاء أما أن نهدر ملكاتنا ونلغى عقولنا ـ ونلوذ بالصمت فذلك جبن عن المواجهة الجريئة ـ وتقصير فى حمل الأمانة ـ وخيانة لله ورسوله ·

ان خصائص مدنيتنا الاصيلة الزاهية تجد حيويتها فى الاجتهاد ·· وانه لشىء مؤلم حقاً أن تزيف تلك الخصائص على أيدينا فتنكمش وتضمر ·· فهل يعود العقل الاسلامى الى التمحيص والبحث ويمارس الاجتهاد ؟

يقول المستشرق الفرنسى رينان : [وما يدرينا بأن يعود العقل الاسلامى الولود ـ والكثير المواهب الى ابداع مدنية أروع من زميلتها بل ما يدرينا ما عساه أن يصبح بعد قليل مصير المدنية الأوربية الحالية التى هى وليدة التمدن الاسلامى القديم فى خصائصها العليا] ٠

ان الرجل الأجنبى يذرف الدمع على مأساة التحجر العقلى التى منى بها الفكر الاسلامى ويمنى نفسه بأن يعود العقل الاسلامى الولود الى الابداع والبحث مرة آخرى لينشىء مدنية أكثر ملاءمة للحياة ٠٠ ويرى أن حضارة أوربا ـ قد استمدت خصائصها العليا من الاسلام ٠٠ ويتوعد تلك المدنية الأوربية بمصير فاجع عندما يزدهر الفكر الاسلامى ثم يتوسع الرجل الأجنبى فى تبرير الجمود العقلى للمسلمين ـ ويؤكد بأنه ظاهرة تصيب كل الامم فيقول :

« لا يصح لأوربا أن تطبع الاديان الغير مسيحية بطابع حضارتها وأن توسعها طعناً وتزييفاً اذ أن لكل دين وجهة دنيوية بجانب وجهته الدينية ٠٠ ان محمداً العظيم ـ قد أتى بديانة انبثقت عنها مدنية عالمية لا يصح بجانبها اتهام أتباعها المتأخرين بالجمود والتخلف ففترات الازدهار والانحطاط مرت على رأس جميع الدول بما فيها أوربا المتعجرفة » ٠

وهو كلام يدور كله حول تبرير الجمود الذى أصيب به المسلمون ـ ويستنهض عزائمهم ـ ليسدوا الثغرات الموجودة فى صرح بنائهم الحضارى ٠٠ بالاجتهاد الذى ينشأ عنه تحرر الفكر وازدهار المدنية وانطلاق الحياة بما كان من قبل ٠

ويقول الشيخ محمد عبده (١) معلقا على كلمات رينان مبدياً اعجابه بدفاعه عن المدنيـة الاسلاميـة : « تالله لو انبريت أنا بنفسى للدفاع عن الاسلام ونبيه لما استطعت أن أجيده كما أجاد ذلك العبقرى ·· ثم قال : ومما يزيد هذا الدفاع رونقاً وجلالا صدوره عن لسان أجنبى غريب عن الاسلام ينصفه بهذه الروعة ــ ثم ينتقد دينه ثم يختتم الامام كلامه بقوله : فمرحى مرحى وعليك السلام ياابن الكرام !! » ··

وقد نجد لرينان تصريحاً من أجل ما قرأنا فى انصاف الاسلام ــ ومدنيته والاشادة بخاصية الاجتهاد الذى لم يوجد فى المسيحية ·· ولا كان سمة من سماتها لأنه يعتمد التحرر العقلى ·· والفهم الذكى ومن أين للكنيسة بذلك ؟

يقول : « انه ليس فى الاسلام أساطير ولا خرافات فالمجهود العلمى والمنطقى بارزان فى معظم الأفكار الاسلامية ــ فاذا درست مذاهبه الاربعة لا تجد غير دساتير أخلاقية مدنية ــ وشواعر روحية سامية ، وقواعد تعبدية منسجمة ــ ترمى فى النتيجة الى تحرير الحق من كل باطل ــ وما البروتستانتية التى نشرها الاصلاحيون (لوثر وأنصاره) المجددون فى أواخر القرون الوسطى بأوربا الا صورة لتقليد البساطة الاسلامية ــ سواء فى طقوس العبادة أو فى استئصال عادات الزخرفة المقتبسة من أساطير الاغريق » ·

وفى هذا التصريح الأخير يبرز أمران على جانب عظيم من الأهمية :

---

(١) من مقال نشر بمجلة العروة الوثقى فى حينه ·

(أ) الاشادة بالمذاهب الاسلامية ـ التى حررت الفقه الاسلامى من الجمود وضبطت مسائله وحددت وسائله واجتهدت بالعقل الملهم والفكر المتحرر والقريحة الصافية ٠

(ب) الاعتراف الواضح بنزعة التحرر التى أسبغها الاسلام على المسيحية الثائرة على الجمود الكنسى ـ الذى امتهن كرامة العقل ـ واحتكر مسائل العلم ـ ووأد حرية الانسان وهذا الاعتراف الأخير سنرجع اليه بعد قليل لانه فى غاية الاهمية ٠٠

ولقد كان رينان فى أخريات أيامه باحثاً حراً فى الأديان ٠٠ بعد أن تحرر من الرهبنة التى لم يرض عن نظامها ٠٠ وشرع يسدد الضربات الى المسيحية المخرفة ٠٠ ويشيد بالاسلام ومناهجه الفذة فى البحث والاستدلال ـ وكانت عاقبته أن كفرته الكنيسة ـ ونبذته ٠٠

ولقد نرى الحرارة والاخلاص فى كتابات اقبال والمودودى فيما يتصل بوجوب فتح باب الاجتهاد ليسهم فى انشاء فقه أفضل ـ ومدنية أمثل ٠٠ ونرى هذا الاخلاص يبلغ مداه عند اقبال اذ يقول : « العالم الاسلامى اليوم يتأثر بما يواجهه من قوة جديدة أطلقها من عقالها تطور الفكر الانسانى تطوراً عظيما فى جميع مناحيه ـ وانى لا أرى ذلك موجباً للتمسك بهذا الرأى الجائر ـ اغلاق باب الاجتهاد ـ والرأى عندى هو ما ينادى به الجيل الحاضر من أحرار الفكر فى الاسلام من تفسير أصول المبادىء التشريعية تفسيراً جديداً على ضوء تجاربهم وعلى هدى ما تقلب من أحداث العصر ـ انه رأى له ما يسوغه كل التسويغ ـ كما أن حكم القرآن على الوجود بأنه خلق يزداد ويترقى بالتدريج يقتضى أن نجعل لكل جيل الحق فى أن يهتدى بما ورثه من آثار أسلافه ـ من غير أن يعوقه ذلك من مشكلاته ـ

ثم يقــول ٠٠ ان الطريقــة التى اتبعهــا نبى عالمى كمحمد فى التشريع هو أنه يعلم أمة معينة ويتخذ منها نواة لبناء شريعة عالمية ـ وهو بهذا العمل يؤدى حق المجتمع الكبير » اهـ ٠

وهذا الفيلسوف يرمى الى أكثر مما ندعو اليــه ٠٠ لأنــه يريد تجــديد أسلوب الدعوة الى الله بحيث تلائم روح العصر وتلبس ثوب الحياة الجديد ٠٠ وتفسر المبــادىء التشريعيــة تفسيراً عصرياً يقتنع به المثقفون وأصحاب النظريات الجديدة والعلوم الحديثــة ٠٠ لا أن تتجمد فى قوالب محفــوظة نرددها ترديداً أبلـه ٠٠ دون التفات الى مقتضيات العصر ٠٠ ولا ربط بين الحياة والدين ٠٠ انه يطالب بأســلوب عصرى فى الفهــم والأداء وتفسير التشريع كما أنه ينادى أيضاً بوجوب الاجتهاد فى المسائل الجديدة حتى لا يتوقف المـد الفقهى ولا شك ـ أن « اقــبال » بهذه النزعة الرامية الى التجديد يعد طليعة فكرية اسلامية رائدة ٠٠ ونرى فعلا أنه لابــد من أن نعيش حياتنــا طولا وعرضاً وعمقاً ٠٠ نفهم أسرارها ، ونستبطن دخائلهــا ٠ وندقق فى فهم اتجاهاتها ٠٠ ثم نربطها بالدين لا أن نتحول الى دمى جامدة مكرورة ما تسمعه هنا تسمعه هناك ٠

لابد من فهم جديد وتفسير جديد وربط جديد واستيعاب لمطالب العصر ٠ ٠ وكل ذلك يدعو الى ثقافة متكاملة تعين على الادراك الســليم ـ وتطوير المعرفــة الدينية لا أن نعيش على هامش الحياة ٠٠ وهذا بدوره يؤدى الى فاعليــة الدين وربــط الناس بمدنيته ويقول أبو الأعلى (١) المودودى مؤكداً فتح باب الاجتهاد داعياً الى استعمال العقل :

---

(١) من كتابه نحن والحضارة الغربية ص ٢٠٠ بتصرف بسيط ٠

« من من المسلمين يستطيع أن يجحد فضل الأئمة الفقهاء والمتكلمين والمفسرين والمحدثين رحمهم الله ؟ ولكنهم على كل حال كانوا بشراً وكانوا يملكون من اكتساب وسائل العلم ماهو حاصل لعامة بنى آدم ولم يكن يأتيهم الوحى وانما كانوا يستعملون عقلهم وبصيرتهم ليسبروا غور كتاب الله وسنة رسوله فكل ما تحقق عندهم من المبادىء كانوا يستنبطون منه الفروع للقوانين والمعتقدات فاجتهادهم هذا يجوز أن يكون عوناً لنا ونوراً يسعى بين أيدينا ولكنه بذاته لم يكن ليتخذ أصلا ومصدراً – وان الانسان سواء اجتهد بمجرد رأيه أم بالاستفادة من كتاب من الكتب السماوية فان اجتهاده لا يمكن أن يكون قانوناً أبدياً وقاعدة حتمية لازمة للدنيا لأن التعقل والعلم الانسانى يتقيدان أبداً بقيود الزمان – وان كان هناك من يتحرر عن ملابسات الزمان والمكان فهو الله العالم وحده » .

ويتابع حملته قائلا : [القرآن والسنة هما المنبع الذى يستنبط منه جميع البشر فى كل زمان ومكان علوماً وأفكاراً وقوانين بحسب أحوالهم المخصوصة وبمراعاة حاجاتهم وضروراتهم وما دام العلماء المسلمون يستمدون العلم من هذا المأخذ ويحلون المسائل العلمية والعملية باجتهادهم المستند الى التفكير الصحيح فان الاسلام سيظل يساير الزمن ولكنهم تركو التدبر فى القرآن – والتفحص فى الأحاديث وراحوا يقلدون السلف من المفسرين والمحدثين تقليداً أعمى واتخذوا اجتهاد الفقهاء والمتكلمين الماضين قانوناً أبدياً لا يغير أو يعدل وجعلوا الفروع التى استنبطها السلف هى الأصل مكان أصول الكتاب والسنة – ولما حدث هذا كله وقف سير الاسلام بغتة وجعلت قدمه تتراجع الى الوراء بدل أن يخطو الى الأمام وغدا حملته وورثته ينغمسون فى شرح وتفسير المسائل القديمة بدل أن يهدوا العالم فى ميادين العلم والعمل الخ » .

مامغزى هذا الكلام ؟

انه يرمى ـ كاقبال ـ الى تجديد شامل ـ وارتباط بالمنابع الأصيلة للتشريع ـ وهما الكتاب والسنة ٠٠ وأن نحرر عقولنا من الجمود ـ وأن نقلع عن تناول المسائل القديمة الجافة ـ وأن نطور معرفتنا الدينية لنقود المسلمين الى العلم والعمل ـ وهذا كلام يوجب علينا ـ أن ننظر فى أساليب الكتب الدينية ٠٠ وعباراتها المعقدة ـ ومفاهيمها البالية ـ فالحق أن كتب التوحيد مثلا لا تهدى الى معرفة نافعة ٠٠ ولا تشعل عاطفة التدين ٠٠ ولا تكسب الدليل الواضح ٠٠ ولا ترد شباب الاسلام من الجموح الى الهداية الراشدة ٠

وكتب الفقه والتفسير والحديث ينبغى أن يعاد النظر فى أسلوبها وشرحها ٠٠ وكذلك البلاغة العربية ٠٠ التى يجب أن تهتم بالنصوص ونقد الأساليب ، لا أن تسرف فى ارجاع الضمائر ـ واخراج المحترزاد والتفنن فى المصطلحات القديمة ٠

كل ذلك من وسائل الاصلاح ـ التى ترمى الى تيسير المعرفة ـ وفهم مطالب البيئة ـ وازدهار المدنية الاسلامية ٠٠ انه الاجتهاد العام الشامل الذى يعود بنا الى الكتاب والسنة لا التعبد بما قاله السلف ـ ولا التعصب للأراء التى إستنبطوها ٠٠ فلدينا المصادر التى استقوا منها ٠٠ ومن حقنا أن نمارس الفهم تبعاً لروح العصر ٠

ان الاجتهاد ـ والقياس ـ والاجماع ٠٠ كلها وسائل تمكن العقل الواعى من أداء رسالته وتحقيق أهدافه ٠٠ وكلها لابد أن تستند الى مأخذ صحيح يوجبها ويقتضيها ٠

يقول الآمدى فى كتاب الأحكام مشيراً الى الاجماع • [اتفق الجميع على أن الأمة لا تجتمع على الحكم الا عن مأخذ ومستند يوجب اجتماعها] • •

ومعنى هذا أن الاجماع عمل عقلى يعتمد على مأخذ ويستند الى موجب ولا شك أن العقل هو الذى يدرك ثم يقره الرأى العام المتخصص ليكون اجماعاً • •

فالبحث فى الأدلة ـ ودراستها بروح العصر ـ قد ينشأ عنه فهم جديد لحكم من أحكام الله ويرضى عنه أهل الرأى فيصبح اجماعاً • • فيكون الاجماع بهذا الفهم وسيلة من وسائل التيسير ـ ورعاية المصالح • •

والاجتهاد • ، بذل الجهد للوصول الى الحق • • والمجتهد قد يتخذ القياس وسيلة من وسائله وقد يجتهد بالفهم من الدليل • • وبذلك يختلف الاجتهاد عن انقياس • • فالاجتهاد عمل المجتهد ـ والقياس وسيلة من وسائله •

لكن الشافعى رضى الله عنه يجعلها اسمين لمعنى واحد •

يقول فى الرسالة : [هل الاجتهاد هو القياس ؟ أم هما مفترقان • • قلت : هما اسمان لمعنى واحد] •

على أى حال • • فنحن نرى أن كلا من الاجتهاد والقياس عمل عقلى يثرى الأحكام ويزيد الحياة العلمية خصباً ونماء • • سواء اتفقا أم اختلفا !!

ويقول الشوكانى : [اتفقوا على حجية القياس الصادر منه صلى الله عليه وسلم] •

ونحن نقول : وكذلك ان صدر عن غيره ــ وكان له مساغ شرعى وسلمت وسائله ــ بأن كانت علة الأصل موجودة فى الفرع فحينئذ يثبت للفرع حكم الاصل ٠

ومن هنا فانه يجب أن ندرك بأن الفقه الاسلامى قد توقف منذ زمن ليس بالبعيد ــ لان المسلمين قد ابتلوا بمصائب هددتهم فى ديارهم ــ وصرفتهم عن أهدافهم ــ وانحرفت بخط حضارتهم ٠٠ وعلى رأس ٠٠ هذه النكبات ــ الغزو التترى ــ والصليبى ــ والجمود التركى والاستعمار ، ومن قبل ذلك ٠٠ نكبة الأندلس ــ ومأساة فلسطين ــ ومنازعاتنا الداخلية ــ وتفكك وحدة المسلمين ــ واستسلامهم للظروف ٠٠ كلها عوامل صرفت جهود المسلمين عن الابداع والتقدم وحولت العلوم الى مسائل نظرية وذهنية ــ وفصلتنا عن ينابيع شريعتنا ــ فانصرفنا عن التطبيق الحى ــ والتوليد المثمر ــ وفى أثناء توقف الفقه الاسلامى كان العالم يتطور بسرعة مذهلة ــ حيث اخترعت الآلة وأحدثت تغييرات فى العلاقات البشرية ٠٠ لم يضع المسلمون مايناسبها من الاحكام ٠٠ ولم يدلوا برأى فى هذا العالم الجديد ٠٠ وما نشأ فيه من ظروف اقتصادية ٠٠

وعندما نقول بالتطوير : فاننا نفرق بين الشريعة والفقه ٠٠ فالشريعة مصدر ثابت يحتوى المبادىء العامة ٠٠ أما الفقه ــ فهو القانون المتطور الذى يستقى من الشريعة وهو عنصر لا ينبغى أن يتوقف عند عصر أو جيل لأنه مرتبط بالحياة المتجددة ٠٠

والامل معقود على الأزهر الشريف فى تحرير الفقه الاسلامى ٠٠ بل الفكر الاسلامى كله ٠٠ وفى تحريكه أيضاً ليظل دائماً ملائماً لروح العصر مستوعباً للقضاء الجديدة بحيث يبرز الفقه

فى ثوبه الجديد وهو ثوب عصرى ملائم يجد فيه القارىء العصرى ما يبدد شكوكه ـ ويرضى مطامحه ـ وتجد فيه حضارة القرآن ما يساعدها على الانطلاق والتجدد والنماء المستمر ٠

(ب) ثبات صبغتها وابتعادها عن أهواء البشر :

ومن الخصائص الكبرى لحضارتنا القرآنية ـ أنها ذات صبغة الهية ـ ما دامت مرتبطة بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ٠٠ وهذا يجعلها ذات صبغة ثابتة فى خطوطها الكبرى ومراميها البعيدة ٠٠ ويحصنها ضد أهواء البشر وشهواتهم لأن الحلال والحرام والخير والشر ـ وما يجوز وما لا يجوز كلها أمور ثابتة فى كتاب الله وسنة رسوله ٠٠ وكلها تطبق على البشرية بطريقة واحدة لا فرق بين كبير وصغير ولا بين حاكم ومحكوم ولا بين رجل وامرأة ٠٠ الجميع أمام التشريع سواء ٠

ولو أن تشريعاً بشرياً صدر عن جماعة أو أمة لما أمكن أن ينزه عن نزعات الهوى الى الحد الذى ينشىء الثقة فيه أو العمل به ٠٠ لأننا لا نأمن أن يكون هذا القانون لمصلحة طبقة من الأمة دون طبقة ـ كطبقة العمال مثلا ـ كما لا نأمن أن يكون لصالح جنس دون جنس بأن تراعى فيه مصالح الرجال دون النساء كما حدث فى معظم قوانين العالم حيث اعتبرت المرأة من سقط المتاع ٠٠ أو تستهدف فيه مصالح فئة دون فئة كمصلحة الجيش ـ أو القضاة أو رجال الدين دون مصالح الفئات الأخرى ٠٠ ومن هنا يجىء الاختلال وينشأ الظلم ، ومآسى العالم كله فى القرون الوسطى ناجمة عن هذا الاتجاه ٠٠

وعنصر الطاعة والالتزام والتوقير انما يتوفر للمنهج الربانى بخلاف غيره من المناهج البشرية ·· فان الناس تتمرد عليها وتنتقدها وتتهمها ··

وتحليل الحلال وتحريم الحرام فى هذا المنهج الالهى من خصائص المولى عز وجل ·· فليس لأحد أن يحرم أو يحلل ·· « يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين (١) » ·· وعندما يحلل القرآن أو يحرم ·· فانه يربط هذه الأمور بالعقيدة التى تجعل المسلم يبادر بالامتثال ويسارع اليه ·· لأنه بعد أن آمن بربه لا يسعه الا أن يحل حلاله ويحرم حرامه ·· ولا يجد لنفسه حيرة فيما اختاره ربه ·

ومن ثم فقد مكث الرسول ثلاثة عشر عاماً من عمر الدعوة يعلم القوم « لا اله الا الله » وبعد أن استوثق من غرس العقيدة فى أعماق الضمير شرع يبنى عليها ·· فبدأت الأوامر والنواهى التى لا يسع من استسلم لله الا أن ينفذها بعد أن لم يعد للمسلم فى نفسه شىء · وبعد أن لم يعد يرى لنفسه اختيارا الى جانب ربه ·· لأن العقدة الكبرى قد انحلت ـ وهى عقدة الشرك والجاهلية ·· فكل شىء بعد هين ميسور ·

لقد نزل تحريم الخمر والكئوس مترعة على أكف القوم ، والشفاه متلمظة ، والأكباد متقدة ، والنزوات حامية حادة مستعرة ، فاذا بالقوم يكسرون تلك الكئوس ويريقونها على الأرض ، ويخرجون بالدنان الى شوارع المدينة وسككها فتسيل بالخمر وتظل رائحتها الى أمد طويل ، رائدهم فى ذلك « واتقوا الله واسمعوا » ·

---

(١) آية ٨٧ سورة المائدة .

[يأيها الذين آمنـوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم (١)] ٠

وبهذا التكوين العميق لضمير القوم ، أصبح كل شيء ميسورا وانطوى بساط الجاهلية وطعنها الاسلام فى تقاليدها الكبرى طعنة نجلاء خرت على أثرها صريعة تتلوى ، لتحل محلها شريعة الله وأحكامه ـ ولم تكن الرجعية الجاهلية لتتنازل عن تقاليدها بسهولة وانما استماتت فى الدفاع عن نفسها ، وفى الحفاظ على تقاليدها وشهواتها ، ولما لم تجد لنفسها مجالا تعيش فيه ٠٠ بعد أن استسلم القوم لله ـ استسلمت هى وألقت السلاح ودخلت فى هذا التغيير الاسلامى ـ واعتنقته وآمنت به ، ثم تفاعلت معه ودافعت عنه ، ثم وصل بها الأمر أن ضحت بالروح والمال والولد فى سبيله !!

كل ذلك ، لأن هذا التغيير قام على أسس سليمة ، عندما تعهد أولا ضمائر القوم فغرس فيها العقيدة ثم بدأ بعد ذلك يلقى بالتكاليف ٠٠

ان التحليل والتحريم انما يخصصان لأمور خارجة عن طاقاتنا ومعرفتنا ، قد نفهم سرها فى بعض الأحيان ٠ وقد نجهل من ذلك الكثير ، وقد نجهل السر كله ، وقد يأتى الوقت الذى نفسر فيه ذلك السر ، بواسطة العلم ـ أو التجارب ٠٠ والمهم أننا فى كل ذلك نستجيب لقدر معتقدين أن الله وحده هو الذى يعلم مصالح العباد وسعادتهم ـ وأن فى تحريم أمر ما مصلحة عليا أو حكمة خافية قد استأثر بها علم الله الذى وسع كل شيء علماً ولقد كنا نسمع حديث البخارى ومسلم [اذا وقع الذباب فى اناء أحدكم فليغمسه ثم لينزعه فان فى أحد جناحيه

---

(١) آية ٢٤ سورة الانفال ٠

داء وفى الآخر دواء (١)] زاد مسلم [وانه يتقى بجناحه الذى فيه الدواء جناحه الذى فيه الداء] • وكم تشكك الناس فى هذا الأمر ـ وطعنوا فى الحديث • • لأن غمس الذباب فى الاناء مما تعافه النفس وتستقذره ••

وظلوا : يتساءلون عن الحكمة •• ثم جاء العلم فأثبت أن هناك جراثيم موجبة على أحد الجناحين وسالبة على الثانى، وأن الغمس يحقق المصلحة لأن أحد الجناحين سيبطل عمل الآخر •

وقد جاء أيضاً تحريم لحم الخنزير ، فتشكك الناس فى الأمر ، وقالوا : ان قوما يأكلونه فلا يصابون بأذى ؛ وان صحتهم دائماً لقوية ، ثم ثبت بعد أنه يورث الدودة الشريطية ثم ما يزال الطب يكتشف أضراره إلى اليوم •

ففى جريدة الأخبار بتاريخ ١٩٧٢/١/١١ ، نشرت مقالا تقول فيه :

« اتضح أن دهن الخنزير يسبب حصوة المرارة ويؤدى الى زيادة [الكولسترول] وتصلب الشرايين كما أثبت الدكتور « دام » الدانمركى ـ وتحدث بهذه النتائج الى الدكتور المصرى عبد القادر سيد أحمد الأستاذ المساعد بصيدلة القاهرة منذ عامين وبعد أن كانوا يجهلون التفسير العلمى لهذا الأمر أصبحوا يعرفون بأن دهن الخنزير مركب بطريقة تخالف سائر الدهون » ا ، هـ

وهكذا لا يحرم الله شيئاً الا لحكمة ، قد نجهلها فى حينها ثم يجىء الوقت الذى يكشف فيه العلم عن أسرارها ـ أو بعض أسرارها •

---

(١) رواه أبو هريرة ـ وفى رواية ابن ماجة اذا وقع فى الطعام ..

والمسلم ينقاد لأمر الله لا محالة بعد أن يؤمن به الها قادراً قد أحاط بكل شئ علما ، وهل كان من الممكن أن يخضع القوم لقاعدة تحريم الربا وهو كان متغلغلا فى مجتمعاتهم ساريا فى دمائهم يستعملونه أضعافاً مضاعفة ؟ ولقد ذاقت المدينة المنورة مرارته على يد اليهود المتخصصين فى المعاملات الربوية ، وباتت تنتظر الخلاص منه ٠

لم يكن سهلا أن يستسلم القوم لتحريم الربا ، لو صدر عن أى ملك أو عظيم ، حتى ولو أعدموا نصف المجتمع ، وجندوا كل وسائل الاعلام وأنفقوا كل ميزانيتهم ولكنه سر الله الخالد الذى يستودعه أحكامه ، جعل القوم ينقادون لأمر الله ، ويصيخون الى النداء العالى : [يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة (١)] ٠

وقوله : [وأحل الله البيع وحرم الربا (٢)] ان هذه الاستجابة لم تنشأ عن سطوة القانون ، ولكنها نشأت عن خشية الله ، وتلبية دواعى الايمان ٠

ولنأخذ حالة تحريم الخمر فى الاسلام كنموذج يوضح لنا الفرق بين قوانين البشر وأوامر السماء ٠

أخذ تحريم الخمر فى الاسلام شكلا متدرجاً ، لتتهيأ النفوس وتنقاد ، لأن المجتمع الجاهلى كان غارقا فيها الى الأذقان يشربها الصبوح والغبوق ـ ولا يتأثم واحد عن شربها، حتى عمر بن الخطاب ، يقول طرفة بن العبد :

وما زال تشرابى الخمور ولذتى
وبيعى وانفاقى طريفى ومتلدى

---

(١) آية ١٣٠ سورة آل عمران ٠

(٢) آية ٢٧٥ سورة البقرة ٠

ويقول الأعشى :

وكأس شربت على لــــذة   وأخرى تداويت منهـا بهـا
لكى يعلم النـاس أنى امرؤ   أجيىء المـلذة من بـابهـــا

لا يتصور فى مجتمع هذا شأنه أن تحرم الخمر دفعة واحدة، بل لابد من تهيئة نفسية تجعـل القوم يتجاوبون مـع منطق التحريم ، كانت المرحلة الأولى لتحريمها ملطفة خفيفــة ، وهى قوله سبحانه : [ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخـذون منــه سكراً ورزقاً حسنا (١)] ٠

فكانت أول ما يطرق حس المسلم وضع السكر أى الخمر فى مقـــابل الرزق الحسن ، فكأنمـا الخمـر ليست من الرزق الحسن ، انها همسة لطيفة تلقى بمضمونها فى حس المسلم ٠

ثم تأتى المرحلة الثانية لتفتى بلسان الشرع بأن اثم الخمر أكبر من نفعها ، [يسألونك عن الخمر والميسقل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما (١)] ولكل شىء فى الحياة نفع ، لكن اذا غلب الاثم على النفــع فكيف يستسـاغ الشىء ؟ انها همسة قوية تترك فى وجدان المسلم فكرة ضرر الخمر ٠٠!!

وتجىء المرحلة الثالثــة ٠٠ كصيحة عاليــة لتلقى فى روع المسلم التنافر بين الصلاة والخمر ٠٠ [يأيها الذين آمنــوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون (٢)] واذا كانت الصــلاة خمس مرات فى اليــوم والليــلة موزعة فى أوقات متقاربة غالباً ــ فأين هو الوقت الذى يتسع للسكر ثم الافاقة

---

(١) آية ٦٧ سورة النمــل ٠
(١) آية ٢١٩ سورة البقرة ٠
(٢) آية ٤٣ سورة النساء ٠

بين وقتين ٠٠ لقد ضاق أمر الخمر ٠٠ وقلت الفرص التى تتسع لها ٠٠ ولعل هـذه الآية تكسر عرف الادمان الذى أطبق عليـه العرب ٠٠ صباحا ومساء ٠٠ وفيه تنفير منها لأنها تتنافر مع الصـــلاة ٠٠

ثم كانت المرحلة الرابعـة صيحـة عالية حاسمة بعـد أن تهيأت النفوس فلم يعد لها الا أن تمتثـل على الفور [يأيهـا الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصـاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون (١)] ٠

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شفاء فنزلت آية البقرة «واثمهما أكبر من نفعهما» فلما قرئت على عمر قال : اللهم بين لنـا بيانا شفـاء فى الخمر فنزلت آية النساء « لا تقربوا الصلاة وأنتم سـكارى » فلمـا قرئت عيله قال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شفاء فنزلت آيـة المـائدة : « فاجتنبـوه لعلكـم تفلحون ». الى قوله سبحانه : « فهل أنتم منتهون » فقرئت على عمر فقال : انتهينا انتهينا ٠٠ ولمـا نزلت آية التحريم هذه فى سنة ثلاث بعد وقعـة أحد لم يحتج القوم الى أكثر من مناد يطوف على القوم قائلا : [أيها القوم ٠٠٠ ان الخمر قد حرمت] فمن كان فى فمه جرعة مجهـا ـ ومن كان فى يده كأس قذفهـا ـ ثم حدثت عمليـة تطهير عام بكسر الدنان ٠٠ وحطم القوارير ٠٠ وشق الزقاق ٠٠ والالقاء بكل ذلك فى سكك المدينة وانتهى الأمر كأن لم يكن سكر ولا خمر ـ وكفى تقبيحا للخمر أنها عمل شيطانى ـ وأنها تذهب العقل ـ وأنها تسقط الكرامة وتخـل بالمروءة ٠٠ وتبـدد المـال وتلقى بالعداوة والبغضاء بين الناس ٠٠ وأن فى شربها مخالفـة لله

---

(١) آية ٩٠ سورة المـائدة .

ورسوله لقوله سبحانه : [وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول] ثم التعقيب على ذلك بقوله : « واحذروا » فانظر الى الحسم القاطع فى التحريم الذى لا يبقى معه شبهة ولا تعلة ٠٠ وكفى أنها رجس وخبث !! لكن ماذا كان موقف القوم ؟ لنستمع الى حزم التنفيذ بعد أن استمعنا الى حسم التحريم وقد مضى أن عمر نطق على الفور بعد سماع قوله سبحانه : « فهل أنتم منتهون » قائلا : انتهينا يارب وكررها ٠ ٠ وقال أنس رضى الله عنه : حرمت حرمت وما حرم على العرب شىء أشد من الخمر !! ثم قال أنس فأخرجنا الحباب ـ أى أوانى الخمر ـ الى الطريق العام فصببنا ما فيها ، فمنا من كسر حبه ، ومنا من غسله بالماء والطين ٠

وقل أنس أيضا : كنت ساقى القوم يوم حرمت الخمر فى بيت أبى طلحة وما شرابهم الا « ففيخ » أى عصير البسر والتمر فاذا مناد ينادى فقال القوم : اخرج فانظر : فسمعته يقول : ألا ان الخمر قد حرمت قال : فجرت فى سكك المدينة فقال لى أبو طلحة : اخرج فأهرقها ـ فهرقتها ـ وقيل : كان رجل يشرب الخمر وأوشكت الكأس أن تمس شفته اذا بداخل دخل عليه فقرأ آية التحريم فانفصلت الكأس من فيه فى الحال ولم يذق لسانه قطرة مما فيها الى الأبد ، وكل من شرب منهم بعد ذلك ضربوه بالنعال أو الجريد أو العصى ثم جلدوه أربعين ثم جعلوا حد الشرب ثمانين جلدة ـ لأنه اذا شرب سكر ـ واذا سكر هذى ـ واذا هذى افترى ـ وحد الافتراء ثمانون كما يقول على كرم الله وجهه ـ وهجرت العرب الخمر هجراً ـ ثم اتسعت رقعة الاسلام ، فزهد أهل البلاد المفتوحة فى الخمر ونفروا منها اذعاناً لتحريم الله ، والذين يحصون شاربى الخمور فى العالم يجدون المسلمين أزهد الأمم فيها ٠ ثم لا يكاد يشربها شارب الا مستخفياً يهرب من ضميره ومن مجتمعه ويؤمن بأنه يرتكب

معصية غليظة ٠٠ ولننظر هنا فى مجموعة من الأمور وهى مستخلصة مما مر :

أولا : أن التحريم قد صدر متدرجا مراعاة لحالة القوم ـ ثم جاء التحريم الحاسم فى النهاية ٠

ثانيا : أنها حين حرمت الخمر كانت الاستجابة سريعة فأريقت وفاحت بها طرق المدينة ٠

ثالثا : أن هذا التحريم لم يصدر عن ملك أو أمير تخشى عقوبته ولكن صدر عن اله حكيم ترهب سطوته ٠

رابعا : أن القوم لم يتكبدوا فى التحريم عنتا أو ينفقوا مالا وانما هو اعلام عام على لسان مناد بسيط ٠

خامسا : أنه رغم جهالة القوم وأميتهم وتغلغل الخمر فيهم وتمكنها منهم لم يشذ فرد واحد عن الامتثال ٠

سادسا : أن هذا التحريم قد تم تنفيذه ـ بشكل لا رجعة فيه ولا ردة الى يوم الدين ٠٠

بعد هذا التحليل نأتى الى تجربة بشرية خاضتها أمريكا فى سبيل تحريم الخمر ، فقد قام أولو الأمر فيها بدعاية واسعة ضد الخمر وطاردوها فى بلادهم ٠ وكشفوا عن أضرارها المادية والأدبية والعقلية بأدلة ناهضة من تعاليم الطب ٠ وعرضوا الافلام على الشعب ثم اجتمع حزب المؤتمر الأمريكى وقرر القطع بتحريم الخمر بأغلبية ساحقة ، وسن لذلك قانونا ٠ واستفرغت الحكومة كل جهدها فى تنفيذ القانو نوهى أقوى أمم الأرض ، وحظرت بيعها وشراءها وتصديرها واستيرادها ولكن الأمة الامريكية لم تستطع الصبر على تركها وتحولت الى

شربها سراً ـ فارتفع ثمنها وفسد ماؤها بالغش ، وتورط في شربها الفتيان والفتيات لأن كل محظور محبوب ، فاضطرت الحكومة الى التراجع في هذا القانون ـ وسحبته بعد مضى أربعة عشر عاما ـ وأحلت ما حرمت بالأمس « ويقدر ما أنفقته أمريكا ضد الخمر (١) بما يزيد عن ستين مليونا من الدولارات ـ وما نشر من الكتب والنشرات يبلغ عشرة بلايين صفحة ـ وما تحملته من نفقات طول مدة التحريم لا يقل عن مائتين وخمسين مليونا من الجنيهات ـ وأعدمت نحو ثلاثمائة نفس ـ وسجنت (٥٣٢٣٣٥) نفسا ، وبلغت الغرامات نحو ستة عشر مليونا من الجنيهات وصادرت من الأملاك نحو أربعمائة مليونا وأربعة ملايين من الجنيهات ، ومع ذلك فلم يزد الأمريكي الا نهما بالخمر وعنادا في تعاطيها حتى اضطرت الحكومة سنة ١٩٣٣ الى سحب القانون واباحة الخمر اباحة مطلقة » ٠

ونجد أنفسنا في بداية الأمر مضطرين الى توضيح كيف حل الاسلام هذه العقدة حلا جذريا في مجتمع غارق في الجهالة بعيد عن ذلك في القرن العشرين ٠ رغم بذل الجهد وانفاق المال ووسائل الدعاية ؟

والجواب : أنه فرق بين أن تصدر الأوامر من البشر وبين أن تصدر عن خالق القوى والقدر !! ٠ فان الله عز وجل لا يقرع آذان الناس لأول وهلة بأوامر الدين ونواهيه ، وانما تساق هذه الأوامر والنواهى بعد تأسيس العقيدة ٠٠ ثم يخاطبهم الأوامر والنواهى بعد تأسيس العقيدة ٠٠ ثم يخاطبهم سبحانه بعدها عن هذا الطريق ـ يستجيش في وجدانهم تلك العقيدة ٠

---

(١) عن كتاب تنقيحات لأبى الأعلى المودودى .

ويستنهض عزائمهم بداعى الايمان ٠٠ ولا شك أن المسلم يؤمن بالله قبل أن يؤمن بالعقل ومقاييسه ، ولهذا فانه يستجيب لنداء السماء ، ويذعن لله ورسوله ، لأنه قد آمن بهما فلا يتصور أن يخالف لهما أمراً أو نهيا ٠ والايمان حافز ايجابى يحدث عند المسلم مناعة ضد المخالفة ويجعله مطيعاً لربه ، وذلك هو مقتضى الايمان [وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم] ٠٠ ولن تستطيع قوانين الأرض جمعاء أن تحرك هذا الباعث فى الفطرة الانسانية وانما تحركه العقيدة وحدها ، فأنت مخير بين أن تؤمن أو لا تؤمن بادىء الأمر ٠ فاذا اخترت طرق الايمان فعليك أن تنقاد لأمر الله الذى آمنت به ، وأسلمت اليه روحك وقلبك ٠

وتلك أهم خصائص المنهج الربانى يستثير الايمان فى وجدان المؤمن وضميره فاذا به ينقاد ويدعن من غير مشقة ولا عناء ٠

« ومن ذلك يتضح أن بعث الحاسة الخلقية فى الانسان (١) وتنشئة الضمير المحاسب فيه ــ ثم تزويد هذا الضمير من القوة بما يتغلب به على النفس الأمارة ــ كل ذلك ليس فى مقدور العلم ولا فى طوق العقل والمنطق بل هو مما يحققه الايمان نفسه » ٠

فهل اعتمدت أمريكا على الايمان فى تحريم الخمر ؟

الواقع أنها لم تعرف الايمان حتى تنتفع بثمراته ٠ ولذا فشلت فى التجربة ٠٠

---

(١) من كتاب نحن والحضارة العربية للمودودى ص ٦٩

على أن للحضارة القرآنيــة سبيــلا آخر فى قاعدة التحريم والتحليل وهو ثبات المقاييس وعدم اضطرابها ·· وذلك على النقيض من القوانين الوضعية التى تتأثر بالعواطف والميول ـ وأحكام العقل وشهوات النفس واسترضاء الناس ·· فيؤدى بها ذلك الى الاختلال والاضطراب ·· ويخضعها لكثرة التغيير والتبديل بالزيادة أو النقصــان لأنها فعــلا تخضع لقــوانين مضطربة دائمة التغير متقلبة دائمة التقلب فتميل معها حيث مالت ·· وفرق بين أن أستجيب لأمر ربى الذى آمنت بــه ـ وبين أن أستجيب لأمر السلطة التى لا أثق فى أوامرها ··

وجميع الأصول الكلية فى الاسلام ومعظم الفروع الجزئية للقانون والأخلاق فيه هى من وضع الله وتبليغ رسله وليس للرأى فيها دخل وان كان للانسان أن يستنبط فروعاً جديدة من تلك الأصول مراعاة لاوضاع حياته وظروف مجتمعــه فانهــا لابد أن تنسجم مع الاطار العام ·· وتنطبق على أصول الشرع حتما ·· وهما كتاب الله وسنة رسوله ·· فانهما المرجعــان الأصيلان مهما اختلفت الظروف ··

ومن بركات هذا المنهج الربانى أن يريحنا من الاعتساف والتكلف فلا نعنى أنفسنا جرياً وراء القوانين المختلفة : التى لا تنشىء الا ذاتاً ضالة شاردة ·· لأننا لا نستطيع كبشر أن نضع المقاييس الثابتة للأخلاق والمدنيــة التى لا تتزلزل ولا تضطــرب ··

بخلاف المنهــج الربانى فان الحرام فيــه وكذا الحــلال مطردان الى يوم الدين فما يكون حراما اليوم لا يحل غــداً ·· وما يكون حلالا اليوم لايحرم غداً ·· اننا نسلم مقودنا الى ربنا ونثق فى قضائه وعدله ·· فسفينتنا تجرى باسم الله ـ ومن

أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ٠٠ وان أمة تحكمها مبادىء واحدة وتسرى فى كيانها عقيدة واحدة لخليقة أن تتحد شعوراً ووجداناً وضميراً ٠٠ لأن الدستور الذى تستمد منه واحد ٠٠ وانه ليصنع الامة كلها بطريقة واحدة لأنها فعلا تسقى بماء واحد ٠٠ وتمارس عبادات واحدة ٠٠ ومناسك واحدة وذلك يؤدى الى تميز شخصية هذه الأمة وبروز طابعها الحضارى [كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله (١)] ٠

[الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور (٢)] وتلك هى عناصر الشخصية لتلك الأمة الحضارية مهما تختلف بها الديار ٠٠ أو الاجناس والالوان ٠٠

وهذا هو السر فى احساس كل مسلم باحساس أخيه لأن العقيدة صنعت للجميع وجداناً مشتركا ٠٠ ومشاعر حية نابضة ٠٠ فما يستقر مؤمن فى مضجعه حتى يسارع بتفريج أزمة أخيه ٠٠ وما يقر له قرار حتى يطمئن عليه لأنه منه بمنزلة العضو من جسمه « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر البدن بالحمى والسهر » ٠

(د) انفتاحها على جميع الحضارات الانسانية :

وهى خاصية تكفل لها النماء المطرد ـ والازدهار الدائم ٠

---

(١) آية ١١٠ سورة آل عمران .

(٢) آية ١ سورة الحج .

وهى التى كفلت لها بقاءاً متجدداً عبر القرون ٠٠ فهى حضارة تأخذ وتعطى ٠٠ تأخذ تجربة حيــة نافعــة ٠٠ وتعطى غيرها ما يكون لديها من ثمرات ٠٠ وبهذا التجاوب المستمر والتفاعل الخــلاق ـ لا تعيش فى عزلة عن تجــارب البشر ٠٠ ان هــذه الحضارة تؤمن أن الحضارات الانسانية كلها هيكل ضخم ـ قد شيدته جهود البشر جميعاً ٠٠ فلكل شعب فيه لبنة ٠٠ وما يستقيم وضع حضارة تغلق النوافذ على نفسها والا فهى عرضة للاختناق كما فعلت الرهبنة فى القرون الوسطى انها حضــارة لا تصد عن تجارب البشر بالتعصب ـ ولا تبخل عليها بالعطاء ٠٠ وقديماً أعطينا فسخونا فى البذل ٠٠ بيد أنها لا تأخــذ عن غيرها قــوانين التشريع ـ ولا مبادىء الأخــلاق لانها تملك من ذلك منهجاً أصيلا وثروة ضخمة ٠٠ فهى تنفق منه على العالم بأسره وتمنحه للبشرية جمعاء ٠٠ ولكنها تأخذ تجارب الحياة ـ وفروع المعرفة ٠٠ وكل ما يرتبط بنتائج العــلم التجريبى ٠٠ والابتكار المثمر فى شئون الحياة ٠٠ بشرط أن يكون فى ذلك ما يثرى حضارتنا ـ ويعود على مجتمعاتها بالخير ٠٠ أما حين تتعارض هذه الأمور مع عقيدتنا أو تراثنا ٠٠ فاننا لا ننقله٠٠ وانما نرفضه ٠٠ كما رفضنا فنون النحت قديماً لأنها تنطوى على فكر وثنى ٠

انه اذن : أخذ بصير يعتمد على النقد ويخضع للتمحيص ـ وليس نقلا عشوائياً بلا تبصر ولا روية ٠٠ وليس عجيبــاً ـ ولا عيباً ـ أن تأخذ حضارة عن حضارة بهذه المقاييس فتجارب البشر ليست ملــكا لأحــد والآخــذ اليــوم كم أعطى بالامس والعكس بالعكس ٠٠ فلا فضل لمــأخوذ منه على آخذ ٠

يقول الأستاذ العقاد : « انه لا يطلب الى أمة أن تبتــدع ثقافة جديدة ولا يعاب عليها أن تحج الى المعرفة حيثما وصلت

اليها ــ وانما يعاب عليها أن تنطفىء شعلة الثقافة الانسانية فى يديها وأن تنقطع عن السلسلة » ٠

وعلى هذا الأساس فقد تفاعلت العقلية العربية الاسلامية مع الثقافات الفارسية ، واليونانية والرومانية تفاعلا خصباً ٠٠ واستطاعت العقلية العربية بما منحت من خصاصية الاستيعاب الحضارى (١) ــ أن تستثمر ذلك كله فى اقامة حضارة رائعة تتمازج فيها عناصر شتى ٠

ولكن الطابع الذى يسودها ، هو الطابع الاسلامى ٠٠ الذى يصهرها فى بوتقة ، وينقيها من الشوائب ٠٠ ويجعل لها اشعاعاً خاصاً حيثما ينعكس على الناس يحسون بالروح الاسلامى الغالب ٠٠ وعندما نقتبس كل مفيد من الثقافات ونافع من التجارب فاننا لا نتوقف عند حد الأخذ ٠٠ ولكننا نأبى الا أن نتعرف على الأسرار والدخائل معاناة ودأباً ثم نحاول بالعقلية المبدعة أن نضيف اليه أو نحذف منه ٠٠ أو نبتكر مثله ٠٠ انه لا يستغرقنا بحال ــ ولا يلغى ارادتنا ٠٠ بحيث نظل نستورد الحضارة دائماً ٠٠ وانما نحاول أن نضع الحضارة بروحنا ــ وعلى أرضنا ــ مع الاستهداء بتجارب غيرنا من غير صد عنها ــ أو فناء فيها وبذلك نحتفظ بتوازننا أمام أى عطاء حضارى ٠

لقد كان موقفنا من حضارات الأمم الاخرى هو ذلك الموقف الذى حددناه ٠٠ لا نجمد على أفكارنا وانما نتفاعل مع غيرنا ٠٠ فنقبل منه ما يتفق مع شريعتنا ــ ومع واقعنا ــ ومع تراثنا ــ ونرفض ما نراه ماسا بوجودنا ــ أو مصادماً لتقاليدنا ٠٠ وعندما نأخذ ــ فاننا لا نكون نقلة مستعبدين ٠٠ بل أحرارا

---

(١) عن كتاب أثر الحضارة العربية فى الغرب ص ١٠٥ .

ناقدين ٠٠ نسمح للعصارة الطيبة النافعة أن تسرى فى كياننا ونستبعد النفايات الضارة ٠٠ ونطبع كل ذلك بطابع حضارتنا القرآنية ٠٠ ونبتكر من كل ذلك جديداً رائعاً ينفع الناس ويفيد التقدم ويثرى الحياة ٠

ان لدينا دائما المقاييس التى نقيس بها ما نأخذ وما ندع ٠٠ وهى مقاييس حضارية لها أصالة روحية ومادية نستطيع بها أن نأخذ وندع ٠٠ انها تمكننا من عملية التقويم للأفكار وللأشياء وللقيم وللتخطيطات الوافدة ٠٠ ما كان من ذلك كله ملائما لهذه المقاييس قبلناه والا رفضناه ونقدناه ٠

نحن اذن فى عالم الافكار والاشياء نقبل وندع لنا نظرتنا الى تاريخنادون أن نرتفع الى المستوى الذى يحجب عنا أخطاءنا ـ أو نهبط الى المستوى الذى يحجب عنا الحسنات ٠٠ ولنا فى رسولنا الرائد أسوة حسنة ٠٠ فقد منحنا تجربة النقل الحضارى بمعيار الاسلام ومبادئه ٠٠ فلقد قبل من قيم الجاهلية وترك وقال على باب الكعبة بعد فتح مكة : « ألا ان كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين الا سدانة الكعبة وسقاية الحاج ـ ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم خلق من تراب ؛ ثم تلا قوله تعالى : « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير (١) » ٠

وبهذا ـ نتمكن من صناعة واقعنا وبناء حاضرنا ـ وابراز ملامحنا ٠٠ أما أن نعيش فى عالم كله من صنع الغير ، فنعيش مستوردين ٠٠ نكتفى بالاستهلاك والاستخدام دون الانتاج

---

(١) آية ١٣ سورة الحجرات .

والابداع فهذا ما لا يرتضيه الشرف وهو موقف لم تسلكه حضارتنا القرآنية في أيام ازدهارها ·· وليست عملية النقل الحضارى عملية سهلة ـ ولا هي مأمونة العواقب ·· لأن الحضارات الانسانية ذات عناصر متشاجنة تشاجن غصون الشجر ·· فأخذ عنصر وترك عنصر أمر صعب ـ بمثابة بتر عضو من كيان متكامل ·· ويزيد من صعوبته أن النقل مفسد ـ لأنه تقليد ضرير يلغى الشخصية ـ ويسقط الكرامة ـ ويفسد المغزى المستهدف ·· ويكون شبيها بالترجمة الحرفية لنص من النصوص دون التصرف فيها ·· ولهذا فان شراح الحضارات يحذرون من التقليد وينبهون الى خطورته ·· وبالنسبة لأمة كأمتنا ـ سواء في القديم أو الحديث ـ تزداد مسئوليات النقل الحضارى لأننا نملك أضخم رصيد ـ من تراث العقل والعاطفة ·· ومدنية الحياة الفاضلة ـ ولأننا أصحاب منهج ربانى ·· قد تلوثه العادات الدخيلة ·· فلنكن على حذر فيما نأخذ أو ندع ـ كما فطن آباؤنا من قبل ·· وفي هذا بلاغ !!

وعملية الاقتباس الحضارى تشبه الى حد بعيد عملية نقل الدم ·· فكما لا ننقل كمية من الدم من شخص الى آخر الا بعد تعيين فصيلة الدم بالنسبة لهما ·· ونتأكد من اتفاقهما ··

فكذلك الأمر هنا ـ لابد أن نضع في الحسبان : هل ما ننقله يتصادم مع تعاليم ديننا مع أصول حضارتنا ـ مع قديم تراثنا ؟ فاذا تأكدنا من أنه لا يصادم شيئاً من ذلك قررنا صلاحية الاقتباس ـ لأنه في هذه الحالة يكون صحيحاً ·

ثم ننظر بعد ذلك في أمر آخر قبل ممارسة النقل ·· ما الكمية التى ننقلها ؟ لأننا لو نقلنا كمية كبيرة من الدم ـ أو أقل مما ينبغى ـ فان النتيجة تكون سيئة ··

وكذلك هنا لابد من تحديد الجرعة التى تفيدنا وتهضمها

حضارتنا دون تخمة أو فراغ ثم نشرع فى النقل فيكون مثمراً مأمون العاقبـــة ٠٠

ومن البدائة الواضحة أن موقفنا من حضارة الغرب ينبغى فى كل لحظة أن يأخذ هذا الاتجاه فما كان مفيداً مثمراً قبلناه ـ وما كان ضاراً فاسداً رفضناه ، انه موقف النقد البصير ٠٠ لا موقف التقليد الضرير ٠٠ لأن النقل من غير تمييز فناء ومعرة ـ والاعراض التام جمود ومضرة ويجب أن نعترف دائماً بأننـا بشر نخطىء ونصيب ـ وننهض ونكبو ـ فلسنا وبخاصة فى عهود الانحطاط ـ نملك كل حسن ـ وغيرنا يملك كل قبيح ٠٠ لأن ذلك غلو واسراف وبذلك الشعور الطبيعى ـ نواجه الحياة ٠٠ لا متعصبين ولا متخاذلين ٠٠ بل متواضعين متجاوبين ٠٠ فما كان الكمال يوماً ما وقفاً على فريق ٠

على أن حضارة الغرب وما فيها من بعض النواحى الطيبة ـ انما هى نبعة من أيكتنا ـ وغصن من دوحتنا ٠٠ منا أخذت ، وعنا نقلت كما تحدث بذلك أصحابهـا ٠٠

فاذا أخذنا عنها يوماً ما فانها تعطينا بعض ما أخذت منا وهل الحياة الا أخذ وعطء !؟

واذا ما نظرنا الى تجربة النقل الحضـارى على الصعيـد العملى وجدنا المسلمين قد تفاعلوا مع ثقـافات العـالم وقرءوا فلسفة اليونان وهضموها ونقـدوها واستوعبـوا عصارتهـا النافعة ـ ونقـلوا ذلك كله الى العـالم بأسره ٠ وكذلك فى عالم الأشياء كالصنائع والحرف وسائر أنواع النشاط الحيوى قـد نقلت هذه الأمة منـه كل صالح ٠٠ ونبـذت كل ردىء وأعطت الكثير من هذه « الأشياء » للعالم بأسره ٠

---

(١) أى شجرة من حديقتنا ٠

فى عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ـ لم يصد عن التجارب النافعة واكتساب الخبرات الجديدة من الغير ٠٠ ففى طبقات ابن سعد عند الكلام على وفد ثقيف ذكر أن عروة بن مسعود وغيلان بن سمة لم يحضرا حصار الطائف لأنهما كانا « بجرش » يتعلمان صنعة العرادات والمجانيق والدبابات ـ وجرش بلد بالأردن ـ وبنفس الاسم بلد باليمن وقد استفاد صلوات الله عليه من معرفة عبد الله ابن أريقط النصرانى للطرق فى حادث الهجرة حين كان دليل القوم ٠٠ ولم يصد عنه لأنه نصرانى ٠

وبتلك الروح الحضارية ـ التى بثها محمد صلوات الله عليه فى أصحابة ـ استطاعت هذه الأمة عندما وضعت عن كاهلها عتاد الجرب ونفضت عن وجهها غبار الصحراء أن تصعد فى مراقى الحضارة بسرعة مذهلة ـ وأن ترفع على أنقاض اليونان والرومانى والفرس حضارة ثابتة الأصول باسقة الفروع ٠ ٠ يتألق فى عنصرها فكر الاسلام وثقافة العرب ثم أخضعت لسلطانها حضارات لم تخضع لها من قبل وكان لها خصوم ألداء لم ينالوا منها أدنى نيل ٠ ٠ لأنها قد أثبتت وجودها فى مجال التحدى الحضارى اثباتاً أرغم الخصوم ـ ونشر المعارف والعلوم وأفاد العالم بأسره وكان السبب فى كل ذلك يرجع الى جلال المثل العليا ـ وقابلية التحضر والتمدين وفقه الثقافات وهى ميزات رفيعة قد اختص الله بها هذه الأمة الماجدة النبيلة لتظل مرفأ الأمن على مر الزمن ٠ ٠ ومنارة العلم والمعرفة على امتداد التاريخ ٠ وليصدق فيها قول الحق تبارك وتعالى : [كنتم خير أمة أخرجت للناس] ٠

وقد أثبتنا ـ أن هذه الأمة ليست كما يصورها أعداؤها جافية الطبع غليظة المشاعر بعيدة عن أى تقدم ـ وانما ذلك ينطق على البدو فقط ـ أما العرب المتحضرون فقد كان فى الشام والحجاز والعراق واليمن حضارات رائعة ـ ومدنية عقلية وثقافية ووجدانية انعكست على شعرهم ـ وفى انتاجهم ٠٠ ولغتهم ٠٠ ثم جاءهم القرآن الكريم على قدر وموعد ليسمو بهذه المواهب والملكات ٠٠ وينفض عنها غبار الجاهلية ـ ويستنفدها من معنى السرف والغلو ـ ويصبها فى قالب الحكمة ٠٠ وينطلق بها ليؤسس مدنية العالم كله وحضارة الحياة جمعاء ٠٠٠

وانك لتلمح فى شهادات الأوربيين ـ تقرير هذه الخصائص بكل أمانة ووضوح يقول ويلز فى كتابه ملخص التاريخ : [هب العرب يظهرون ماخفى من مواهبهم فبهروا العالم بما أتوه من معجزات العلم وأصبح لهم السبق بعد اليونان فبعثوا كتبهم من مراقدها ونفخوا فيها من روحهم واستودعوها الحياة والقوة فجعلوا بذلك سلسلة العلوم متصلة الحلقات محكمة السرد لا يمسها انقطاع ولا وهن وما جاءنا العلم والمدنية الا عن طريق العرب لا عن طريق اللاتين] ٠

ان خاصية الاستيعاب الحضارى التى يحدثنا عنها هذا المستشرق لم تلغ شخصية هذه الامة بل أبرزتها على الصعيد العالمى ـ وحققتها وسلطت عليها الاضواء لانها لم تكتف بالنقل واستيراد الفكر بل عمدت الى الابداع والخلق وصناعة الحضارة ، والعالم كله يعرف كيف أن الكندى والفارابى وابن سيناء فى الشرق وابن باجه طفيل وابن رشد فى الغرب قد توفروا

جميعاً على فلسفة اليونان فجددوا دارسها وجلوا طامسها وكملوا نقصها وطبعوها بسمة الحرية والعبقرية والنضج وبعثوا فيها نبض الحياة .. ولقد وضع ابن طفيل قصته الفلسفية « حى يقظان » فكشف عن مواهب فنية فى التخيل والتصور والتعبير وقد نقل هذه القصة الى اللاتينية (ادوار بوكوك) فظهر أثرها فى آداب القوم .

أرأيت هنا كيف تتفاعل التقافات ـ ويتم التبادل ؟

وعن تأثير الفكر العربى ـ و حضارات العالم وآداب الدنيا بعد الفتح الاسلامى . ، وكيف أن هذه الثقافات قد اندمجت كلها فيه يقول الدكتور طه حسين (١) .

« تحققت اذن هذه الظاهرة العربية الغريبة ـ واتحاد العالم بفضل ظهور الاسلام وبفضل انتشار اللغة العربية والثقافة الجديدة الى أمة واحدة متحدة فى كل شئ تقريبا لغاتها العلمية والادبية واحدة هى العربية بها تتكلم وبها تنشئ الشعر والنثر وبها تؤلف كتبها العلمية ـ وظلت هذه اللغة ـ هى لغة هذا القسم العظيم من العالم القديم وكانت الآدات السائدة فى العالم [illegible] العربية قوية .. كانت البلاد المفتوحة خاضعة لسلطان الادب اليونانى وهو الى الان أقوى أدب عرفة الانسان ..

والى جانب هذا الأدب كانت تقوم فى الشام والجزيرة والعراق آداب أخرى سامية ـ منها آرامية ومنها يهودية وكانت هذه الآداب قوية خصبة عاش بها الناس واثرت فى نفوسهم وكونتها تكوينا خاصا ومع ذلك لم تكد كل هذه الآداب كانت تقوم فى الشام والجزيرة والعراق آداب أخرى سامية ـ منها

---

(١) ص ١٢ من حديث الشعر والنثر بتصرف يسير .

آرامية ومنها يهودية وكانت هذه الآداب قوية خصبة عاش بها الناس وأثرت فى نفوسهم وكونتها تكوينا خاصا ومع ذلك لم تكد كل هذه الآداب تلقى الأدب العربى حتى عجزت عن أن تثبت له واندمجت فيه واستحالت الى جداول قوية خصبة ولكنها كانت تنتهى دائما الى هذا النهر العظيم ـ ولم يستطع الادب الفارسى أن يثبت للأدب العربى فى بلاد فارس ـ فكان الشعر الذى ينشد فى هذه البلاد فى القرن الاول والثانى والثالث للهجرة هو الشعر العربى ـ وكان العلم طول هذه المدة عربيا وكانت الفلسفة عربية ٠٠ وكذلك فى الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا فان الآداب القبطية واليونانية والآرامية لم تثبت للأدب العربى بل قام الأدب العربى مقامها جميعا وانكمش الأدب اليونانى ٠ انكماشا عظيما وتقلص ظله فى هذه البلاد ٠٠ ولقد قاومه الفرس والترك وقاومته أوربا فى اسبانيا وأفريقية الشمالية وماتزال تقاومه ولواؤه مرفوع » ا ٠ هـ

نقلنا هذا الكلام ٠٠ لنؤكد كيف أن حضارة القرآن قد أخذت فى عالم « الأفكار » وأعطت ولكنه الاخذ البصير الواعى ٠٠ الذى يستتبع الروية ٠٠ وينتج الابداع ٠٠ كالنحلة تمتص رحيق الزهر ٠٠ ثم تحوله فى باطنها الى عسل حلو ٠٠ ثم تقدمه للناس ٠٠ ولم تكن أمتنا كعدسة التصوير تنقل الشىء بلا تصرف ٠٠ ولكنها كانت تثبت وتنفى ٠ وتبدع وتبتكر ٠٠ وتأخذ وتدع ثم تصوغ من ذلك كله فكرا عالميا رواء الاسلام وطابعه وروحه ٠٠

نحن نؤمن بأن الأدب العربى فى مطلع عصر النهضة قد انفتح على الأدب الاوربى فى مطلع عصر النهضة انفتاحا أثمر القصة والمسرحية ٠٠ ونضوج الشعر السياسى والاجتماعى ٠٠ وتحرر الأساليب العربية من الصنعة ٠٠ كما كان له أعظم الأثر فى نضوج النقد الادبى ٠٠ والبحث العلمى

كل ذلك التأثير والتأثر ظاهرة صحية مادام لا يلغى الشخصية ولا يصادم المثل العليا ولا يتعدى شئون الثقافة والعلم وتجارب الحياة ٠٠

شخصية الحضارة الاسلامية :

وبهاتين الخاصتين لحضارة القرآن وهما الربانية ـ والانفتاح ـ تبرز شخصيتها التى لا تخرج عن كونها كيانا انسانيا عاما ذا شخصية معنوية فيها جانب التراث المجيد ـ الى جانب عنصر التجديد المتطلع دائما الى التسامى ٠٠ الى جانب الأمل الممتد المشحون بالحوافز الايجابية البناءة لمستقبل دائم الارتقاء والصعود نحو الافضل لخير الاسرة الانسانية جمعاء ٠٠ بحيث ينمى فيها بواعث الخير ويحرك حوافز العمل ويخطط لكل ذلك بالعلم ليجعل من الانسان خليفة لله فى الارض بينهما بالعمل ٠٠ ويخططها بالمعرفة ٠٠ ويدعمها بالايمان ليتصعد دائما ويرقى ، ولا يتأخر فيشقى وليبنى ويعمر ، ولا يخرب ويدمر ، وليمضى الى ربه على صراط مستقيم ممتد ٠٠ هو صراط الله العزيز الحميد ٠٠

يقول الدكتور خلف الله أحمد : [ان الحضارة الاسلامية هى تلك الحضارة التى قامت على أساس رسالة سماوية هى الاسلام ومن هنا كانت أسس تعاليمها الكبرى من القرآن ومن أقوال النبى صلى الله عليه وسلم وأعماله] ٠

ويقول الدكتور حزين : [ان الاسلام قد استطاع أن يضفى على البلاد التى شملها لونا من الفكر الدينى والحياة والمعاملات والعلاقات الانسانية والسياسة حتى أصبح هناك قدر حضارى مشترك بين المسلمين فى مختلف أرضهم وديارهم] ٠

ونحن لا نكتفى بماذهب اليه الدكتور حزين من أن الاسلام ـ أو بتعبير أدق القرآن يصنع لهذه البلاد قدرا حضاريا مشتركا ٠٠ ولكننا نقول : انه يوحدها قلبا ووجدانا وفكرا وسياسة واجتماعا ويضع لها تاريخا واحدا وأملا وألما واحدا وطموحا واحدا بحيث يسودها مايسمى فى التعبير العصرى « ائتلاف النغمة » ٠

وبهذا تأخذ الحضارة القرآنية صبغة الاستمرار والاستقرار لأنها تصاحب حياة البشر منفتحة على غيرها من الثقافات والمدنيات تتمثلها حضارة الجنس البشرى كله من غير تعصب ولا استعلاء ولا جمود ولا تهافت ٠٠ وكما أن الاسلام مصدق لما بين يديه وماخلفه من ديانات الجنس البشرى مؤمن بجميع النبوات والكتب المنزلة فكذلك حضارته هاضمة لما بين يديها وما خلفها من ثقافات البشر ٠٠ متفاعلة مع الحاضر ـ متطلعة الى عالم أفضل ٠٠

وهذا يضفى عليها سمة العبقرية عبقرية الاستيعاب ـ والهضم ـ والابداع والتأثير والتأثر ، واستمداد هذه الحضارة من القرآن يجعلها ملتقى كريما لكل الثقافات والتجارب الممتدة عبر التاريخ ٠٠ لأن القرآن محيط زاخر تصب فيه روافد الكتب السماوية الاخرى ٠٠ وهى من غير شك تتضمن خلاصة الفكر الانسانى ـ والتجارب البشرية ٠٠

وكل ذلك ينضح على هذه الأمة الاسلامية علما وفكرا وثقافة وحضارة وتجربة يجعلها وريثة شرعية لكل تعاليم الوحى ولكل تجارب البشر ٠٠ وكفى بذلك شمولا واستيعابا ٠ وكفى بذلك جلالا وكمالا !!

وأينما التقى العالم بهذه الحضارة فهو واحد فيها روحه · وشعوره وطموحه وأمله وفطرته ونظام حياته ــ وأسس مجتمعه ــ وأشواق روحه ومستقر هدايته وسعادته ·

(د) ملاءمتها للطبيعة البشرية :

تتميز الحضارة القرآنية بأنها تقوم على أساس منهج ملائم لطبيعة الانسان وفطرته متناسق مع ميوله وغرائزه ــ متكيف مع خصائصه العليا ــ ينميها ويحتفظ لها بالتجدد والازدهار ــ ويبث فيها من الحوافز ما يجعلها قادرة على أداء دورها الأصيل ــ دور الاستخلاف فى الارض ــ بحيث ترتقى دائما فى سلم الصعود بالتفاعل المستمر مع عناصر الكون والدأب الكادح فى بناء الحضارة ــ وبحيث يظل الانسان باستمرار ــ مهما ارتقى حضاريا ــ سيد الكل ما أنشأه وبناه ــ وليس عبدا لهذه الأشياء لانه صانعها بيديه · ·

ان الحضارة الحديثة ــ فى نشوة انتصارها المادى ــ ذهلت عن مركز الانسان فى الأرض ومقامه من خلافتها ــ وراحت تسخره للأشياء ــ ولا تسخر الاشياء له فاحتقرت بذلك ذاته ــ وامتهنت خصائصه ــ واحتقرت مواهبه مع أنه الاساس الأول لاى نظام حضارى كما مر ــ فهى بهذا التصور حضارة مادية تجعل الانسان مجرد آلة للانتاج ــ وتطبق عليه المنهج الآلى ــ أو المنهج الحيوانى · · الذى لا يرعى أية خاصية من خصائصه كانسان له مطامح ومطالب وأشواق !!

وانها لمأساة رهيبة حقا أن يستذل الانسان وتمتهن سيادته على الأرض الى هذا الحد فى ظل حضارة تدعى أنها قمة الحضارات ·

أما الحضارة القرآنية ـ فانها تضع الانســان فى وضــعه الصحيح ومقامه الموقر ـ تتقدم له منهج ربه لينطلق به فى رحاب الحياة ٠٠ وهو منهج من وضع العليم الخــبير ـ الذى يعرف لمن يضع المنهج ؟ وكيف يضعه ؟ لأنه يعلم كل احتياجاته ٠٠ وكل مواهبه وملكاته لا يخفى عليه من ذلك خافية !!

فاذا وضع هذا الخالق العليم منهجاً للانسان فهو منهج بصير مهتد لأنه وضع على علم ونور ٠٠ فهو خليق أن يقــود مسيرة الانسان على وجه الارض الى غاية فيهاسعادته وسيادته ليكون دائماً سيداً للكون من حوله وليس عبداً الا لربه ٠

وفى الانسان ـ ذلك العالم المجهول ـ والجــهاز المعقــد ـ نواح لا يعلمها الا خالقها ومناطق لم يكتشف، العلم شيئاً منها ـ ومهما تتقــدم علوم الحــياة فــانها عاجــزة عن اســتيعاب خصائص الانسان ٠٠ وادراك نواحى ضعفه ومعرفة تلافــيف مخه ونشاط عقله وافرازات غدده ٠٠ وتأثير كل ذلك على كيانه العام ٠٠ وعلى أخلاقه وميوله !!

وتقدم العلوم المــادية ـ لا يعنى أن يواكبه نفس التقدم فى علوم الحياة أو بالأخرى فى العلوم الانسانية لان التعقيد فى هذه العلوم أشد وأصعب منها فى الأولى ٠

ومانتزال دراسة العقل الانسانى هى عقدة العقد فى البحوث العلمية لم يعرف العلم من أمرها الا أقل القليل ٠٠ على أن هناك خصائص عامة للانسانية ـ وخصائص فردية لكل انسان فمن الذى يستطيع أن يحدد هذه وتلك ؟ ومن الذى يلاحظ فى منهج التربية كل هذه الفروق ؟ ويحيط علماً بهذا الانسان ؟

ان حقيقة الانسان تسير فى موكب من الأشباح بحيث لا يستطيع العلم رؤيتها بوضوح ، والذين يدرسون هذه الحياة كمن ضلوا طريقهم فى غابة لفاء متشابكة الفروع ــ متشاجبة الغصون أو فى قلب دغل سحرى لا تكف أشجاره عن تغيير أماكنها وأحجامها على حد تعبير الطبيب الأمريكى المتخصص (ألكسيس كاريل) :

ان الدارسين لهذا الانسان العجيب يعيشون فى متاهة فحتى الآن تخفى عليهم أسرار الظواهر الانسانية فيقفون حيالها حيارى مبهورين ٠

ان لهذا (١) الانسان عوالمه المادية الظاهرة من أعضاء وأعصاب وله عوالمه الداخلية من غدد وأحشاء وأجهزة وله عوالمه المعنوية من أحوال نفسية وحياة وجدانية من الرضا والغضب والحب والكره والانقباض والانبساط كل ذلك لم يكتشف بعد وماخفى منه أكثر مما ظهر وصدق ربنا اذ يقول : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون (٢) » حتى سر النطفة لم يدرس الانسان دراسة معقولة لابد أن تتعاون علوم مختلفة ــ علوم الطب ــ والوراثة ــ والحياة ــ والنفس ــ والاجتماع ــ والأخلاق ــ والتاريخ وغيرها من كل ماله مساس بالانسان ماديا وروحياً فكيف السبيل الى استخلاص حقائق نهاية تنشأ عن هذه الدراسات ؟ ان الطب مايزال عاجزاً حتى وقتنا هذا عن زرع عضو مكان عضو ٠٠ وعن مجرد « تخليق » انسان فى أنبوبة اختبار فكيف بمعرفة هذه العوالم ؟

---

(١) راجع الجزء الأول من كتابنا قيم حضارية فى القرآن جزء أول فقد اشبعنا الكلام فى هذا الموضوع ٠

(٢) آية ١١ سورة الذاريات ٠

ان كل هذه المصاعب فى مجال الدراسات الانسانية تجعل من الصعب على أى انسان ـ أوعلى أية جماعة ـ مهما يكن حظها من العلم أن تضع منهجاً لذلك الانسان ٠٠ كل الانسان ٠٠ ذكره وأنثاه طفله وشابه وشيخه ٠٠ عالمه وجاهله ٠٠ حاضره وغائبه ٠٠ بحيث يلائمه ويحقق كل آماله على مر الأيام ٠٠ وبحيث لا يتغير ولا يتبدل ٠ من ذا الذى يستطيع أن يأخذ على عاتقه وضع منهج كهذا ؟

لعمرى : ان العلماء ليتخصصون فى دراسة فترة من فترات العمر الانسانى فى جيل مامن الأجيال ـ كفترة المراهقة أو الطفولة ـ أو الشباب وتضع كل جماعة منهم منهجاً للفترة التى تخصصت فيها ٠٠ ثم تجىء الدراسة بعد استنفاد الجهد والوقت والمال ناقصة صغيرة خرقاء !!

وان الأطباء ليتخصصون فى أعضاء الانسان لكل عضو طبيب بعضهم للعين وبعضهم للقلب وبعضهم للأذن ـ وبعضهم للطفل ـ وبعضهم للمرأة ، ومع ضيق الحيز الذى تخصصوا فيه فانهم يخطئون التصور وفى تشخيص المرض ووصف الدواء ٠

لماذا ؟ لأن كل عضو كالعين مثلا ٠٠ وان بدا لنا ضئيل الحجم له أجزاؤه الدقيقة التى تجعل منه عالماً معقداً ٠٠ فكيف بالعقل والغدد والأعصاب ؟ !

وهذا الجهل المطبق بطبيعة الانسان جعل طبيباً أمريكيا متخصصاً له مكانته العلمية (١) يكتب تحت عنوان : « الانسان ذلك المجهول » يقول : « اننا لا نفهم الانسان ككل ٠٠ اننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة ٠٠ وحتى هذه الأجزاء

---

(١) هو الدكتور اليكس كاريل ٠

ابتدعتها وسـائلنا ـ فـكل واحـد منا مكـون من موكب من الأشباح تسير فى وسطها حقيقـة مجهولة .. وواقـع الامر أن جهلنا مطبق فأغلب الأسئلة التى يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب ٠٠ لأن هناك عوالم غير محدودة فى دنيانا الباطنية ومازالت غير معروفة ٠٠ اننا لا نعرف مثلا : كيف تتحد جزئيات الموعد الكيماوية لكى تكون المركب والأعضاء المؤقتة للخلية ؟

كيف يقر «الجنيس» ـ ناقلات الوراثة ـ فى نواة البويضة الملقحة صفات الفرد المشتقة من هذه البويضـة ؟ كيف تنتظم الخلايا فى جماعات من تلقاء أنفسها مثل الانسجة والاعضـاء ؟ ماهى طبيعة تكويننا النفسانى والفسيولوجى ؟ ٠٠

اننا لا نعرف مثلا : كيف تتحـد جزئيات المواد الكيماوية لكى والسوائل والشعور ٠

ولكن العلاقات بين الشعور والمخ مازالت لغزا ٠٠ نحن فى حاجة الى « فسيولوجية » الخلايا العصبية ٠٠ ثم الى أى مدى تؤثر الارادة فى الجسم ؟ كيف يتأثر العقل بحالة الأعضاء ؟

اننا نجهل وجوه النشاط العقلى والروحى ومقاومة التعب والكفـاح ضـد الأمراض ٠

اننا لا نعرف كيف يزداد الاحساس وقوة الحكم والجرأة والنشـاط الدينى ؟

كيف نستطيع أن نحول دون تدهور الانسان وانحطاطه فى المدنية العصرية وبتأثيرها ٠٠ ؟ !

وهكذا أسـئلة ستظل بلا جـواب لان معرفتنا بأنفسنا مازالت بدائية فى الغالب ٠

ثم يخلص الى تلك الحقيقة التى نريد الوصول اليها :
وهى أن علم الانسان أصعب العلوم لأن الانسان نفسه عقدة العقد فى هذا الكون ٠٠ اهـ ٠

وهذا كلام رجل واجه الحقيقة ـ وعرف طاقة العلم وحدوده وملك الأجهزة اللازمة ولكنه قرر افلاس العلم فى هذا المجال ٠٠ وان هذا الواقع العلمى الذى يتحدث عنه الطب يبرز حقيقة هامة هى استئثار الذات العلية بمعرفة الانسان ٠٠ ومن ثم فهى التى تضع له منهجاً يلائم تلك الطبيعة المعقدة ٠٠ اذ ليس فى امكان الانسان أن يضع لنفسه ذلك المنهج الملائم لأنه فوق علمه وتجربته فمن رحمة الله به ورعايته له أن قام عنه بذلك العمل وقدمه اليه فضلا منه وكرما بينما أطلق يده فى عمارة الأرض يبنى ويهدم ويجور ويعدل ويحل ويركب ويخطىء ويصيب ويكتشف من خاماتها وعناصرها ويتعرف على أسرار الكون ويرتبط بها برباط الصداقة ليعيش فى عالم مأنوس يكتشف مادته ويستبطن دخيلته لأنه مزود بالطاقات من ربه ، التى تجعل منه أهلا لتلك المهمة لكى يتحكم فى المادة على علم ٠ أما أن يتجاوز الانسان حده فيطمع فيما ليس له فذلك مجور وبغى !!

ان مجال البحث الانسانى هو دراسة الكون وعناصره ٠٠

فاذا انسجم الانسان مع حقيقة وضعه واكتفى بأداء دوره فانه يصبح سيد الأرض وعناصرها ٠٠ باستخلاف الله اياه ومنحه العلم بها والخبير بشئونها والاستمتاع بطيباتها وجمالها ٠٠ وليست الأرض فقط ولكن السماء تؤازره فى أداء دوره على وجه الارض فياله من كائن عظيم عزيز على ربه أمين على هديه كريم فى كل حين ٠

« هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شئ عليم (١) » .

ولننظر بتأمل دقيق فى قوله سبحانه : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون ـ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون (٢) » .

ان هذه الآية ـ ونظائرها اشارات ضوئية على طريق الانسانية تومئ الى قصور معرفة الانسان وجهله بشئون نفسه وشئون الحياة من حوله وتأثره بالهوى والشهوات وبالضعف الذى يفقده القدرة على التوازن .. بحيث لا يستطيع بجهالته ـ وشهواته .. أن يختط لنفسه منهجاً فى الحياة .. لأنه لا يعرف منها الا ظاهرها .. ولا يكاد يدرك أسرارها .. وان كان مزودا من ربه بالمعروفة التى تمكنه من استغلال المادة والانتفاع بثمرات الأرض فى اطار جليل من مشيئة الله وهداه .. وهذا المنهج الخالد الذى وضعه ربنا هو منهج الحياة كلها ليس لفترة منها دون فترة ـ ولا لفئة من الناس دون فئة ـ ولا لحزب دون حزب .. ولا لشعب بعينه ـ ولا لأمة بذاتها .. وان البشرية اذ تذعن له ـ وتعمل به وتتعاطاه هدية مباركة من ربها تجد الأنس وتحقق السعادة وتحس بالطمأنينة والسكينة . لأنه يرضى كل نوازعها .. ويتجاوب مع جميع مطامحها ويلبى جميع احتياجاتها .. ويعتد بخصائصها وملكاتها .. وانه ليعطى الحياة عطاء سخياً ـ وقد ظل هذا الدستور يحكم الحياة بالفعل ويعطيها من غير حدود فى جميع المجالات .. تشريعاً ـ وادارياً ـ وسياسياً ـ واجتماعياً ـ وعلميا ـ وأدبيا ..

---

(١) آية ٢٩ سورة البقرة .

(٢) آية : ٦ ، ٧ من سورة الروم .

دون أن تظهر فيه أية تناقضات ٠٠ أو توجد ثغرات ٠٠ فى حين أن دساتير البشر تتعارض ٠٠ وتتضارب ـ ويلحقها النقص ٠٠ ويظهر فيها الخلل وتضاف اليها تعديلات شتى ٠ واضافات كثيرة ٠٠

ولقد استطاع هذا المنهج أن يصيب من الجاهلية مقتلا ـ وأن يصنع رجالا صدقوا ماعاهدوا الله عليه ـ وأن يلمس المواهب الكامنة فى نفوسهم فاذا هى تنطلق من عقالها لتحدث أثرها فى الحياة ٠٠ فكان كالغيث المبارك هطل على أرض البشرية الجدباء فأحيا مواتها ٠٠ وأنبت فيها كل رائع من الزروع والثمار وهكذا تحولت الحياة بمنهج الله الى بستان نضير فيه من النبات أحسنه وأزكاه ومن الثمر أطيبه وأحلاه كما استطاع هذا المنهج أن يصنع ضمير الأمة ووجدانها وأخلاقها ٠٠ ويحدد لها رسالتها فى الحياة ٠٠ فانشأ مجتمعا متناسقاً تسوده نغمة واحدة لا نشاز فيها ولا اختلاف وكانت له مقوماتها التى لا يشركة فيها مجتمع سواه ٠٠ والعجيب فى أمر هذا المنهج أنه أخرج هؤلاء القوم من الصحراء ٠٠ فانتزع الجاهلية من أعماق نفوسهم ـ وثبت العقيدة فى وجدانهم ٠٠ ثم عمد الى أرواحهم فطهرها من كل دنس ـ وحردها من كل ضعف والى مواهبهم فشحذها وأطلقها تعمل على عين الله ٠٠ وتنوعت تلك المواهب وتعددت الكفايات تنوع زهرات الروض لتسد كل ثغرة ـ وتكفى كل عوز ـ وتقيم كل بناء وعندما أرادوا أن يقيموا دولتهم ـ التى كانت أمل العالم كله ـ لم يستعينوا بدستور من دساتير الأرض ـ ولم يستوردوا مبادىء ولا نظما ـ ولم ينتدبوا خبيراً من بلد آخر ليستعينوا به فى عملية التخطيط والبناء ـ وانما أقبلوا بكل الثقة والحزم على قرآن ربهم ـ يقودهم نبيهم ورسولهم ـ ليلتمسوا فيه كل النظم الحضارية التى تجعل بناء دولتهم شامخاً ٠٠ فمنحهم

القــرآن أسراره ـ وأســـبغ عليهم أنواره ـ وأمــدهم بكل ما يطلبوا وكانت دولتهم المؤسسة على تقوى من الله ورضوان هى منارة الدنيا فى العلم والعقــيدة والسياسة وصــدق الله العظيم اذ يقــول : [أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخــارج منها كذلك زين للكافرين ماكانوا يعملون (١)] ٠

انها الدولــة النموذجــية فى العالم كله ٠ ٠ يرى الناس فــيها مثلهم الأعلى فى العقــيدة ٠ ٠ فلقــد كان لتلك العقــيدة الصافية أثرها فى كل حــركات الاصلاح التى قامت فى أوربا منذ القرن السابع حتى عصر النهضة الحــديثة عندما أعلنت أن الله واحد منفرد بالسلطان ونزهته عن التجسيد والنقص ٠ كما أنها أعلنت استقلال الانسان فى عبادته وصــلته مع الله وفهمه لشرائعه دون أية وساطة كان لذلك كله أثر كبير فى تفتح أذهان الشعوب الى تلك المبادىء الرائعة كما كانت هذه الدولة النموذجية مثل الناس الأعلى فى ميادين العلم والفلسفــة من طب وكيمياء ورياضة وفلك ٠ ٠ فلقد أفاقت أوربا على صوت علمائنا يدرســون هذه العلوم فى مســاجد أشبيلية وقــرطبة وغرناطة وغيرها ٠ ٠ ولقد ترجم كتاب القانون فى الطب لابن سينا فى القرن الثانى عشر كما ترجم كتاب الحــاوى للرازى وهو أوسع من القانون فى نهاية القرن الثالث عشر ـ أما كتب الفلسفة فان الغرب لم يعرف شيئا عنها الا عن طريقنا فنحن الذين قدمنا له كتب الفلسفــة اليونانية مهذبة ـ منقحــة ـ وتظل أوربا تنقل عن حضارتنا حتى فى عهد نابليون ٠ ٠ حيث تستمد أروع القوانين ـ وأدقــها متمثلة فى كتاب « خــليل » الذى كان نواة القانون المدنى الفرنسى وقــد جاء متشابهاً مع أحكام الفقة المــالكى يقول سيديو :

---

(١) آية ١٢٢ سورة الأنعام .

« والمذهب المالكى هو الذى يستوقف نظرنا على الخصوص لما لنا من الصلات بعرب أفريقية وعهدت الحكومة الفرنسية الى الدكتور بيرون فى أن يترجم الى الفرنسية كتاب المختصر فى الفقه للخليل ابن اسحاق بن يعقوب المتوفى (١٤٢٢ م) » ٠

أما تأثيرها فى الفنون بالنسبة لأوربا فيكفى أن نسمع الاستاذ ماكسيبيل يقول : « كانت أوربا مدينة بأدبها الروائى الى بلاد العرب ـ والى الشعوب العربية الساكنة فى النجد العربى السورى تدين بأكبر قسم أو بالدرجة الرئيسية لتلك القوى النشيطة التى جعلت القرون الوسطى الأوروبية مختلفة روحا وخيالا عن العالم الذى كان يخضع لروحه » ٠

ولا تسل عما أحدثته حضارة القرآن من آثار عالمية أخرى فى مجالات الحياة ٠ فلذلك فصل يأتى ولأن هذه الرسالة عالمية انسانية [وجدنا أنها عقد ينتظم كل المواهب والمكنات من جميع الأمم والشعوب والعناصر فأبو حنيفة ومالك والشافعى وأحمد والخليل وسيبويه والكندى والغزالى والفارابى وابن رشد وأمثالهم ممن اختلفت أصولهم وتباينت أوطانهم ليسوا الا عباقرة قدمت حضارتنا فى أشخاصهم نماذج انسانية للفكر المتفتح والعقل الخصيب (١)] ٠

ولقد كان انشاء هذه الدولة الحديثة بجهود الرسول والذين حوله أعجوبة فريدة فى الزمن حيث كان رجالها الزهاد والعباد والحكام والقضاة والساسة والمحاربون والقادة والعلماء والفلاسفة والدارسون والأدباء والشعراء ٠٠ وغير

---

(١) عن كتاب من روائع حضارتنا للأستاذ الدكتور مصطفى السباعى .

ذلك من معجزات الفكر الانسانى · · ولقد عاشوا عازفين عن مناعم العيش ـ ومزاعم الجاه ـ ومغريات الشهرة والطين · · وتجلت الحياة القوية بمظاهرها وخصائصها · · التى لم تتوفر فى عهد من العهود ·

لقد كانت تلك المواهب مبعثرة فى ظلام الجاهلية ضائعة فى حطامها ـ مبددة فى العصبية ـ وشرب الخمر ولعب الميسر مهدرة فى المهاترة والمفاخرة · · تنتظر اليد الصناع والصائغ الماهر الذى يجمعها من شتات · · ويحيها من موات · · وينفض عنها غبار الجاهلية ثم ينفخ فيها من روح الله لتتألق ـ وتزدهر وتضىء وتملأ الحياة كلها عملا وتستوعبها كفاحاً شريفاً ونضالا سامياً من أجل مستقبل أرقى لكل الناس · ·

ولم يكن هذا الصائغ الصناع الا مولانا رسول الله الذى جاءها على قدر وموعد ومعه منهج ربه فاكتسح ركام الجاهلية ثم وضع الأساس ثم أقام على البناء على بركة الله · ·

من عجــائب هــذا المنهــج

من استعراضــنا الســابق ـ للآثار العجيبة التى تركها المنهج الالهى فى عقائد القوم ٠٠ ومعارفهم وعلومهم نستطيع أن نقطع ـ بأنه لا يتصور فى عقل بشر ـ أن يتم هذا التحول فى حياة القوم ـ بل فى العالم بأسره الا بمنهج الله الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى ٠٠ والا بقيادة النبى العظيم الذى طبق المنهج بكل الحزم ٠٠ والصدق والثقة والايمان ٠٠ ولذا تمت كلمة ربك صدقا وعدلا فكان من آثار هذا المنهج مجتمع متناسق القوى والملكات على النحو الذى شرحنا من قبل وكان أن انتفضت القرائح العربية الخصبه انتفاضــة الأرض حين يجودها غيث السماء ٠٠ فتنبت من أفانين الزهر والنبات مالا يدخل تحت حصر ـ وتعطى من يانع الثمار مايسد حاجة الناس كذلك حدث بالنسبة للمواهب العربية حين مازجها هدى الله ٠٠

فقد تحققت كل الكفايات التى كان المجتمع الجديد فى حاجة اليها ٠٠ التى كان لابــد منها لصــنع التقــدم !! وتمضى هذه الكفايات ـ مزودة بمنهج ربها ـ حتى تقطع بعيدا فى صناعة الحضارة لاتقتصر منها على جانب واحد ٠٠ بل تبرع فى شتى الجــوانب ففى عالم الأفــكار ٠٠ وفى عالم الاشــيـاء وفى عالم التخــطيط والبناء فى هذه الميادين ابداع مثمــر خلاق لايكتفى بسد العوز وانما يفيض خيره وغيثه على العالم الظامىء الى قطرة من ماء ٠٠

وتوجد سائر أنواع النشاط الحيوى فى هذا المجتمع فالمسلم يعبد الله فى المسجد ـ ويحارب العدو فى الميدان ويصرف السلعة فى السوق ويحكم بين الناس بالعدل ٠٠

أنه مجتمع العجائب حقا فى كل أموره ٠٠ ولا غرابة فى ذلك فانه يستقى من نبع الله الطهور !! ولقد كسا العارى ـ وأطعم الجائع ـ وأعطى المحتاج وأوجد العمل لكل قادر ـ وعاقب المنحرف ـ وأقام حدود الله ٠

مجتمع حل التناقضات الموجودة فى داخله بكلمة الله وروح الاسلام ٠ وكان الرسول حريصا كل الحرص على أن يحتفظ لهذا المجتمع بكل ضمانات الوحدة ـ وأن يقتلع جذور الجاهلية الأولى فكان لايفتأ يردد (١) « ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من مات على عصبية » وعن جابر بن (٢) عبد الله قال :

« كنا فى غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار فقال الانصارى : ياللأنصار !!

وقال المهاجرى ٠ ياللمهاجرين !! فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « دعوها فانها منتنة » لقد أوشكت الحرب الأهلية أن تقوم بين المهاجرين والانصار ولكن الرسول الذى يريد الوحدة لقومه ٠٠ يردعهم على صنيعهم ٠٠ ويبين لهم أن العصبية منتنة ٠٠ أى قذرة لأنها قد ماتت مع الجاهليه الاولى ٠٠ وهكذا أغلق الرسول كل الابواب فى وجه كل خلاف أو عصبية أو جهالة وهكذا ماتت العصبية أو كادت ٠٠ وتناسقت القوى البناءة لتصنع مجتمع الايمان ٠٠

وكان أصحاب رسول الله أشبه شىء بباقة زهر نضير ـ لكل زهرة عطر ٠٠ وكانوا كالحلقة المفرغة فى الفضل ـ وكانوا نماذج حية فى حسن الطاعة والاقتداء ٠

---

(١) رواه ابو داوود ٠ (٢) رواه البخارى ٠

وبذا قامت حضارتهم على سـواعد الرجـال العظماء ٠٠ فكانت قوية الدعائم شامخة البناء ٠٠

يقول رينـان : [أن بعض الأديان قد أسستها أيدى النساء ولكن الاسلام قام على سواعد رجال أولى عزم كمحمد (صلعم) يعرف فيه كل منصف أنه قـدسى الأهداف ـ انه دين الحـزم والجد دين البساطة والمساواة والحرية والعدالة] ورغم تعدد الأجناس والامم والعناصر التى دخلت رحاب هذا الدين فانه قد استطاع أن يستوعب خصائصها ـ وأن بفجر ملكاتها ـ وأن يصهرها فى بوتقة وأن يصـوغها صياغة رائعة ٠٠ تعطى من أنفس ما تملك للحـياة كلها ـ وليس لجنس أو عنصر أو أمة وأصبحوا جميعا بنعمة الله اخوانا ٠٠

ولم يقل واحد من هؤلاء أنا فارسى ـ أو رومى ـ أو حبشى لأن أساس التفاضل فى الاسلام هو التقـوى التى تسـتقر فى القلوب والضـمائر ٠٠ ولاتتغير الاجـناس ولا تتلون بتلون البشرة ٠٠

ولهذا ساد بلال وعمار وصهيب فى هذه الدولة الجديدة ٠٠ وأصبحوا رسـل حضـارة للعالم بأسره ٠٠ وفجـر الاسلام مواهبهم فأعطت الحياة علما وخيرا وايمانا وعدلا وكرامة !!

ان هذا المجتمع الطيب قد أعطى من نفسه أكثر مما طلب منه ، ووصفه الحـق تبارك وتعالى بقـوله : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (١) » ٠

انه مجتمع الايثار لا الأثرة فقد أعطى من غير أوامر انطلاقا من الايمان والعقيدة ولهذا جاءت الآية واصفة لا آمرة وهذا من عجـائب المنهج الربانى ٠

---

(١) آية ٩ سورة الحشر ٠

(هـ) تكامل جوانبها واتساق عناصرها :

وهو تكامل يعنى انسجاما رائعا فى العناصر واتساقا فريدا فى الملكات ، واستيعابا شاملا للدين والدنيا ـ وجمعا رائعا بين المادة والروح وشمولا عاما لكل مناحى الحياة ٠٠

والحقيقة أن القرآن بوصفه منهجا لتلك الحضارة فيه بيان كل شيء كما وصفه رب العزة والجلال فهو لم يدع ناحية من نواحى الحياة الا ذكرها ٠٠ بل لم يدع أملا للانسانية الا حققه ٠٠ ولكنه مرتبط من قبل ومن بعد بجهد البشر ليحققوا مبادئه ـ ويطبقوا أحكامه ـ ويعيشوا نظامه ٠٠ وهو نظام متكامل لا يغنى فيه شئ عن شئ، فينبغى أن يؤخذ كله بمنتهى الطاعة والحزم والانقياد ـ أما أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض فذلك هو الخسران المبين ٠٠ فالعقيدة ـ والعبادة ـ والأخلاق ـ والمعاملات ـ والحدود ـ كلها نظام ربانى لا ينبغى أن يمس بتعديل أو جرح ٠٠ وانما يجب تطبيقه كما أراد الله فى جميع الأوقات ٠٠ فلا يجوز أن نلجأ اليه وقت الازمات ثم نتخلى عنه أوقات الرخا، لأنه مسلك لئيم ٠٠ وليس الدين مادة ترف نأخذه حينا وندعه حينا آخر ولكنه نظام الحياة والعقيدة معا ٠٠ وهذا الكتاب ليس نظريات للحفظ والدارسة ـ وانما هو مبادى للتطبيق والممارسة ٠٠ وكل آية تطالب بترجماتها فى الحياة وبتحويلها الى عمل وسلوك فلابد من تمكينه ليؤدى دوره فى قيادة الحياة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وديفيا ٠

وهكذا ٠٠ لابد من فقه هذه الخطوط العامة ٠٠ وتوخيها ٠ ولا علينا فى هذا الاطار أن نستفيد من تجارب البشر ـ ومن غير التطبيق يصبح هذا الكتاب فلسفة نظرية أو رياضة عقلية وقد يتخذه قوم مادة للتغنى ـ والتجويد أو حجابا يتبركون به

ومالهذا نزل القرآن !! وانما نزل ليكون منهج حياة ونظام مجتمع وأساس حضارة ولتطبق قيمه ومبادئه ليتحول الى سلوك تصطبغ به الحياة ـ وييسر عليه المجتمع ٠٠ وانه ليؤدى دوره بجهاد البشر وبجهودهم ومدى استفادتهم واستيعابهم ٠٠

ولا يعمل بطريقة سحرية قط وتلك هى الواقعية العملية ، ان هذا التكامل بالسواعد الفتية ـ وروحا تعبد الله بالقلوب الزكية ٠٠ وهو يمزج بين العنصرين فى كيان المسلم ويلائم بينهما ملاءمة دقيقة بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر ٠٠ ويبنى حضارته على أساس من ذلك التكامل ـ ولعنة الحضارات المادية أنها أهملت جانب الروح وأنهكت قواها فى المادة وسخرت نفسها لمطالب المال والدولار وباعت عقيدتها فى بورصة العقود وغدت جسما منتفخا متورما تراه لأول وهلة فتظن به العاقبة ويروعك رواؤه بينما هو مصاب فى قلبه بشتى الأوصاب والعلل ٠٠ ولا يمكن للحضارة الانسانية أن تقوم على عنصر واحد مهما قوى ذلك العنصر لأن ذلك ضد الطبيعة والفطرة ٠

واذا كانت أعراض الفناء لم تظهر أمامنا بشكل واضح على تلك الحضارات فانها دفينة باطنية وانها لتتمثل فى أزمة الضمير ـ والأخلاق وسوءات الفجور والعربدة ـ ومظاهر الاباحية والالحاد انها حضارة للدنيا فقط ٠٠ بل للحيوانات ٠٠ وليست حضارة الآخرة ولا الآدميين ويكفى أن تلك الحضارات المادية صنعت الحضارة بيديها ثم عبدتها من دون الله ٠٠ فالآلة والانتاج والقيمة الفائضة وما الى ذلك من ثرثرة الشيوعية كلها آلهة تعبد من دون الله ٠٠

واستعبدت بذلك قلب الانسان وضميره ٠٠ وكذلك حضارة الغرب باعت أخلاقها فى عالم الارقام والاسلحة والمتفجرات ٠٠ ! أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم (١) ! وهذا الضلال الساذج « من غير علم » يمكن حل عقدته بسرعة متى اتجهت الفطرة ـ وانقاد القلب ٠ ووضح الدليل٠٠ أما الضلال العالم ـ أو العلم الضال فهو خبيث شرير متعدد المسارب فى دخائل النفس متغلغل الجذور فى أعماق الوجدان والالحاد فى هذا العصر كله من هذا الطراز الخبيث الذى تعنيه الآية الكريمة ٠

ومن ثم فالجاهلية التى يخوض الناس غمارها فى هذا العصر ٠٠ أشد نكرا من جاهلية القرون الأولى ٠٠ لانها جاهلية مغرورة بالعلم ومنجزاته !!

وكما أن التكامل يعنى انسجاما بين الروح والجسد فهو أيضا يجمع بين العقيدة والعمل ـ وبين القيادة والعبادة ـ بين المجتمع والمسجد ـ بين العلم والدين ـ بين الأخلاق والسلوك ـ بين الدنيا والآخرة ٠٠ بين النظرية والتطبيق ٠٠ بين الحرب والسلم ـ كما يعنى تكاملا فى الحياة من حيث الفهم السياسى والوعى الاجتماعى والعلاقات الدولية وعلاقات الأفراد ببعضها على صعيد المجتمع وفى رحاب الأسرة ويوضح علاقة الانسان بربه وبنفسه وبالكون من حوله ٠٠ كل ذلك ينسجم ويتناسق ويتلاقى فى كتاب كريم لا يكلفنا أكثر من التأمل فيه ـ والاستمداد منه والمعايشة له والعمل به والثقة التامة فيه ، فاذا كل أهدافنا تتحقق ـ وبجميع مشكلاتنا تحل ـ واذا بأعدائنا يندحرون ٠

---

(١) آية ٢٣ سورة الجاثية .

ولقد انطلق به الرســول وأصحابه نبنوا مجتمعـا تميز بالخلق ـ وتحرر بالعقيــدة ـ وساد بالايمان ولقــد خاضـــوا بالقرآن معارك كثيرة ضــد الجهل والأميــة ـ وأشاعوا العــلم وحذقوا ضروب الثقافات وتفجرت مواهبهم الذكية فملأت الحياة معرفة وثقافــة ٠

وضد التخلف : فنهضوا بمجتمعهــم ـ وبنــوا قواعده ـ وأسسوا اقتصاده ـ ونشطوا فى العمل والتجارة والبيع والشراء ـ وأثروا من أعمالهــم فتصــدقوا على البائســين ـ وتبرعوا للجيوش ـ وأعانوا على صنائع المعروف ٠

وخاضوا معــارك عســكرية : فحاربــوا ـ وانتصروا ـ وفتحوا الدنيا وأسسوا أمجد الحضارات ٠

ومعارك اقتصــادية : فزرعوا الأرض ـ ووزعوا المــاء ـ وحاربوا الظلم والاستغلال وكافحوا الربا ـ وطوروا الجيش المحارب ٠

ومعارك سياسية : فبعثــوا سفراءهم الى الأقاليم لشرح قضية الاسلام ـ وتحركوا « دبلوماســيا » ليقنعــوا العــالم بعدالة مبادئهم ـ وهل كانت هجرتا الحبشة ـ وبيعة العقبة ـ ومكاتبة الملوك الا أعمالا سياسية واعيــة ؟! وهل كان تأمين الطرق فى أول عهد الرسول بالمدينة واصطناع المودة بالنسبة لمن يقيمون على امتدادها الا عملا سياسيا واقتصاديا ؟

ثم كان فى تأصيل مبدأ الشورى والتلاحم الفكرى الدائم بين الرسول وصحابته وانشاء « ما يشبه المجالس المتخصصة » كمجالس الحرب ـ ومجالس الشورى ـ وهيئات الافتاء مناهج سياسية رائدة لم يزل العالم كله يتطلع اليها حتى وقتنا هذا؟!

ومعارك اجتماعية : ضد نزعات الجهل والحمق والسفاهة والتفرقة العنصرية التى شن الرسول عليهـا الحرب من أول لحظة ٠ فجعل بلالا مؤذنه يصـدح بكلمة التوحيـد من فوق الكعبة ٠٠ ويلقبه عمربالسيد ٠٠ وهكذا نجحوا فيما فشلت فيه أمريـكا الآن وهكذا خلا مجتمعهـم من مشـكلات العنصريـة ومشكلات اللون والعرق والجنس ، وتساندت جميـع القوى فيه للبناء والتعمير وأبرزت أنفس مواهبها فنجلت فى المجتمـع كفاية وعدلا ـ وخلقا وعقيدة وايمانا بالله ٠

وعلى الرغم من أنهم نهضـوا بكل هذه الأعبـاء ـ فانهم استعانوا على كل ذلك بتقوى الله ـ ولم تشغلهم الشواغل عن ذكر الله ـ ولا عن أداء الصلاة ـ حتى وهم أمام العدو وفى جبهة القتال [يأيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحـون (١)] ومع ذلك فالاعداد المـادى مطلوب [وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة (٢)] وهى قوة متطورة تأخذ شكلا يلائم العصر ويناسب البيئة ولهذا أطلقها القرآن ٠

هكذا فهموا التكامل ـ وطبقوه ـ وأنشأوا على أساسـه حضارة قرآنية متكاملة ٠

وكما يعنى التكامـل الجمـع بين كل ما مضى فانه يعنى أيضاً تحقيق مصلحة الفرد من حيث هو فرد ومصلحة المجتمع بوصفه مجتمعاً من غير تعارض بين المصلحتين ـ فان مصلحة الفرد من مصلحة الجماعة ومصلحة الجماعة من مصلحة الفرد فما ينبـغى أن تطغى واحـدة على الأخرى كما فعـل العـالم الرأسمالى ـ الذى نزع نزوعا فرديا ، فترك للفرد أن يقود زمام

---

(١) آية ٤٥ سورة الأنفال .

(٢) آية ٦٠ سورة الأنفال .

نفسه ــ وأن يفعل ما يشاء ويقول ما يريد باسم الديمقراطية ــ وكذلك لا يجوز أن تطغى مصلحة الجماعة كما فعل العالم الشيوعى حيث ألغى ارادة الفرد ، وزكى النزعة الجماعية ٠٠ فلا أمر ولا سلطان ولا ارادة الا للجماعة أما الفرد فيشبه الترس فى الآلة ، ولقد شقى العالم من جراء هذه التناقضات التى عادت عليه بأوخم العواقب ، وكل سوآت العالم الرأسمالى تتركز فى الفردية ، وكل سوآت العالم الشيوعى وما فيه من ارهاب وقمع ودكتاتورية انما ترجع الى النزعة الاجتماعية أما الاسلام وحضارته ، فانه يجعل مصلحة الفرد من مصلحة الجماعة ــ وذلك لأنه اذا صلح الفرد صلح المجتمع ــ وهل المجتمع الا أفراد ؟ ومن ثم نجد القرآن يحث الفرد على الروح الجماعية فيخاطبه كثيراً ضمن الجماعة [يأيها الذين آمنوا ــ يا بنى آدم ــ يا عبادى ــ يأيها الناس] ، وذلك ليكافح فى الفرد المسلم نزعات الأنانية ويشعره بأنه عضو فى مجتمع يسعد بسعادته ويشقى بشقائه ، ونسمع الرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » فالفرد هنا مطالب برعاية شأن الجماعة ٠٠ كما نرى الجماعة مسئولة عن الفرد ، من حيث تقويمه وكبح جماحه ورده الى الحق والعدل [واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة (١)] وتقوم قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهى المعروفة برسالة التوجيه المعنوى على هذا الأساس ، والله يقول : [فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون (٢)] ٠٠ لابد فى ظل الآية من رأى عام مسلم يمكن أن يسمى جماعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ليقوم بواجبه فى الدعوة نحو المجتمع الكبير ، هذه

---

(١) آية ٢٥ سورة الأنفال .

(٢) آية ١٢٢ سورة التوبة .

المسألة التى يحلها الاسلام حلا طبيعياً ملائما للفطرة ، ما تزال حتى اليوم تقسم العالم الى قسمين : رأسمالى ، وشيوعى ٠٠ والواقع أنه لا تعارض على الاطلاق بين النزعتين كما مر لكنه ينبغى التنبه الى أن الاسلام يجعل الخطيئة فردية ـ كما يجعل الصلاح فرديا والحساب عليها كذلك فردى لا دخل للجماعة فيه [من عمل صالحاً فلنفسه من أساء فعليها (١)] [وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شىء (٢)] [فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره (٣)] ٠ فليس هناك فى الاسلام ما يعرف بالتكفير الجماعى عن خطايا البشر كما تزعم المسيحية ، التى تدعى أن المسيح قد تحمل الصلب ليكفر عن خطايا البشرية !!

هنا فقط ، يبرز الطابع الفردى فيما عدا ذلك لا تعارض بين مصلحة الفرد ولا بين مصلحة الجماعة ٠

الرسول ومسئولية الجماعة :

فى ضوء الهدى النبوى نستطيع أن نلمح الأساس السليم لبناء مجتمع قوى ، تتحمل فيه الجماعة المؤمنة مسئوليتها كاملة ٠٠ لتحدد الاطار الذى تتحرك فيه حرية الأفراد ٠٠ ولا تترك لهم أن يفسقوا ويفسدوا ويهتكوا الأعراض ، باسم الحرية ٠

ونرى فى الحديث الذى سنسوقه الآن آية الرشد النبوى ـ وقوة الدلالة على هذا المعنى ـ وتحديد المسئولية الجماعية ـ وحدود الحرية الفردية ٠ التى لا مجال بعدها لشرح أو توضيح

---

(١) آية ٤٦ سورة فصلت .

(٢) آية ١٢ سورة العنكبوت .

(٣) آيتا ٧ ، ٨ سورة الزلزلة .

فلا نترك للأفراد أن يفعلوا ما يريدون ـ ويقولوا ما يشاءون ولو كان الحاداً وكفراً باسم الحرية ·· ولا نتحامل عليهم من غير مقتض أو موجب لأن ذلك امتهان لحقوقهم ـ ومصادرة لحريتهم ·· وهنا تأخذ القضية وضعها السليم وهى أن مصلحة الفرد من مصلحة الجماعة والعكس ·

بين النزعة الفردية والجماعيــة :

روى البخارى عن النعمان بن بشــير عن النبى [صلعم] قـــال :

« مثل القــائم على حدود الله والواقع فيهــا كمثــل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاعا وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها اذا استقوا من المـاء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا من نصيبنا خرقا ولم نؤد من فوقنا !! فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ـ وان أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » ·

بهذا التمثيل الرائع ·· يحل رســول الله [صلعم] من وراء الغيب مشكلة ما يزال العالم الحــديث متورطاً فيهــا الى اليوم ·· وهى مشكلة النزعة الفردية والجماعية ·

والحديث يرسم الاطار السليم الذى ينبغى أن تتحرك فيه حريــة الأفراد · فاذا تجاوزوا ذلك هلكوا ـ وأهلكوا المجتمــع كله ·· ومجال هذه الحرية ألا تؤذى أحداً وألا تضر بمصالح الآخرين فى اطار الدين والخلق ، فمن حق أى فردأن يتكلم بحرية مالم يجرح شعور الآخرين وأن يفعــل ما يحب مالم يسىء الى المجتمع ـ ومالم يخرج على الفضيلة ·

فاذا تجاوز ذلك فعلى الجماعة أن تضرب على يده لصلحته هو ولمصلحة المجتمع نفسه لا أن تتركه يعربد وينزو كما تفعل أمريكا اليوم ، بل العالم الغربى كلــه ، ومهما كان المبرر فلا بد من قمعه ليرتدع !! فان أهملت الجماعة واجبها فى تأديب المارق ، ورد الغـوى فلننتظر ســـوء العاقـبة !!

والرسول صـلوات الله وسلامه عليه يخـتار لتوضـيح المشكلة الاجتماعية أسلوب التصوير الحسبى المألوف ليتضح المعنى ويبرز الأثر ، وهو يؤثر السفينة وركابها لان أحـداً فى الحياة لا يجهل أمرها ، فالأمة فى مجموعها الكبير ــ قـادتها ــ وجمهورها ، تشبه بقوم مختلفين ركبوا سفينة ، فأما القادة ــ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ــ فهم فى أعلى السفـينة لأن هذا هو وضعهم ، انهم فى الحياة والواقع قدوة فليكونو فى أعلى السفينة ، لأن هذا هو وضعهم فى الحياة وأحكام الشريعة السمحة التى تتجه بالمجتمع كله الى الخير ــ اذا أحسن تطبيقها والسهر عليها هى السفينة التى تتجه بالراكبين الى شـاطئ السلام متى أحسـنت قيادتها وهذا التشبيه بجـميع عناصره يلتئم ليكون هيكلا عاماً تتشبه فيه هيئة المسلمين جميعا ــ من يقومون على حدود الله ــ وهم الحكام ــ ومن يقعون فيها وهم العامة ٠ بهيئة قوم ركبوا سفينة ــ بعضهم أعلاها وبعضـهم أسفلها ــ بعد أن استهموا على قسمتها ، كما يشـبه مسئولية قادة الأمة عن عبث العابثين بمسئولية من ركبوا أعلا السفينة عمن ركبوا أسفلها ٠

ويتمم الرسول شرح الموضوع : فيبين لنا أن هؤلاء الذين أصابوا أسفل السفينة يريدون الحصول على المـاء ليشربوا : وأنهم يريدون ألا يصعدوا الى أعلى السفينة لان ذلك يؤذى من فى أعلاها وانما يؤثرون الطريق الأسهل ٠ والاخـطر فى الوقت

نفسه ، فتحدثهم نفوسهم أن يستعملوا حريتهم الفردية بأن يخرقوا خرقا فى نصيبهم من أسفل السفينة فيشربوا دون ازعاج أحد ، ومادروا أنهم بحماقتهم سيجذبون السفينة كلها الى القاع ٠٠

والأمر بعد ذلك يتوقف على همة من فى أعلى السفينة ـ ومقدرتهم على التصدى لهؤلاء الحمقى ومنعهم ٠٠ فان فعلوا ذلك فقد أنجوا أنفسهم ـ وأنجوا من تحتهم والا هلكوا جميعاً لأن الغرق لن يقتصر على جماعة دون جماعة ٠

ولهذا التمثيل انطباع رائع عن مفهوم الحرية ومسئولية الجماعة فكما أن مستقبل السفينة كلها متوفف على جهود من فى أعلاها ٠ ٠فكذلك شرع الله كله متوقف على نشاط القائمين على الأمر وحكام هذه الامة ٠٠ وكما أن على من بأعلى السفينة أن يضربوا على يد من بأسفلها فكذلك واجب القادة والحكام أن يقيموا حدود ويدرءوا مفاسد الغوغاء والسوقة ٠٠

وكما أن نفوس السوقة قد حدثتهم بخرق السفينة من أسفل فكذلك حال السفهاء فى المجتمعات كلها يريدون أن يجذبوا باجرامهم وفسادهم المجتمع الى الهاوية ٠

وكما برروا عملية خرق السفينة بأنهم لا يريدون أن يؤذوا من فوقهم فكذلك حال الدهماء يبررون فجورهم دائما بأنهم لا يؤذون الا أنفسهم ٠ فما شأن غيرهم بهم ؟ انها حرية وكما قالوا : « نخرق فى نصيبنا » فكذلك يقول الدهماء اننا نسىء الى أنفسنا ٠٠ وانها حريتنا الشخصية ٠٠ وكما أن مصير من فى السفينة متوقف على قوة الجماعة العليا فكذلك مستقبل هذه

الأمة متوقف على درء الفساد عن مجتمع ومعامبة المنحرفين وكما يأخذ من بأعلى السفينة على يد من بأسفلها لمصلحة الجميع ٠٠ فكذلك كبح جماح العصاة فيه سلامة المجتمع كله ٠٠ وأن الحزم انما يتجلى فى اقامة حدود الله ٠

ونبقى نقطة حاسمة فى الموضوع وهى أن الذين فى أسفل السفينة يفهمون غباوة وجهلا أن المكان الأسفل لهم وحدهم فلهم حق خرقه أو تركه ٠

هذا بالضبط ـ هو مفرق الطريق بين حق الفرد والجماعة ٠ صحيح أنه مكانهمولكن من قال انهميستعملون الحرية فى حزقه وهل هذه حرية ؟ ان هذا العمل لن يعود عليهم وحدهم بالضرر ولكنه سيؤذى غيرهم ٠٠ فباسم المصلحة العامة يجب أن ضرب على أيديهم ٠٠ ولو أن خرق السفينة لا يؤذى الجميع ـ بل يقتصر على أصحابه لجاز تركهم ٠٠ لكن كيف وحريتهم فى ذلك تتعارض مع مصلحة الجماعة ؟ ومن هذا يفهم أن الاجرام لا يهدد المجرمين فحسب بل يهدد المجتمع كله !!

هكذا دائما أصحاب المذهب الفردى يثرثرون بالحرية ٠٠ ولا يتوقفون فيها عند حد ٠٠ ويقولون :

ان هذه الحرية ملكنا ٠٠ أما الاسلام فقد جعل للحرية الفردية اطاراً تتحرك داخله ولا تتجاوزه وهى ألا تؤذى الغير ـ والا فعلى المجتمع الكبير أن يصادرها ـ وعلى أولى الأمر أن يأخذوا أصحابها بالحزم وبذلك يسلم أمر المجتمع !!

أرأيت الى روعة التشبيه وعمق تأثيره فى النفس ـ وحسن توضيحه لمفهوم الحرية الفردية ـ ومسئولية الجماعة القيادية ٠

ذلك هو أساس الفوز فى الدنيا والآخرة ٠٠ لا مانقرأه اليوم من بحوث وكتب حول الحريات العامة ٠٠ من أراد التربية الاجتماعية الواضحة فى أسلوبها البسيط وقالبها الفطرى ٠٠ ومغزاها الواضح فليلتمسها فى هدى رسول الله !!

ان هذا الحديث يحدد مساوىء المذهب الفردى ٠٠ كما يحدد واجب المجتمع فى كبح جماح الأفراد ورد غوايتهم وهكذا يبدو جلياً أن الجماعة مسئولة عن الأفراد ٠٠ اذا ما تجاوزوا حدودهم ٠٠وأن مصلحة الأفراد من مصلحة الجماعة ـ وكذلك مصلحة الجماعة من مصلحة الأفراد فهذا هو حجم المشكلة ٠٠ فى وضعها المعقول !!

وهكذا نرى أن الاسلام لا يفصل بين الفرد والجماعة ولا يضعهما فى معسكرين متصارعين يحاول أحدهما أن يغتال حقوق الآخر فما دام للفرد نزعه استقلالية ـ ولكنها لا تخرجه عن كونه عضواً فى المجتمع فقد روعى فى منهج الاسلام أن يوازن بين النزعة الفردية والجماعية دون أن يفنى احدى النزعتين لحساب الأخرى ـ ودون أن يسحق الفرد لحساب المجتمع ـ أو يضرب نظام المجتمع كله لحساب فرد أو أفراد ٠٠ انه يهتم بالانسان من حيث هو انسان له خصائصه وقيمه سواء كان فرداً أو عضواً فى جماعة وهذا لون من التكامل ـ الفرد للمجتمع ـ والمجتمع للفرد ـ وبهذا تنطلق الحضارة القرآنية من غير عقد ولا ضغائن !!

ولعل فى شرح الخصائص البارزة لحضارة القرآن من وحدانية مطلقة ـ ومن تناسق وشمول ـ ومن روح انسانى نبيل يتجلى فى تشريعها وفى واقعها العملى ٠

وكل ذلك ونحوه ·· جعل منها أمل الانسانيــة المريضــة المضطهدة المستذلة ·· فالتقت بها على قدر وموعد ــ وكان هذا اللقاء من اللحظات الحاسمة فى التاريخ ·· بل من المنعطفــات الكبرى فى خط سير الحياة فمن جهالة يملؤها السفه والفجور الى حضارة يملؤها العلم والنور ·· ومن ضــلال الخــرافات الى حقائق المعارف ــ ومن شتات التفرق الى ائتلاف الشمل ــ ومن العــداوات والثارات الى الأخــوة والمودات ·· وصــدق ربنــا اذ يقــــول :

[واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمتــه اخوانا وكنتم على شــفا حفرة من النـــار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون (١)] ·

---

(١) آية ١٠٣ سورة آل عمران ·

الباب الثالث

قيم الحضارة القرآنية

(ا) القيمة الايمانية : عندما ننظر فى مجموعة القيم التى تنهض عليها حضارة القرآن ـ فاننا نؤكد من البداية أنها ليست قيما متناثرة ٠٠ بل هى متعانقة تعانق الأمواج فى المحيط الهادى، ٠٠ يمتزج بعضها ببعض ويتشابك اللاحق منها بالسابق فى تتابع وانسجام حتى تكون فى النهاية هيكلا ضخماً لأروع حضارة عرفها الانسان ٠٠

ونقصد بالقيمة الايمانية : تلك العقيدة المتكاملة التى يتحرك بها المسلم فى مجال الحياة عابداً لربه ومجاهداً فى سبيله وساعيا فى الخيرات باذنه ٠٠ وهذه العقيدة ايمان وثيق بالله لا يتزعزع ٠٠ وثقة تامة فى عدله وقضائه وتصديق شامل بكتبه ورسله ٠٠ ومعرفة يقينية باليوم الآخر على نحو ما ورد فى القرآن الكريم والسنة المطهرة ٠

فاذا استقرت هذه العقيدة فى وجدان المسلم دفعته الى البذل والتضحية وأداء كل واجب يكلف به أو يطلب منه ٠٠ [يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم (١)] ٠

وبهذه العقيدة تتحرك كل الحوافز الايجابية لدى المسلم٠٠ عندما ينادى بها ٠٠ ومن ثم كان السبيل الأمثل الى استجاشة

---

(١) آية ٢٤ سورة الأنفال ٠

عاطفته ـ واستجابة قلبه ـ وتحريك وجدانه وانقياده الى أى تكليف شاق ٠٠ يبذل فيه روحه وماله أن ينادى بهذا النداء الحبيب :

« يأيها الذين آمنوا » ثم تتوارد التكاليف بعده فى سهولة ويسر ٠٠

ان هذا النداء مفتاح سحرى يفتح قلب المسلم ووجدانه ٠٠ يلقى اليه بكل الوعى وبكل القلب بل بكل الحب ٠٠ فيخشع وينقاد وتصدر الأعاجيب ٠٠ وكم للطاعة والانقياد من آثار فى بناء الحضارات ٠٠ لقد أحب المسلمون نبيهم حباً عميقاً صادراً عن العقيدة ٠٠ فأطاعوه فى كل ما أمر ٠٠ وصدقوه فى كل ما حدث به عن الله ٠٠ وهكذا ما ان تنزل آية من السماء بتحليل أمر أو تحريمه الا سارعوا بداعى الحب ودافع العقيدة مهطعين مستجيبين ٠٠

وتلك هى أكرم ثمرات القيمة الايمانية فى بناء حضارة القرآن ٠٠ انها تملك بهذه القيمة السيطرة الكاملة على أبنائها ٠٠ وقد رأينا كيف حرمت الخمر بكلمات وفى لحظات !! وكيف انطوى بساط الجاهلية كله باسم العقيدة والايمان ٠٠

وقيمة أى نظام حضارى ليست فى نصوصه المكتوبة ـ ولكن فى تطبيقه العملى ٠٠ ولقد استطاعت حضارة القرآن أن تصنع لأبنائها وجداناً ـ يسالم أو يحارب ـ ويحب أو يكره ـ تبعاً لعقيدتهم ٠٠ فهم قد أحبوا فى الله ـ وكرهوا لله ـ وسالموا وحاربوا لله ٠٠ قاطعوا أبناءهم وآباءهم وأمهاتهم لأنهم على غير عقيدتهم ٠٠ وأحبوا الفقراء والعبيد والأعاجم لانهم على عقيدتهم ٠٠ وضحوا بالمال وبالوطن فى سبيل عقيدتهم ٠٠ ولم يكن

شىء فى الوجود أعز على المسلم من عقيدته فمصيبته فى المال يحتملها ٠٠ وكذلك فى الولد والأهل ولكن المصيبة فى الدين لا تحتمل ولا تطاق ٠٠ واذا اختلفت العقيدة فلا أنساب بينهم ٠

لقد رووا أن أبا سفيان قدم المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة ــ وكان مايزال مشركا ٠ ٠ فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله طوت عنه الفراش فقال يابنية ما أدرى ؟ أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ ! ٠ فقالت : بل هو فراش رسول الله وأنت مشرك نجس !!

فهل تتصور أن بنتاً تزجر أباها ٠ ٠ وتنهره وتضن عليه بالفراش كهذه البنت ؟ ٠ ٠ انها العقيدة فصلت بين الأب وابنته ٠ ٠ فلم يعد للأبوة بعدها تأثير !!

ولقد أنشأت العقيدة لأصحابها حباً فى نبيهم ــ الى حد لا يتصوره التاريخ لانه حب يصدر عن الايمان ٠ ٠ بل ان الايمان لا يتحقق لمسلم ما الا اذا كان الله ورسوله أحب اليه من ماله وولده ونفسه التى بين جنبيه ٠ ٠

قال عروة بن مسعود الثقفى بعد رجوعه (١) من الحديبية يخاطب المشركين : [أى قومى !! والله مارأيت ملكا يعظمه أصحابه مايعظم أصحاب محمد محمداً ــ والله ان تنخم نخامة الا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده واذا أمرهم ابتدروا أمره واذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ٠٠ واذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ــ وما يحدون اليه النظر تعظيما له ، والله لقد وفدت على الملوك ــ على كسرى وقيصر والنجاشى فما وجدت أحداً يعظمه أصحابه كما يعظم هؤلاء صاحبهم] ٠

---

(١) زاد المعاد جزء ٣ ص ١٢٥ ٠

وقد كانوا فى الحروب يفتدونه بأرواحهم ــ ويتلقون عنه السهام بأبدانهم ــ ويؤثر الواحد منهم أن يموت ولا يشاك رسولهم بشوكة ٠٠ ويسألون عن سلامته قبل أن يسألوا عن ذويهم وأهليهم فى الحروب فاذا اطمأنوا الى سلامته قالوا : كل شىء بعد ذلك جلل !!

العقيدة والضمير :

لقد صنعت هذه العقيدة وجدان المسلم ــ وكانت رقيبا عليه فى روحاته وغدواته ، فى يقظاته وهجعاته ــ سواء وهو فرد أو ضمن جماعة ٠٠ فأوجدت له ضميرا حيا يستحى من الله ومن الناس ، ونفسا لوامة تؤنب على المعاصى والمخالفات ــ وعاش المسلمون الأولون فى حراسة ضمائرهم لا تغريهم الدنيا بكل سحرها ــ ولا تطرف أعينهم بكل جمالها ــ قد أخرجها من قلوبهم فهان أمرها على نفوسهم ٠ ٠ واقتدوا برسولهم فى الصدق والأمانة والعفة والنزاهة والاستقامة والايثار فبلغوا من ذلك ما لا مطمع لاحد فى وصفه ٠٠ وقد قرءوا فى كتاب ربهم « ان الله كان عليكم رقيبا (١) » فراحوا وغدوا فى ظل هذه الرقابة وان أحدهم ليظفر بتاج كسرى فيجىء به الى أمير المؤمنين ٠ ٠ وفاءا بحق الأمانة ٠ ٠

ومما حبب الناس فى هذه العقيدة بساطتها وسماحتها فهى ليست عقيدة تثليث ــ ولا كهانة ولا تعقيد وانما هى عقيدة وجدانية سمحة [انما الله اله واحد (٢)] ٠

---

(١) آية ١ من سورة النساء .
(٢) آية ١٧١ من سورة النساء .

وهذا السمو فى الوحـدانية كان له أثره فى رفع مسـتوى الانسان ٠٠ وتحرير النفوس من طغيان الملوك والأمراء ورجال الدين ٠٠ وتصحيح العلاقة بين الحاكمين والمحكومين ـ كما كان له أثر فى خـلو هذه الحضـارة القرآنية من كل مظاهر الوثنية وآدابها على مـر الزمن ٠

وهذه الوحـدة التى تنادى بها عقيدتنا تطبع كل الأسس والنظـم بطابعها فهى وحـدة فى تصـور الاله ـ ووحـدة فى الرسالة ـ ووحدة فى التشريع ٠٠ ووحـدة فى الأهـداف العامة ووحدة فى الكيان الانسانى وفى أسلوب المعيشة ونظام التفكير ٠ وأسـاسيات الـذوق ٠

وبسبب هذه البساطة اعتنقها القـاصى والدانى وأشـاد الأجانب بصفاتها وسماحتها ٠٠ ووجدوا فيها سـمو العاطفة وشرف الوجدان ٠٠ فهل حاولت حضارة الغرب يوما أن تخضع أصحابها لرقابة الضمير ؟

(ب) القـيمة العلمية :

من القيم التى نادت بها حضارتنا : القيمة العلمية ٠٠ وهى قيمة لاتنفصل عن العقيدة ـ وانما ترتبط بها وتصدر عنها ذلك أن هذه العقيدة تقـوم على أسـاس علمى ـ وأحكام شريعتها انما تزدهر فى الأجواء المثقفة ـ وهذه العقيدة أيضـا تؤكد دور العلم فى الحياة وتهتف بالعقـل البشرى أن يتأمل فى خلق الله وأن يتدبر فى ملكوته وأن يتخذ من هذه المشاهد غذاء لعقيدته ، وقوة ليقينه وايمانه [قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنـون (١)] ٠٠ فالكون كله مسرح تتجول العقيدة فى جنباته وتطير فى آفاقه عابدة مسبحة

(١) آية ١٠١ من سورة يونس ٠

مستلهمة من بدائع صنع الله وروائع خلقه معنى العبودية والاجلال والخضوع ٠٠ وهكذا نجد العقيدة فى هذا المجال عقلا يشتغل وايمانا يشتعل ويقينا يتزايد ويربو ٠٠ وبهذا الفيض الدافق والالهام المتجدد تظل الشعلة الايمانية متقدة باهرة الضياء لأنها تستمد من معين لا ينضب يؤازرها كون مشحون بكل جليل ـ وعقل مدرك لكل بديع وجميل !!

والعجيب أن القرآن لا يشجع على العلم الدينى فحسب ٠٠ ولكنه يشجع على كل علم يؤدى الى نفع البشرية ويفضى الى تقدم الحياة ورقيها ٠٠ وزيادة ارتباطها بالله ٠٠ ولنقرأ فى ذلك قول الله سبحانه [ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور (١)] ٠

فانظر كيف جمعت الآية أشتاتا من المعارف الحيوية وأنماطا من المشاهد الطبيعية ثم طلبت الى المسلم أن يتأمل فى كل ذلك بعقل الباحث المفكر وليس بالنظرة العجلى ثم ختمت الآية بما يفيد أن العلماء هى أخشى الناس لله ٠٠ واذا نحن نظرنا فى تلك اللوحة القرآنية التى تعرضها الآية السابقة وجدنا منها ما يرتبط بعلم النبات (فأخرجنا به ثمرات) ومنها ما يرتبط بأنواع التربة وعلم طبقات الأرض (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ـ وغرابيب سود) ومنها ما يرتبط بعلم الانسان (ومن الناس) ومنها ما يرتبط بعلم الحيوان (والأنعام والدواب) ٠٠ وهى نظرات فاحصة تقوم على دراسة واعية وتصل الى نتائج محددة ٠٠

---

(١) آية ٢٧ ، ٢٨ من سورة فاطر .

ان هذه الآيـة تشير الى موضوعات علمية ·· وتترك للعقل البشرى أن يتجول فى رحابها مكتشـفا وملاحظا ومجربا ·· ولكن هذا العلم فى الجو الاسلامى علم باسم الله لا باسم أحد سـواه ···

وبذلك يطرد نفعه للحيـاة كلها وللانسـانيـة جمعاء ولا يسخر للغواية والشهوات وتدمير الحياة واستعباد النـاس ·· وأول آية تنزل على الرسول الأمى تؤكد هـذه المعانى (اقرأ باسم ربك الذى خلق) وبذلك يأخذ العلم فى جو حضارتنـا منطلقا ربانيـا ·· وويل للعـلم ان انفصـل عن الله ـ وويل للحياة منه !! وهكذا يصبح شعار الاسلام هو العلم ·· وشعار حضارته هو الثقافة والمعرفة الشاملة ·· والقرآن الكريم آيات لقوم يعقلون لقوم يتذكرون لقوم يتفكرون لأولى الالبـاب ـ لأولى النهى والكون كله فـيه آيات لقـوم يعقلون ـ فيه آيات للموقنين ـ [وفى أنفسكم أفلا تبصرون (١)] [ومن آياتـه خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين (٢)] ·

وتأمل معنى هذه الآيـة الكريمة : [أم هو قانت آنـاء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولوا الألبـاب(٣)] ·

ماذا ترى ؟ ألست معى فى أن مزيجاً رائعاً وصحيـاً بين عبادة الله وبين العلم النـافع قد التقى فى رحاب هذه الآيـة ؟!!

---

(١) آية ٢١ سورة الذاريات ·
(٢) آية ٢٢ سورة الروم ·
(٣) آية ٩ سورة الزمر ·

فهذا القانت العابد لا يرتفع الى قمة التقوى الا اذا صحب عبادته علم نافع يضىء جوانبها ، ويفسر أحكامها ويوضح أهدافها ٠٠ وبذلك تكون عبادتنا لله على بصيرة ونور ٠٠ وليس كعبادة الجهال الذين يؤدونها كيفما اتفق ٠

فهل رأيت امتزاجاً بين العلم والعبادة أكثر من هذا ؟٠٠

والواقع أنه لا يستوى عند الله عالم بأسرار عبادته وجاهل بها ٠٠ بل ان مجال التفاضل بين الناس ، والارتفاع بأقدارهم هو العلم النافع [يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجات (١)] ٠

ولهذا كرم الله العلماء تكريما لا مطمع وراءه لرفعة ٠٠ حيث أضافهم الى نفسه والى ملائكته فى الاقرار بربوبيته ووحدانيته وعلمه :

[شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم (٢)] ٠

ومن أدبيات العلم فى حضارتنا ــ أن يكون خالصا لله ــ فهو علم عابد ــ مسبح ــ موصول بالله ، والعلوم كلها اذا سارت فى هذا الطريق أدت أهدافها وبارك الله خطاها ٠

[واتقوا الله ويعلمكم الله (٣)]
ومصدر هذا العلم أساسا هو الله ٠
[وقل رب زدنى علما (٤)]

---

(١) آية ١١ سورة المجادلة .
(٢) آية ١٨ من سورة آل عمران .
(٣) آية ٨٢ من سورة البقرة .
(٤) آية ١١٤ من سورة طه .

وما يجوز لعالم أن يغتر بعلمه ٠

[وما أوتيتم من العلم الا قليلا]

والعلم فى جو حضارتنا علم متكامل ٠ ٠ يعبد الله ويبنى الحياة ٠٠ ويعتمد على التطبيق ٠٠ لأنه ليس علماً نظريا ٠٠ فالرسول صلوات الله عليه يطبق العلم فى جميع المجالات ٠٠ فهو يجعل فكاك الأسير فى غزوة بدر تعليم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة ٠٠ وهو أول عمل علمى تطبيقى يبذل فى مجال مكافحة الأمية ٠

ولا يقتصر على ذلك ٠٠ بل يخطط بالعلم للمعارك كما علمه ربه وكما أشار عليه أصحابه ٠

كذلك يستخدم العلم فى مجالات الاقتصاد والسياسة ٠٠ فكلها تعتمد على الأسلوب العلمى فتمليك الارض لزارعيها ، وتوزيع الماء ، وتحرير المعاملات المالية من الربا كله عمل علمى فى مجال الاقتصاد وكذلك مسائل البيع والشراء والقراض والتجارة !!

ولقد كاتب الرسول ملوكا ، وعقد معاهدات ، وأعطى العالم فى عصره مفهوما واضحا عن قضيته وعدالتها ٠٠ وبعث بالوفود المختلفة ، واستقبل الوفود المختلفة وأنشأ مع الجميع حواراً مثمراً حول الاسلام وأهدافه ٠٠ وأرسى قواعد التعامل مع أهل الذمة على أسس من السماحة والبر ٠٠ وهكذا نرى العلم يدخل فى جميع الميادين ٠

ويمضى العلم مع الدين فى رحلة البناء والتطوير صديقاً ودوداً ٠٠ وتتميز حضارة القرآن بذلك من بين جميع الحضارات الأخرى ٠٠ ولقد استطاعت هذه الحضارة الفريدة أن تنشىء

نظاما للدولة قائما على مبادىء الحق والعدالة مرتكزا على الدين والعقيدة دون أن يكون الدين عائقا يوماً ما عن رقى الدولة واطراد الحضارة ٠٠ بل لقد كان الدين حافزاً على الرقى باعثاً على التقدم لأنه ليس دين خرافة وكهانة ٠٠ بل دين حياة وبناء ومن بين جدران المساجد تفجرت ينابيع الحضارة وفاضت أنواع التقدم فى بغداد وقرطبة ودمشق والقاهرة وغرناطة ٠٠ ثم امتدت الى العالم كله ٠٠ ان حضارة القرآن لم تعرف يوماً ما الفصل بين الدين والدولة ٠٠ فما جاء دين الله الا ليحكم الحياة ٠٠ ويسدد خطاها ٠٠ ولابد لدنيا الناس من دين الله !!

ولكن هذه المأساة انما أنشأت فى القرون الوسطى وفى ظل الكنيسة عندما انحرفت الكنيسة فامتهنت الحرية ، واحتكرت المعرفة ٠٠ واضطهدت العلماء وتبنت رجعية الفكر٠٠ ولهذا انطلق العلم فى مضمار الالحاد من غير دين !! لكن ما ذنب الاسلام وهو دين الحياة الذى تذبل الحياة بدونه ويصوح نبتها ؟!

لقد كان رئيس الدولة هو الخليفة ، وأمير المؤمنين ، والحكم عنده للحق والتشريع للمختصين ٠ ٠ ولكل فريق من الناس عمل ٠ ٠ والتفاضل بالتقوى ٠

هذا هو الدين الذى قامت عليه حضارتنا ٠ ٠ ليس فيه امتياز لأحد ٠ ٠ فالرؤساء أجراء وليسوا أمراء ٠ ٠ وهم هداة وليسوا جباه ٠ ٠ وكاد الفرد المسلم يقول للحاكم أحيانا : السلام عليك أيها الأجير فلا يغضب !!

وفى ظل هذه العقيدة المتفتحة السمحة ٠ ٠ وجد العلم مجالا للبحث والابداع ٠ ٠ وتفتحت الآفاق أمام العلماء فبحثوا فى كل

شيء ، وكتبوا عن كل شيء ٠٠ ومارسـوا التجربة العلمية الرائدة فى أرقى مظاهرها ٠٠ ووصلوا الى كثير من النتائج الرائعة فى شتى الميادين ، وأهدوا أوربا كل ذلك العلم ، فما وصلهم العلم التجريبى الا عن طريق حضارتنا ، وما أخذوا الفلسفة اليونانية الا عن طريقتنا ٠٠ وماعرفوا مناهج البحث العلمى الا من وسائلنا !!

وسيأتى مزيد ايضـاح لمـا استفادته أوربا منا وما أخذته عنا وبخاصة فى مجالات « التكنولوجيا » من الطب والكيمياء والضوء والفضاء !! ٠٠ كل هذه الانجازات العلمية الحضارية كان يصحبها الهدى ، ويسددها الدين ٠٠ وتنعشها الروح ٠٠ ولم تكن مادية جافة ٠٠ ولذا كانت مباركة نافعة لنا وللبشرية من حولنا كغيث السماء الذى ينبت الجنات وحب الحصـيد ٠

يقول برتراند راسل محاكما مدنية الغرب : [الحضارة الحديثة أهملت الاهتمام بالروح والعالم اليوم بحاجة الى دين جديد يجعل غاية الانسان خارج هذه الحياة] ٠

وكأنما هذا الفيلسوف الانجليزى يعنى رسالة الاسلام ، وحضارة القـرآن ٠٠ ففيهما يوجد الحـل النهائى لمـادية الحضارية القائمة ٠٠ لأن الاسلام يربط فى وجدان المسلم بين عالـم الحـياة وعالـم الآخـرة ٠

وهذا لا شك أعظم حافز على تصحـيح وجـهة العلم ٠٠ لانها تجـعل مناط السعى لليوم الآخر ٠٠ ولا تكون الدنيا هى غاية الانسان ومبلغ علمه وأمله فيعيش حيوانا منطلقا ، ومن دعاء الرسول صلوات الله وسلامه عليه [اللهم لا تجعل الدنيا اكبر همنا ولا مبلـغ علمـنا] ٠٠

وقد ذم الله ذلك اللون من العلم الذى ينفصل عن الآخرة ويكتفى بظاهر الحياة فقال فى شأنه « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون (١) » ٠

والواقع أن الآية تنطبق على حضارة الغرب اليوم ٠ ٠ فمهما بلغت من التقوم المادى ٠ ٠ فانها لا تخرج عن كونها مرتبطة بظاهر الحياة لأن علم الانسان بالحياة وبنفسه محدودة ٠ ٠ فهو مهما يرتق علم ظاهرى ٠ ٠ لم يصل الى جوهر الحياة ٠ ٠ وهو من قبل ومن بعد منفصل عن الآخرة تماما ومن ثم عبدت الحياة ٠ وأهدرت قيمة الانسان فى عالم المادة والأرقام ودنيا « الدولار » ومنطلق حضارتنا هو الربط بين الدنيا والآخرة فى وجدان المسلم ليراقب الله فى كل حركة وفى كل خطوة ، ومع كل انجاز حضارى هاتفا بقوله تعالى : « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين (٢) » ٠ فنحن نبنى الحضارة لا لنعبدها ٠ ولكن لنكون سادتها ـ نستمتع بآثارها ونقر بفضل الله فى كل حين ، ونظل نعبده فى كل وقت وبذلك تنمو الفضيلة والخير فى ربوع حضارتنا ٠

يقول الدوس هيكسلى : فى الوسائل والغايات : « ان الفضيلة والخير لا يمكن أن تنمو أو تعم اذا لم يكن هناك نظرة قائمة على التوحيد وعقيدة يكون البشر فيها عبادا لله »٠

ويبدو أن القوم فى ظل الحضارة المادية ـ قد سئمو الترف ـ كما سئمو الالحاد والانفصال عن الله فعادوا يطالبون بحرارة بأن يرجعوا الى حظيرة الايمان ـ وذلك بعد ما لفحتهم أعاصير الفجور والكفر فدمرت شخصيتهم وسحقت أرواحهم ، انها رجفة شوق وانتفاضة فطرة لترتوى الأرواح من نبع الله،

---

(١) آية ٧ سورة الروم ٠

(٢) آية ١٣ سورة الزخرف ٠

وعبابه الداجور ، والاسلام لا شــك هو طريق النجاة فى محيط الفتن والأهواء بعد حياة الرجس والفجور ، فالى رحاب الاسلام ياعبدة المــادة فماذا يجــدى الترف اذا ذهب الايمــان بالله ؟ والايمان هو المعتصم القوى الذى تلوذ به الأفراد والجماعات فى قطوب اليأس وخطوب الحياة فيمنحها الثبات والاستمساك فى الخطوب والكروب والملمات ويفيض عليها من سكينة الروح ما ينعش صدرها ، ويلطف وهجها وينشىء لها الثقة والأمل فى يوم لا بخــس فــيه ولا ظلم ولا هوان !!

ولا تكتفى حضــارة القرآن باصطحــاب العلم فى رحــلة الحياة . ولا بتكريم العلماء ، ولا بفــتح الطريق أمام العقــل الباحث ليكتشف ويرتاد ويرجــع بزاد طيب من اليقــين ، ولا بخلق أجواء علمية تزدهر فيها الثقــافة ، ولا بوضــع أدبيات لذلك العلم ، وانما تأبى الا أن تضــع أســاسات للمناقشــة العلمية الهادفة ، وقانونا للمعرفة الكريمة . وقاعدة لمــا يعرف بأدب البحــث والمناظرة ــ وذلك باستعمال الذوق ــ والتزام الخلق ــ والخضوع للحق ، والابتعاد عن التجريح والسباب ، حتى مع أهل الكتاب « ولا تجــادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن (١) » وبتوجيهنا ردنا الى دليل المنطق وحكم العقل وقاعدة الحق « ياأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق (٢) » « قل ياأهل الكتاب تعــالوا الى كلمة ســواء بيننا وبينكم (٣) » ويقبح القرآن أسلوب الجدل العقيم الذى يعتمد على اللجاجة والمراء من غير استناد الى العقل ، أو الى العلم ، أو الى منهج السماء فيقول : « ومن النـاس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريــد (٤) » وما أقبــح الغرور الخادع ،

---

(١) آية ٤٦ سورة العنكبوت . (٢) آية ١٧١ سورة النساء .
(٣) آية ٦٢ سورة آل عمران . (٤) آية ٣ سورة الحج .

والاعراض عن الحق والتكبر على الحقيقة«ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله (١) » كما يكره القرآن لأتباعه أن يجمدوا على الضلال القديم ، أو يتحجروا على المعرفة الضارة ـ أو يهملوا عقولهم فى البحث والتقصى ، فيسقطوا فى هاوية التقليد الضرير الذى يهدر الكرامة ويلغى الشخصية وذلك قوله سبحانه : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولوا كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير (٢) » ان القرآن فى كل ما مضى يضع أساساً كريماً للمناقشة العلمية ، التى تصل بأصحابها الى الحق ، وتقام عليها الأدلة بأسلوب مهذب ولهجة هادئة متزنة ، وفى كل ذلك تحديد لمناهج المعرفة ومذاهب التفكير ، ولقد تحققت كل هذه الأسس فى مجتمع الحضارة القرآنية ، فكم نصبت حلقات العلم ـ وأديرت فيها مناقشات هادئة وهادفة ، وتحررت فيها العقول من الجمود ، وسطعت الحجج والبراهين ، ولم تترك هذه المناظرات أى اثر الحقد أو الضغينة ، وكانت فى واقعها التطبيقى مفخرة من مفاخر هذه الحضارة ٠

(جـ) العمل قيمة عليا فى هذه الحضارة :

اذا كان العلم قيمة عليا فى مجتمع القرآن ٠٠ سواء منه ما يرتبط بالعقيدة ، أو يتعلق بالتخطيط وشئون الحياة ـ فان العمل ، هو الترجمة الحية والتجسيد العملى لنظريات العلم ، ذلك أن العقيدة على المستوى النظرى تحتاج الى العمل ليعبر عنها ويبرزها من نية فى الضمير الى عمل فى الحياة على شكل

---

(٢) آية ٨ ، ٩ سورة الحج ٠

(١) آية ٢١ سورة لقمان ٠

عبادة قانتة من صيام وحج وجهاد وصلاة ولهذا فان العمل هو الجانب التطبيقى للعقيدة ، وتظل العقيدة حبيسة القلب ـ حتى يترجم عنها العمل ـ ويصبها فى قالب محسوس من جهاد أو صلاة ٠

وهكذا نظريات العلم المتعلق بالحياة ٠ انها الأخرى لا يمكن أن تثمر فى المجتمع وتنشىء الحضارة الا اذا ترجمها العمل الى وجود مائل ٠٠

فالعلم فى الاسلام ليس علما نظريا ، بل علم يترجم الى عمل ـ وللعمل فى القرآن مكانة مرموقة ٠٠ وانه لعمل يتسع للحياة ويستجيب لمطالبها ـ ويتجدد معها وبها ـ عمل يشمل شئون الخدمات الانسانية كلها ووسائل الانتاج وتطوير أدواتها ، وهو فى الوقت نفسه ينظم طاقة الأمة ويوجهها نحو الهدف الكبير ٠٠ وهو يشمل الاعداد لملاقاة العدو وتطوير القوة وتصاعدها لتردع أعداء الله وبهذا كله يكون العمل فى خدمة الحياة ، وصناعة الحضارة ٠

ولابد للعمل فى حضارة القرآن أن ينتظمه تخطيط دقيق ٠ وبهذا يبرز الترابط بين الايمان والعمل والعلم ٠

لقد ذكر العمل فى القرآن فى نحو ثلاثمائة وستين آية تصلح أساسا لأرقى اللوائح العمالية فى الحياة ، كما تتناول جوانب مختلفة من هذا الموضوع الكبير ٠

فالعمل فى منهج حضارتنا للذكر والأنثى [فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض (١)] ٠ ولابد أن يتم متقنا بحيث يبذل فيه أقصى الجهد

(١) آية ١٩٥ سورة آل عمران ٠

(انا لا نضيع أجر من أحسن عملا (١)) ويقــول رســول الله صلى الله عليه وسلم (ان الله يحــب اذا عمل أحــدكم عملا أن يتقنه) ٠

والعامل فى جــو حضارتنا يحرسه ضميره ويراقــبه ربه : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون (٢)) فهذا جهاز متابعة دونه كل أجهزة البشر ٠ لا يستخفى منه ولا يحتال عليه والتفاضل بين الناس يكون بالعمل : (ولكل درجات مما عملــوا (٣)) :

وأجر الأجير لابد أن يتم بوفاء وعلى الفــور (أعطوا الاجير أجره قــبل أن يجف عرقــه والعمل فى حضـــارتنا شرف وكرامة وحياة قد مارسه الأنبياء ، ونهض به العظماء (اعملوا آل داود شكراً) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه : (انى لا أحب أن أجلس وأنتم تعملون) ٠

ويقــول عمربن الخــطاب ٠ انى لأرى الرجــل فيعجبنى ، فأسأل أله عمل ؟ فان قالوا : لا سقــط من نظارى) ٠ ولابــد من العلاقــة الانسانية بين صاحــب العمل والعامل حتى ولو كان العامل رقيقاً (لا تكلفوهم من العمل مالا يطيقون) ٠

وبهذه المفاهيم الواضحة ، انطلق بناة حضارتنا فى الحياة يخططون بالعلم ، وينفذون بالعمل ، ويراقــبون الله بالضمير الوازع والخلق الزكى وقد كافحوا البطالة فى مجتمعهم فكانت كل الأيدى للبناء ، والتعمير ، وتنوعت أعمالهم ٠ فبنوا المجد ـ وحاربوا العدو وأنشأوا المعاقل وحفروا الخنادق وعبدوا الله ٠

---

(١) آية ٣٠ سورة الكهف .
(٢) آية ١٠٥ سورة التوبة .
(٣) آية ١٩ سورة الأحقاف .

ولم يكونوا يحتقرون العمل ، بل كانوا يعدونه شرفا وكرامة ـ ولهذا ازدهرت حضارتهم وآتت أكلها ، باذن ربها ..

(د) الجهاد فى حضارتنا تعبير عن العقيدة

تترابط القيم الحضارية بعضها ببعض ترابطاً قويا فى وجدان الدارس . بل فى محيط الحياة ، ذلك أن العقيدة على النحو الذى صورناه تستدعى ممن يعتنقها أن يدافع عنها ويحميها من كيد المتربصين .. والاسلام نظام عالمى جاء ليغير الحياة ويكتسح ركامها ، فلابد أن يجد من الأعداء فى كل من يتصدى له ـ ويعلن الحرب عليه ، ولهذا شرع الجهاد ليحمى العقيدة من كيد المتربصين ـ وهجمات الجاهلية ، لتأخذ هذه العقيدة مجراها العتيد فى هداية البشر ، من غير تعويق ، ولا صد على مر الزمن :

فالجهاد درع تحتمى به العقيدة فى مواجهة أعدائها والصادين عنها وليس وسيلة ارغام ولا سبيل قهر (لكم دينكم ولى دين) (أفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين(١)) (لا اكراه فى الدين) ولم يحدث يوما أن تحولت حروبنا للقهر والارغام أو للطغيان والبغى ، وانما كانت دائماً حروب تحرير وتطهير ودفاع عن المثل والكيان والكرامة ووسيلة لدفع الظلم ورد العدوان « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا: ربنا الله (٣) » : « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله (٤) » وينهى ربنا عن البغى والعدوان فيقول : (فمن اعتدى

---

(١) آية ٩٩ سورة يونس .
(٢) آية ٢٥٦ سورة البقرة .
(٣) آيتا ٣٩ ، ٤٠ سورة الحج .
(٤) آية ١٩٣ سورة البقرة .

عليكم فاعتدى عليه بمثل مااعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين (١)) .

وهكذا يأخذ الجهاد فى الاسلام دور الدفاع واقرار العقيدة ونصرة المستضعفين « ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا (٢) » وذلك لأن العقيدة الاسلامية درع يحمى كل المستضعفين فى أرض الله ، لاننا لا نحتكر القوة بل نسخرها لخدمة الحق ، وحفظ كرامة الحياة ، وارهاب أعداء الله « وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون » وليس فى طبع الاسلام ولا من أخلاقه أن يفسد فى الأرض فمن وصايا الصديق لا تقتلوا طفلا ولا امرأة ولا تقطعوا شجرة ولا تعقروا ناقة الا لمأكله ، وستجدون قوما يعبدون الله فى الصوامع فدعوهم وماخلوا أنفسهم له) :

ومتى كان المسلمون مهاجمين أو معتدين ؟

أفى غزوة بدر ؟ ! وقد سلبت ديارهم وأموالهم وأوطانهم وعوملوا بوحشية فاجرة ؟ أم فى غزوة أحد وقد زحف جيش الشرك على المدينة يريد أن يستأصل شأفة المسلمين ؟ أم فى الخندق وقد تواطأ الكفر مع النفاق مع اليهود فكونوا جيشاً ضخماً يريدون غزو المدينة والقضاء على من فيها ؟ أيلام

---

(١) اية ١٩٤ سورة البقرة .
(٢) آية ٧٥ سورة النساء .
(٣) آية ٦٠ سورة الانفال .

المسلمــون اذا هبوا يدافــعون عن بلــدهم وعقــيدتهم ؟ ! هذه حروبنا ٠٠ أيمكن بعد ذلك أن يقال : ان الاسلام دين القســوة والوحشية ؟

فأين هى الوحشية ؟ وكل أهداف الجــهاد فى ســبيل الله (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان ان كيد الشــيطان كان ضعيفا (١)) يبقى بعد ذلك قوله صلوات الله عليه « أمــرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله » انه فى شأن المشركين ــ عبدة الأوثان ــ الذين يضــعون العوائق فى طريق العقــيدة ــ ويصدون عنها ٠ ويتآمرون عليها ٠ أفلا تضــع حــداً لتآمرهم وكيدهم ؟

وفيما عدا ذلك فان الاسلام يعايش الأديان معايشة طيبة، وتجــد فى كنفه كل مــودة واحــترام ٠

وتتميز حضارتنا بهذه السماحة الدينية التى ذهبت مذهب الامثال ٠ ويكفى جداً أن ننقل مايقوله رينان عن حروب الاسلام لنرد على بقية المستشرقين بكلام واحد منهم يقول : [لم ينصف المؤرخون الغربيون الاسلام باتهامهم اياه بالقســوة فى الجــهاد والفتوحات مع أن هذا الجــهاد كان ضروريا لنشر العدالة التى تزدان بها التعاليم الاسلامية المشرقة] ٠

ومايزال التاريخ يردد قصة السماحة الدينية التى تحلى بها الاسلام عندما جــاء وفــد نصارى نجــران الى الرســول صلى الله عليه وسلم فأنزلهم فى المسجد فكانوا يصلون فى جانب منه ورسول الله مع المسلمين يصلون فى جانب آخــر ٠٠ ولمــا

(١) آية ٧٦ سورة النساء .

أرادوا مناقشة الرسول فى دينهم استمع اليهم وناقشهم كل ذلك برفق وسماحة ٠

ولقد عاشت المساجد تجاور الكنائس من غير تضييق ولا منع ٠ ٠ ومن نصوص حضارتنا المضيئة فى أهل الكتاب :

[لهم مالنا وعليهم ماعلينا] ٠

ومن آثار تلك السماحة أحب النصارى حكم المسلمين وفضلوه على حكم طوائفهم ٠ ٠ وكانوا دائما يجدون فى الاسلام العدالة والانصاف ٠

والسلام فى الاسلام هو الأصل الاصيل ٠ ٠
(يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة (١))
ولكنه السلام العزيز القادر :

(فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون والله معكم(٢))
ولعل فى اشتقاق كلمة : « الاسلام » من السلام مايوحى بمنهجه فى الحياة ٠

ولذلك فان الحرب فى الاسلام ضرورة لا يلجأ اليها الا اذا سدت المنافذ محاولات السلام :

(كتب عليكم القتال وهو كره لكم (٣)) ٠

وهنا نشير الى أن الجهاد يجب أن يستمر وترتقى أساليبه، وأن يتطور تبعاً لروح العصر وأن تمتلك باستمرار مايرهب

---

(١) آية ٢٠٨ سورة البقرة .
(٢) آية ٣٥ سورة محمد .
(٣) آية ٢٢٦ سورة البقرة .

عدونا ليظل لواؤنا مرفوعا وصوتنا مسموعا ويوم تغفو هذه الأمة عن أمجادها وتجبن عن مواجهة أعدائها يوم يبتليها الله بالذل والخسف والصغار فما ترك قوم الجهاد الا ذلوا ٠٠ ولقد كان قعود المسلمين عن الجهاد ، وذهاب روح الجندية منهم فى عهود التخلف والضعف سبباً فى تفتيت وحدتهم ـ وتفريق كلمتهم ـ واسقاط كرامتهم ـ لانهم فقدوا الحصانة التى يكلفها لهم الجهاد المقدس ٠

واذا كانت كلمة التوحيد هى أساس حضارتنا ، فان توحيد الكلمة هو سر بقائها فهل تتحد كلمتنا ؟ وهل تلتهب جذوة الجهاد من جديد فى نفوس أبناء هذه الأمة لاسترداد المجد ـ وتحرير الارض ـ وارغام العدو ؟ !

ان حضارة القرآن لا يمكن أن تزدهر الا اذا أمنت عدوها ٠ ولذا كان علينا أن نأخذ حذرنا :

(يايها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا (١)) ٠

ومع واقع التجربة التى خاضها آباؤنا ٠٠ نعرف أنهم لم يضعوا السيف عن كاهلهم ، ولا استناموا على هدهدة الأمانى ٠ وأنهم خاضوا معارك ضارية ضد أعداء الله ونازلوا أغنى دولتين كبيرتين فى العالم فانتصروا عليهما ٠٠ وحكموا بلادهما ٠٠ وهكذا عاشوا بالجهاد أعزة كراما ٠٠ والمسلمون اليوم فى حاجة الى اجتماع الكلمة على أساس من عقيدتهم ـ لينطلقوا من جديد فيحرروا أرضهم وينقذوا تاريخهم ٠

ومن ثم تكون لهم الكرامة فى الأرض ولينصرن الله من ينصره ٠

---

(١) آية ٧١ سورة النساء ٠

العبادة وقيم الأخلاق فى حضارتنا :

وترتبط العقيدة بالعبادة ارتباطا وثيقا ذلك أن العبادة تعبير عن العقيدة كما مر ومالم ترتبط بها فان العقيدة تغدو سلبية عقيما كبذرة لاتنبت عودا ولاتؤتى ثمرا ٠

واذا كانت العبادة ترجمة عن العقيدة فان لهذه العقيدة أثرها فى حراسة العبادة فهى لها حافز ايجابى يحرك الباعث عليها ٠ ٠ ويحول دون التقصير فيها ويجعلها متقنة خاشعة رائدها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » ٠

وان حضارة تدعمها عقيدة صالحة ـ وتترجم عنها عبادة صادقة ، ويخرسها ضمير حى ويخططها علم نافع ٠ ٠ ويبنيها عمل جاد لهى حضارة خالدة فيها كل مقومات الجلال والعظمة وعندما تسود المجتمع روح العبادة الواحدة يصلى صلاة واحده ـ ويحج الى مكان واحد ويؤدى زكاة واحدة ويصوم صوما واحدا ويتجه الى قبلة واحدة ويتعامل مع بعضه بقانون واحد فان نظاما رائعا يسرى فى جنباته وهو « وحدة العمل » ٠ ٠ وهكذا ـ تصنع العقيدة وحدة الضمير وتصنع العبادة وحدة العمل وتصنع القبلة وحدة الوجهة ٠ ٠ وهذا التناسق فى مجتمع الحضارة القرآنية سبيل هذه الأمة الى اتحاد المشاعر وائتلاف القلوب ٠ ٠ وهذه الوحدة ليست ظاهرية فحسب ـ بل انها تنبع من أعماق الوجدان ٠

ومن ثم فاننا نجد أن الرقعة التى غمرتها حضارة القرآن قد تميزت بهذا التجانس ٠ ٠ وبتلك الوحدة الجامعة ـ ومادامت كلها تسقى بماء واحد ـ وهو القرآن ٠ ٠ فلابد أن تتحد شعورا وقلبا وعملا وحركة ٠ ٠ ولابد أن يسودها نوع من ائتلاف النغمة ٠

ولم تقتصر هذه الوحدة على مامر ، بل تجاوزت ذلك الى التعبير الفنى ٠٠ فقد شملته روح واحدة وسرى فيه ذوق مؤتلف ٠

[حتى أن الباحثين فى الفنون الاسلامية قد لحظوا وحدة الأسلوب والذوق فى أنواعها المختلفة فقطعة من العاج الاندلسى - وأخرى من النسيج المصرى - وثالثة من الخزف الشامى - ورابعة من المعادن الايرانية تبدو رغم تنوع أشكالها ذات أسلوب واحد وطابع واحد] ٠

وكذلك فن هندسة المساجد وزخرفتها على الطراز الاسلامى، له أيضا تلك الخاصية ٠

وهذه العبادات المختلفة تمد الحضارة بأخلاقيات سامية ٠ لعلها من أهم الخصائص التى تتميز بها حضارتنا ٠٠ فما هذه العبادات فى مضمونها السامى الاوسائل لتعويدالمرء على أن يحيا بأخلاق صحيحة ٠٠ ولكل عبادة منها فلسفة أخلاقية متميزة ٠ تتمازج جميعا لتنشىء الصدق والاخلاص والامانة والعدل وحب الحق والانتصار له ٠٠ وكراهية الباطل والنفور منه ٠٠ لأن من أخلص لله محال أن يكذب على سواه ٠

ومن هنا كانت العبادات روافد أخلاقية تصب فى الساحة الحضارية وتقود مسيرة هذه الحضارة على صراط العزيز الحميد ٠٠ وهذه الأخلاق تتسم بالثبات والعمق والوحدة نتعامل بها فى داخل بلادنا كما نتعامل فى خارجها ٠٠ ونتعامل بها مع المسلمين كما نتعامل مع غيرهم ٠٠ ونستعملها فى الحرب كما نستعملها فى السلم ٠٠ ولعل حضارة الغرب التى تكيل ،

---

(١) عن كتاب الدكتور مصطفى السباعى من روائع حضارتنا .

بكيلين ، وتتعامل بوجهين ٠٠ وتطبق الدساتير العادلة داخل بلادها ـ دون أن تستخدمه فى مستعمراتها ٠٠ لعلها بذلك تفقد عنصر الوحدة الأخلاقية ٠٠ لانها لم تستمد الاخلاق من عقيدتها ٠٠ ولم تستلهمها من عبادتها فغدت هذه الأخلاق نفاقا وخداعا ٠

نعم : لقد احتبست مبادىء الثورة الفرنسية فى فرنسا وحرمت على غير الفرنسيين ٠٠

ولقد أقامت أمريكا تمثال الحرية فى نيويورك ليكون أول ما يراه القادم الى تلك البلاد بينما تنطق أعمال أمريكا فى خارج بلادها باضطهاد الحرية ـ وابادة الأحرار ٠

انها أخلاق للمزايدة ـ ولاطلاق الشعارات الرنانة ٠٠ ولكنها عند التطبيق لا تعنى الا الفجور والختل ٠٠ فأين هذا من أخلاق حضارتنا ؟

لعمرى ما فتحنا الدنيا الا بأخلاقنا ـ وما سدنا العالم الا بأخلاقنا وما حاربنا الا دفاعا عن الأخلاق ٠٠ وما كان نبينا الا متمما لمكارم الأخلاق !!

أرأيت كيف أن العبادة هى النبع الفياض الذى يسقى حضارتنا بكل القيم النبيلة والأخلاق الفاضلة ٠٠ ؟؟ ٠٠ وللعبادة فى حضارتنا فلسفة أخرى تدعم جانبا من أخلاقها ٠٠

ذلك الجانب هو خلق الطاعة والامتثال ، فهى تعبير صادق عن الالتزام فى اجلال وخشوع حتى فى تنفيذ الجوانب التى لا يدرك العقل مغزاها ٠٠ وهى جوانب تتجلى فيها بطولة الايمان ٠

ولقد شاهدت بنفسى فى تأمل واع ـ وأنا بالمزدلفة ـ كيف أن الناس ـ كل الناس رجالا ونساء ـ على اختلاف أوساطهم الاجتماعية ينحنون على الأرض ـ تتكأونها بأناملهم

ـ باحثين عن الجمرات لرجم ابليس رمز الشر والتضليـل فى هذا الوجود !!

تصورت الناس فى ذلك المشهد ـ فقلت لنفسى : سبحان الله !! أتستطيع قوة من قوى الأرض أن تسخر هـذه الجموع الحاشدة لجمع الحصا من الأرض ؟ وهل اذا ضمنا السلطـة القاهرة التى تقهرهم على هذا العمل أتراهم يقبلون عليه بتلك الطواعية ـ وبهذا الشوق ··؟!

حتى اذا تم لهم جمع الجمرات المعدودات وضعوها فى حرز نظيف ثم انطلقوا بها بعد منتصف الليل الى منى ليقذفوا بها حجرا قائما هو رمز لابليس !!

ولو رأيت الناس وهم يقذفون الجمرات ·· بكل قوة وبكل حرارة ليصيبوا بهـا رمز الشر كله فى الوجود ـ ولو رأيتهـم كذلك وهم يزدحمون على الكعبة لتقبيل الحجر الأسود ـ ولو رأيت تدافعهم فى الطواف والسعى ، ولو رأيتهم فى عرفات وعلى جبل الرحمة يدعون ويلبون ·· وينفـذون بكل دقـة ووعى ما يطلب اليهم ومن بينهم الشيخ الفانى والمـرأة المترهلة والفتاة الشابة ·· والأسود الزنجى والابيض المدنى والفلاح القروى·· ومن أقبلوا من أقاصى الارض لو رأيت ذلك كله لعـرفت كيف يعبر الحج عن خلق الطاعة والامتثـال وكيف يعبر من جانب آخر عن بطولة الايمان الذى يتجلى فى تنفيذ أمور لا يدركهـا العقل ولكن لا يخالجه شك فى حكمتها ·· وان لم تظهر له تلك الحكمة ـ يكفى أن الدين أمر بهـا ـ وأن الرسول فعلهـا ·· فعليه أن ينفذ وينقاد · ومن هنـا ندرك سر الكلمـة الخالدة التى أطلقها عمر وهو يقبل الحجر الأسود يعبر بهـا عن خلق الطاعة والامتثال : [أعلم يا حجر أنك لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك !!] ·

ألست تحس الصراع فى نفسية عمر بين ما هو واقع من تقبيل الرسول للحجر ـ وبين مالا يعقل وهو تقبيل حجر لا يضر ولا ينفع ؟! نعم : ولكن الرسول قبله فغدا بتقبيله شيئا آخر ٠٠ غدا عبادة ربانية تؤدى بكل الحزم وبمنتهى الانقياد ٠ بل وبكل الحب والشوق والولاء ولهذا الامتثال أثر حضارى يعرفه كل من يتدبر ٠٠ فان مجتمع الحضارة يدين بالنظام ٠

ويؤمن بالعمل ويعتمد على طاقة الجماهير ٠٠ فاذا أمكن بدستور الشريعة أن يعمل الناس فى كل أرجاء الدنيا عملا واحدا ـ يؤدى بطريقة واحدة فما أجمل النظام وما أجمل الطاعة وما أقدرها على خلق مجتمع منظم ينبع النظام عن عقيدته ويصدر عن طبيعته ويعبر عن فطرته ٠٠ فيصبح خلقا له وطبعا كامنا فيه ٠٠ ولا يكون عملا صناعيا ـ تتحكم فيه القوانين والنظم ٠٠ وخليق بالمسلمين بعد ذلك أن ينطلقوا بهذه القيم لبناء حضارة القرآن ودعم أركانها ٠٠ بكل الصدق ـ وكل الطاعة وكل النظام ٠

والعبادات من جانب آخر ٠ توحد الشعور ـ وتحقق المساواة ـ وتقضى على الطبقية ـ وتجعل من البشر جميعا وحدة كبرى ٠٠ ولكل هذه القيم أثرها فى بناء الحضارات ودعمها ٠٠

يقول الفيلسوف اقبال : [على أننا لا نستطيع أن نتجاهل بأن وضع الجسم عامل حقيقى فى تعيين اتجاه العقل ـ واتخاذ قبلة واحدة لصلاة المسلمين أريد به أن يكفل وحدة الشعور للجماعة ـ كما يكفل الاحساس بالمساواة الاجتماعية ٠

ويقوى أواصرها ـ ويقضى على الشعور بالطبقية ـ أو تفوق جنس على جنس آخر ـ ان قوة روحية تحدث لو حمل البرهمى الأرستقراطى المختال فى جنوب الهند على الوقوف مع

المنبوذين كتفا الى كتف كل يوم خمس مرات ٠٠ ان وحدة الذات المحيطة بكل شىء التى تخلق جميع الذوات وتكتب لها البقاء ٠٠ هى التى تصدر عنها الوحدة الطبيعية الضرورية لجميع البشر ، وانقسام البشر الى أجناس وأمم وقبائل قصد به سهولة التعارف لا غير ـ وعلى هذا فان الصلاة الى جانب ما لها من قيمة فكرية تشير بذلك الى وحدة جميع البشر كحقيقة من حقائق الحياة الكبرى] ٠

وللصلاة فلسفة أخرى حضارية ٠٠ من حيث انها وسيلة من وسائل استكشاف الذات ٠٠ تؤكد وجودها ـ وقد تفنى شهودها فى ذات خالقها ـ حين تذوب شوقا فى السجود الخاشع الطويل ـ وهى فى الوقت نفسه تشحذ ادراكنا الباطنى لشهود الحقيقة الكبرى حين تتجرد النفس من علائق الطين ٠٠ وتصفو من أكدار المادة كما أنها تعبر عن مكنون الشوق الزاخر فى الفؤاد ٠٠ وهكذا تتعاون الصلاة مع العقل فى البحث عن الحقيقة ، العقل يمضى فى رحلة البحث جوابا منطلقا فى الآفاق يرى ويستكشف ويعانق الحقائق فيعرف ، والصلاة أسلوب استكشاف رائع ، توجه الهامنا الباطنى نحو الحقيقة الكبرى٠

ولنترك اقبال يتحدث الينا بأسلوبه الممتع معبرا عن الوجد الواله الذى يصبه العابد فى صلاته فيقول : [الصلاة من حيث هى وسيلة للهداية الروحانية فعل حيوى نكتشف به شخصيتنا فجاة ـ تلك الشخصية التى تشبه جزيرة صغيرة ـ مكانها فى خضم الوجود الأكبر للحياة ٠٠ وهى فى الوقت نفسه تكملة للنشاط العقلى الذى يتأمل فى الطبيعة تأملا عمليا يجعله على اتصال وثيق (بسلوك الحقيقة) فتشحذ بذلك ادراكنا الباطنى لشهود الحقيقة شهودا أوفى وأعمق والصلاة تعبير عن مكنون الشوق الزاخر فى الأعماق الى من يستجيب

لدعائه فى سكون العالم المخيف ·· وهى فعل فريد من افعــال الذات تثبت وجودها فى نفس اللحظة التى تنكر فيها ذاتها] ·

أى أننا فى الصلاة نثبت وجودنـــا من حيث اننا نحاول استكشاف الحقيقة الكبرى ــ فى الوقت الذى ننكر فيــه تلك الذات فناء فى الله ·· وتجردا له سبحانه ·· فلا وجود لنا مع وجوده ، ونحن اذا تأملنـــا الزكاة وجدنا فيهــا اثبــات الذات بالعطاء السخى والبذل الندى ومقاومة الشح ·· والصوم بما يحمله من معنى الصمود فى وجه المغريات واللذائذ يحمل معنى تحقيق الذات أيضا والحج بما يتجلى فيه من تعويد العقل على الخضوع لربه حين تخفى عليه وجوه الحكمة انه أيضا يشحذ ســلاح الاستكشاف لأنه تعبير عن خضوع الذات لربها الذى خلقها فسواها وألهمها فجورها وتقواها ··

يقول اقبال : [وصور العبادات كلها فى الاسلام بما تحمله من صدق انطباعها على سيكلوجيــة المنزع العقــلى ترمز الى اثبات الذات وانكارها] ·· لأنها جميعها تقاوم المعوقات فيتم بها اثبات الذات ــ وتفنى فى الله تعبيرا عن الاخلاص والتجرد فترمز بذلك الى انكار الذات ولانها تستسلم لربهــا وتنقــاد لأوامره من غير جدل ولا مراء ··

ولهذه الآثار التى تحققها العبارة فى كيان المسلم ــ فلسفة حضــارية فى طبــع الناس على النظــام والطاعة والامتثــال وتجاربهم مع القيادات وانجاز ما يطلب اليهم من مهام بعيدا عن الثرثرة والجدل والمــراء ·· كما أن لها حكمتها العاليــة فى تكوين الشخصية الحضارية التى تتسم بالتجرد والاخلاص·· وقد عاشت هذه القيم النبيلة فى مجتمع الحضــارة القرآنيــة وتحققت فعلا أمام العــالم ·· وكانت سمة بارزة من سمات حضارتنا ·· وتكون معها وبها عالم نظيف ··

بعيد عن كل ثرثرة أو ادعاء ـ ينكر ذاته فى العمل والبناء ويؤثر أن يعيش جنديا مجهولا على أن يكون أسطورة تغزو قلوب الناس كما هو خلق الحضارات المادية ، أو صدراً بارزا تعلق عليه الأوسمة والنياشين ٠٠

(هـ) الحرية فى مجتمعنا الحضارى :

تنبع الحرية من العقيدة كما ينبع الماء من النبع ٠٠ وهكذا تنطلق من العقيدة قيمة حضارية عليا لها أعظم الأثر فى قوة الشخصية واثبات الذات والفصل فى مسائل الحق والباطل ٠٠ ألا وهى الحرية التى هى فى الواقع سمة الحضارة المتفتحة٠٠ أما الحضارة الجامدة فتدين بالعبودية للبشر ـ وتطبع أبناءها على الجبن وتسلبهم أعظم نعمة أنعم الله بها عليهم وهى نعمة الحرية ٠٠ وللحرية فى المفهوم الاسلامى منطلق واسع فهى تمرح حيث توجد العقيدة ـ واذا كان معنى العقيدة ببساطة أن ندين بالعبودية لله ـ ونتحرر من كل ما سواه ـ فان معنى ذلك بوضوح أن النظم والقوانين والدساتير والأوضاع والاشخاص وقوى الشر كله لا تستطيع أن تستعبدنا أو تستذل رقبنا لأننا عبيد لله فقط ٠٠

وفيما عدا ذلك فنحن أحرار ومن امتهن حريتنا سحقناه ومن ثم فان حضارتنا هى التى أعلنت ميلاد التحرر البشرى٠٠ وحررت الضعفاء من بطش الأقوياء ٠٠ بل حررت الحياة من العبودية والجهل ووضعت للحرية ضمانات قوية حتى لا تستغل أو تستذل ٠٠ وسرت نزعة التحرر منا الى المسيحية فثارت على العبودية والجهل٠٠وانطلقت مع العلم تبنى الحياة٠

واقتص عمر بن الخطاب من ابن عمرو بن العاص حاكم مصر لأنه لطم طفلا على وجهه وقال له : أنا ابن الاكرمين

نسبا !! فلما شكا والد الغلام الى الخليفة لم يسكت على امتهان الحريــة ٠٠

وانما أحضر عمرا وابنــه وقال لابن الفــلاح اضرب ابن الأكرمين نسبا !! ثم التفت الى عمرو وقال له : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟!

وعقيدة المسلم من جانب آخر تحرره من ضغط الشهوات ومن صراع النفس الأمارة ولا تفتــأ تنــاديه بأن يتحــرر من المطامع والمــال والشهوات كلها ٠٠ وهو يجاهد فى هذا الميدان بسلاح الارادة فاذا استطاع أن يسكت ذلك الصراع فى باطنه فقد أتيح لقوى الخير أن تنتصر ٠٠ وبذلك يتحرر من الباطن ٠٠ ويصبح سيدا لنفسه ومستعليا عليها لا عبداً ذليلا لها يخضع لشهواتها ٠٠

وبذلك الجهاد النبيل ٠٠ المستمر لم تعرف حضارتنا ذلك الطراز المتبذل من الناس وهم عبيد الشهوات ٠٠ وانما عرفت رجالا أولى حزم وعزم يزدان بهم الوجود وتسمو بهم الانسانية ويعبرون عن الحرية الحقة ٠٠ حين يرتفعــون على أنفســهم وشهواتهم وكم فى حضارات اليوم من عبيد الشهوات ٠٠ !!

ومن تحرر من الباطن ٠٠ فمحال أن يستعبد من الخارج ٠٠ وبهذا تأخذ الحرية امتدادها فى حضارة القــرآن ٠٠ وتعبر عن نفسها تعبيرا حقيقيا فى شتى الميادين ٠

فهى حرية شخصيــة فى اطار الدين والفضيلة ومصلحــة الجماعة ٠٠ وليس لأحد فى هذا الاطار أن يصــادر حريتك أو يعتدى عليها ٠٠

وهى حرية الكلمة : التى أخذت امتدادها فى حضارة الاسلام فمكنت كل فرد فى ظلها أن يعبر عن رأيـه وفكره بأى أسلوب يرتضيه ٠٠ وجعلت فردا من الشعب ينقد أمير المؤمنين ويسأله عن ثوبين لبسهما ٠٠ وجعلت امرأة تنقد رأى عمر فى مجتمـع عام ٠٠ ومن اعتزازهم بحرية الكلمة ٠٠ ما كان يصدر عنهم من آراء فى مجالس العلم وفيهم المسلم ـ والمسيحى ـ والشيعى ـ والمجوسى ٠٠ فما كان أحد يصادر حرية أحـد وانما كانت آراؤهم الحرة تاخذ وصفها فى تلك المجامع قال خلف بن المثنى :

« لقد شهدنا عشرة فى البصرة يجتمعون فى مجلس لا يعـرف مثلهم فى الدنيا علما ونباهة ٠ وماكان أحد منهم يصادر حرية أحد وهم : الخليل بن أحمد وهو سنى ـ والحميرى الشاعر وهو شيعى ـ وصالح بن عبد القدوس وهو زنديق ثنوى ، وسفيان بن مجاشع وهو خارجى صفرى ، وبشار ابن برد وهو شعوبى خليع ماجن ـ وحماد عجرد وهو زنديق شعوبى منحل ـ وابن رأس الجالوت الشاعر وهو يهودى ، وابن نظير المتـكلم وهو نصرانى ، وعمر بن المؤيد وهو مجوسى ، وابن سنان الحرانى الشاعر وهو صابىء ٠

كان هؤلاء يجتمعون فيتنـاشدون الاشـعار ويتنـاقلون الاخبار ويتجادلون فى مسائل العلم فما كان أحد يحاصر أحدا ـ أو يصادر رأيه ـ أو يضطهد حريته ٠

ان هذا ان دل على شىء فانما يدل على حرية الكلمة فى تلك الحضارة الى أوسع مدى يتصوره العقـل ٠٠ ولو أن المسلمين جماعة متعصبون لصادروا حرية الكلمة وبخاصة حين تصدر عن غيرهم ولقد كان الخلفاء يجمعون طوائف العلماء مع اختلاف مذاهبهم وديانتهم ـ وكانت للمأمون حلقة علمية يجتمع فيها

علماء الديانات والمذاهب كلها وكان يكفل لهم حرية الرأى قائلا لهم : « ابحثوا ما شئتم من العلم من غير أن يستدل كل منكم بكتابه الدينى كيلا تثور بذلك مشاكل طائفية ٠٠ فهل رأيت الى سمو الحرية فى حضارتنا ؟ » ٠

وهى حرية العقيدة : التى تجعل لاهل الطوائف الاخرى أن يعيشوا فى ظل حضارتنا آمنين وأن يمارسوا شعائر دينهم كما يحبون ـ ولا تكره أحدا منهم على الدخول فى الدين ـ ولا تهدم لهم كنيسة أو بيعة ٠ ٠ والقرآن فى هذا المجال يعطى انطباعات سمحة ومبادرات سامية ٠ ٠ فهو يطبع فى وجدان المسلم احترام الاديان كلها ٠ ٠ والتصديق بالرسالات جميعا وبالكتب المنزلة من السماء لا فرق بين كتاب وكتاب ٠ ٠ ويؤكد لاتباعه أنها جميعا حق ـ وأنها تصب فى محيط القرآن والاسلام ٠ ٠ [شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وحينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه (١)] « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكة وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير ٠ ٠ (٢) »

وفى نطاق الواقع العملى ٠ ٠ عاشرنا كل الطوائف على امتداد التاريخ فما شكوا منا ولا شكونا منهم ـ بل لقد كانوا يأتون الينا ٠ ٠ ويرحبون بحكمنا لما يجدونه عندنا من سماحة ونبل وليس بامكانى أن أستفيض هنا لأن المحيط واسع ٠ ٠ ومجال الكتاب ضيق ٠

---

(١) آية ٤ سورة المدثر .
(٢) آيتا ٣١ ، ٣٢ من سورة الأعراف .

وفى هذا المجال أذكر هذه القصة الطريفة لأنها أدل على معنى التسامح ـ وعلى حرية العقيدة فى حضارتنا (فى كنيسة يوحنا الكبرى فى دمشق التى صار أمرها الى المسجد الأموى الآن ـ رضى المسيحيون حين الفتح أن يأخذ المسلمون نصفها ورضى المسلمون أن يؤدوا فيها صلاتهم ـ فكنت ترى فى وقت واحد أنباء الديانتين يصلون متجاورين ٠٠ هؤلاء الى القبلة ـ وأولئك الى الشرق) ٠

فهل بعد ذلك تسامح ـ أو حرية ـ ؟ اللهم ان حضارتنا لم تعرف الطائفية يوما من الأيام ولا كانت من طبيعتها فليسأل أعداؤنا فى العالم أنفسهم عمن ذبحوا ويذبحون من المسلمين وعن مساوىء الطائفية التى يتورط فيها الجميع مدفوعين بحمق أعمى على الاسلام الذى حررهم وطهرهم وعلمهم مالم يكونوا يعلمون هم ولا آباؤهم من قبل ٠٠ وما أكثر المذابح التى أقاموها للمسلمين !! وان الصهيونية الوالغة فى الدماء لتحاول اليوم ٠٠ وبأسم أمريكا ـ أن تستعيد الوحشية البربرية بما تمارسه من قتل وابادة واستئصال لغيرهم من أرباب الأديان ٠٠ وبما تفعله من هدم للمعابد والكنائس وانتهاك للمقدسات والعقائد ٠٠ كل ذلك وهى تدعى انتسابها الى التوراة وموسى وسليمان !! وانها لتحلم بهيكل سليمان وأرض الميعاد وشعب الله المختار ٠

وتتخذ الدين شعارا لكل هذا الاجرام والفساد ـ ولتحقيق تلك الأطماع ـ

وهى حرية للمرأة : فى اطار التصون والعفاف وفى حدود رسالة البيت ـ ونظام الامومة ـ وانها لحرية تتسع للبيع والشراء والتجارة والملك ٠٠ وتتسع لطلب العلم وبذل الجهد

فى خدمة المجتمع ـ ولكنها لا تتسع للفجور والفوضى ٠٠ لقد كانت قبل الاسلام تباع وتشترى وتمتهن بالشذوذ ـ والاباحية ويحرق جسدها بعد موت زوجها ـ ويشك فى أمرها أهى انسان أم شىء آخر ؟ وتستباح بالفوضى وتغصب بالاكراه وتمنع بالعضل ـ وتورث كالمتاع لكنها فى ساحة حضارتنا قد انطلقت حرة كريمة تجاهد فى سبيل الله ٠٠ وتصنع الحياة ـ وتربى الأطفال ، وتتعلم العلم ، وتفتى فى الدين ، وتستشار فى الزواج ٠٠ وتعصم من الوأد ، وتمارس العمل فى المجتمع وتمضى فى ظلال الفضيلة والخلق لتجلس فى مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠٠ لتسمع منه وتأخذ عنه ـ ويطول بى الموضوع لو ذهبت أستقصى وأستشهد ٠

من بركات المنهـــج الالهى ـ أنه كون جـماعة من البشر فصنعهم على عين الله ـ وصاغهم صياغة فريدة وجـعل منهم نموذجا يحتذى للعالم بأسره ٠٠ وهذه المجموعة الانسانية التى قادها محمـد صلى الله عليه وسـلم لم تتكون بين يوم وليلة ٠٠ وانما تكونت مشاعرها الطيبة وأخلاقها النبيلة فى أعوام من عمر الرسـالة كانت كلها حافـلة بضروب التربية النفسية والخلقية والاجتماعية ولم تكن لحظة تمر عليهم دون أن يكتسبوا المعرفة الجديدة وينهلوا من ورد الله الطهور وقـد أراد الله لهذه التربية أن تمضى مع الفـطرة فى هدوء واتسـاق وعلى مهل ٠٠ فكانت واقعية فى كل أوضاعها ـ ولذلك حـكمة عليا ـ وهو أن تتمكن البشرية من معاودة التجربة كلما أحست أنها ابتعدت عن الله وسارت مع الشيطان ٠

لقد كان أول ما فعله الرسول هو القضاء على الجاهلية بكل مافيها من ضلالات فأمات الوثنية والعصبية فى وقت واحـد وهى نعرات توهن العزائم وتفـتت القـوى وترهق المشـاعر وتمتهن كرامة الانسان وهتف فيهم يقول الحق تبارك وتعالى:

« يأيها الناس انا خلقـناكم من ذكـر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم (١) » فكان هذا ايذاناً بفجر جديد تنطلق فيه الانسانية الى أهدافها موحدة القوى شديدة القصد ملتئمة الشـمل قوية الارادة لا تفـرقها نزعات التعصب ولا مغريات الجاهلية ٠

---

(١) آية ١٣ من سورة الحجرات

وانظر فى قوله سبحانه : [يأأيها الناس] فهو يناديهم مجتمعين لأنه يريد منهم أن يعيشوا كتلة مؤتلفة تندفع بمواهبها لتبنى الحياة دون تمييز بين فريق أو جنس أو وطن أو فئة أو عرق أو دم .

وقوله سبحانه : « انا خلقناكم من ذكر وأنثى » تعبير عن بواعث الوحدة فى الحياة .. فكيف يعقل أن نتفرق ونحن من أب واحد هو آدم وأم واحدة هى حواء مهما اختلفنا شعوباً أو ألواناً أو قبائل .. كلها ظواهر سطحية لا تؤثر فى أصل البشرية الواحد فما ينبغى بعد هذا أن يلعب بنا الشيطان فيفرقنا أباديد باسم الطائفين أو العنصرية - أو القبلية أو الوطنية أو القومية أو ماسوى ذلك من المعانى الضيقة بعد أن أكرمنا الله بالأصل الواحد - وكأنما يؤكد الله لعباده أن هذه الاختلافات لا يجوز أن تتخذ ذرائع للفرقة وعوامل للجفوة ، بل هن فى الواقع وسائل تعاون وصفاء لأن الاصل واحد والرب واحد والرجعى اليه سبحانه .

يقول اقبال [ان الاسلام دين غير اقليمى وغايته أن يقيم للانسانية جمعاء مثالا للألفة والانسجام باجتذاب معتنقيه المنتمين الى أجناس متنافرة ثم تحويل هذه المجموعة الى كتلة لها شعور بذاتها ، وكيانها كيان خاص بها - ان الاسلام يميل الى خلق ارادة عامة وضمير جماعى فى هذه الأوفاض من الناس (١)] .

ثم يحدد سبحانه - المعيار الذى توزن به القيم ويتفاضل فيه الناس .. انه ميزان التقوى والعمل الصالح - وكل القيم بعد ذلك هباء لا وزن عند الله .. [ان أكرمكم عند الله أتقاكم] .

ولقد تمكن الرسول فعلا من اقامة هذا النظام العالمى العجيب -

---

(١) الأوفاض : الأخلاط المختلفة من اجناس شتى .

تحت ظل راية واحدة ، ليست راية الجنس ولا القبيلة ولا اللون ولا الرق فكلها رايات زائفة لا يعرفها القرآن ـ وهتف فيهم بقوله : [من قاتل تحت راية عميه ـ أى جهل وضلال ـ يغضب (١) لعصبية أو يدعو الى عصبية فقتل قتلة جاهلية] ويقول لهم [كلكم بنو آدم (٢) وآدم خلق من تراب ولينتهين أقوام يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان] ويقول لهم كلما ثارت ريح العصبية السموم : « دعوها فانها منتنة » ٠٠ وهذه قاعدة قام عليها المجتمع الجديد والذى تحاول البشرية أن تحققه اليوم فتخفق ـ لأنها لا تسلك اليه الطريق السديد ٠٠ طريق العزيز الحميد ليجتمع الناس تحت رايته سبحانه فيحسوا بانسانيتهم وكرامتهم ٠٠ وذلك قوله « لتعارفوا » فهذا التعارف أساس العلاقات الانسانية مهما يتطور الزمن ـ وتتقدم الأيام ٠٠ وهو تعارف يضفى على الحياة ثوبا رائعا من الألفة الانسانية ـ والاخاء الكريم ـ ويعين على اكتساب الخبرات وازالة الفوارق بين البشر ٠٠ كما يقضى الى التعاون على البر والتقوى ٠٠ أما يوم تتصدع وتتمزق الروابط وتطغى العصبيات ونسمع (شعب الله المختار ـ الدم الجرماني ـ أبناء الله) فهو اليوم الذى نجد فيه أنفسنا مع الجاهلية وجها لوجه ٠٠ ان الله خلق البشر ليتحدوا ويتضامنوا وتأتلف قلوبهم ومشاعرها لينهضوا بدورهم فى الحياة وهو بناء الحضارة وصنع التطور واستثمار ماخلق الله فى الأرض وهو دورلا يتم بالفرقة والشتات بل يحتاج الى التعاون والالفة وانماء العلاقات الانسانية الفاضلة وستظل البشرية فى حاجة الى هذا النداء العلوى حتى تكف

(١) رواه ابو داود .
وهو حسن .
(٢) روى بلفظ الناس ولد ادم الخ ابن سعد فى طبقاته عن ابى هريرة

عن السفاهة والجهل ـ وما دام فى الدنيا سود وبيض ـ وبراهمة ومنبوذون فنحن فى حاجة ماسة الى هذا النداء ٠٠ أين هذا الذى نراه اليوم من تفرقة بين الناس من تلك الواقعة ؟ جاء قيس بن مطاطيا ـ وكان منافقا ـ الى حلقة فيها سلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى فقال : هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل ـ أى محمد صلى الله عليه وسلم ـ فما بال هؤلاء ؟ ـ يريد سلمان وصهيبا وبلال ـ فقام اليه معاذ بن جبل فأخذ بتلابيبه ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره بمقالته فقام الرسول مغضبا يجر رداءه حتى أتى المسجد ثم نودى للصلاة (نداء الى الاجتماع العام وفى صلاة العيدين) فخطب فى الناس وقال : يأيها الناس ان الرب واحد والأب واحد (١) وان الدين واحد » ٠٠ وهى حادثة واقعية تدل على مدى اهتمام الرسول بمكافحة تلك النزعات الآثمة ـ نزعات التفرقة فى المعانى الانسانية ٠٠٠

وكان اهتمامه بمكافحة التفرقة العنصرية أقوى وأشد ٠٠ ولذا لم يعرف هذا المجتمع تفرقة من أى نوع وسلك أصحابه من بعده هذا النهج ٠٠ فكانت حضارتهم انسانية نبيلة ٠٠ فهو صلوات الله وسلامه عليه لم يرض لأبى ذر وهو أكرم صحابته أن يسب بلالا فيقول له يا ابن السوداء ٠٠ بل قرعه وقال له : أعيرته بسواد أمه ؟! انك امرؤ فيك جاهلية !! ولقد استخذى أبو ذر وقال لبلال : قم فطأ على وجهى ـ أى ضع قدمك على وجهى تكفيراً عن تلك المقالة !!

وكان عبادة بن الصامت شديد السواد بائن الطول ـ ولما جاء المسلمون لفتح مصر وتوقفوا أمام حصن بابليون رغب المقوقس فى المفاوضة فتكون وفد المفاوضة من عشرة فيهم

(١) رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

عبادة ـ وقد جعله عمرو بن العاص رئيساً للوفد ـ فلما دخلوا على المقوقس تقدم عبادة ابن الصامت فهابه المقوقس لسواده وطوله ··.

وقال : نحوا عنى هـذا الأسود وقدموا غيره يكلمنى ·· فقال وفد المفاوضة : ان هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً ـ وهو خيرنا وسيدنا والمقدم علينا ـ ونحن جميعاً نرجع اليه ـ وقد أمره الأمير علينا وأمرنا ألا نخالف له رأياً فقال : وكيف رضيتم أن يكون هـذا الأسـود أفضلكم ـ انه لا ينبغى أن يكون الا أقلكم ودونكم ؟! فقالوا جميعاً : انه من أفضلنا موضعا وسابقه وعقلا وليس يعيبه سواده أو يؤخره ·· ما دام عقله وعلمـه وفضله يقدمه فلما وجد منهم الاصرار قال : تقـدم يا أسـود فكلمنى برفق فانى أهاب سـوادك وان اشـتد كلامك ازددت خوفا فقال عبادة وقد رأى فزع المقـوقس من السـود : ان فى جيشنا ألف أسودهم أشد سوادا منى !! ألا ترى الى حضارتنا ما أروعها وأسمى انسانيتها !! ـ لقد كان الناس جميعا والى وقتنا هذا يرون السواد منقصه ـ ويرون الأسود ممتهنا حقيراً لا يجوز أن يخـالط البيض ·· فانظر مـا فعلته حضارتنـا بالسود ، بلال يؤذن من فوق الكعبة ـ ويخطب ابنـة أحـد شرفاء قريش ويلقبه عمر ابن الخطاب بالسيد ، وعبـادة بن الصـامت رئيس وفـد المفاوضـة لدى المقـوقس ·· لأن علم الرجلين وفضلهما يقدمهما ، وكان عبـد الملك بن مروان يأمر المنادى فينادى فى موسم الحج ألا يفتى النـاس الا عطاء بن رباح امام أهل مكة وعالمها وفقيهها ·· وكيف كان عطاء هذا ؟!

كان أسود أعور أفطس أمثل أعرج مفلفل الشعر ـ وكان اذا جلس بين تلاميذه فى حلقة الدرس بدا وكأنه غراب فى حقل من القطن ·· هذا الرجل الذى وصفناه ـ تقدمه حضارتنا بعلمه وفضله وتجعل منه اماما يفتى فى دين الله ومدرسـة يتخرج على يده الألف من البيض ·

وممن قدمهم علمهم وفضلهم فى حضارتنا ـ مع سواد بشرتهم عثمان الزيلعى صاحب شرح الكنز فى فقه الأحناف ـ والحافظ جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف الزيلعى (٧٦٢ هـ) مؤلف الراية وكلاهما أسود من زيلع ـ ومنهم نصيب الشاعر ..

ولقد قام هذا المجتمع على الحب والايثار .. بعد أن كان يحيا فى جاهليته على الاثر والسطو .. وهل يتصور انسان ما أن يجيىء اليوم الذى يتقاسم فيه العربى مع أخيه داره وأرضه وماله وأزواجه وكل ماملكت يداه .. برضى نفسى وارتياح ضمير وحسن امتثال لله ورسوله ؟ ! .. فانظر الى عجائب التربية الفريدة .. التى تبلغ هذا المدى فى السماحة والايثار . الذى وصفه الحق تبارك وتعالى بقوله : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » وما دام وزن الدنيا عندهم قد خف وهان فلتهن عليهم أعراضها .. كانوا أولا يعيشون لدنياهم وينطلقون على هواهم ويحيون لساعتهم فصاروا اليوم يعيشون لآخرتهم ـ ويجدون الأنس فى ارضاء ربهم ـ والسعادة فى البر باخوانهم .. انها القيم الجديدة تجد سبيلها الى أعماق النفوس البشرية فتستحيل الى قوة تهيمن على كل وساوس النفس ومسالك الحس وأعماق الضمير .. وتوجه الحياة وجهة جديدة وهكذا تعاليم السماء ـ ومناهج النبوات . ليست قشوراً ملصقة ولا تزاويق مفتعلة ـ وانما حقائق علوية تبنى باطن الانسان وتصوغ مشاعره وعواطفه فلا يقر للمؤمن قرار بعدها حتى يفرج كربة أخيه ـ لانه مرتبط به برباط الايمان الذى هو أغلى عنده من الحياة .. ويردد الرسول على مسامعهم : [من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة (١)] [مثل المؤمنين فى توادهم

(١) رواه مسلم عن ابى هريرة .

وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » ٠

فالمجتمع بنية حية تحس وتتأثر ماأصاب عضواً منها أصاب الآخر وهكذا يتحول الشعور الفردى الأنانى الى شعور جماعى انسانى فى ظل تعاليم السماء ٠

وتاخذ التجربة الايمانية امتدادها الرائع حين تضبح واقعاً يعيشه الأفراد وتنتقل من عصر الى عصر تحمل سر الله وشرف الحياة ٠ ٠ ولا تكون مجرد مثاليات وشعارات تستعصى على التطبيق فنرى التسابق فى الخيرات والتنافس فى الجهاد والتبرع بالمال تأخذ مداها فى مجتمع الايمان ــ ويخلو هذا المجتمع من كل التناقضات والعقد لأنهم كانوا يستعينون عليها بالله ــ وتجد كل الفضائل الانسانية متنفساً طلقاً فى رحابهم المبارك فتملأ حياتهم بالعطر ٠ ٠ وتضفى عليهم الجمال والجلال فهم أعفاء ــ أمناء ــ أوفياء ــ كرماء ــ أعزاء ــ صادقون ، هم كما وصفهم ربهم « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار (١) » ــ ويعمق الرسول صلوات الله وسلامه عليه تلك القيم فى أعماقهم متذرعاً بالايمان والعقيدة فاذا بها تصنعهم من الداخل صناعة ربانية ٠ ٠ تضئ بها الحياة ويزدان الوجود وتسعد البشرية وتتعانق قيم العلم والعمل والايمان فى هذا المجتمع فتسرى فى جنباته روح الجد الحازم والجهاد الصادق والعمل المخلص لله رب العالمين ــ ويبنون دولتهم الجديدة على تقوى من الله ورضوانه ويتلفتون الى أنفسهم فاذا هم جميعاً سواعد قادرة على انجاز ذلك البناء الحضارى العجيب ٠ كل الكفايات والمواهب قد وجدت فيهم

---

(١) آية ٣٧ من سورة النور ٠

وتفجرت منهم ٠٠ فلم يحتاجوا الى أى معونة ولم يفتقروا الى أى مساعدة ٠٠ وانما اكتفوا اكتفـاء ذاتياً وبارك الله لهم فى أوقاتهم ـ وفى مواهبهم فجـادت بأطيب الثمرات ـ وتهديهم بصائرهم الصـافية الى أروع النظم الاجتماعية والسياسية والى أنبل القيم وأزكاها ٠٠ يهديهم اليها قرآنهم ـ ويقـودهم نبيهم ٠٠ وتتوالى توجيهات هذا الرسول القائد حتى يكتمل بناء الدولة الجديدة وتتأصل مبادئها ـ تنشىء العلاقات الدولية على أساس من كرامة الانسان ـ وتقوى الله الكبير المتعـال ٠٠ ويكون لها وجود دولى كريم يصوغ معاهدات السلام ويحارب أعـداء الله ويكاتب الملوك والرؤساء ويستقبـل الوفود من كل مكان وتتقبل الدنيا عليهم فما تطرف أعينهـم ـ وما تحـول وجهتهم وانما يستخدمونها فى مرضاة الله ٠

ويؤصل هذا المجتمع مبدأ الشورى ـ ويجعلهـا أساسـاً للحكم ويكافح الاستغلال ويزرع الأرض ويقسم المـاء ويبنى المسجد ويكافح الأمية ويطلب العلم وتموج جنباته بالنشـاط الدائب والعمل المثمر الخلاق ٠٠

وهكذا يوجد انسان القرآن ، الذى تتطلع الدنيا كلها الى عدله وأمانته وأخلاقه وشخصيته والذى تتوازن فى وجدانـه مطالب الدنيا ومطالب الآخرة ٠٠ فلا يهمل واحدة منهما لحساب الأخرى ولنستمع الى وصف هذا الانسـان الرائد ـ انسـان القرآن ـ على لسان ألمـانى مسلم ومن خلال تصوره يقـول : [ان الاسلام ينظر الى الحياة بسكينة واحترام ـ هو لا يعبد الحياة بل يعدها مرحلة يجتازها فى طريقه الى مرحلة عليا ـ وبما أنها مرحلة ـ ومرحلة لابد منها فليس للانسان أن يحتقرها أو يقلل من قيمة هذه الحياة الأرضية ، ان مرورنا بهذا العالم فى سفر الحياة لابد منه وقد سبق به تقـدير الله ـ فالحيـاة

الانسانية لها قيمتها الكبرى ولكنها واسطة وآلة ــ والاسلام لا يسمح بالنظرة المادية القائلة ــ مملكتى ليست الا هذا العالم ــ ولا بالنظرة المسيحية التى تزدرى الحياة وتقول : ــ ليس هذا العالم مملكتى ــ وهذا هو انسان القرآن » ا٠هـ

وطريق الاسلام هو التكامل كما مر ونحن ندعو ربنا فنقول : [ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار (١)] ومحال أن يكون الاسلام حجر عثرة فى سبيل جهودنا المبذولة لانعاش الحياة وهو أيضاً لا يرى فيها خطراً على جهودنا الروحية ٠٠ فالواقع أن مجتمع القرآن قد لاءم بين الحياتين فقد كانت دنياه زاهرة بالمجد ــ زاخرة بالعمل ــ زاهية بالجمال ٠٠ بناها بناء كريما وأرسى دعائمها على تقوى الله ٠٠ وقد كانت آخرته ثاوية فى وجدانه وقلبه ٠٠ لا ينساها ولا يهملها ولا يغفل عنها مهما منحته الحياة ٠٠ وبهذين معاً تم التنسيق بين مطالب الدنيا والآخرة ٠٠ وتم صنع أكرم حضارة ٠ هذه حضارة الحق والعدل بناها محمد صلوات الله وسلامه عليه ــ بمؤازرة الرجال المخلصين ــ الذين صنعهم على عينه ــ فكانت أرفع نموذج حضارى للبشرية جميعها ٠٠ وقد امتد ظلها حتى شمل الحياة كلها ودخل الناس فى دين الله أفواجا ٠٠ فهل نستعيد هذا المجد ؟!

---

(١) اية ٢٠١ سورة البقرة .

الباب الرابع

ذوقيات الحضارة القرآنية

صياغة الذوق وعجائبها :

من أعجب ما صنع القرآن فى هؤلاء الجاهليين ـ أنه لم يكتف باعلان الحرب على الجاهلية الحمقاء ـ وطى بساطها الفاجر ووضع قيم جديدة رفيعة مكان القيم البائدة ·· وطبع القوم بطابع العقيدة التى صاغت ضمائرهم،وكونت مشاعرهم، وصنعت وجودهم وجعلت منهم نماذج فريدة ولكنه فوق هذا أبى الا أن يصوغ أذواقهم ـ وأن يجعل من هذه الذوقيات الراقية قرآنا يتلى ـ لتظل البشرية مشدودة الى هذه الصفوة الكريمة التى تألقت زمناً ثم غابت عن الوجود ·· تاركة فيه عطرها ·· وسحرها ··

وان هذا العطر ليسطع فينعش الصدور الحرجة ـ ويحيى الآمال المهيضة ـ ويمنح القدوة الفاضلة ·

وهذه الذوقيات الرفيعة ربما غاب عن بعض الناس أنها قرآن يتلى ـ وسنة تدرس ـ وتجربة حضارية عاشتها البشرية ·· تمثلت أولا فى وجود الرسول الكريم ـ ثم تحققت بمنهجه وسرت فى مجتمعه ـ ثم ما لبثت أن ذاعت فى كل أفق ـ وانتقلت الى كل قطر ـ وحملها الاسلام على جناحه القوى أينما غدا أو راح ·· وزاد من عمق هذه التجربة ·· أنها لم تؤخذ عن نظرية مكتوبة ـ وانما سرت بالقدوة فى مجتمع النبوة ··

فان ذوقيات القرآن كلها قد تمثلت فى محمد صلوات الله وسلامه عليه ــ فكان هو الذوق الرفيع فى كل قول أو عمل ٠٠ فأكله وشربه وكلامه وتعامله وتسامحه وترفعه ونبله وفضله كلها روائع ذوقية ما أحوج العالم اليها اليوم ــ وعندما تتحول الذوقيات الى نبض حى يسرى فى عصب الأمة ويتمثل فى معاملاتها ــ وأقوالها وأفعالها ٠٠ فان الفضل يرجع الى الدستور الخالد الذى قذف بالنور فى وجدانهم فاذا بها تضىء ٠٠ فتصدر عنه أرق المشاعر وألطف الذوقيات والذين يدرسون الحضارات الانسانية ــ لا يجدون فيها ذلك الجانب الجمالى الا مصنوعاً ــ أما أن يتمثل فى القيادة ــ ويحويه الدستور فذلك أمر بعيد ٠٠

وهذا جانب من جوانب العظمة فى حضارة القرآن ٠٠ تأبى الا أن تتكامل ٠٠ فلا تدع جانباً من جوانب الانسان الا تدخلت فى تكوينه وبنائه على أجمل وضع وأبهى صورة وهذه الذوقيات التى نحن بصدد الافصاح عنها لا تقتصر على الجانب الروحى ــ ولا على المادى ــ وانما تجمع بينهما فهى حضارة تستكمل صور الجمال والذوق المادى والمعنوى معاً ٠٠ وقد تروق حضارة الغرب ــ وتبرق فى الأعين القاصرة الكليلة لما تستجمعه من حسن ظاهرى مصنوع ٠٠ ولكن ذلك لا يخدع أصحاب البصائر النافذة ٠٠ فانها تخلو من أى جمال روحى ــ يضفى عليها الصفاء والوداعة والحب ٠٠ تلك الروحانيات التى تنشىء السعادة وتروى عاطفة الانسان وماذا تصنع كل مظاهر الجمال الخالب اذا ذهب الايمان ؟! وهو مصدر أنس فى هذه الحياة !!

وعندما أدرك القوم افلاس حضارتهم فى معانى الروح ٠٠ وجمالها أخذوا يتجهون نحو الشرق علهم يجدون فيه ما يسد فراغهم الروحى ٠٠ ويتيح لهم واحة روحية عذبة النسائم شذية العطور ٠٠ تريح أعصابهم المكدودة وتنقذهم من تلك

الحياة المصنوعة ٠٠ التى لا ذوق فيها ـ ولا جمال ٠٠ فليس عجيباً أن نرى من الأمريكيين من يعتنقون البوذية ٠٠ أو البهائية أو الاسلام ٠٠ فراراً من جحيم المادة ودوقيات الجمال المصنوع !!

وهناك مجموعة من الشباب الفرنسى اعتنقت الاسلام ٠٠ وراعها ما فيه من جمال فطرى رفيع ٠٠ ومن ذوقيات روحية آسرة وانهم ليجتمعون ويتدارسون القرآن ويحفظونه ويقودهم زعيم مسلم رومانى ٠٠ ويلبسون ثياب الشرق الجميلة البيضاء ٠٠ وبعضهم يطلق لحيته على صغر سنه ـ بذوق وجمال ـ ويقولون : « نحن انما هربنا من الحضارة الغربية الى الاسلام لأنها أتلفت أعصابنا بالحروب والاسلحة وأفقدتنا انسانيتنا حين أماتت أرواحنا وأحيت شهواتنا ٠٠ ولقد وجدنا فى الاسلام كرامتنا واطمئناننا الرحى ٠٠ فعدنا بذلك الى الفطرة الصافية النقية » ٠

ويقول مستشرق انجليزى اعتنق الاسلام متحدثا عن ذوقيات الحضارة الغربية [انها حضارة تفقد الشرف والجمال ٠٠ وفقدانها للشرف أمر لا يختلف فيه الناس ـ وفقدانها للجمال لأنها فقدت جمال الروح وجمال الذوق الفطرى وجمال الخلق ـ أما جمال اللباس وجمال الطبيعة وجمال المدن وجمال البيت وجمال المرأة فانها جميعاً مصنوعة ٠٠ تنزع الى المادية الحيوانية فى كل شيء] ٠

ولعل فى ذكر هذا الكلام ما يدعم نظرتنا الى حضارتنا ـ ويغير نظرتنا الى حضارة الغرب مهما يكن فيها من بريق وترف ٠٠ فان الذوق السليم يأبى الا أن يصدر عن الفطرة وهم حرب على تلك الفطرة لا يكادون يرجعون الى حكمها فى شيء ٠٠

ولقد تبهرنا حضارة الغرب الحديثة بما ابتكرت وتبتكر من « بروتوكولات » ونظم مادية ـ وبما استحدثت من أساليب التعامل ـ وبما أنشأت من ذوق فى اطار العلاقات الانسانية !!

تبهرنا « هذه الذوقيات » برقتها وجمالها ـ ولطفها ونقف أمامها مشدوهين مرددين : ما ألطفهم ما أرقهم !! حبذا لو كانوا مسلمين وما درينا فى لحظة من لحظات المحاكمة الذهنية لحضارة الغرب أنهم نقلوها منا وأخذوها عنا ـ وسرت اليهم من روائع حضارتنا ٠٠ يوم خالطونا فى الأندلس وعاملونا فى الشرق ٠٠ فأقبلوا عليها وتشبثوا بها ـ واستعملوها فى حياتهم ـ أما نحن فقد تخلينا عنها يوم تخلينا عن مبادىء حضـارتنا ـ ثم نسينا التاريخ ٠٠ وأصبنا بفقد الذاكرة !!

وساعد على ذلك انتصار الغرب علينا ـ فتـأصلت هـذه العقدة فى نفوسنا ٠٠ استحكمت فى أذهاننـا والمغـلوب مولع بتقليد الغالب دائماً كما يقول ابن خلدون !!

الرسول والتجربة الذوقية

اذا كان العالم كله يعتبر الذوقيات كماليات تزدان بها الحياة وتكتسى جمالا ونظرة ٠٠ فانها فى حضارة القرآن أبياسيات تستقى من كتاب جامع لأسرار الجمال ـ وروائع الكمالات ٠٠ فهى بهذا التصور عبادة ٠٠ ومن ثم فقد تحرك المجتمع بهذه الذوقيات الى العالم كله فبهره بجمالها وكمالها ٠٠ فنقلها عنه ٠٠ وأخذها منه ٠٠ والحق أن القرآن الكريم قد تحول بمحمد [صلعم] الى تجربة حية نابضة تتجسد فى عمل ٠٠ وتتجسم فى سلوك ٠٠ فكان يتحرك بين أصحابه بالطهر كله ـ وبالجمال كله ـ وبالأناقة كلها ٠٠ ولقد امتدت اليه الأعين فسباها جماله وبهرها جلاله وكماله فنقلت عنه بالقدوة ـ وأخذت بالتأسى واقتبست بالمحبة ٠

ولقد جمع الله فى شخصه كل ما هو ذوق وجمال ٠٠ مما يعتبر الآن رقياً وتحضراً ٠٠ ولا يكاد يخطر للبشر على بال ٠٠ فانظر الى ذلك العربى الأمى كيف صقله القرآن وتعهده الوحى وأدبه الله ٠٠ فصار نموذجاً للذوق الرفيع والجمال الباهر ٠٠ ولقد جمله ربه بكمال الخلقة وجمال الصورة وقوة العقل وصحة الفهم وسلامة الأعضاء وتناسقها واستنارة الوجه بما تحدثت عنه كتب السيرة ولم تستطع الوفاء به كان ازهر اللون ـ أدعج نجل [أى واسع العين شديد سواد الحدقة] ـ أبلج أزج أفلج مدور الوجه واسع الجبين كث اللحية ليس بالطويل البائن ـ ولا بالقصير المفرط ٠٠ ومع ذلك فلم يكن أحد يماشيه الا طاله مهما كان طويلا ـ اذا ضحك تبسم ـ وافتر عن مثل سنا البرق وعن مثل حب الغمام ـ لا يقهقه ـ ولا يكثر من الضحك ٠٠ اذا

تكلم تمهل ــ وكرر الكلمة ثلاثاً فى المواضع الهامــة ــ وأسمع بصوته ·· وكأنما النور يخرج من بين ثنـاياه ·

قال البراء بن عازب : ما رأيت من ذى لمة ســوداء فى حلة حمراء أحسن من رسول الله !

قال أبو هريرة : ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله كأن الشمس تجرى فى وجهه واذا ضحك تلألأ !!

وقال ابن أبى هالة : يتلألأ وجهه كما يتلألأ القمر ليــلة البـــدر !!

وقال على كرم الله وجهه : من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه ــ يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله !!

وعجيب أن يشتد اعجاب أصحابه به الى هذا الحــد ·· فقد توجد هذه الصفات فى قائد أو ملك أو أمير فلا يلتفت اليها·· وقدموها فى هذه الأساليب بكل حرارة وصدق··فهل يتحمسون فى التحدث عنها ولا يقلدونها ؟!

أما نظافة جسمه وطيب رائحته وعرقه وتنزهه عن الأقذار فقد خصه الله من ذلك بالكمال الرائع ليكون تأثيره فى العالم بأسره قوياً كبيراً ·· لأنه قدوة فى كل مظهره وكل جوهره ·

يقول صلوات الله وسلامه عليه : بنى الدين على النظافة· ويقول أنس : ما شممت عنبراً ولا مسكا ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله ··

وعن جابر أن رسول الله مسح خده قال فوجدت ليده برداً وريحاً كانما أخرجها من جؤنة (١) عطار ٠٠ اذا صافح أحداً ظل يشم الطيب فى يده يومه كله ٠٠ واذا مس راس صبى عرف من بين الصبيان بريحها ٠٠ وروى البخارى فى تاريخه الكبير عن جابر : لم يكن النبى يمر فى طريق فيتبعه أحد الا عرف أنه سلكه من طيبه ٠٠ وكان يقول « ان الله جميل يحب الجمال نظيف يحب النظافة » فأين هذا من قذارة الرهبان ـ وما كانوا يعتقدونه أن الاستحمام مناف للزهد ٠٠ وكانوا يعدون أزعدهم وغلهم فى النجاسات ٠٠؟!

وكان يحث أصحابه على التجمل ، والامتشاط ، وتحسين الهيئة ويشبه الرأس الثائرة الشعر برأس الشيطان ٠٠ لأنها تصدم ذوقه المرهف وتؤذى شعوره النبيل ٠٠

وطريقته فى الطعام هى الآية المثلى فى الذوق ٠٠ كان يغسل يديه قبل الأكل وبعده ويبدأ بسم الله ٠ ٠

ويعلم الصبى الذى يليه كيفية الطعام ٠٠ وكان ياكل مما يليه وما قدم اليه شىء فعابه ٠

وقالت عائشة : لم يمتلىء جوف النبى شبعا قط ـ ولم يكن يسأل أهله طعاما ولا يتشهاه ، ما أطعموه أكل ـ وما سقوه شرب وفى صحيح الحديث قوله [أما أنا فلا آكل متكئا] أى متمكنا فى الجلسة التى يعتمد فيها الجالس على ما تحته ـ وكان يقول : « انما أناعبد آكل كما ياكل العبد ٠٠ وكذلك نومه كان قليلا وان عينه لتنام ولكن قلبه لا ينام » ٠

---

(١) جؤنة العطار : الوعاء يضع فيه العطر .

وكان انسانا بكل ماتحمله الكلمة من معان ٠٠ وكانت له مهابة وجلالة تبهر كل من يلقاه حتى الأعداء ٠٠

ولقد روى عن (قيلة) أنها لما رأته أرعدت من الفرق (١) فقال : يامسكينة ٠٠ عليك (٢) السكينة !!

وفى حديث ابى مسعود أن رجلا قام بين يديه فأرعد وخاف فقال له : هون عليك فانى لست بملك وكان يقول لمن يهابه : انما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد ٠٠ وكانت تقصده العجوز فتتحدث اليه فلا يتبرم بها ٠٠ ولا يتغافل عنها ٠٠ وكانت الجارية الصغيرة تأخذه من يده فتنطلق به الى جهة ما فينطلق معها ٠٠ ولم ير مادا رجيله بين جليس ــ ولم يكن ينزع يده من يدى مصافحه الا اذا بدأ بنزعها ٠٠ وكذلك كان لا ينزع أدنه ممن يسر اليه بالوسادة التى يجلس عليها ــ ويفسح له فى المجلس ــ ويرعى كل عزيز قوم ويعطيه حقه يسأل عن أصحابه ان غابوا ــ ويعودهم ان مرضوا ــ ويواسهم ان نكبوا ــ ويساعدهم ان احتاجوا ــ ولا يترفع عن عمل البيت فى أوقات فراغه مساعدة لأزواجه ٠٠

ولم يكن يشغله شىء عن جانب الضعيف ــ وقضاء حاجته وذلك لفرط انسانيته ورقة شعوره ــ جاء عدى بن حاتم الطائى يوما الى المدينة وهو لم يسلم بعد وحضر مجلس رسول الله وحوله أصحابه بعد منصرفهم من احدى الغزوات يلبسون الدروع ، وعدة الحرب ٠٠ فراعة هيبة الصحابة لنبيهم واحترامهم له وبينما هو كذلك اذ جاءت اليه امرأة فقيرة من

---

(١) الفرق : الخوف .
(٢) ما اجمل الذوق الصياغى فى هذه الجملة يا مسكينة عليك السكينة وما الطف الجناس !!

اماء المدينة وقالت : أريد يارسول الله أن أسر اليك شيئا !! ·
فقال لها : انظرى فى أى سكك المدينة أخلو لك ؟ ! ثم نهض معها
ووقــف طويلا يستمع اليها ثم عاد فلما رأى عــدى هذا تملكته
روعة هذه الروح الانسانية ·· وبهره ذلك الذوق الرفيع ·· فى
رســول الله ·

وكان سمحـــا فى كل شىء وفى بيعه وشرائه بنوع خاص ــ
يعطى من يسأله ــ ولا يبخل بما يجد ــ وقد يقول لمن يريد منه
مالا : مامعى شىء ولكن ابتع على حسابى !! وقــد أوتى خزائن
الأرض ومفـــاتيح البلاد ــ وغنائم الحرب وفــتح الله عليه بلاد
الحجـــاز واليمن والجــزيرة العربية وما دانى ذلك من الشـــام
والعراق ــ وهاداه جميع الملوك فما استأثر بشىء منه ولا أمسكه
لنفسه أو لأهله ومن أقواله : [ما يسرنى أن لى أحداً ذهبا يبيت
عندى منـــه دينار الا دينارا أرصـــده لدينى] وأتته دنانير مرة
فقسمها وبقيت منها بقية فدفعها لبعض نسائه لتحفظها حتى
الصـــباح فلم يأخذه نوم وظل يتقلب على فراشـــه ولم يسترح
حتى قـــام فقسمها ثم قـــال : الآن استرحت] !! · واقتصر فى
ملبسه ومسكنه ونفقته على ماتدعو اليه الضرورة :

وكان أحلم النـاس ــ وأشجع النـاس ــ وأفصح النـاس ··
وقد بلغ من خلة الحياة ذروتها ··

قال أبو سعيد الحذرى : كان رسول الله أشد حيـــاء من
العذراء فى خدرها وكان اذا كره شيئاً عرفناه فى وجهـــه وكان
لطيف البشرة رقيق الظاهر لا يشـــافه أحـــدا بما يكره ــ ولا
ينادى أصحابه الا بأحب الأسماء اليهم ــ وكان اذا بلغه مـــا
يكره عن أحد لم يقل ما بال فلان بل يقول : ما بال أقوام ؟

وقال : لم يكن الرسول فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا بالأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ـ وكان أصدق الناس لهجة وألينهم عريكة (١) وأكرمهم عشرة ـ وكان يحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره لا خلقه ـ من جالسه أو قاربه لحاجة صابره ٠

وصفه ابن أبى هالة فقال : « كان دائم البشر ـ سهل الخلق ـ لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ لا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح يتغافل عما لا يشتهى ولا يؤيس منه » ـ قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده فى الحق سواء ـ وكان يمازح أصحابه ـ ويخالطهم ويحادثهم ويلاعب صبيانهم ويجلسهم فى حجره ويقبل الهدية ولو كانت كراعا ويكافىء عليها ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ويعود المرضى فى أقصى المدينة ٠

وقد بلغ الذروة فى العفو والصفح والمجاملة وصلة الرحم وسمو التواضع ـ والعدل والأمانة والعفة وصدق اللهجة ٠٠ وكان كثير الصمت ـ يقلل من حجم الكلام ويكثر من حجم العمل ٠٠ ولهذا أنشأ جيلا يفعل أكثر مما يقول ، يقول ابن أبى هالة : كان صمت النبى على أربع : على الحلم ، والحذر ، والتقدير ، والتفكر ٠٠

ومن خصاله التى تدخل فى باب الذوق : نهيه عن النفخ فى الطعام والشراب والامر بالاكل مما يلى والامر بالسواك ونتف الابط وحلق العانة وغير ذلك فقد كان يكره رائحة الثوم والكرات وسائر الروائح الكريهة ٠٠ وينهى أن يدخل المسلم المسجد وهو على تلك الحال ٠

---

(١) العريكة : الطبيعة والخلق .

. صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله !!
فحياتك كلها ذوق ولقد حاولت أن ألتقط من الدر ما وسعنى
ولكن ماذا أصنع وماذا يصنع غيرى والدر كثير !! وحياتك
يا رسول الله كلها لطافة ومروءة وحياء وجمال فمن أين يؤخذ
الذوق العالى ان لم يؤخذ عنك ؟ ومن أين تلتمس القدوة ان لم
تلتمس منك ؟ .. يا من ارتفع تمكانتك الى سماء لا يطار لها
غدو ورواح .

على جناح .. ودنوت تواضعا حتى خالطك الناس فى كل
دان الى أيدى العفاة (١) وشاسع
عن كل ند فى الندى وضريب (٢)
كالبدر أفرط فى العلو وضوءه
للعصبة السارين جد قريب

. وتلك يا رسول الله هى التربية فى أسمى أساليبها ..
تختلط بأصحابك .. لتوصل فيهم الذوق والحكمة وتعمق فى
وجدانهم الادب والخلق .. وتغرس فى أفئدتهم كل المعانى
النبيلة !!

انه اذا كان الذوق جمالا فى النفس الانسانية ورقة فى
الشعر وحساسية فى الوجدان تجعل الأعمال تصدر عنها فى أبهى
صورة ـ أروع مظهر ـ وأكرم جوهر فهكذا كان رسول الله رقة
لا عهد لأحد بها ـ وأناقة لم تصدر قبله عن ملك ولا قيصر ـ
ولقد تعهدته العناية الربانية من مفرق شعره الى أخمص قدمه
فصاغت منه ذوقا مكتملا يمشى على قدمين بين الناس .

---

(١) العفاة : الفقراء الطالبون للعطاء
(٢) ضريب : نظير .

فكان كما وصفه ربه « وانك لعلى خلق عظيم » ومن أين جئته وجدت جمالا ورقة !!

ولقد استطاع أن يطبع حضارة القرآن بطابع الجمال فكانت حضارة الجمال المادى والمعنوى حضارة الطهارة والنقاء ـ طهارة الثوب وطهارة النفس وطهارة الوجدان ٠٠ ولم يصدر عن أصحابه الا ما كان جميلا ٠٠ والدارسون لفنون الجمال ٠٠ ينظرون الى جمال الروح وكل ما يصدر عنه من صفاء القلب وسمو الشعور وسلامة الضمير ورقة المشاعر على أنها أعلى فى مستواها من قيم الجمال المادى لأن جمال الباطن يستتبع جمال الظاهر ٠٠ وقد احتفت حضارتنا بهذا العنصر من الجمال لم تتخل عن الجمال المادى يوما من الايام لانها حضارة المادة والروح ٠

وان أروع ما يروعنا فى هذه التجربة أنها قد تحققت فى سمتها العالى وانتقلت من المصحف الى مشاعر القوم وصارت واقعا تعيشه البشرية وسلوكا تمارسه وعملا تباشره فتوجت الصورة الانسانية بأروع تاج ـ ورصعته بالدر والخلود ووضعته على مفرق البشرية كلها فازدان جبينها بأجل تاج وهيأ تلها وسائل ـ التسامى الازدهار ٠٠ وهكذا من فدامة(١) وغلظة ـ الى رقة وحساسية ٠ لم يكتفوا بالجلال بل مزجوه بالجمال فصدرت عنهم الصورة الباهرة التى استقرت فى ضمير الزمان ٠٠ وانتقلت الى صحائف التاريخ فراعت مظهرا وجوهرا ولله فى خلقه شئون فمن كان يصدق أن هؤلاء العرب الغلاظ أولى الخشونة والفظاظة سيعلمون البشرية كلها أفانين الذوق ويفجرون فيها ينابيع الحكمة وتنقل عنهم أوربا فتجد عندهم كل جميل وجليل ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ٠٠

---

(١) الفدامة : الجهالة والخشونة والغلظة والحمق ٠

وما أحوج العــــالم كله اليوم ــ ونحن فى نهـــاية القرن العشرين الى مثل تلك الذوقيــات الرفيعــة ٠٠ بعــد أن فقــد الاحساس بالجمال بين صخب الحياة وهــدير الآلة وقعقعــة السلاح وأزيز الطائرات وفلسفة (الدولار والمــارك) ٠٠ وهــل يساعد ذلك الجو الهادر الرهيب على تنمية الذوق أو ترقيــة الاحساس ؟!

من الروائع الذوقية فى القرآن :

ينضح القرآن الكريم بالأفانين الرائعة من الذوق العالى ــ والادبيات الرفيعة ــ لتظل تمد الحيــاة ونضر وجههــا ٠ كلما أمعنت فى الغلظة ــ وأبعدت فى المــادة ــ وأوغلت فى الفساد ٠٠ وتقف هذه الذوقيات حارساً أميناً يصون ذوق هــذه الأمة من كل ابتذال ــ ويحرسه من تدهور ٠٠ ويمده بالتألق والضياء٠٠ ولقد تناول القرآن مسائل ذوقية ــ هى آيــة فى الحساســية ، فوضحها وبين آثارها ٠٠ وكأنما هى غضة جديدة تنزل الآن ٠٠ بل كأنما نزلت لتعالج ما نشــكوه الآن من فســاد الأذواق ــ وجفوة المشاعر ٠٠ حتى لكأنما الجاهليــة التى حاربها محمــد صلوات الله وسلامه عليه وقضى عليها قد عادت من جديد بكل ما فيها من فظاظة وغلظة ٠ ٠

وسألتقط من الدر ٠٠ بعض ما يسمح به هــذا البحث ــ راجياً أن أتمكن من معالجة هذا الموضوع مرة أخرى تحت عنوان « ذوقيات القرآن » ٠٠ وهاك نماذج متنوعة منها :

(ا) النظافة والطعــام :

يقول سبحانه لنبيه : « وثيابك فطهر (١) » ٠

---

(١) آية ٤ سورة المدثر .

وقد فهموا منها نقاوة الظاهر فلبسوا أجمل الثياب ــ وتطيبوا بأحسن الطيب ــ ونظفوا أبدانهم وتجنبوا الروائح الخبيثة ــ وبرزوا فى أبهى منظر وأكرم مظهر ٠٠ وكانوا فى ذلك مثلا يحتذى ٠٠

كما فهموا من الآية أيضاً نقاوة الباطن فتعهدوا سرائرهم ــ وطهروا ضمائرهم وترفعوا عن الرذائل كلها ٠٠ وبذلك تجملوا ظاهراً وباطنا ٠٠ وتألقوا : مادة وروحا ٠٠

ومن هذا الباب أيضاً : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ٠٠ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون (١) » ٠

فهموا منها : التزين للصلاة ــ فلبسوا أبهى ثيابهم توقيراً لربهم ــ وتعطروا بأزكى الطيب ٠

كما فهموا منها : الاعتدال فى المآكل والمشارب فسلكوا مسلك « الوسطية » من غير افراط ولا تفريط ــ وهذا من صميم الذوق الحضارى ٠٠ ألا تخرج الى الناس ممتلئاً تتجشأ وتلهث !! كما أن الامتلاء ينافى الرشاقة ــ ويودى الى التخمة ــ والترهل وهى آفات تثقل الجهد ــ وتضعف الجسم ــ وتذهب النشاط ــ وتدعو الى النوم والتثاؤب ٠٠ وتجلب الأمراض للجسم ومن ثم فالبطنة أساس الداء ــ والحمية رأس الدواء ٠٠ والأطباء ينصحون بعدم الامتلاء حتى يسلم الجسم ٠٠

---

(١) آيتا ٣١ ، ٣٢ من سورة الأعراف

كما فهموا من الآية : أن يستمتعوا من الطيبات فى حدود ماأحل الله ٠ ٠ مأكلا وملبساً ومسكنا ٠ ٠ « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » وقد تمثلوا هذه التعاليم ٠ ٠ وطبقوها فى مجتمعهم فكانت أساساً لكل ذوق حضارى ـ وانتقلت عنهم بالقدوة ـ وقلدهم غيرهم فيها ، وبخاصة بعد اتساع الفتوحات فى فارس والروم ٠ ٠ والاندلس ٠ ٠ لم يبق فى هذه البلاد مجال لأى ذوق اقليمى ٠ وانما شاعت بينهم ذوقيات القرآن ٠ ٠ ولقد مر أن الرهبانية بتعاليمها الرجعية وقسوتها المهلكة ـ كانت تعد التمتع بطيبات الرزق والتنعم بما أحل الله ، رجسا من عمل الشيطان كما كانت تحارب النظافة والتجمل لأن ذلك كما زعموا ـ ضد الروح ٠ ٠ فلما شاعت ذوقيات القرآن بددت ذلك الجهل واكتسحت هذا الغشاء ٠

لقد حدثوا عن (مكاريوس) أنه نام ستة أشهر فى مستنقع ليقرض جسمه ذباب سام وكذلك « يوسيبيس » كان يحمل على ظهره قنطارين من حديد ويقيم أعواماً ثلاثة فى بئر قد نزح ٠ ٠ كل ذلك قصداً الى تعذيب الجسم لتزدهر الروح !!

ووقف الراهب يوحنا على رجل واحدة ثلاث سنين ـ وكان اذا تعب أسند ظهره الى صخرة ٠

وبعض الرهبان لا يكتسون (١) ـ وانما يتسترون بشعورهم الطويلة ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام ويسكنون المغارات والكهوف والمقابر ويأكلون الحشائش ويتأثمون من غسل الأعضاء وأزهدهم أوغلهم فى النجاسات ٠ ٠

---

(١) تاريخ اخلاق اوربا « تأليف ليكس » عن كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوى ص ١٦٨

فأين ذلك كله مما توحيه الآيات السابقة ؟ بل أين ذلك مما طبقته حضارتنا من نظافة واعتدال وقصد ٠ ٠ ؟ وابتعاد عن النجاسات والأقذار واستعمال للطيب ـ واستمتاع بطيبات الحياة ؟

هذه ذوقياتنا وتلك ذوقياتهم !! وعندما شاهد العالم تلك الذوقيات الرفيعة تأثر بها واقتبسها وهجر تلك الوحشية والخشونة ٠ ٠

(ب) توفير القيادات :

ورد فى سورة الحجرات قدر صالح من الأدب مع الله ورسوله ٠ ٠ والاخذ عنهما دون ابطاء أو تردد وعدم صدور أية بادرة تجعل للانسان حظا معهما ٠ ٠ كما ورد فى مطلع السورة أيضا لون من الأدب الرفيع لا عهد للدنيا به ٠ ٠ من خفض الصوت فى مجلس رسول الله ـ وتوقير مشهده ـ والاستئذان عليه عند الرغبة فى زيارته ـ وندائه بروح الاجلال والتوقير وتخير الأوقات المناسبة لتلك الزيارة ٠ ٠

وهنا يبرز معنى كبير هو ما نسميه بالتعبير العصرى « احترام القيادات والثقة بها وتوقير أوامرها » وقد سلك أصحاب رسول الله ـ بعد هذا التأديب المستمر ـ وبعد تلك التربية الاجتماعية ـ مع رسولهم ـ ومع علمائهم ـ وجميع قياداتهم مسالك الذوق الرفيع والأدب الكامل بحيث كان الواحد منهم لا يستطيع أن يملأ عينه من رسول الله استحياء وتوقيراً ٠ ٠ ولنستمع الى صوت الوحى الالهى يحمل الينا تلك الذوقيات الرفيعة فنحس بنداوتها ـ ونضارتها وجدتها ـ كأنما تتنزل الآية ٠ ٠ كما نحس بحاجة الحياة اليها أكثر من أى وقت مضى يقول جل شأنه : [يأيها الذين آمنوا لا تقدموا

بين يـدى الله ورسوله ــ واتقـوا الله ان الله سـميع عليم ــ يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صـوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ــ ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفـرة وأجر عظيم ــ ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون (١)] ٠

ان هذه الآية تتسامى بجمالها وجلالها ــ الى أفق رفيع ٠٠ فهى توضح المعالم التى تنشىء المجتمع النظيف المهذب ــ مجتمع له أدب مع الله ومع رسوله يتمثل فى توضيح حدود العبد مع الرب ــ ومع الرسول المبلغ عن الله ــ فلا يسبق العبد المؤمن آلهة فى أمر أو نهى ولا يقترح فى قضـاء أو حكم ولا يتجـاوز ما يؤمر به أو ينهى عنـه ــ ولا يجعـل لنفسه حظاً مع خالقـه ويبرأ من كل حول وطول وقوة أمام حول الله وطوله وعلمه ٠٠ توقيراً وخشـية منه وحـياء وأدباً معـه ٠٠ ولهذا العالم أدب خاص مع الرسـول فى خطابه ــ وزيارته والتحـدث اليه ٠٠

وتبدأ الآيات بهذا النداء الحبيب : « يأيها الذين آمنوا » وهو نـداء الله الجليل الى عباده المؤمنين يحـرك به عواطفهم ويستميل به مشاعرهم ويستجيش وجدانهم بذكر الصفة التى تميزهم من المجتمعات الأخرى وهى صفة الايمان ٠٠ وهى التى تربطهم به وتشعرهم بأنهم منه واليه ٠٠ فهم صناعة ربانية ومن ثم فهو سبحانه يمنحهم من التشريعات مايصلح ظواهرهم وبواطنهم ٠٠ ولا يتركهم ليستوردوا مبادىء أو نظماً أو يهيموا على وجوههم بين شتى الحضارات الأرضية ٠٠ وانمـا أمدهم بكل مايلزمهم حتى الذوقيات وهنا ينبغى أن تزدهر ثقتهم فى هذا الأفق الربانى وأن تستسلم له فى كل شىء ٠

---

(١) الآيات اول سورة الحجرات على التوالى .

قال قتادة : ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون : لو أنزل فى كذا وكذا ـ أو لو صح كذا ٠٠ فكره الله ذلك ٠

وقال العوفى : نهوا أن يتكلموا بين يدى رسول الله ٠

وقال مجاهد : معنى لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ـ يعنى لا تفتاتوا على رسول الله بشىء حتى يقضى الله على لسانه ٠

وقال الضحاك : لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم ٠ ٠

وقال على بن طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة ٠ ٠ وعلى أى قول فالآية ترسم منهج التلقى والتنفيذ ٠ ٠ وتصوغ حياة القوم على لون من الخلق العالى والذوق الرفيع ٠ ٠ وقد تأدب القوم بهذا الأدب مع الله ورسوله فما عاد مقترح يقترح على رسول الله بشىء ٠ ٠ أو يتبرع بالادلاء برأى ٠ ٠

ومن تأثير هذا الدرس فيهم أنهم دائما كانوا يتحرجون أن يجيبوا عن شىء يسألهم عنه الرسول ٠ ٠ بل كانوا يقولون : الله ورسوله أعلم ـ حتى ولو كان ذلك الشىء واضحاً جلياً ٠ ٠ استعمالا للأدب والتزاماً للذوق !!

ولقد بدأ رسول الله فطبق هذا القانون على نفسه ٠ ٠ فى أدق الظروف واحرجها ٠ ٠ بل فى أمس الأمور وأشقها ـ أمر أن يتزوج زينب بنت جحش بعد طلاق زيد بن حارثة لها ـ فتزوجها ٠ ٠ وقد كان زيد هذا رقيقاً لرسول الله فأعتقه ثم تبناه قبل تحريم التبنى ثم زوجه بزينب ابنة عمته وكانت على حظ وافر من الشخصية والجمال ٠٠ وقد تمنعت زينب

بادىء الأمر ٠٠ لكنها سرعان ماأذعنت لله ورسوله ٠٠ ثم أوحى الله الى نبيه ـ أن يتزوج من زينب بعد مفارقة زيد لها وانقضاء عدتها منه ٠٠ ليبطل مبدأ جاهلياً قد تعودته العرب وهو تحريم الزواج من زوجة المتبنى ٠٠ ولقد أقبل زيد ذات يوم الى الرسول يشكو له من زينب ، بعد أن وقعت بينهما جفوة فقال له الرسول : « أمسك عليك زوجك واتق الله » ٠ وكان عليه أن ينفذ ما أوحى الله اليه فيأمره بطلاقها ٠٠ فعاتبه الله فى ذلك :

(واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه امسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ماالله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها(١)) ٠

ولقد كان العرف الاجتماعى قاسياً ٠٠ لا يرحم وهو عرف يحرم الزواج من زوجة المتبنى ٠٠ ولهذا استحيا الرسول بادىء ذى بدء ٠٠ ثم مالبث أن نفذ ٠٠ ومن ينفذ اذا لم ينفذ الرسول ؟

ولقد بين الله الحكمة فى ذلك بقوله :

(لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى ازواج أدعيائهم) ٠

واذن : فالأمر أمر تشريع ٠٠ والله سبحانه يريد أن يبطل هذا الأمر على يد الرسول وبعمله وتطبيقه ٠

ولهذا أنزل فيه آيات كريمات ٠٠ والقصة تعطى درسا رائعا فى الالتزام والتنفيذ ودقة التطبيق حتى على الرسول نفسه ـ بل انه لأولى أن يسارع الى التنفيذ ٠ دون أن يتردد أو يفكر بعد أن أوحى اليه ربه ٠

---

(١) آية ٣٧ من سورة الاحزاب

وهكذا القوانين ٠٠ لا تطبق على الناس فحسب ـ ولكن على القيادات قبل الناس ـ ليتخذوا منهم قدوة صالحة ٠

ولننظر الآن فى سوآت التطبيق الدستورى والقانونى ٠٠ انها تنفذ على الشعب ـ لا على الحكام ٠٠ وأين هذا من قول رسول الله : « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها !! » وأين هذا من تطبيق الرسول على نفسه ـ فى أحرج الظروف ـ وفى أدق الأمور ؟ !

ولم يقف التشريع عند هذا الحد ـ وانما انتقل نقله جديدة هى حسن الأدب مع الرسول فى الحديث ٠٠ بحيث ينعكس على نبرات القوم وكلماتهم : (لا ترفعوا أصواتكم) ٠

ومن الأمور الاجتماعية التى نشكو منها الآن الصخب والضجيج المقاطعة فى القول وعدم تمكينك أن تدلى بوجهة نظرك ٠٠ يحدث كل ذلك فى اجتماعاتنا العامة مع القيادات ومع الناس بعضهم مع بعض وهذه السمات دليل على الهمجية ٠٠ فكلما كان المتحدث أخفض صوتاً وأكثر توقيراً لمحدثه وأصبر على الكلام كان ذلك حسناً ٠٠ وهو فى الوقت نفسه قمة الذوق الحضارى ٠٠ وهو ذوق تؤازره السماء ٠٠ ويتنزل به الوحى مع القيادات المؤمنة ٠٠ لكى تصان هيبتها وتحترم كلمتها ٠٠ ولذلك أثره فى دعم النظام واستتباب الأمن وتنفيذ أحكام الله ، أما حين تختل القيادة وتسقط هيبتها فلا أمل فى نظام أو صلاح ٠

ولقد تأثر مجتمع الصحابة ٠٠ ومجتمع الحضارة القرآنية بهذا التوجيه تأثراً عظيما وطبقوه فى كل وقت ٠

قــال البخــارى : فى ســبب نزول الآية كاد الخــيران أن يهلكا : أبو بكر وعمر رفعا أصواتهما عند النبى حين قدم ركب تميم فى السنة التاسعة للهجرة ٠٠ وقد أراد من رسول الله أن يؤمر عليهم رجلا منهم ٠٠ فأشار أحدهما بتأمير الأقــرع ابن حابس ــ وأشــار الآخر بتأمير القعقــاع ابن معبد ــ وفى بعض الروايات ٠٠ أن ابا بكر قال لعمر ماأردت الا خلافى ــ قال عمــر : ماأردت خلافــك ، وارتفعت أصــواتهما ، فنزلت الآيات ٠٠ فلما أخذ ذلك الدرس ووعياه لم يعودا يتحدثان فى مجلس رسول الله الا السرار أو أخا السرار ٠

قال ابن الزبير : فما كان عمر يسمع صوته لرســول الله بعد ذلك حتى يستفهمه وقال أبو بكر بعدها : والله يارسول الله لا أكلمك الا كأخى السرار (الهمس) وروى أن ثابت بن قيس بن شماس كان جهير الصوت أصم فلما نزلت الآية توهم من فرط الحساسية أنها نزلت فيه وقال : أنا الذى أرفع صوتى على رسول الله فأنا ممن حبط عمله ٠٠ وأنا من أهل النار ــ ثم مكث كئيباً فى بيته منطوياً على نفسه ، وقــد أغلق رتاج بابه وأوثقــه وأصر على ذلك حتى يحكم الله فى أمره ، فلمــا افتقده الرسول بعث اليه فانطلق بعض القــوم اليه فأنبأهم نبأه فأتوا النبى فأخبروه فقال الرسول : لا : بل هو من أهل الجنة ٠ وفى رواية أخبروه أنه يحــيا حميداً ويموت شــهيدا ويدخل الجنة ، وقــد صــح ماأخبر به رسول الله فقــد مات شــهيداً فى حــرب مسيلمة الكذاب باليمامة ٠٠ وكان يحــمل كفنه وحنوطه معه يومذاك ويتأهب للقاء الله ٠

وقد قال فيه أنس بعد أن أخبره الرسول بأنه من أهل الجنة !! وهذا الكلام من أنس ينطوى على الثقة التامة بكلام رسول الله ٠ ٠ وهكذا ارتجفت قلوبهم تحت وقع هذا النداء ـ وكان فيهم من فرط الذوق وشدة الحساسية ورقة الشعور مايجعلهم دائما يتلمسون مواقع الرضا والسخط من رسول الله حتى لا يفعلوا مايزعجه من قريب أو من بعيد ـ فتلك هى التربية المؤمنة ٠ ٠ وكانت السماء لا تبخل عليهم بالتأديب اذا صدر منهم ما ينافى شيئاً من هذا الأدب الرفيع ، وقد روى أن أبا بكر وعمر بعد أن انتهيا وأعلنا تأدبهما فى القول مع رسول الله نزل قول الله سبحانه : (ان الذين يغضون) ٠

فهكذا تتجاوب السماء معهم رقة كما تجاوبت معهم زجراً لتصقلهم صقلا كريما وتطهرهم من كل مايمس الذوق الرفيع أو يصدم الشعور النبيل ٠ ٠ وكذلك نلمح فى هذه الآية الربط بين التقوى والأدب مع الله ورسوله لانه ثمرتها ٠ ٠ ومن اتقى الله تأدب مع رسوله لا محالة ٠

وكأنما القوم لا يرضون الذوق الرفيع فحسب حين يتأدبون مع الله ورسوله ٠ ٠ بل يتجاوبون مع التقوى ويرضون رب العزة والجلال ٠ أو قل ان ارضاء الله ورسوله مع الذوق فى ذروته العالية ـ فما أروع أن يثبت القوم عليه فيصبح خلقا لهم ـ ثم يستطرد السياق لينتقل بنا الى لون آخر من الأدب مع رسول الله وذلك قوله سبحانه : « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات الخ » ـ ولقد وقع هذا الحادث من وفد تميم حين قدموا على الرسول فى العام التاسع وهو عام الوفود بعد فتح مكة ٠ ٠ حين أقبلت وفود العرب تعلن عن استسلامها لله ودخولها فى الدين وكان هذا الوفد من الأعراب

الجفــاة ـ فذهبوا الى بيوت أزواج الرسول فى وقــت حــرج ـ ونــادوه بصوت مرتفع ـ وتسللوا اليه من وراء الحجــرات ٠٠ وكانوا ينادون : يامحمد اخــرج الينا فان مدحــنا زين وسبنا شــين ـ فــكره النبى منهم ذلك وتأذى منه لأنه أمر يخــدش الحياء ويسيىء الى الذوق فنزلت الآيات وهكذا يفرض القرآن هذا الذوق على القبائل الوافدة دون أن يجاملها أدنى مجاملة ـ ذى ينظر الى أنها جديدة ٠٠ لأن توقير الرسول أهم ٠٠ والثقة به انما تصدر عن توقيره والتزام الأدب فى التعامل معه ٠٠ مما لم تكن هناك مراسيم ذوقية تفرضها الآداب العليا ـ وبخاصة مع القيادة الكريمة ـ التى تبذل وقتها كله فى العمل من أجــل الجماعة وربما تكون فى وقت راحة أو نوم ٠٠ فان الأمر يصير الى الفوضى ٠٠ فكيف تقتحم عليها المدخل ؟ وتنادى بمثل هذا النداء من وراء الحجرات ؟ ٠٠ ولهذا الأمر أثره فى صقل مشاعر [illegible] وتربيتهم حتى يعرفوا للرسول حقه فى أوقات الراحة ٠٠ [illegible] وجاء المسلمون وفهمــوا انه يوحى بالتزام الأدب مع كل [illegible] دات ٠٠ فتجاوزوا به شخص الرسول الى كل أستاذ أو [illegible] أو خليفة أو قائد لا يزعجونه حتى يخرج اليهم ٠٠ وهذا [illegible] رائع الحضارة القرآنية ٠

يحكى أبو عبيدة : « وهو المعروف بعلمه وذكائه وورعه » عن نفسه بعد فهم هذه الآيات فيقول : « ما دققت بابا على عالم قط حتى يخرج فى وقت خروجه » ٠

وبهذا تصنع السماء أذواق القوم ٠٠ فيتجــاوبون معها تطبيقــاً وتنفيذاً ٠ ومن ثم فنحن لا نعجب كيف تم صـــنع المعجزة ، فتحول القوم من غلظة البداوة الى قمة الذوق ؟ !

ويرتبط بهذا اللون من أدب « القيادات » قوله سبحانه فى سورة الأحزاب : « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الا

أن ياذن لكم الى طعـــام غير نـاظرين انـــاه ، ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم والله لا يستحيى من الحق ، واذا سـألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجـاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن (١) » ان هذه الآية تضع أساسـاً لتوقير بيت الرسول فما ينبغى أن يقتحم دون استئذان ـ كما لا يجوز أن يفرض احد نفسه على مائدة الرسول دون أن يدعى اليها ، ومن دعى فليجب ، وأن هذه الدعوة ان تمت فما ينبغى التبكير بوقت طويل ـ وأن الطعام اذا انتهى فما ينبغى أن يطول المكث ٠٠ وتشقيق الحديث بين المدعوين فى أمور شتى لأن ذلك يحـرج صاحـب البيت ٠٠ وانما طعام يعقـــبه انصراف ليستريح الداعى ـ وأن التحدث مع أزواج رسول الله له قاعدة وأدب وهو أن يتم من وراء حجاب لأن ذلك أدعى للطهر وأنفى للشك ٠٠ وأقرب الى روح التوقير والاجلال ٠٠ ولا يحق لأحد أن يتزوج واحدة من أمهات المؤمنين من بعده لأنها أمه ٠٠ !!

سلسلة من الذوقيات الرفيعة ، تعلم القوم آداب المـائدة ـ وذوقيات الدعوة الى الطعام ـ وحسن الأدب مع رسول الله ٠٠ ولهذه التعاليم أثرهـا فى بيئة بدويـة لم تكن تعـــرف عنها شيئا ٠٠ لأنها كانت تقتحم وتلح دون اسـتئذان ـ وتحضر الطعام دون دعوة وهكذا من كل مايصدر عن جفاوة الطباع ٠٠ وما أحوج المجتمـع اليوم الى رعاية هذه الآداب ٠٠ فكم يلقى الداعى من عنت ٠٠ عندما يدعو شخصاً فيبطئ فى المجئ الى درجـة مؤسفه ٠٠ ويظل بقية الضـيوف فى انتظاره ٠٠ ثم يحضر بعد مضى ساعة من الدعوة ٠٠ وقد يبكر فيحضر قـبل ذلك بوقت طويل ٠٠ وقد يحضر اليك من لم يخطر على بالك من غير دعوة وقـد يكون الطعام قليلا !! وأقـبح من ذلك فتـح

(١) آية ٥٣ من سورة الأحزاب .

مجالات الكلام بعد الطعام ٠٠ واذا كانت هذه الذوقيات اساساً مع مولانا رسول الله فما أحرى أن تكون أدباً ملتزماً مع جميع القيادات ومع كل الناس لتصبح رصيداً من أدبيات حضارتنا القرآنية !!

ماأجمل أن نطلق هذه الذوقيات اليوم ٠ ٠ الدعوة محدودة٠ ومقيدة بوقتها ٠ ٠ ولا كلام بعـد الطعام !!

ومن الذوقيات الخاصة بالرسول وحده ألا تنكح نساؤه من بعده توقيراً وتكريماً ٠ ٠ ولأن كل واحدة منهن أم المؤمنين فهذا تشريع يدخل فى باب التوقير والاجلال لمولانا رسول الله ٠ ٠ ولأمهات المؤمنين !!

(جـ) رعايـــة الحـرمات :

للبيــوت حـرمة يجـب أن ترعى ـ وقـداسة ينبغى أن تصان ٠ ٠ فلا يحق لمسلم أن يقتحم بيت أخيه من غير استئذان فى الدخول ـ واذن من صاحب الدار ٠ ٠ وما يجوز على الاطلاق أن يفاجـأ الناس بدخـول الغرباء خيفـة أن تطلع الأعين على خفايا البيوت وكم فيها من عورات ٠ ٠ عورات الطعام واللباس والكلام ٠ ٠

ولعل لذلك الاستئذان أثراً فى تضييق فرص الغواية ، وقطع دابر الفتنة ٠ ٠ والقضـاء على عوامل الشـك التى يتزلزل لها كيان البيوت ٠ ٠ انها « ذوقيات أسرية » للحفـاظ على كرامة البيت المسلم : « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسـوا وتسـلموا على أهلها ذلكم خـير لكم لعلكم تذكرون فان ، لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعلمون

عليم ٠ ٠ ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون (١) » ٠

ففى جو هذه الآيات ـ نستشعر حرمة البيوت ـ وكرامة الآدميين ٠ ٠ فبيوتنا سكن لنا نفىء اليها لنجد الأمن والهدوء ٠ ٠ فتستقر الأرواح والنفوس ٠ ٠ وهى لا تؤدى تلك الغاية الا اذا كانت حرماً آمنا ٠ ٠ لا يستباح بالاقتحام ٠ ٠ ولا يدخل بدون اذن ٠ ٠ لان أعين الداخلين قد تقع على مالا يحب صاحب البيت أن يعرفه أحد ٠ ٠ وقد يكون ذلك مباءة للفساد ٠ ٠ بما يهىء من فرص الغواية ـ التى تنشأ عن ذلك الولوج المفاجىء ٠ ٠ ولقد كان الجاهليون يقتحمون دون استئذان ٠

ويقول احدهم : لقد دخلت ٠ ٠ وقد تكون ربة الدار مكشوفة ٠ ٠ أو مع زوجها فى حالة لا يجوز أن ترى ٠ ٠ وكان ذلك يؤذى ويحرج كما يعرض النفوس للفتنة ٠ ٠

من أجل ذلك شرعت ذوقيات الاستئذان ٠ ٠ على هذا النمط العالى من حسن الأدب وتوقير البيوت والاستئناس فى الآية والاستئذان ٠ ٠ وكأنما يوحى التعبير القرآنى بطريقة الاستئذان وأسلوبه ولطافته ٠٠ حتى لا تفزع النفوس قرب مستأذن عنيف يطرق الباب بقوة ٠ ٠ أو يدق الجرس بعنف وذلك كله ازعاج ٠ ٠ وكأنما الآية تقول : استأذنوا بلطف وايناس ٠ ٠

فان كان أهل البيت بداخله ـ وسمحوا لكم بالدخول فادخلوا ٠ ٠ فان لم يكن فيها أحد فلا تدخلوا : « فان لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم » ٠

(١) الآيات ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ من سورة النور ٠

فان كان أهلها بها وسمحوا فالقوا عليهم السـلام زيادة فى الأنس ٠٠ وقـولوا لهم : السلام عليكم أندخل ؟ فان سمحـوا فادخلـوا ٠٠ وان لم يسمحـوا فلا تلكؤ ولا انتظار بل انصراف فورى « وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم » ٠

ولا ينبغى ان تستشعروا فى الرجوع غضاضة فللناس أسرار وأعذار ٠٠ وهم الذين يقدرون ظروفهم « والله بما تعملون عليم » فهـو المطلع على مافى القلـوب ـ من دوافـع ونيات ٠٠ وهناك بيوت عامة كالفنادق ـ ومنازل الضيافة المنفصلة عن السكن ـ فلا بأس بدخولها دون استئذان دفعاً للمشقة [ليس عليكم جناح أن تدخـلوا بيوتا غير مسـكونة فـيها متاع لكم ـ والله يعلـم ماتبدون وما تكتمون] فما دامت النيات طيبة والدوافع كريمة فلا بأس فى الدخول والله سبحانه يعلم تلك الدوافع والنيات ٠٠ فصححوا قلوبكم تصح أعمالكم ٠٠

وما أجل تلك الذوقيات ٠٠ وماأجدر أن تحييها بدقـة فى مجتمعاتنا الحاضرة ٠٠ فقد يخيل الى أن الناس قد غدوا طفيليين وكلما تقدم الزمن ـ قلت أذواق الناس ـ وقـلت رعايتهم لتلك الحالات الرفيعة من حرمة البيوت وكرامتها ٠٠ وكم فى البيوت من أسرار ٠٠ وأيسرها أنك فى بيتك يجب أن تكون آمنا من كل مباغتة وسطو ٠٠ فكلامك وأثاثك وزوجـك وحـالاتك كلها حرمات يجب أن تصـان وتحفظ ٠٠ والعجيب أن نلمح دقـة القـوم فى التطبيق ـ وحسن الاستجابة لله ٠٠ فـما كانت ذوقيات نظرية ـ وانما غدت واقـعا يعيشه الناس ٠٠ وكم نفتن بالغرب وحضارته حين نرى مراسيم الاستئذان والدخول ٠٠ وننسى أن ذلك قرآن يتلى ٠٠ وآداب تلتزم ٠٠ ومنهج قد حققته التجربة العملية فى حـياة آبائنا ٠٠ ولنستمع الى دقـة التطبيق ٠٠

أخرج أبو داود والنسائى من حديث أبى عمر الأوزاعى باسناده عن قيس بن سعد بن عبادة قال : زارنا رسول الله فى منزلنا ـ فقال : السلام عليكم ورحمة الله فرد سعد خفيا (١) ـ قال قيس : فقلت : ألا تأذن لرسول الله ؟ فقال : دعه يكثر علينا من السلام فقال رسول الله ثانية : السلام عليكم ورحمة الله فرد سعد خفيا ، ثم قال رسول الله ثالثة : السلام عليكم ورحمة الله ٠٠ ثم رجع رسول الله واتبعه سعد فقال يارسول الله : انى كنت أسمع تسليمك وأرد عليك رداً خفيا لتكثر علينا من السلام قال : فانصرف معه رسول الله : وأمرله سعد بغسل فاغتسل ثم ناوله خميصه ـ أى ثوب من خز أو صوف ـ مصبوغة بزعفران أو ورس فاشتمل بها ثم رفع صلى الله عليه وسلم يديه وهو يقول : اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة » ٠٠ فأنت ترى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ينهض بتطبيق الآية فيرجع حين لا يسمع الاذن الصريح بالدخول ٠٠ وأنت ترى سعداً طموحا يريد أن يظفر من الرسول بالسلام الكثير حتى تحدث البركات ٠٠ وأنت ترى الرسول يدخل حين يلحقه سعد فيبرر له الأمر ٠٠ وأنت تحس أن الدعوة الحارة التى صدرت من الرسول لسعد وآل بيته انما هى بسبب فقهه ورغبته فى دعاء الرسول وحيلته الذكية التى تجلت فى الرد الخافت ليظل الرسول يسلم عليه ٠٠ وهكذا بدأت القيادة الكريمة بتنفيذ الأمر ٠٠ فكان سلوكا للقوم ٠

وقد رووا أن رسول الله كان يأتى الدور من ركنها الأيمن أو الايسر ولا يستقبل الباب من تلقاء وجهة وذلك رغبة فى التوقى كيلا تقع العين على شئ ٠٠ لأن الدور لم يكن عليها ستور ٠

---

(١) خفيا : أى بصوت خفيض ٠

وفى الصحيحين : لو أن انسانا اطلع عليك بغير اذن فحذفته (١) بحصاة ففقأت عينه ماكان عليك من جناح ـ وقال هشيم ـ قال مغيرة ـ قال مجاهد جاء ابن عمر من حاجة وقد آذاه الرمضاء فأتى فسطاط (٢) امرأة من قريش فقال السلام عليكم أأدخل ؟ قالت أدخل بسلام فأعادت وهو يراوح (٣) بين قدميه قال قولى : ادخل قالت : ادخل فدخل ٠ انه الاحتياط والتدقيق ٠ ٠ فهو لم يفهم من عبارتها الأولى الاذن الصريح ولهذا توقف حتى سمعه ٠

وجاء فى الصحيح عن رسول الله أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقا وفى رواية ليلا يتخونهم (٤) وفى رواية أن رسول الله قدم المدينة نهاراً فأناخ بظاهرها وقال : انتظروا حتى تدخل عشاء يعنى آخر النهار حتى تمشط الشعثة ـ وتستحد المغيبة ـ أى تتطيب من الشعر الداخلى ٠

فهذا من الذوقيات العالية ٠ ٠ التى لا تفاجىء المرأة وهى غافلة أو نائمة لأنها تحب أن تتزين لزوجها ومن ثم فالاستئذان على الأهل والاخوة واجب أيضا لان أحداً لا يحب أن يرى واحدة منهن عريانة فأين هذا مما نحن فيه اليوم ؟ ٠ ٠ ربنا ألهمنا الحكمة والسداد حتى نطبق ذوقيات قرآننا ٠ ٠

لكن الخدم من الرقيق ـ والأطفال المميزون الذين لم يبلغوا الحلم يدخلون بلا استئذان الا فى أوقات ثلاثة ٠ ٠ فانهم يستأذنون فيها : هى الوقت قبل صلاة الفجر حيث يكون الناس فى ثياب النوم عادة أو أنهم يغيرونها فيلبسون

---

(١) حذفته : قذفته ورميته .
(٢) فسطاط : خيمة او شىء يشبهها .
(٣) يراوح : تعبير يفيد التردد لأن الاذن غير صريح .
(٤) يتخونهم : يظن بهم الخيانة كما فى القاموس .

ثياب الخروج ـ ووقت القيلولة عند الظهيرة حيث يخلعون ملابسهم عادة ويلبسون ثياب النوم وبعد صلاة العشاء لما مر وسماها القرآن « عورات » لانكشاف العورات فيها ـ فى هذه الأوقات يستأذن الخدم والصغار المميزون لئلا تقع أعينهم على العورات ٠ ٠ ولذلك أثره فى تربية الطفل سليمة حتى لا يرى مالا ينبغى فيترسب ذلك كله فى شعوره فما أرق التربية وما أنظفها !!

وقد سمى القرآن هؤلاء « طوافون » لأنهم اعتادوا الدخول ٠ ٠ وترددوا على البيوت ٠ ٠ وتلك رحمة من الله ٠٠ حتى تطرد الامور ببساطة ٠ ٠ ولا يحصل العنت ٠ ٠ وفى هذا يقول ربنا سبحانه : «يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات الخ (١) » ٠

(د) ادب التحيـــة :

من ذوقيات الحضارة الحديثة اهتمامها بالتحايا ـ والقاؤها فى الصباح والمساء وفى جميع الأوقات بألفاظ معينة ٠٠ وابتكارها لكل جديد من الاساليب وجميل من الكلمات ٠٠ ولاشك أن للتحية أثرها فى الدلالة على نضارة العواطف ، ورقة المشاعر ـ وحيوية الأمة ٠ ٠ بل ان التحية المتميزة تحمل شخصية الامة ـ وتدل على تقدمها الحضارى ٠ ٠ والاسلام ينظر التحايا كلها على أنها مجاملات تبتعد عن روحه ٠ ٠ وتنفصل عن طموحه ٠ ٠ ويشتق من كلمة « الاسلام » تحية كريمة تحمل معنى الحب والأمن والوداد ٠ ٠ ومن فى الدنيا يكره السلام أو يزهد فيه ؟ ! ٠ انه تحية نابضة بكل المشاعر

(١) الآية ٥٨ من سورة النور تحمل هذا المعنى وتؤديه ٠

الطيبة زاخرة بشتى العواطف الكريمة ، تحمل خصائص هذه الأمة وروحها ٠٠ ورغبتها فى السلام ٠٠ وما أجمل ذلك اللحن العذب ٠٠ والدلالة الكريمة التى تفيض من قولك لأخيك المسلم « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » ٠٠ انها تفتح مغاليق القلب ـ وتفجر أغزر ينابيع الحب ٠٠ وهى فى الوقت نفسه تعبير عن شخصية الأمة المسلمة ـ وعن روحها فى دعم السلام ٠٠ فتحيتها السلام ٠٠ ومساعيها للسلام ٠٠ ووجهتها السلام «يأيها الذين آمنواادخلوا فى السلم كافة (١)»

« ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا (٢) » ٠٠ انها رمز الايمان ودليله ٠٠ وبرهان الحب وسبيله ٠٠ ويكفى أنه اسم من أسمائه سبحانه ٠٠ وهى تحية أهل الجنة ٠٠ وهى اسم للجنة ماأجمل أن نتمسك بهذه التحية ٠٠ وأن نعلمها لأولادنا ـ وأن نذيعها فى مجتمعاتنا ٠٠ يقولها الرجل للرجل ـ والمرأة للمرأة ـ والرجل للمرأة ٠٠ والفتاة للفتاة ٠٠ وهكذا نهتف بأنغام السلام لنكون من أهل الاسلام ٠٠ ولقد كان الجاهليون يقولون فى تحاياهم : عم صباحا ـ عم مساء ـ أبيت اللعن ـ فلما جاء الاسلام طوى كل هذه التحايا وأحل محلها تحيته الكريمة ـ التى تحمل اسمه ـ واسم الله ـ واسم الجنة فما أجلها من تحية وما أسماها من مجاملة !!

ولقد طبقها الصحابة فى مجتمع النبوة ـ وبعده تطبيقا حسنا فما كانت هناك تحية تزاحمها ٠٠

ونبض بها قلب الحياة ـ وخفق شعورها ٠٠ ولكننا نعيش حتى نسمع على لسان الشباب المسلم اليوم تحايا ما أنزل الله بها من سلطان ٠٠ وهى تعبر عن عقدة الضعف

---

(١) آية ٢٠٨ سورة البقرة .
(٢) آية ٩٤ النساء

والهزال التى تتسرب الى الشعوب المستعمرة ٠٠ أو المنحلة ٠ ينسون ذوقياتهم الرفيعة ويرددون غيرها ترديدا أبله ٠٠

وفى هذا يعلمنا ربنا لفظ التحية ـ وأدبها ـ كذوق رفيع ينبغى الحرص عليه فيقول سبحانه :

« واذا حييتم بتحيـة فحيوا بأحسـن منها أوردوها ان الله كان على كل شىء حسيبا (١) »

فالمسلم مهما يلق اليه من التحايا ٠٠ يكون رده : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ٠٠

بدء السلام سنة ورده فرض ٠٠ والزيادة فى الرد مطلوبة قصدا الى الفضل ٠٠ فان لم يتيسر فـرد التحية بمثلها ٠٠ ولكن شخصية المسلم لا تنمع ولا تجرى وراء تحايا ماأنزل الله بها من سلطان وتحيتنا كلها رقة وذوق وجمال من قال لنا : السلام عليكم قـلنا : وعليكم السـلام ورحـمة الله وبركاته أوردنا تحية بمثلها ٠٠ وأنت مخير بين العدل ـ والفضل ٠٠ والفضل أولى وأكرم ٠٠ وما دام له فضل البدء فليكن لك فضل الزيادة ٠

(هـ) تنفسحوا فى المجالس :

من ذوقيات حضارتنا الرفيعة ـ أن يتفسح المسلم لأخيه المسلم فى المجلس ـ مجلس العلم ـ أو مجلس الرأى والفكر ـ أو أى اجتماع يكون مزدحما بالناس ـ وقـد طبقها الرسول وصحـابته تطبيقا رائعـا على سماحـة أرواحهم واتسـاع مشاعرهم ورحابة نفوسهم ٠ ٠فما كان أحدهم يجلس الاحيث انتهى به المجلس ٠٠ لئلا يزحم الناس ويتخطى الرقاب ٠٠ لكن المكان الضيق يمكن أن يتسع اذا اتسعت الأخلاق ـ ولهذا

---

(١) آية ٨٦ سورة النساء ٠

كانوا يفسحون لاخـوانهم ـ ويجلسـونهم بجـوارهم ـ أو يتخلـون لهم عن المكان أن كانوا كبارا ٠٠ وعندما يفســح المسلم لأخيه المسلم فى المكان فانه بذلك يحترم انسانيته ـ ويوقر العقيدة التى جمعتها فى رحابها ـ ويوقر ربه بامتثـال أوامره ويدل بذلك على نبل شعوره وبسطة عواطفه : لعمرك ماضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق ٠

فالمشكلة ليست فى الأماكن المـادية ـ بل فى الاخلاق النفسية ٠ ولهذا وجدنا القرآن يهتم بها وينزل بشأنها ٠ ٠ كخلق عام يكـون الـذوق الاسـلامى الرفـيع ٠ ٠ وكم فى الاسـلام من تشريعات اجتماعية تدل على رقة الذوق وسلامة القلب ـ ونبل الأحاسيس يقول ربنا :

(يأيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحـوا فى المجـالس فافسحوا يفسح الله لكم واذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعلمون خبير (١)) ٠

وقد كان القوم يتسابقون فى الاقـتراب من رسـول الله ويزدحمون من حوله فى مجالس العلم ٠

قال قتادة : كانوا اذا أراد أحدهم سبقـا جلس ـ وضن بمجلسه عند الرسول فأمرهم أن يفسح بعضهم لبعض ٠

وقال مقاتل : نزلت الآية يوم الجمعة ـ وكان الرسول فى الصفة وهى مكان ضيق ـ وكان من عادته أن يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار فجـاء ناس منهم وقـد سبقـوا الى

---

(١) آية ١١ سورة المجادلة .

المجالس فوقفوا حيال رسول الله وقالوا : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، فرد عليهم ، ثم سلموا على القوم فردوا عليهم وظلوا وقوفا فلم يفسح لهم أحد ، ورآهم النبى ، وعرف مايحملهم على القيام ، فتولى هو فسح المكان فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار ممن لم يشهد بدرا : قم يافلان وأنت يافلان فلم يزل يقيمهم حتى أجلس الواقفين ٠٠ فشق ذلك على من قام ٠٠ وعرف الرسول ذلك فى وجوههم ٠٠ وانتهز المنافقون الفرصة لينفسوا عن حقدهم بالنقد والتجريح فقالوا للمسلمين : ألستم تزعمون أن صاحبكم يعدل بين الناس ، والله مارأيناه قد عدل مع هؤلاء ٠٠ ان قوماً قد أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب من نبيهم فأقامهم وأجلس من أبطأ عنهم فبلغنا أن رسول الله قال : «رحم الله رجلا يفسح لأخيه» فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعاً فيفسح القوم لاخوانهم فنزلت يوم الجمعة ٠٠

وهذا السبب معقول ٠٠ ولاينافيه قوله عليه الصلاة والسلام : [لايقيم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا (١)] ولا ينافيه أيضاً استقرار القادم حيث ينتهى به المجلس فلا يتخطى الرقاب ليأخذ مكان الصدارة لأن الذى تم فى هذا المقام كان بأمر الرسول فهو تشريع ٠٠ والواقفون لم يقيموا أحدا ولا رغبوا فى ذلك وانما قام الرسول عنهم بذلك ـ بما فيه من شفافية ورقة ٠٠ والتقصير انما كان من الجالسين ـ ولهذا لقنهم درساً فى الذوق ٠٠ وفى تصرف رسول الله ٠٠ مايوحى بأن الأحفال العامة يجب تنظيمها ٠٠ وأن يوجد فيها من يقيم الناس فى أماكنهم ـ وفيه احترام ذوى العلم ـ والفضل ـ والسن

---

(١) فى رواية الصحيحين ٠

بتقديمهم وفسح المكان لهم ٠٠ وفيه أن المبادرة بفسح المكان لو تمت من الجالسين لكان أفضل ٠٠ فمتى رحب القلب فقد انحل الاشكال ـ ومتى ضاقت النفوس والأخلاق ساد الشح ٠٠ وتشبث كل واحد بمكانه لا يرعى حرمة كبير ولا سابقة أولى الفضل ولا كرامة أهل العلم ٠٠ وانظر معى فى قوله سبحانه : [تفسحوا يفسح الله لكم] انها تعد بثواب رائع وهو توسيع الله عليهم توسيعاً عاماً فى القلب والنفس والخلق والدنيا والآخرة ٠٠ وكذلك قوله : [يرفع الله الذين آمنوا منكم الخ] يعد أيضاً بالرفعة والسمو لمن يترك مكانه لأخيه فأما قوله : [والذين أوتوا العلم] فمعناه أن العلم نبع سخى للذوق السليم ـ وأن مبادرة القيام لشخص ما ٠٠ لاتصدر الا عن علم ومعرفة ٠٠ فأما الجهالة فليست مصدر ذوق بل مصدر فظاظة وغلظة ٠

وبنزول الآية ٠٠ تبطل كلمات المنافقين ٠٠ كما تأخذ المسألة وصفاً اجتماعياً ذوقياً له خطورته لأنها أصبحت تشريعاً وقانوناً ٠٠ وهنا لابد أن نشير الى أن التعاليم الذوقية التى تصقل مشاعر المسلمين لها أعظم الأثر فى خلق مجتمع موحد تتجانس ذوقياته ومثالياته وتنطبع شخصيته بطابع واحد فاذا كان أفق الحضارة عالمياً كما وضحنا فمعناه أن ترتبط الأسرة الانسانية عالميا بتقاليد ذوقية محددة تصنع منها وحدة رائعة على المستوى العالمى ـ وقد توحدت فعلا مشاعر القوم وأذواقهم وأعمالهم حين توحدت مصادر الهامهم فصدر عنهم العلم والفن والحكمة والفلسفة والجمال بشكل متجانس ـ وأسلوب متشابه ٠٠ لاتجد فيه عوجاً ولا أمتاً ٠٠

يقول الفيلسوف اقبال : [ان ثبات العرف الذى ليس له خطر اجتماعى كبير كالعرف المتعلق بالأكل والشرب والطهارة

والنجاسة يكون له فى تطور مجتمع كالمجتمع الاسلامى قيمة حيوية خاصة تجعل له حياة نفسية متميزة ـ لأنه يكفل لافراده الانسجام والوحدة فى الظاهر والباطن حتى يقاوم عوامل الفرقة بين أوفاض شتيتة من مجتمعات متنوعة مختلفة ومن هنا يجب فهم مرمى التجربة الاجتماعية التى يرمى اليها الاسلام من حيث قصدها الأكبر الذى يسرى فى الانسانية عامة حتى الذوقيات تصبح وحدتها مظهراً اجتماعياً رائعاً يؤلف بين هذه العناصر تأليفاً متناسقاً ينفع ولايضر ! .

أقول : فكيف اذا كانت ذوقيات الاسلام تشريعاً صادراً عن الله . . وتجربة عاشها رسوله ومن معه من الصحابة انها حينئذ تأخذ من عمق التأثير أكبر مما ذهب اليه اقبال من أنها تنفع ولا تضر . . بل انها حتما تنفع وتوحد ـ وتخلق عالماً راقياً نظيفاً . . له طابع واحد . . وتسرى فيه نغمة واحدة وهو مجتمع متجانس الروح والمادة ـ متشابه الخلق والسلوك ـ متناسق الظاهر والباطن . . متماثل الأعمال والعادات والتقاليد والذوقيات . . فاذا جئنا بعد ذلك الى الحضارات الحديثة ـ وجدنا أنها تعطى هذه الأمور عناية كبرى . . وتجعلها مراسيم مرعية ـ وذوقيات واجبة . . فاذا قارناها بذوقيات حضارتنا اتضح أننا نملك من التشريعات الذوقية مالا يملكه سوانا . . وأنها تصدر عنا على أنها عادة ودين ، وتصدر عن باعث العقيدة والايمان . . وتحصل القدوة برسول الله وكفى بذلك قوة لها وتجدداً واستمرار فى الحياة ـ على أن معظم مايروقنا من مظاهر ذوقيات الغرب مأخوذ منا يوم اختلطوا بنا هنا وهناك . . ولم يكن لديهم تقدم ولا ذوق . . بل كانوا يتسترون

بشعورهم ويمشون كالأنعام على أيديهم وأرجلهم - ويعدون النجاسات زهداً وورعاً ٠٠ فى هذه الحقبة من حياة القوم اتصلوا بنا ٠ وأخذوا عنا ٠٠ ثم طوروا التجربة ٠٠ ونموها ٠٠ فازدهرت ثم أثمرت عندهم !!

أما نحن فنسينا ٠٠ واستمرأنا النسيان فأصبنا بشىء من فقد الذاكرة ثم جئنا نقلد القوم ٠٠ وما شعرنا أنها بضاعتنا ردت الينا ٠٠

كم كنت مشوقاً الى أن نمضى مع تشريعات الذوق فى حضارتنا حتى أترجم عن معظمها ٠٠ ولكن الوقت لا يتسع - والبحث لا يحتمل ٠٠ وحسبى أنى أشرت الى كتاب يأخذ هذا العنوان « من ذوقيات حضارتنا » ثم يقدم الى الحياة التى فقدت ذوقها فى غمرات الصراع المحموم ٠٠ وللمسلمين على اختلاف ديارهم ليعلموا أن رصيدهم ضخم فى هذا المجال وكم أحب أن يترجم كتاب كهذا ويقدم للغرب ليذكر ان كان ناسياً أن مايعده اليوم حضارة ذوقية هو من رصيد المسلمين ومن وحى كتابهم المنزل ٠٠

وقد يعيننى الله فأقوم ببعض هذا الواجب !!

الباب الخامس

الحضارة القرآنية بين المد والجزر

عهد البقاء والتأسيس : عاش المسلمون عهد النبوة بناة لهذه الحضارة القرآنية يشيدون صرحها بالجهد والعرق ـ ويحملون حماها بالنفس والروح ، ويذودون عنها بالسواعد الفتية ۰۰ ويلتفون حول رائدهم العظيم ليتلقوا منه عن الله أزكى التعاليم ۰۰ فاذا نزلت آية سارعوا فتمثلوها ۰۰ ثم اقبلوا على أنفسهم فطبقوها ـ وعلى الحياة من حولهم فجسدوها ۰۰ لا يشذ منهم أحد ولا يتخلف انسان ۰

وكان هيكل حضارتهم يكتمل رويداً رويدا على أناة ومهل ۰۰ حاربوا الشرك حتى تزلزلت أقدامه ثم انطوت أعلامه ۰۰ وتحملوا فى سبيل بناء حضارتهم ضروبا من الأذى والعذاب دون أن يفتنهم ذلك أو يصرفهم عن دينهم ۰۰ تحملوا حرب التجويع بأقصى مايحتمله الأنام ۰۰ حتى أكلوا ورق الشجر ۰۰ وصمدوا لحرب الاشاعة والتضليل ۰۰ حتى قذف الله بالحق على الباطل ۰۰ واتجهوا الى أقاصى الدنيا فراراً بعقيدتهم وتفرقوا فى أرض الله فجمعهم الله بفضله وحوله ۰۰ وهانت عليهم فى سبيل عقيدتهم أموالهم وأرواحهم وأولادهم فباعوا كل ذلك لله ـ رائدهم قول ربهم : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم (١) » ۰

---

(١) آية ١١١ سورة التوبة ۰

ثم تحركوا فى العالم كله لدعم قضيتهم فاكتسبت قوة ٠٠ ووضح حقهم بعد أن كان باطل قريش سائداً ٠ ٠ ذهبوا الى النجاشى وشرحوا أصول دينهم ٠ ٠ فقبل منهم ٠ ٠ واقتنـــع بحديثهم ٠

وطرد وفـد قريش الذى جاء ليتسلمهم ٠ ٠ ويردهم الى قبضة الشرك ٠ ٠ ثم كانت بيعات كريمات لدعم القضية ثم استقبل الرسول الوفود ٠ ٠ وكاتب الملوك ٠ ٠ لتوسيع قاعدة الاسلام وبسط رقعته ٠ ٠

وكسب أنصـــاره ٠ ٠ وقــد أثرت كل هذه الأمور فى دعم القضية ٠ ولم تكن هجرة الرسول الا ضربا من التضحية فى سبيل العقيدة ٠ ٠ وما كانت هجرة أصحابه الا تطبيقاً لذلك المبدأ ٠ ٠

ولقد ضحوا ٠ ٠ حتى بالوطن ٠ ٠ لأن أوطانهم فى نظرهم حيث تعـز عقيدتهم ٠ ٠ ولم يكن ترك مكـة سهلا عليهم ٠ ٠ فقد وقف رسول الله يودعها بالعاطفة الجياشة يقـول [أعلم يامكة أنك أحـب بلاد الله الى ٠ ٠ ولولا أن قومك أخرجـونى ماخرجت] ٠

ولقد مرض الصحابة المهاجرون ٠ ٠ وبـدا عليهم الضيق النفسى ٠ ٠ فـدعا لهم الرسـول بأن يحبب اليهم المدينة كما حبب مكـة ٠ ٠

والواقع أن الهجرة عمل ايجابى ٠ ٠ حتى يتم بناء قاعدة الاســلام بعيـداً عن الشرك والوثنيـة ٠ ٠ ولم تكن مسـلكاً هروبياً ٠ ٠ ولا سلبيا ـ لأنها تحـمل من بطولة النفس فوق

مايعرف الناس ٠٠ وكيف تكون هروباً أو جبنا ٠٠ وقد ضحى القوم فيها بديارهم وأرضهم وممتلكاتهم ٠٠ وأموالهم ٠٠ حتى ليروى أن صهيبا ٠٠ عندما أراد أن يهاجر قالت قريش : جئتنا صعلوكاً فقيرا لا مال لك واليوم تريد أن تتركوننى ؟ قالوا : نعم قال : فانى قد تركت مالى ٠٠ فتركوه يهاجر هكذا تهون الأموال والانفس فى سبيل العقيدة ٠٠ ثم هى احتمال فوق المعقول من حيث ان القوم معرضون للحاق قريش بهم ٠٠ وتمزيقهم كل ممزق ٠٠ حقاً انها لتضحية تمنح القدوة لأصحاب المبادىء والمثل والرسالات ٠٠ ان الهجرة عمل بطولى يخضع كل شهوات النفس لحكم الله ٠٠ وتمضى الهجرة بأصحاب رسول الله فى مد متتابع لا تتوقف ولا تتلبث ٠٠ لأن عقيدة القوم قد نزعت الخوف من قلوبهم وبهذا تم الاستيطان فى بلد آمن ٠٠ يمكن للعقيدة أن تتنفس فيه ٠٠

ويمكن للدولة الجديدة أن تشهد ميلادها على أرضه ٠٠ ويمكن كذلك بناء الجيش وتمهيد السبل وتخطيط المجتمع ٠٠

والاستعداد للفتح الأكبر بالانقضاض على مكة عاصمة الوثنية ٠ وتخليص الضمير البشرى من الشرك والجهالة وهذا هو الذى حدث ٠ وماكان الرسول ليدع مكة يتبجح فيها الباطل ٠٠ ويتوقح الكفر ٠٠

وتترعرع الجاهلية ٠٠ ولكن اقتضت خطته الحاسمة بل حكمته أن يعاجل الوثنية بضربة قاصمة حين زحف عليها فى العام الثامن الهجرى فدخلها مسالماً ٠٠ ولم يقتل ٠٠ ولم يسفك دماً ٠٠ وأعلن المرحمة العامة لا الملحمة الدامية ٠٠ ثم وقف على باب الكعبة يعلن العفو العام ويقر مبادىء الاسلام والواقع أن حضارة العالم كله قد تفجرت عن المدينة ٠٠ فقد

شهدت تجربة الاسلام الكبرى تتحول على أرضها الى واقع وسلوك ٠ ٠ فمنها زحفت جيوش الايمان لتضع حـداً للعتاة المجرمين ٠ ٠ ولتقر العقيـدة فى أرض الله ٠ ٠ ومنها تفجـرت قيم الحياة وأسس المعرفة ـ وفى مسجـدها تم تهذيب جـند الله على الجهاد ٠ ٠ هكذا شهدت الحـياة ألواناً من النشـاط الحضارى يدب فى هذه البقعة من الأرض ٠ ٠ ورأت نوراً ينبثق من ذلك المكان ٠ ثم مالبث النور أن ترامى ومالبثت التجربة أن انداحت واتسعت لتغمر العالم كله بل الحياة بأسرها ٠

وقفـة أمام السـواعد الفنيـة :

والمهم أن نقف وقفة تأملية أمام أروع ظاهرة اجتماعية فى فى الوجود لنرى كيف بنيت أول مدنية فى العالم لتنقذ الحياة من الجهالة ٠ ٠ ولتضع حداً للاستبداد والطغيان ولتعلن أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله ٠ ٠ نعم نقف وقفة خاشعة أمام القـوم الكـرام وهم يبنون حضـارتهم بسـواعدهم وايمانهم ـ ويترجمون كل آية تنزل من السماء الى عمل مثمر خلاق ـ ويحدثون أثراً عملياً تهتزله الدنيا ٠ ٠ انها محـاولة التغيير الرائـد فى مجتمـع المدنيـة أولا ثم الانطـلاق بتلك التجربة الى مكة وغيرها من بلاد الله الواسعة لتسترد الحياة كرامتها ـ وتلتقـط البشرية أنفـاسها وتتحـرر ارادتها من قبضة الجبارين فلا خضوع الا لله ، ولا سـلطان الا لحكمه ، ولا تفاضل الا بالتقوى ، ولا مجد الا بالاسلام ٠ ٠ لاعصبيـة ـ ولا طائفية ـ ولا جاهلية ٠ ٠بل مجتمع متسـاند ترعى فيه الحقوق وتؤدى الواجبات ويحكم القرآن ٠

ولقد مارس أصحاب رسول الله بناء هذه التجربة بهمة واقتدار بدءوا فأسسوا المسجد ـ وبنى فيه رسول الله بنفسه ـ

وقاد أصحابه بحزم العمل والقيادة معاً . . وكان ذلك ايذاناً بانطلاق المدنية الجديدة من المسجد . . لتغمر العالم كله . . وقد اتخذه الرسول معبداً للصلاة ، ومجمعا للتشاور ، وملتقى للدارسة . . ومعهداً للعلوم . . ومنطلقاً للجيوش . . ومقراً للتشاور فى كل أمر خطير . . ثم أصلوا مبدأ الشورى فكانت سياستهم تقوم عليها وتستند اليها . . ولعلها أول تجربة « ديمقراطية » يعرفها العالم وقتذاك . . وهل كانت الشعوب من قبل تستطيع أن تدلى برأيها . . أو تشير على قادتها وزعمائها ؟ ! لقد كانوا عبيداً للملوك . .

ولقد شاءت تجربة الشورى أن تجعل القوم أحراراً يدلون بآرائهم مع رسول الله . . ثم مع القيادات المؤمنة من بعده . . وبذلك تحررت الحياة من رق الرؤساء والزعامات المستبدة .

وقد قاموا بعمل اقتصادى رائع حيث وزعوا الأرض ، وحرروا التعامل من الربا الذى أشاعه اليهود . . ووزعوا الماء بالتساوى وملكوا الأرض الزراعية لمن يزرعها . . وأطلقوا نظام التعامل الاسلامى ليأخذ وضعه فى مجتمع المدنية فالبيع والشراء والتجارة والقراض يترجم الى نظام اقتصادى رائع .

ثم أعلنوا الحرب على الجهالة فتعلموا . . وتهذبت مشاعرهم يزكيهم رسولهم . . ويثقفهم نبيهم وتصدر عنهم الروائع فى هذا الباب .

ثم يحلون كل المشكلات فى هذا المجتمع بروح القرآن . . واجتهاد الرسول وصحابته .

فلا استغلال ، ولا ظلم ، ولا احتكار ، ولا تعطل . . السواعد كلها تعمل ، والأيدى تتحرك . . ويجعلون العمل هو

شــعار المجتمع ٠ ٠ فيقبل الجميــع عليه ، يدفــعهم نبيهم ، ويستحثهم قــرآنهم فتزدهر الحياة بجــهادهم ٠ ٠ ويصــبح الكسل عاراً والقعود عن العمل مهانة ٠ ٠ ويأخذ العمل وضعه فى هذا المجتمع ٠ ٠ فهو حياة وهو كرامة وهو شرف ٠

ويكافحون الفقر والجهل والمرض وكل المشكلات بسماحة الايمان وسخــاء النفــوس ، ودافــع العقيدة ٠ ٠ ولقــد اعطى المجتمع الجــديد أكثر مما طلب منــه فتقــاسم الأنصــار مع المهاجرين الدور والثمار والنساء ممــا لم يسبق له وجــود فى التاريخ ٠

ويصــف رســول الله نبلهم وسماحــتهم بقــوله : [ان الأشعريين كانوا (١) اذا أرملوا فى الغزو أو قل طعامهم بالمدينة جمعوا ماعندهم فى ثوب واقتسموه بينهم بالسوية فانا منهم وهم منى] ٠

وكم من تجربة حديثة تريد أن تهتدى الى حــل لمشكلة الفقر ٠ ٠ فلا تستطيع ٠ ٠ لأنها لا تعتمــد على العقيدة ، ولا ترتكز على سماحة النفوس ٠ ٠ ولنتلفت من حــولنا لنعرف ماذا فعل العالم الحديث بمشكلاته الاجتماعية ـ وعلى رأسها الفقر ـ والبطالة ؟ !

واتسعت تجربة القوم لتشمل الشئون العسكرية فقــد ارتفعت قوة الجيش المحارب من نحو ثلاثمائة فى غزوة بدر الى ثلاثين ألفــا فى تبوك العام التاســع للهجرة ، وارتفعت قــوة الفرســان من اثنين فى بــدر الى عشرة آلاف فى تبوك ٠ ٠ ثم

---

(١) أرملوا : فرغ زادهم أو قارب ، والحديث مروى عن ابى موسى وهو متفق عليه ورواه النسائى .

تتطور القــوة وتتصــاعد الى جيش قادر قــوى على الــردع والتأديب والقمع ٠٠ ويتسع مجال الخبرات فيتحرك الشباب الى جرش لتعلم استعمال العرادات والمجــانيق ، والدبابات ، ثم تمضى التجربة حتى تأخذ حجمها الكبير فى عهد عمر ، وقــد سيطر القــوم على طرق القــوافل كلها مابين الحجــاز واليمن جنوبا وما وراءه فى أرض الحبشــة والشام ومصر فى الشمال الغربى وأرض فارس فى الشمال الشرقى ٠

انها دراسة تخطيطية منتظمة لمــا تتطلبه الدولة العصرية الرائدة من وسائل واستحكامات لتنطلق منها القرارات الهائلة الى عالم أرحب يقوم على الايمان والعلم ٠

مــع أبى بكــر :

جاء بعد الرسول صلوات الله وسلامه عليه رجال عظماء ٠ حــملوا عــبء الجهاد ٠٠ ونهضــوا بكل الواجــبات ٠٠ لأن الرسول قد رباهم على القرآن وصنعهم على عين الله ٠٠ وهم خلفــاؤه ٠

فنهض ابو بكر بالتبعة واستقام معه سـير الحضــارة وانطلقت جــيوش الاســلام فى عهــده تقضى على المتمردين ـ الذين فهموا أن الفرصة سانحآ بموت الرسول ٠٠ ليتحللوا من الزكاة أو يعطلــوا أحــكام الله ويرتــدوا عن الاســلام ٠٠ أو تراودهم المطامع الخسيسة أن يكون لهم الأمــر ـ أو يكون لهم من الملك شىء ٠٠ كما فهموا ٠٠

وكانت هذه الانتفاضة الشرسة بل الردة المجرمة من بعض العرب اختبارآ قاسيآ لصلابة البناء الحضــارى الذى أسسه رسول الله ٠٠ وامتحــانآ لقــدرات العهد الجــديد ٠٠ ولكن

الحقيقة الكبرى أن هذه الحضارة لا ترتبط بالأشخاص بقدر ماترتبط بالمبادىء « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل (١) » ولئن كان محمد قد أسس وأنشأ ‧ ‧ فقد جاء تلاميذ محمد ليتموا البناء ‧ ‧

ان سير الحضارة الالهية لا يرتبط بموت أحد ولا بحياته فالشريعة باقية ـ والله حى لا يموت وماهو الا أن نهض أبو بكر بالأمر ‧ ‧ يقوده حزم الايمان ـ وحزم السياسة والرأى ‧ وعبقرية القيادة فيمضى جيش أسامة كما قرر رسول الله قبل مماته ‧ ‧ مهما تكن الظروف ويقول فى اصرار فى مواجهة من يعارضه : والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ولو أن الطير تخطتنى والسباع من حول المدينة ـ ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين جهزت جيش أسامة ! » وبهذا الاصرار ‧ ‧ نفذ بعث أسامة ‧

ثم ودع أسامة بنفسه وهو ماش على قدميه ‧ ‧ وشيع تلك البعثة ‧ ‧ وانه لمنظر عجيب حقاً ‧ ‧ الخليفة يمشى ‧ ‧ وأسامة يركب وعبد الرحمن بن عوف يقود دابته بجوار الصديق ‧

ويقول أسامة متحرجا : ياخليفة رسول الله ، والله لتركبن أو لأنزلن فيقول الصديق : والله لاتنزل ولا أركب وما على أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة !!

ثم يقول لأسامة : اصنع ماأمرك به رسول الله ولاتقصرن

ولقد كان الصديق على حق فى توجيه تلك البعثة التى كانت تعبر عن خلق الطاعة والالتزام بما أقره رسول الله ولئن

---

(١) آية ١٤٣ سورة آل عمران .

كان أسامة صغيراً وفى الجيش من هو أكبر منه فان رسول الله هو الذى وضعه ذلك الوضع · · فلابد له من حكمة !!

ولئن كان بقاء الجيش بعد موت الرسول بالمدينة واجباً لدفع خطر الردة فان تسييره أيضاً واجب لدفع خطر العدو الخارجى · ·

واذا كانت الدولة تستقبل بعد وفاة الرسول عهداً جديداً فما ينبغى أن تظهر أمام العدو بالضعف لابد أن تلقى الرهبة فى قلب الروم · · وتقمع المرتدين فى وقت واحد لذا كان كلا الأمرين لازماً · الاول لتأمين سلامة الدولة من الخارج والثانى لقمع الفتنة من الداخل · ·

أما حرب المرتدين فقد واجه معارضيه بقوله : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال] · · ولقد سكتت الأصوات المعارضة بعدها ومنها صوت عمر وثابت الى الرشد · · ثم كانت الانتصارات فى الميدانين كليهما · · جيش أسامة يعود وقد أدى رسالته من القاء هيبة الدولة ـ وحروب الردة تكلل بالنصر ·

يقول الأستاذ العقاد : [واذا حسبت (١) لابى بكر بعوث أسامة وبعوث فارس والروم فلابد أن يحسب له عمل آخر لايدخل فى باب البعوث ولكنه أقوم للدولة الاسلامية من جميع البعوث لأنه دستور هذه الامة الذى لاتقوم لها قائمة بغيره وهو جمع القرآن · ·

ويقول : « خلاصة مايقال فى سياسة الصديق للدولة الاسلامية على عهده أنها كانت سياسة المقتدى المقتدر الفعال

---

(١) ص ١٥١ عبقرية الصديق للعقاد طبعة دار المعارف مصر .

الذى يصغى (١) الى النصح ممن يرون التصرف والتمييز والاقتداء ٠ ٠ فهو ليس اقتداء الضعف بل ربما اقتدى بالرسول ليفعل ماهو أصعب وأعضل وأنهض بالتبعة من أعمال المتصرفين » ـ وهكذا اكتسب الاسلام سمعة سياسية ونال مكانة عالمية ٠ ٠ وشاع أمره بين الروم والفرس ٠ ٠ واتجهت الجيوش صوبهما ٠ ٠ وثبتت قوة البناء الجديد الذى لم تهزه عواصف المرتدين ٠ وهى خليقة أن تهز أعظم الدول وأقوما ٠ ٠

وبذلك ترجم الاسلام عن شعار رائع ٠ ٠ هو أنه دين القوة فعلا ٠ ٠

مع عمر : أو قمة الحضارة :

وفى عهد عمر تأخذ التجربة الحضارية امتدادها الرائع ٠ ٠ وتبلغ قمتها ٠ فالفتوح تتسع والرقعة تنداح ٠ ٠ والحضارة الاسلامية تفرض نفسها على الحياة ٠ ٠ وحضارة الفرس والروم تتهاوى أمام ضربات الدولة القوية ٠ ٠ وتأخذ الشريعة وضعها من التطبيق الواعى ٠ ٠ لتقود عالما فسيح الرقعة واسع الجنبات ٠ ٠ وتأتى الغنائم من هنا وهناك بعدأن يفتح الله على المسلمين ٠ ٠ ويأخذ الاجتهاد وضعه فى الحضارة القرآنية ليلاحق قضايا العصر ومطالب الحياة الجديدة ٠ ٠ ويضيف عمر الى الفقه الاسلامى ثروة من اجتهاده وفكره ٠ ٠ ويكون المجالس المتخصصة ٠ ٠ وهو عمل حضارى سابق لأوانه ٠ ٠ فهذا مجلس حرب يتبع القيادة العسكرية ـ وهذا مجلس للاجتهاد فى الأحكام ٠ ٠

وهذا مجلس قيادة ـ وهذا مجلس الشورى ٠ ٠ ومجالس الحسبة ٠ ٠ الخ ٠ ٠ ماستحدثه عمر وتتحول الأمة كلها الى

---

(١) ص ١٥٠ المرجع نفسه .

جيش مقاتل وينشط عمر بذكائه ومافيه من استعداد للقيادة ليكافح الفساد فى كل موقع ويوجه الأمة فى كل اتجاه ٠٠ فهو يضع خطط الحرب بنفسه الى الحد الذى يجعل رستم قائد الفرس يعترف بأنه يهزم بخطط عمر ٠٠ وهو يحاسب الولاة ويطبق عليهم قوانين صارمة لتستقيم الأمور فى تلك الدولة العريضة ٠٠ وهو حيناً يقاسم الولاه ـ وحيناً يصادر أموالهم التى جمعوها ويعاملهم بمبدأ من أين لك هذا ؟ وهو يؤمم أرض السواد ويضع نظاماً للأعطيات ٠٠ ومجلساً لرعاية أسر الجنود ٠٠ ومن أقواله فى ذلك يخاطب الجند : [أنا أبو العيال حتى ترجعوا] ٠

وينشىء بعبقريته مايقترب من « بنك الاقراض والتنمية » فيمنح أموالا للتجارة ثم يستردها بعد أعوام تيسيراً على الناس ودفعاً لعجلة التنمية ٠٠ كما فعل مع هند زوج أبى سفيان عندما أعطاها أربعة آلاف درهم وتقاضاها اياها بعد أربع سنوات ٠٠ فلم تف لأن التجارة لم تربح ، فهم أن يسجن أبا سفيان زوجها لانه ضامناً ٠٠ وكان من أقواله : لو كان المال لعمر لتنازل عنه ٠٠ ولكنه مال المسلمين ٠٠ فلم يسع أبى سفيان الا الدفع !! وقد جعل للجندى المحارب مدة معينة ٠٠ يغيب عن زوجه يرجع بعدها حتى لاتضار !! وأمر سعد بن أبى وقاص ببناء مساكن صحية للجند ـ تدخلها الشمس وكانت وصاياه للجند تدور حول تقوى الله والابتعاد عن المعاصى ٠٠ وكان يضع الخطط بنفسه تاركا للقيادة الحربية أسلوب التنفيذ على أن تطلعه على الأمور أولا بأول ٠٠ وكان يقول لهؤلاء القادة : « نفذوا بما ترون فانكم ترون مالا أرى » ويقول لقائده : [أنا الغائب وأنت الشاهد والشاهد يرى مالا يرى الغائب] ٠

والحق أن عمر من بناة الحضارات بطبعه . . ولقد أتيح له وقت طويل فى الخلافة يتسع لتنفيذ مشروعاته العمرانية . . ويترجم فيه عن أفكاره الحضارية . . أنشأ الدواوين ـ ورتب العمال من الفرس والروم والقبط ـ وقسم الولايات ـ ومصر الأمصار ـ وضرب الدرهم ووضع التاريخ الهجرى وأنشأ نظام الحسبة وهى تشبه [رقابة المكاييل والموازين والاشراف على الأسواق وتنظيف الطرق ـ ورعاية الآدب العامة] ـ وعين القضاة ـ وكان نظام القضاء العالى على عهده مفخرة عالمية . . بما أمره به من فكر حضارى ـ وفقه تشريعى . . كعهده لأبى موسى الاشعرى فى القضاء . . وقد اتفق الجميع على أن ذلك العهد من أسس القضاء العالمى . . الذى تقتبس منه دساتير العالم . . وأهم ماكان يتميز به عمر قريحة صافية ومعرفة دقيقة بروح الاسلام ومقدرة على مواجهة الأمور بشجاعة الجندى . . وعبقرية فذة فى الاستيعاب الحضارى . . وتفنن عجيب فى ابتكار الأساليب العسكرية والعمرانية . . ومبادرات رائعة فى كل ميادين الحضارة ويعتبر عهده قمة المد الحضارى . الذى اتسعت فيه الفتوح وسادت روح الجندية . . وفتح الله على الاسلام والمسلمين . . واتسع المجال لتطبيق الشريعة وتنفيذ أحكامها . . وبناء المؤسسات الاجتماعية فى ظلها . . واقامة لون من العدالة مايزال حديث الدنيا حتى الآن . . هذا الى جانب الزهد والانضباط والابتعاد عن الترف ومحاسبة المنحرفين والفاسدين والضرب على أيدى العابثين مما يجعله عهد الجلال والعظمة . . ولم يأت بعده من الخلفاء من مضى بالحضارة الى غاية رشيدة سوى الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز الذى اقتفى أثره واقتدى به . . فقد سادت الدولة فى عهده . . واستقامت أمور الناس . . ولم تجد الصدقات من يأخذها لأن الامة قد استغنت بمواردها واستتب الامن . . وغلب التدين والورع . . . .

وقد وضع حداً لأطماع الامويين من أقاربه وكان قدوة للجميع فى الزهد والورع والعمل المخلص لله ورسوله ويعتبر أعظم خليفة نهض بالأمر ـ وتحمل العبء ـ وأدى الامانة لله ورسوله ولذا يعد خامس الخلفاء المهديين ٠

مع عثمان وعلى أو فترة الجمود

بدأ الصراع يأخذ دوراً عاتياً فى عهد الخليفتين العظيمين ٠ وتوقفت تلك الانطلاقة الحضارية الرائعة ٠٠ لأن المسلمين قد تفرقوا بين مؤيد ومعارض ، ثم كانت الفتنة الكبرى التى أوقفت المد الحضارى وضللت خطا الأمة على طريق الحضارة ٠ ثم كان هذا الانقسام المروع فى الأمة ٠ وهو انقسام بين على ومعاوية ٠ وانصار كل فريق ٠ ولقد قضى ذلك على آمال التقدم والازدهار ٠ وتوقف سير الحضارة وجمدت فى مكانها ٠ وكان كل فريق يكيل السباب للفريق الآخر ٠ ويرميه بكل نقيصة وكفر ، ولقد كانت فترة قاسية حقاً أرادها الله لهذه الأمة ليصهر معدنها فى لهيب الأحداث ٠ وقد أتيح لهذه الامة أن تخرج (فى مجموعها الكبير) بدينها وعقيدتها ولكنها لم تصعد فى سلم الحضارة ـ قليلا ولا كثيراً ـ ولو ذهبنا نتتبع سير الأحداث بعد مقتل عثمان رضى الله عنه ، لوجدنا مايؤسف ويبكى ، والحمد لله : أن الحضارة فى هذه الحقبة قد احتفظت بمساحتها وان جمدت فى مكانها ٠

المسيرة الحضارية بعد الخلفاء :

جاء عهد الأمويين ـ فتميز بالحفاظ على الصبغة العربية ـ والاعتزاز بالعرب ، وظهرت فى هذا العهد أمور أثرت فى الحضارة الاسلامية تأثيراً سيئاً ، ولكنها لم توقف مد الفتوح ـ بعد فترة الجمود فى الفترة السابقة ، منها أن الخلافة قد تحولت

الى ملك عضوض يفرض بالقوة . ومنها احتقار العناصر غير العربية . . ومنها كثرة الأحزاب الدينية السياسية ، ومنها سياسة التفرقة التى كان يتخذها خلفاء بنى أمية . ومنها الترف الذى أصاب الدولة ، لكن مهما نذهب فى تعديد أسباب الضعف والبعد عن روح الاسلام فقد كان ذلك بالنسبة الى الخلفاء وفى بلادهم لكن موجة الفتوح تمتد وتترامى . وبخاصة فى عهد الوليد بن عبد الملك الذى ظهر فى عهده قتيبة بن مسلم الباهلى ومحمد بن القاسم الثقفى وموسى بن نصير — وطارق بن زياد وطريف الشيبانى ، ولكل واحد من هؤلاء قصة مجد ، وسجل فخار فأما قتيبة بن مسلم فقد ولاه الحجاج على خراسان سنة ٨٦ هـ فخرج الى بلخ ، ثم عبر النهر حيث غزا بلاداً خلفه — وأخذ منها الهدايا وقابلة ملوكها ، ثم واصل فتوحاته فى كرمينية بين سمرقند ونجارى ثم سار الى بخارى ففتحها بعد عناء واضطر أهلها على المصالحة . .ثم فتح مدائن خوارزم سنة ٩٣ هـ وما يزال يفتح حتى وصله كتاب من الوليد يقول فيه [أتمم (١) مغازيك وانتظر ثواب ربك ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك كأنى أنظر الى بلادك والثغر الذى أنت فيه] ولقد سار بهذا الطموح حتى وصل الى حدود الصين على رأس جيش كثيف . وبينما هو سائر جاءه نبأ وفاة الوليد فلم يعقه ذلك وسارقريبا منها وأرسل الى ملكها وفدابرئاسة هبيرة ابن المشمرج الكلابى وبعد مراسلات بينهما قال ملك الصين . [انصرفوا الى صاحبكم فقولوا له ، ينصرف فانى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه والا أبعث من يهلككم ويهلكه] .

فقال هبيرة القائد المسلم : [كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون ؟] فأجابه

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ٩٦

ملك الصين وماذا يرضى صاحبك ؟ فرد عليه : « انه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية » فلما وجد الملك ذلك الاصرار بعث اليه بتراب من تراب أرضه فوطئه - وبعث ببعض رجاله فختمهم - وبعث اليه بجزية ترضيه فاستحسن قتيبة ذلك التصرف وفعل ماأشار به الملك .

أما محمد بن القاسم فقد سار الى بلاد السند سنة ٨٩ هـ فافتتحها وسنه لم تتجاوز الثامنة عشرة وهكذا اطرد سير الفتوحات الاسلامية وبدا نبض الحياة فى جسم الحضارة . وعاودها النشاط ، ثم جاء عصر العباسيين . وقد تميز بالاعتماد على الأعاجم ، وبدأ بالخلفاء ذوى الهيبة والنشاط والجد . . وبخاصة عهود الرشيد والمأمون . ولكن الترف قد تجاوز مداه . . وانقسمت الدولة الاسلامية فى آخره الى دويلات وأخذ مد الحضارة ينحسر . بتوقف الجهاد فى سبيل الله الذى كان فى عهد بنى أمية ، والاغراق فى الترف ، حقاً لقد ازدهر العلم والأدب وترجمت المعارف والعلوم ، وكثرت مجالس الحوار والمناظر وشجع الخلفاء كل ذلك ، ولكن لايمكن أن يكون الترف المطغى وسيلة استمرار حضارى ، فقد أخذ يعمل فى جسم الدولة الكبيرة ، وكان ذلك تمهيداً للضعف أمام الأعداء فيما بعد . ويأبى الله الا أن تقوم الحضارة الاسلامية فى افق جديد هو الاندلس الاوربية فتقوم دولة بنى أمية عن العرب والمسلمين فى الشرق بنشر رسالة العرب والاسلام وصنع أروع حضارة فى هذه الآفاق :

أعداء طامعون - وقيادات مؤمنة :

ثم تبتلى الأمة الاسلامية بعد ذلك بنكبات شديدة حيث يعتدى عليها أعداء طامعون . . منهم التتر . . والصليبيون

٠٠ ولا تستسلم الأمة لصروف الزمن وانما تقاوم بعقيدة الايمان ويمن الله عليها بمن يجدد لها أمر دينها ودنياها من وقت لآخر كالملك المظفر قطز الذى انتصر على التتر بعقيدة الايمان وتوحيد الجيوش ـ وبصلاح الدين الأيوبى الذى هزم الصليبيين واسترد بيت المقدس وجدد فى الأمة عقيدة الجهاد ـ وقاد جيوش المسلمين قيادة مؤمنة ووحد بينها ٠٠ وكان أعجوبة الأعاجيب فى ايمانه ـ ومقدرته ٠٠ ثم أصيب العالم الاسلامى بعد صلاح الدين بفقر فى القيادة المؤمنة وفى فترة الحكم التركى ـ أو بتعبير آخر فترة الخلافة الاسلامية بدأت الأمة عهداً جديداً من التماسك ـ والاعتزاز بحضارة الاسلام وكانت الدولة التركية فى بادىء الأمر قوية الجانب لها جيوشها ٠٠ ولها خلفاؤها ٠٠ وكانت روح الجهاد مشتعلة فيها ـ وكانت تملك وسائل الحرب الحديثة ـ وكان لهم أسطولهم القوى الذى يزيد على ألفين من المراكب الحديثة ـ وكان فى حوزة هذا الأحمر وفارس وكان الاتراك بما تجمع لديهم من وسائل روحية ومادية يستطيعون أن يتفوقوا على أوربا ٠٠ لكنهم لم يسيروا فى خط التطور ٠٠ فسرعان ماجمدوا وتدهوروا ـ وقد كان أذكى عقل لديهم ـ هو محمد الفاتح ـ ولقد كان فتح القسطنطينية التى استعصت على المسلمين ثمانية قرون دليلا على كفاءة الأتراك يومذاك فى العلم والعمل معاً ٠

ولقد صار الأتراك الى لون من الجهل والجمود والتوقف عن الاعداد للحرب ٠٠ وانطفأت فيهم جذوة الجهاد ٠٠ بل حاربوا كل جديد من الفكر وغصت البلاد الاسلامية بالشروح والحواشى والمتون وكلها تتقيد باللفظ ـ وتتفنن فى التعقيد ٠٠ وتتجمد على الغباوة والجهل ٠٠ ثم سرى الفساد الخلقى فى

كيانها وأخلد الشعب الى الدعة والراحة ودب اليهم داء الأمم قبلهم من الحسد والبغضاء والاستبداد والجور والغلظة وسوء التربية وفساد الطبع مما جعل دولتهم وقبضتهم نهى · ·

ثم كان أن صارت تركيا الى « الرجل المريض » وتألب الاستعمار عليها · · وكانت هى قد مكنت له بما فعلته فى العالم العربى من تذبيح ـ وتتريك ـ ومن ظلم ووحشية ومن جمود وطمع وجشع · · فأدت كل هذه الانحرافات الى انتهاء الخلافة والقضاء عليها · ·

ولست بصدد « تقويم » هذه الخلافة ـ ولكنى لا أتردد فى أن أضم الأتراك الى أعداء الحضارة الاسلامية ـ الذين مكنوا للغرب بافعالهم الشاذة من التدخل · · ودفعوا العرب بحماقتهم « وطورانيتهم » أن يتخلصوا منهم · · لأنهم فعلا قد أوقفوا مد الحضارة القرآنية ـ حين تخلوا عن روح الجهاد فى سبيل الله · · وانحدروا أخلاقياً ـ وتعصبوا قومياً ـ فهل يمكن للحضارة أن تزدهر فى هذه الأجواء ؟

ورد فى مقدمة كتاب حضارة الاسلام لجوستاف النمساوى [ومن أسف أن هذه الحضارة لم تعمر طويلا فما هو الا قربان او ثلاثة حتى خمد الشرق كله ـ وأطبقت عليه سحائب الخمول والتأخر والانحطاط على حين نهضت أوربا تبحث عن هذه الدنيا فشرعت السيف فى وجه أروع حضارة عرفها التاريخ] · ·

[ويرى جوستاف أن العرب قد أعطوا العالم الاسلامى عقيدته وقرآنه ولغته ثم تناولوا مابتلك البلاد من ثقافات فامتصوها وهضموها وأخرجوها للناس فى قالب عربى رائع]·

ونقول تعليقاً على الفقرة السابقة لجوستاف ٠٠ بل ان العالم العربى فى الواقع لم يقتصر فى العطا، على العالم الاسلامى ٠٠ بل سخا فى العطاء حتى سمح لأوربا أن تنهل من معين حضارته ٠٠ وتنشط فى صنع الحياة نم تكافئ المسلمين بالانقضاض على عقيدتهم وحضارتهم وبلادهم ٠٠ ومازال تتآمر عليهم حتى وقتنا هذا ٠

هل انتهت الحروب الصليبية بعد صلاح الدين ؟

التاريخ يقول لنا : انها لم تنته فى نفوس الغربيين بل بقيت جذوة الحقد متقدة تلتهب فى أعصابهم يتوارثونها ويؤججون نارها كلما وجدوا فرصة سانحة ٠

ولقد أثر عن اللورد اللنبى أنه توقف عند قبر صلاح الدين يوم احتلال سوريا فى أعقاب الحرب العالمية وخاطبه جهاراً : اليوم ياصلاح الدين انتهت الحرب بيننا ٠٠ وعدنا من جديد !!

كما أن الجنرال غورد عند ماجاء لاحتلال سوريا سنة ١٩٢٠ ركل قبر صلاح الدين بقدمه معبراً بذلك عن غيظه ٠٠

ثم مالبث الاستعمار ان أنشب مخالبه فى جسم هذه الحضارة وهو أعرف بخطرها على مطامعه ٠٠

ووقعت معظم بلاد الاسلام كلها فى قبضته ٠٠ فأخذ يعمل فيها جميعاً بمخطط واحد ٠٠ هو القضاء على تلك الحضارة ٠٠ مع اختلاف الأساليب فعبث بالمناهج ـ وأفسد الثقافة ـ وبث أفكار حضارته ٠٠ وقلل من شأن القرآن واللغة ٠٠ وأغرق

البلاد الاسلامية فى تيار الاباحية والانحلال ٠٠ حتى أصبحت الحضارة الاسلامية جسما بلا روح ٠٠ وعجزت عن تجديد الحياة ٠

يقول مكدونالد : [مامن أحد يشك فى أهمية عقيدة مسلمى اليوم وان كانت تلك العقيدة لم تعمل على تجديد الحياة ولا خرجت بأصحابها الى طور الحركة] ٠

كان ذلك الحكم على حضارتنا عام سنة ١٩٠٦ ــ وهو حكم صحيح فى جملته ٠

ولقد كان العداء دائماً ضد الاسلام ٠٠ وحضارته وقرآنه ٠٠ وهو عداء يجمع بين الصهيونية والاستعمار فى كل وقت ٠٠ فكل هؤلاء عمل ويعمل ضد هذه الحضارة ٠

ولن تسكت مؤامراتهم على الاطلاق ٠٠ فقد تمكن المستعمر من زرع اليهود فى فلسطين كجسم غريب يستنزف كل جهود المسلمين فى تلك البقعة ٠٠ ومايزال يمدها حتى اليوم ٠٠ لتقوم بدورها فى تفتيت وحدة العالم الاسلامى ٠٠ وامتصاص كل جهوده وخيراته ٠٠

ومايزال يغرقنا بما يسميه بالآراء الحديثة ويغرق أسواقنا بالبضائع ٠٠ لنذهل عن وجودنا ونظل عالة عليه ٠٠ ولم تحدثنا أنفسنا أن ننافس مايرد الينا عن طريق الغرب كقيم ولم يعد فى امكاننا صنع الحضارة فاكتفينا فى معظم بلاد الاسلام بالاستيراد ٠

ويبدو أن المستعمر قد اطمأن الى النتيجة التى توصل اليها فها هو ذاكا مغماير الأستاذ بجامعة برلين يقول :

[هل يستطيع الاسلام أن يستعيد وحدته الداخلية فى ظل التجزئة السياسية القائمة وتحت تأثير الثقافة الغربية والآداب العصرية ـ وهل يكون عند ذاك عدواً أم صديقاً ؟ أم أن الاسلام فى سبيله الى التفتت الى وحدات قوية تعكس كل واحدة منها التأثيرات الأوربية على طريقتها الخاصة وباسلوبها المستقل .. هل ستكون هناك حينئذ ميول مشتركة بين الشعوب الاسلامية ؟ وهل سيقوم احساس بوحدة العمل ؟ ووحدة الهدف أم أن الآراء الجديدة وحاجات الحياة العصرية ستنجح آخر الأمر فى تشتيت المجتمع الاسلامى وتحطيم وحدته وبعثرة قواه ؟] .

هل يكفى هذا الكلام الحاقد لتشخيص آمال العدو المتربص وبيان أهدافه ؟

وهل يعقل العالم الاسلامى الآن أن الاستعمار يعمل جاهداً لضرب حضارته وازهاق روحها بأساليب الغزو والثقافى ؟ وباسم الآراء العصرية والتقدمية .. ليخلق أجيالا منحلة تؤمن به ـ وتهتف بحضارته . وتنسى مبادئها وتقاليدها .

سموم قاتلة « ومانخفى صدورهم أكبر » .

أريد أن أتتبع هنا كلمات المستشرقين ـ وآراءهم ـ التى تعكس مطامعهم ـ وتوضح أهدافهم ضد الاسلام وحضارته وقرآنه .. وسنتبين أن التخطيط مشترك بين الصهيونية والغرب .. وكل العناصر الحاقدة ستعرف ذلك من تصريحاتهم .. التى هى سموم قاتلة لمقومات حضارتنا .. وكلها تنفذ الينا عن طريق الغزو الثقافى .. ووسائل الاعلام ـ وتيارات التغريب المختلفة .

هل يجهل أحد أن الغرب قد استغنى عن الدين ؟

هل يجهل أحد موقف هذا الغرب من حضـارتنا ؟ ٠ انه يعمل جاهداً منـذ وطئت أقـدامه الدنسة بلادنا على تذويب المقومات الحضارية لنا ـ وعلى اغراق بلادنا بآرائه وأفـكاره التقدمية ؟ !

وهل هناك من يجهل موقـف الصـهيونية العالميـة منا بالذات ؟ من ديننا ومقـوماتنا وبلادنا ٠ ٠ وهى التى تحتل أرضنا ٠ ٠ وتنتهك مقدساتنا ٠ ٠ وتخطط مع أمريكا للقضاء علينا ؟

ألسـنا نسـمع كل يوم أنباء الدعم الأمريكى للصهاينة المعتدين علام يدل هذا ؟

وقد يختلف أعداؤنا فى الظاهر ٠ ٠ ولكنهم كشقى المقص ـ ونحن دائماً الجزء الذى يراد شقصه الصحافة ـ والمذياع ـ والمجـلات وكل وسـائل الاعلام وسـيلة ناجحـة فى ترويج مبادئهم فلنستمع الى آمالهم ـ ووسائلهم فى تلك الأدوات التى تصـنع الرأى العـام ٠

يقـول جـب :

إ ان الصحافة هى أقوى الأدوات الاوربية وأعظمها نفوذاً فى العالم الاسلامى لأن معظم مديرى الصحف من التقـدمين ـ ولذا كان معظم الصحف واقعاً تحت تأثير الآراء والأسـاليب الأجنبية بشـكل يكون الرأى العام المطلوب ـ ويبدو الآن من المستحيل مع تزايد الحاجة الى التعليم وضرورة الاقتباس من الغرب أن يعـود الاسلام الى مكانته الأولى من السيطرة ٠ ٠ ومع أن الوحدة الاسلامية قد انتهت رسمياً والثقافات الغربية

قد أخذت وضعها فى المدارس والفوارق الاجتماعية قد غدت أكثر وضوحاً ٠ ٠ وحصرت الثقافة الدينية فى عدد قليل مع ذلك فالمعاهد الدينية ماتزال قائمة ومايزال حفاظ القرآن ودارسوه لم ينقص عددهم ولم يضعف سحر آيات القرآن وتأثيرها على تفكير المسلمين ـ ثم يتابع كلامه ـ ان الحركات الاسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة وتنفجر انفجارا مفاجئاً قبل أن يتبين المراقبون من أمارتهام ما يدعوهم الى الاستراية فى أمرها وهى اليوم لا ينقصها الا الزعامة والا ظهور صلاح الدين من جديد] ٠ ٠

ونحن لا يسعنا الى أن نشكر لهذا المستشرق ٠ ٠ فقد أبان أولا عن أعز أمانيه بالنسبة للقرآن وحضارته ٠ ٠ وتمنى أن يزول القرآن ٠ ٠وتذهب المعاهد الدينية ٠ ٠ وتأسف لأنها ماتزال موجودة ثم كشف عن وسائله وهى استخدام التقدميين فى وسائل الاعلام ليقوموا عنه بمهمة الترويج للغرب وعلومه وآدابه وأعرب فى النهاية عن تخوفه من الحركات الاسلامية التى تنفجر فجأة ٠ ٠ ومن ظهور زعامة اسلامية جديدة تجمع الشمل وترأت الصدع ، ٠

هل يعتبر المسلمون ؟ وهل يتدبرون أمرهم ؟ ويعرفون أن أهم وسائل الدعم الحضارى هو مكافحة من يسميهم « جب » بالتقدميين فى وسائل الاعلام ٠ ٠ وهل يتداركون الأمر بوحدة مفاجئة ـ وزعامة مؤمنة ـ وانتفاضة سريعة ؟

هل يتجمعون ضد عدوهم الذى يحتل قدسهم ـ وأرضهم ـ وهل يتنبهون للغزو الثقافى ـ والأخلاقى والصناعى الذى يميت فينا كل جوافز التجديد والابتكار ويجعلنا نكتفى باستيراد الحضارة ٠ ولا نهتم بصناعتها ٠ ٠ وأخيراً ٠ ٠ هل

ندرك أن كل كلمات الحاقدين تتجه فقط الى الاسلام والقرآن .. ولا تتجه لشيء سوى هذا ؟

الاسلام هو العدو الأول لهم لانه عدو الاستبداد والرق والتخلف والظلام .. وهم يريدون لنا هذه المعانى ليسرقوا حياتنا .

ولنستمع الى عدو لئيم منهم هو كامغماير السابق حيث يقول :

[ان السبيل الى التغريب الحقيقى هو أن نتبين الى أى حد يجرى التعليم على الأسلوب الغربى ـ وعلى المبادىء الغربية على أن هذا لا يكفى بل هو الخطوة الأولى ـ ولابد من التسلط على قيادة الاتجاهات السياسية والادارية] .

ولك أن تتبين أهداف هذا العدو من خلال كلماته .. انه يريد أن ينفذ الى وسائل التعليم وأهداف التربية وطرائقها . حتى ينجح فى أسلوب تغريبنا .. ونحن فى بلادنا ..

ووسيلته النهائية بعد هذا .. هو التسلط على السياسة ـ والادارة عن طريق العملاء والذيول .

المعركة ضد الاسلام :

لم أجد لمن قرأت لهم من أعدائنا تصريحا واحدا ضد قوميتنا .. أو عروبتنا .. الجميع يصوب سهامه الى الاسلام . وهم متفقون على الوسائل التى بها ينفذون الى قلب الاسلام .. ويحطمون بها وحدته .. انها ليست وسائل بدائية يمكن أن نحاربها بقوة السلاح .. ليست استعماراً ظاهراً لأن العصر لم يعد يساعد عليه .. انهم يريدون التسرب الى مناهج التعليم ـ وطرائقه وكذلك الى صحفنا ومجلاتنا ووسائل اعلامنا . ليصنعوا الرأى العام

الذى يؤمن بهم ٠٠ ان عنصر تغريب المسلمين هو أنجح وسيلة لديهم ٠٠ ولاشك أن الاستعمار الفكرى والغزو الثقافى من أخطر الوسـائل على كياننا ٠٠ والتخلص من الفكر الدينى فى بلاد الاسلام أمر يهتمون به جداً ٠ يعنيهم أن يقل حفاظ القـرآن لتذهب نغمته المؤثرة وحرارته القوية من العالم الاسلامى ــ كما يعنيهم أن تتناقص المؤسسـات الدينية ٠ لتـزول المناعـة الفكرية التى يستحيل معها التغريب ٠ يعنيهم ألا يوجد عالم دينى واحـد فـانه من وجهة نظرهم حجـر عثـرة فى سـبيل التغريب ٠ ومن عوائق التقدم ٠ ولأنه يعرف فلسفة الاسلام وأساليب أعدائه ٠٠ ويكشف خطط « التقدميين » ٠

ولم يعد التبشير مجديا ٠ لأنه أسلوب مكشوف ٠٠ وانما المهم تفتيت وحدة المسلمين ليظلوا على وضعهم من الفرقة والشتات ٠٠ والكيان الكبير اذا تجزأ ضعفت فاعليته وأمكن أن يتقبل الأفكار الوافدة ــ وأن يخضع للفكر الاستعمارى ٠٠ وأن يرتبط به فى كثير من شئون الحياة ــ ان بقاء الفكر الاسلامى فى عزلة بعيــداً عن تيار الفـكر الأوربى أمر ينزعج الغـرب له لان الفكرة الاسلامية ستحتفظ بصفاتها وحرارتها وقوة تاثيرها ٠

ولذلك يجب من وجهة نظرهم أن تحتك بالأفكار العصرية لتنماع ويبطل تأثيرها ٠ ثم تحاط من كل جانب بفكر العـدو وأسس حضارته كما نحاط قطعة أرض بالأسلاك الشائكة ٠٠ كلهم يتنادون ٠ الاسـلام ٠ الاسلام ٠ يجـب ابادته ــ واغراق أبنائه فى الفساد والترف ليسهل اخضاعهم ٠ بعـد تأثير الحضـارة الخـادعة فيهم ٠ وصرفهم عن واجباتهم ــ وتحويلهم الى قطعان شـاردة لا تعرف لها ربا ولا عقـيدة ٠٠ فهل تحذر أساليب أعدائنا ٠٠ ؟ !

يقول مسيو شاتلييه ٠٠ واضعا الخطة التى يسهل معها القضاء على الاسلام داخل حصونه :

« لا شك أن ارساليات التبشير تعجز عن نزع العقيدة الاسلامية من نفوس منتحليها ٠٠ ولا يتم ذلك الا ببث الأفكار التى تتسرب مع اللغات الاوربية فبنشرها تحيك الاسلام بصحف أوربا ٠٠ وتتمهد السبل لتقدم اسلامى مادى ، وتقضى ارساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الاسلامية التى لا تحتفظ بكيانها وقوتها الا بعزلتها وانفرادها ٠٠ والتقسيم السياسى الذى طرأ على الاسلام لاتمهيد السبل لأعمال المدنية الاوربية اذ من المؤكد أن الاسلام يضمحل من الوجهة السياسية وسوف لا يمضى غير وقت قصير حتى يكون الاسلام فى حكم مدنية محاطة بالأسلاك الاوربية ــ ولاينبغى أن نتوقع من جمهور العالم الاسلامى أن يتخذ له أوضاعاً وخصائص أخرى اذ هو تنازل عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية ــ لأن الضعف التدريجى فى العقيدة الاسلامية ــ ومايتبعه من الانتقاص والاضمحلال الملازم له سوف يقضى بعد انتشاره فى كل الجهات الى انحلال الروح الدينية من أساسها لا الى نشاطها بشكل آخر » ٠

أسمعت ؟ كم مرة تناول هذا الكاتب فكرة اضمحلال الاسلام ؟ وكم مرة كررها ؟ وكم وسيلة ذكرها لذلك ؟ والى أى حد استطاع العدو أن ينفذ هذا المخطط الاجرامى ضد دين أول عمله (تمدين الحياة وتحضيرها) بل تمدين أوربا بالذات وتحضيرها ؟ !

أهذا هو الجزاء ؟ وتلك هى المكافأة ؟ أن يمهد السبيل للتبشير بتقسيم العالم الاسلامى واهدار خصائصه ــ والغاء

عقيدته واحاطة مدنيته الفاضلة بأسلاك الحضارة المادية الحيوانية ؟ لعمرى ان الانسان ليتمزق قلبه أسى ولوعة على ذلك العقوق الفاجر الآثم فى حق مدنية أشاعت الثقافة والفكر فى ربوع العالم كله ٠ ٠ وان المسلم ليأسف ويبكى بحرارة عند مايرى أن هذا المخطط ينفذ بكل دقة ، فتقسيم العالم الاسلامى أمر حاصل ـ واغراقه فى شهوات الحضارة المادية وصرفه عن دينه وعقيدته والغاء خصائصه الحضارية ٠ ٠ ومقاومة الفكر الدينى ٠ ٠ والنفاذ الى وسائل الأعلام ٠ ٠ كل هذه أمور حدثت وتحدث ٠ ٠ فهل يعرف المسلمون اليوم ٠ ٠ أن وحدتهم ٠ ٠ وعقيدتهم ودينهم من عوامل الانقاذ ٠ ٠ فهل نتجمع ؟ ٠ كيف السبيل الى أن نستخلص أنفسنا من الغزو الفكرى ٠ ٠ والغزو المسلح ؟ كيف نحرر القدس ـ والأرض العربية ؟ كيف نحول بين الاستعمار المتواطىء مع الصهيونية والشيوعية لا نستثنى واحداً منهم ـ وبين التأثير علينا ـ والاندماج فينا ٠ ٠ ان فلسطين اليوم فى أيدى اليهود ٠ ٠ وكذلك الأراضى العربية ٠ ٠ وبالامس ضاعت الاندلس من المسلمين والمخطط واحد والأسلوب واحد والقوم يصرحون ويوضحون وكأنما يثقون فى السكر الغليظ الذى ألم بالعالم الاسلامى فحال بينه وبين التفكير ـ أو مناقشة هذه التصريحات المسمومة ٠ ٠ وباالله لو كان الاسلام أعدى أعداء هؤلاء لما كان جديراً بكل هذه المؤمرات ٠ ٠ أما وهو الذى أنقذهم ـ وعلمهم ٠ ٠ وأخرجهم من الظلمات الى النور ولماذا لم تلق النحل الفاسدة منهم أى مقاومة ـ أو أى حرب ؟ لماذا الاسلام وحده فى المعترك ؟ ولماذا يحارب بتلك الضراوة والوحشية والشراسة ؟ ٠ ٠ أسئلة يجب أن يتدبرها المسلمون ليتدبروا مصيرهم ويتداركون أمرهم أمام عدو لا يغفل ولا ينام ٠

وأخيرا لنستمع الى الصهيونية الشرسة تتلاقى مع الغرب فى اعلان الحرب على الاسلام والقضاء على حضارته ٠٠ على لسان كاتب صهيونى هو (ايرل بوغر) فى كتابه العهد والسيف الصادر عام ١٩٦٥ يقول بالحرف الواحد : [المبدأ الذى قام عليه وجود اسرائيل منذ البداية هو أن العرب لابد أن يبادروا ذات يوم الى التعاون معها ولكى يصبح هذا التعاون ممكناً يجب القضاء على جميع العناصر التى تغذى شعور العداء ضد اسرائيل فى العالم العربى ٠٠ وهى عناصر رجعية رجال الدين ـ المشايخ ـ السياسيون القدامى ـ وغيرهم ممن يخسرون كثيراً اذا سادت فى المنطقة اشتراكية اسرائيل النموذجية وقد كان ابن غوريون منذ عام ١٩٥١ شديد الايمان بالقضاء على هؤلاء جميعاً عندما طلب الى الكنيست فى هذا العام أن يتحلى بالصبر لأن السلام لن يكتب لاسرائيل مادام العالم العربى فى قبضة الرجعيين والحل الوحيد الذى يؤدى الى عقد صلح مع اسرائيل هى أن تحل محل الحكومات الرجعية ديمقراطيات شعبية اشتراكية] ٠

نفس الكلام الذى يردده شاتليبه وحده ، والكفر كله ملة واحدة ٠٠ ومن السهل أن نقارن بينهم جميعاً ٠٠ « تفتيت الاسلام ، القضاء على الدين ، استدراج أنباء الاسلام الى المروق والاباحية ، الغزو القذر ، الانقلابات ، خلق جبهات متقاتلة متباغضة تتقاذف السباب فى عالمنا ـ انها المعركة بين أعداء الله وأنصاره على أى حال ٠

كيف السبيل ؟

السبيل واضحة أمام المسلمين لاستنقاذ مابقى من مقدراتهم ٠٠ « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا

السبل فتفرق بكم عن سبيله (١) » « ألم أعهد اليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين ـ وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم (٢) » ٠

انه لاخلاص من هذا الوضع الا تجمع المسلمين السريع من جديد على أساس صادق من كتاب ربهم وسنة نبيهم ـ وأن تكون لهم سياساتهم النابعة عن عقيدتهم ٠ ٠ والقرآن الكريم قادر على أن ينشىء هذه المعجزة ـ وعلى حد تعبير أعدائنا قادر على احداث انتفاضة مفاجئة لا يعرف العدو كيف يتوقاها ٠ ٠ وليس هناك أى رجاء فى تقدم أو قوة ونحن مفتتون تتخطفنا المطامع والأهواء ٠ ٠ ولا مجال للشيطان فى شريعة الرحمن ٠ ٠ والشيطان رمز الى قوى الشر كلها التى تتربص بنا ٠ ٠ والقاء الزمام اليها عبادة لها ٠ ٠ وانصراف عن الله ٠ ٠ فهل نتخلص ـ والأمر جد خطير ؟ ! لقد توحد العالم القديم رغم جهالته وضلاله وانحرافه بالقرآن ٠ ٠ وصنع به حضارته نريد عالما قرآنيا يحكم شريعة الله فى كل شىء ويعايش مبادىء القرآن فى كل حين وليستقى من نبعه الطهور فى ثقافته ـ وبرامج تعليمه ـ وتقويم مجتمعه ـ وأصول سياسته ـ بهذا نكون على صراط الله ٠ ٠ ومع رحمته وهداه ، والارتماء فى أحضان الأجانب عبادة صارخة للشيطان ٠

كذلك ينبغى أن تعود الينا قوتنا القادرة كما أراد الله لنا دائما ـ لنظل نؤثر فى الاحداث ونعيش عل مستوى الحياة ٠ ٠ وسبيل ذلك خلق نهضة صناعية فى العالم الاسلامى ليدب فيه النشاط وتزدهر قوة أبنائه ٠ ٠ لابد من النهضة المادية فى كل مرافق الحياة تؤازرها نهضة روحية نستطيع بها أن نعيد

---

(١) آية ١٥٣ سورة الانعام ٠

(٢) آيتا ٦٠ ، ٦١ سورة يس

قصة حضارتنا المثالية فما يليق أن نســتورد كل شيء ونعجز عن صنع الحضارة ٠٠٠ وعالمنا الاسلامى والحمد لله مستودع الخير كله والثروات كلها ٠

كما أنه ينبغى أن نصفى وسائل اعلامنا من كل الحركات والافكار الواردة الينا من العدو ٠٠ لاننا نملك رصيداً ضخما من الحكمة والمعرفة والثقافة ـ لان ذلك هو سبيل التعريب كما يجب فوراً أن يعاد تخطيط المؤلفات الدينية بلغة العصر وأسلوب الحياة بحيث نستطيع أن نعطى الفكرة الصافية عن عقيدتنا وحضارتنا ٠٠ ومجدنا العالمى ٠٠ ونبتعد عن العقد ـ والألغاز والامعان فى المصطلحات القديمة ـ وتلك مهمة الازهر الشريف ٠

والاجتهاد يجب أن يعود من جديد ليلاحق قضايا العصر ويفتى فى المسائل الجديدة وبعث روح الجهاد على المســتوى الاسلامى كله ٠٠ الجهاد فى ســبيل الله ٠٠ ليتكون الجيش الاسلامى القــادر المدعم بالسلاح والخبرة ٠٠ والوحدة أقــوى سلاح : « ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون (١) » ٠٠ ولن يعجز القرآن عنتحقيق تلك الأمانى ٠٠ فليست حياتنا اليوم أشد جهالة من حياة الجاهلية الأولى ٠٠ وقــد استطاع القرآن أن ينشيء من هذه الجاهلية ـ تقــدماً وعلماً وحضــارة ومجداً وقوة ٠٠ وعاشت البشرية أسعد أوقاتها فى ظل حضارة القــرآن : « وعــد الله الذين آمنوا منكم وعملــوا الصالحــات ليستخلفهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعــد خوفــهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون (٢) » ويوم نعود الى مكاننا من قيادة ركب الحياة لن نســمح للحياة بأن تنحل ـ ولا للوجــود بأن يكون مسرحــاً

---

(١) آية ٩٢ الانبياء ٠ (٢) آية ٥٥ النور

للشيطان سنقود الحياة باسم الله الى طريق الخير والرفاهية والسلام ٠٠ ولن نقف من الغرب كما يقف الآن منا لأننا لانعرف الحقد ولا نؤمن به ٠٠

آفات الحضارة الغربية « من كلامهم » ٠

سيقول قائل وكيف السبيل الى التجمع واستعادة مجد القرآن ٠٠ والعدو جاثم ــ وأمره غالب ٠٠ وحضارته مزدهرة ؟٠

وسأرد على هذا بشهادة رجل أمريكى عرف الكثير عن حضارة الغرب ودرس عناصر ومقوماتها دراسة تمكنه من نقدها ومحاكمتها وذلك هو الرجل الدكتور الكسيس كاريل :

يقول : « ان الحضارة العصرية لا تلائم الانسان كانسان لأنها تكونت دون معرفة بطبيعتها الحقيقية وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا الا أنها غير صالحة لحجمنا وشكلنا ــ انا نقوم تعساء لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا ٠٠ ان الجماعات التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هى الآخذة فى الضعف والتى ستكون عودتها الى الوحشية والهمجية أسرع مما سواها ــ ان العلم والتكنولوجيا ليسا مسئولين عن حالة الانسان الراهنة وانما نحن المسئولون لأننا لم نميز بين الممنوع والمشروع ٠٠ يجب علينا أن نعيد انشاء الانسان فى تمام شخصية ذلك الانسان الذى أضعفته الحياة العصرية ومقاييسها الموضوعة » ٠

وبعد هذا الكلام العلمى ــ يمكن فى ضوئه أن نجيب على السؤال السابق ــ وهو أن المدنية العصرية جسم ضخم عملاق لكنه متورم مصاب بأمراض القلب وأوجاع الباطن ــ ويجب أن ننظر اليه على هذا الأساس ٠٠ وأعراض المرض بدأت تظهر ٠٠ بل أخذت تغزو المجتمع هناك ٠

لابد أن نفرق بين الشحم والورم كما يقول أبو الطيب :

أعيـذها نظرات منك صـادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما اغترار أخى الدنيا بناظره اذا اسـتوت عنـده الأنوار والظلم

والصراع بين العالمين الرأسمـالى ـ والشـيوعى يستدعى تأملا فاحصـاً ٠٠ هذا الصراع مع مانراه من سـوآت المدنية الغربية يهيىء الفرصة لاقامة مدنية تستكمل أسباب التفـوق المـادى وتدعمه بتفوق روحى ٠٠ ولن تكون هذه الحضارة الا حضـارتنا ٠٠ ويوم نبدأ العمل الجـاد سنعرف الى أى حـد يتشوف العالم الينا ٠٠ لنقوده الى مراشـده ٠٠ ونعيد اليه كرامته وسعادته ٠٠

ويكفى ان (كاريل) يعترف بأن العالم الصناعى سـيعود الى الوحشية والهمجية قريباً ٠٠ لأنـه عالم لا يتناسـق مع الانسان ٠٠ عالم لا مجال فيه لو مض الروح وأشواقها ٠٠ كله ضجيج وصخب وآلات ومعدات فأين يجد الانسان راحته ٠٠ وكيف يروى أشواقه الظمأى ؟ انها حضارة لا تناسب الانسان ومن ثم فانهيارها قريب ! !

وعندما نحلل الأساس الذى قامت عليه الحضارة الغربية الحديثة نرى أنهاقامت على أساس الفلسفة اليونانية واتجاهما المـادى الوثنى وطابع الابتعاد عن الدين ٠٠ وفصله عن الحياة ٠

وتحت تأثير هذين العاملين كانت تصـدر آراء المفكرين الغربيين فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ٠٠ وفى ظل هذين العاملين نمت المذاهب الفلسفية والأخلاقية التى ظلت حتى الآن مسيطرة على عقول الغربيين ـ ولقد فهمت هذه الحضارة ـ أنها بعـد آن نبذت تعاليم الكنيسة الرجعية تستطيع أن تمضى فى

رحلة الحياة من غير دين ٠ ٠ وقد أخطات فى ذلك كل الخطأ لأن للدين أثره فى طبع النفوس على المحبة وازالة القلق وكبح جماح الشهوات ٠ ٠ كما أن للعقيدة الالهية أثرها فى تحرير النفس من الخوف وتحريك بواعث الخير فى داخلها ٠ ٠ وربطها باليوم الآخر ٠ ٠ الذى يخفف من حدة الصراع فى هذه الدنيا لأنها ليست مطمح آمال المؤمنين وان كانت حقلا خصباً تزدهر فيه أعمال الانسان وقدراته الابداعية ٠ ٠ لكنها ليست غاية بل وسيلة دعم لليوم الآخر ٠ ٠

كما أن لهذه العقيدة أثرها فى التوازن بين مطالب الجسد ومطالب الروح ٠ ٠ فهى كالمنظم الحرارى الذى يحفظ توازن الموقد فلا ينفجر ٠ فكلما جمحت بالانسان شهوات جسمه ونزوات بدنه وقفت العقيدة حائلا دون التردى والسقوط ٠ ٠ وأعادت التوازن الى كيان الانسان كذلك كلما حاول أن يغرق فى الروحانيات أوقفت اتجاهه وردته الى التوازن ، انها تحقق انسانيته ـ وتحرر وجوده من ضغط الشهوات ٠ والنظم والتقاليد وتجعله عبدا الله ومتحررا من كل ماسواه ٠ ٠ فهل تذهض الحضارة المادية بكل هذه التبعات ؟

لقد أطلقت الجانب الحيوانى من الانسانى ينزو ويعربد ـ أماتت مشاعره الطيبة وأحيت شهواته الرعناء فعاش ليومه وانطلق على هواه وغرق فى الاباحية والفجور ٠ ٠ وسلك مسالك الرفض والشذوذ ٠ ٠ وعاش حياة بوهيمية حيوانية ٠ ٠ ليس فيها حدود ترعى ٠ ولا حرمات تصان وغرقت الكنيسة فى هذه الأجواء ٠ ٠ بعد أن نبذها الشباب ٠ ٠ فصارت اليوم تتملقهم ـ وتقيم لهم الاحفال الراقصة فى نواديها ٠ ٠ وتهيىء الحفلات للرقص والمخاصرة والشراب تحت اشراف الراهب أو الأسقف ٠ وهكذا غرق القوم فى اللذة والاختلاط الجنسى ٠ ٠ وهم يعتبروننا

متزمتين لأننا ندخل العنصر الاخلاقى فى موضوع اللذة الجنسية ـ انها عندهم مسألة « بيولوجية » فالحصان والفرس والثور والبقرة والكبش والنعجة والديك والدجاجة لا تفكر احداها فى مسألة الأخلاق وهى تحصل متعتها ولذا تمضى حياتها بسيطة سهلة بلا عقد ٠

ومن تصريحات فتاة أمريكية مثقفة : [ان حياتنا على الأرض قصيرة وليس هناك وقت نضيعه أكثر من الرابعة عشرة] تريد الاستمتاع بلا حدود لأن حياتها قصيرة ٠ ٠

وانها لحضارة تبيح الحرية للخاطئات ـ كما تبيح العلاقات الجنسية اذا وقعت بالتراضى وكذلك الشذوذ ٠

ويرى براترند راسل الفيلسوف البريطانى أن الاتصال الجنسى واجب قبل الزواج فان أثبت تجاوباً أبرم الزواج والا نقض ٠

وتقول سيمون دى بوافوار الكاتبة الوجودية انه يجب اطلاق الحرية للخاطئات ففى ١٩٧٢/١/٨ نشرت أخبار اليوم تقول :

[بدأت الحكاية عندما أضربت مائة وخمسون من الأمهات اللائى لم يتزوجن عن الطعام فى الملجأ الحكومى المخصص لهن ـ لأن المديرة لا تسمح لهن بالخروج الا فترة قصيرة وتعاملهن بشدة وطالبت الامهات الخاطئات وأعمارهن بين ثلاثة عشر وأربعة عشر عاماً بمزيد من الحرية [حرية التسول بالطبع] فى الدخول والخروج والملابس القصيرة ٠ ٠ ورفضت ادارة الملجأ فتدخلت سيمون وطالبت بالحرية الكاملة للخاطئات » ٠

وتصرح سيمون هذه باباحة الخيانة الزوجية ٠ ٠ وحرية اللذة الجنسية لأن أقراص منع الحمل تسهل الامر ٠ ٠ وتشيد بثمرات العلم الحديث لانها تمكن المرأة أن تفجر وهكذا تفقد الحياة شرفها وحضارتها على يد الغرب وفى ظل حضارته يقول السيد محمد أسد فى كتابه « الاسلام على مفترق الطرق » (واسمه ليوبولد فايس) فى الأصل وقد أسلم وتسمى بمحمد أسد :

ان قضية معنى الحياة والغاية منها قد فقدت منذ زمن بعيد فى نظر الأوربى الحديث جميع أهميتها » ٠

ويقول : « ان الاتجاه الدينى مبنى دائما على الاعتقاد بأن هناك قانوناً أدبياً مطلقا شاملا واننا كبشر مجبرون على أن نخضع لمقتضياته ولكن المدنيه الغربية الحديثة لا تقر الخضوع الا لمقتضيات اجتماعية واقتصادية وقومية أن معبودها الحقيقى ليس من نوع روحانى ولكنه الرغاهية ـ وان فلسفتها المعاصرة انما تعبر نفسها عن طريق الرغبة والقوة وكلا الأمرين موروث من المدنية الرومانية القديمة » ٠

ويقول : [ان هذه المدنية لا تجحد الله ـ ولكنها لا ترى مجالا ولا فائدة لله فى نظامها الفكرى الحالى] ٠

وهذا جانب جديد من جوانب الشر فى تلك الحضارة المادية ٠ ٠ أنها منافقة تدخل الكنيسة ٠ ٠ وتقيم الحفلات الدينية وهى لا ترى لله فائدة ولا ثمرة ٠ ٠ وتستغنى عنه بنظامها الفكرى ودستورها الموضوع ٠ كما أنها تعبد القيم المادية من مال ولذة وقوة ٠ ٠ وكلها منحللقات للفجور والبغى والعدوان ٠ ٠ ولا يمكن لعباد المادة أن ينشئوا نظاماً يعد الانسانية ٠ ٠ ومن ثم كثر فى ظل هذه الحضارة ـ بل أرقى

مدن أوربا [السويد والنرويج] الانحراف ـ والاباحية ـ والاجرام ٠٠ كما كثرت الانتحارات فى هذه الأجواء المادية وسماء الملل وتمنى القوم الخلاص من حياتهم ٠٠ ولا تسل عن التمزق الشبابى وحياة (الهيبز والخنافس) المتمرد على نظام الحياة هناك ٠

ومشكلة البطالة فى أمريكا اليوم تهدد بكوارث ماحقه رغم الغنى والترف ففى تصريح لنيكسون منذ ثلاثة أسابيع على التحديد يقول : « ان البطالة ستظل المشكلة التى تهدد الاقتصاد الأمريكى وان حجمها يتزايد عاماً بعد عام » ٠٠ واخطر من ذلك أن أغنى دولة فى العالم تتلقى المعونات الغذائية من اليابان ففى ١٩٧٢/١/١٥ نشرت أخبار اليوم تقول :

[ألقى السناتور الأمريكى « فلان » خطاباً بدأه بقوله : « أصبحت أغنى دولة فى العالم تتلقى المعونات من الدول الأجنبية » وقدهاجم الحكومة بأسلوب غاضب وكلمات لاذعة] ٠

هذه تقدمية القوم ٠٠ فسق وعهر ودعارة وانطلاق حيوانى آثم ـ ومشكلات لا عدد لها ـ وتزييف لفطرة الانسان وسحق لخصائصه واهمال لروحه الظامئة الى الهداية والنور ولعل من العجب حقاً ـ أن تكون فى أمريكا أزمة بطالة ـ وأن يكون فيها فقر وحرمان ـ وتناقضات عجيبة ومن الغريب أيضاً أن الرجل الأوربى لا يشعر بالامن رغم الرفاه المادى والمستوى الرائع الذى وصل اليه ٠ ربما لأن مصدر الامن هو الدين ٠ الذى يعتصم به الأفراد فى الشدائد ٠ وماذا تصنع كل وسائل الترقى ـ اذا سلب من الانسان دينه ؟ !

والحضارة الأوربية منحت الانسان ترفاً وسلبته ديناً يلوذ به فى الكوارث والملمات من أجل ذلك نرى ظاهرة القلق والخوف تسيطر على الحضارات المادية فى الشرق والغرب ٠

نشرت جـريدة الاخـبار بتـاريخ ١٩٧٢/١/١١ تحـت عنوان ــ الأمريكيون لا يشعرون بالامن نقول :

[أعلن ٧٨٪ من بين ٤٣ ألف قارىء رداً على أسئلة نشرتها مجلة لايف الأمريكية عن الجريمة ٠٠ انهم يشـعرون أحـياناً بأنهم غير آمين داخـل بيوتهم وقـال ٣٠٪ انهم يحتفـظون ببنـادق للدفاع عن أنفسهم وأوضح ٨٠٪ من سكان المدن الكبرى أنهم يخافون السير ليلا فى الشوارع وقال ٤١٪ انهم يعتبرون حماية البوليس غير كافية] ٠

ولعل هذه الاحصائية تؤكد أن الجريمة قـد غـدت أمرا طبيعيا فى ظلة حضارة القطيع حضـارة القتلة والسفاحين ، والعجيب أن هذه النسبة تقـل بل تكاد تتلاشى فى البلاد ذات المستويات المتخلفة مادياً لا توجـد عصـابات ولا توترات ولا انتحارات كما توجد فى قلب أغنى دولة فى العالم ! ! فانظر كيف هيأت هذه الحضـارة الشيطانية مسـارح للرذيلة والاباحية والجـريمة ؟ وكيف غرقـت فى الخمـر ــ وتاهت فى الهلوسة والمخدر ٠ ٠ وكيف اقترب القـوم من الجنون ثم لننظر كيف عجزت أمريكا ــ أن تكافح نزعات التعصب العنصرى فما زالت تحتقـر الرجل الأسـود وتنشىء الاحياء الخاصـة والمدارس والمشـافى والمطاعم للزنوج ٠ ٠ وتعاملهم بقـوانين ظالمة ٠ ٠ وتحاكمهم فى محاكم خاصة ٠ ٠ أهذه حضارة ؟

ومن منطلق الجريمـة ٠ ٠ تنبعث كل النزعات البربرية والوحشية ٠ والاستعمارية وكل الشرور فى العالم ٠ ٠ فقـوة أمريكا تستخدم كلها فى الشر ٠ ٠ ويكفى أنها لم تعدل يوما ما ، بهذه الفترة تعيش اسرائيل ــ وتعربد ــ وتنتهك المقدسات والقيم وتسخر بمجلس الأمن والمنظمات الدولية ــ وعلى هذه القوة تعتمد فى احتلال القدس ــ والأرض العربية ٠ ٠ تؤازرها

أمريكا أولا ٠ ٠ وكل قــوى الشر ٠ ٠ لان هذه القوى هى التى أنشأت اسرائيل وأحلتها أرض فلسطين ٠ وجعلتها وطناً قومياً للبعث الاجرامى المرتقب ٠

من أنشأ اسرائيل ؟ هذا سؤال يجب أن نفهم جوابه لنعرف من هم أعداءنا متكاملين ولا نخطئهم فى ساعة من ليل أو نهار !!

ومن خسائس هذه الحضارة أنها لم تستطع صنع الذات الاصيلة الثابتة ٠ ٠ وانما أنشأت ذاتاً ضالة تبحث عن نفسها بين شتى الديمقراطيات ٠ وأنها صنعت الاشياء ثم انكفــأت تعبدها وذهلت عن الله ٠ ٠ ولا تستقيم حضارة تعبد المــادة ٠ ومن ثم فالانسان فى الوسط الامريكى ٠ ٠ يجد فى بيته المدفأة ــ والثلاجة ــ والمروحة ــ ووسائل التكييف ٠ ٠ ويجد السيارة وكل الوسائل المريحة التى هيأتها له الحضارة ٠ ٠ ولكنه رغم ذلك ظامئ ، قلق ، ضائع ، شقى ، معذب يــود الانسلاخ من حاضره ليفــر الى عوالم طبيعية ٠ ٠ يجــد فيها ريا لهذا الظمأ الذى يوشك أن يحترق له جوفه ٠ ٠ ويجد أنسا من هذا الشقاء الذى يوشك أن يجتاح روحه ٠ ٠ ويجد أمناً من هذا القلق الذى يملأ نفسه ٠ ٠ فهو ظامئ والمــاء من حوله زلال !!

وعندما تخلى القوم عن الدين ــ وعبــدوا الشــهوة والمــادة والقــوة ٠ نبتت أخلاقهم فى تلك الأرض النكدة « والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذى خبث لا يخرج الا نكدا (١) » ٠

فصــارت هذه الأخــلاق متخصصة فى النفــاق والخــداع والادعاء ٠ ٠ والكذب ٠ ٠ تعتمد على الازدواج والثنائية فلديهم أخلاق محلية وأخلاق للتصدير ٠ ٠ ومن ثم تحولت وســائل اعلامهم الى أدوات للكذب والدس والادعاء تنشر سمومها وتنفث

---

(١) آية ٥٨ الاعراف .

حقدها فى بلادنا لتزيدها تمزيقاً واضطرابا ٠٠ وتأبى حضارة الايمان الا أن تخضع الحياة كلها لله ٠٠ فالأخلاق عليها رقيب منه سبحانه ـ والمنشآت مرتبطة به جل جلاله : « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين (١) » ٠

هذا منطق المؤمنين وهم فى ذروة الانتصار الحضارى ٠٠ يذكرون ربهم ليذهب غرورهم ٠٠ ويفر الشيطان من آفاقهم ٠٠ فلا يعبد من دون الله ٠٠

وفى ضوء ما مضى كله نستطيع أن نؤكد بأن الاسلام قادر على أن يسترد مجده ـ ويستعيد حضارته ٠٠ ويعيش أبناؤه كراماً فى وطن اسلامى عزيز ٠٠ بالرجوع الى الله ورسوله ٠٠ ونفض اليد من الأجانب ـ والاعتماد على الله وعلى أنفسنا فى تخطيط حياتنا ـ وتنمية مجتمعاتنا ـ وأن نستشعر فى كل لحظة أن الرجعى الى الله ـ وأن حياتنا قصيرة ٠٠ فعلينا جميعاً أن نحقق مشيئة الله فى الأرض ونتنازل عن حظوظ أنفسنا ـ ونصفى قلوبنا من كل ضغينة وحقد ٠٠ ونضع أيدينا فى يد بعض كى يتم البناء ـ وينهض الصرح ٠٠ وما ذلك على الله بعزيز ٠

ولا قوة ولا مناعة ولا هيبة لأى حضارة تنسلخ عن الله ٠٠ لأنها من عمل الشيطان وكيد الشيطان ضعيف جداً ضعيف فما ينبغى أن ترهبنا كل قوى الشر من حولنا فهى سراب ٠٠ وقد خاب من افترى !! وهى حضارات بشهادة أبنائها مزيفة حيوانية سريعة الانهيار ٠٠ « ففروا الى الله انى لكم منه نذير مبين (٢) » ٠

---

(١) آية ١٣ الزخرف .
(٢) آية ٥٠ الذاريات .

مـاذا قـدمنا للحـياة ؟

يطيب لنا ونحن فى لحظة المحاكمة لما أحدثه حضارة الغرب من خلق عالم فاجر بعيد عن الله أن نتساءل بانصاف ماذا قدمنا للعالم وللحياة ٠٠ وبتعبير أدق ماذا قدمت حضـارة القـرآن للحيـا ة ؟

والذين يقفون على الفصول الأولى من هذا الكتاب ووصف عالم ما قبل القرآن ثم يتابعون النقلة الرائعة التى انتقلت اليها الحياة يدركون جيداً ماذا قدمنا للحياة ؟

لقد أصبحت الجاهلية بعد نزول القرآن حركـة رجعية فى العالم كله ـ تدل على الجمود والغباوة ـ بعد أن أحدث الاسلام أثره فى النفوس كما يحدث الربيع أثره فى الحياة فغير عقـائد الناس واتجاهاتهم الفكرية ونظرتهم الى الكون والى الطبيعة والى الحياة ونقـلهم من صميم الظلمات الى منطقـة الضـوء والاشـعاع وانتشلهم من وهاد الفساد الى قمـة الصلاح ٠ ٠ وصيرهم أساتذة العالم وسادة الوجود كما اختنقـت الكهانة وأصبحت حركة مهينة بعيدة عن روح الحياة والعلم ٠ ٠ ورأى العالم منا الأعاجيب فعلمنا الجاهل ـ وأعززنا الذليل وقـومنا المعـوج ٠ ٠ وعالجنا المريض وأهدينا الى البشريـة الخائفـة المذعورة أمنها وسـلامها واستقـرارها وكرامتها ٠ ٠ وأطلقنا مواهب الانسان وخصائصه لتصنع التقدم وتتفاعل مع الكون ـ وتعبد الله ، كما أفضنا على العالم حرية طلقة ٠ ٠ لا تستذل رقـاب البشر ولا تخضعهم الا لله ٠ ٠ وسرت هذه الحرية منا الى الكنيسة والى المجتمع المسيحى فثار على الجمود والرجعية

ونشـأ من احتكـاك هـؤلاء بحضـارتنا أن ترجموهـا الى مجتمعاتهم ، يقول الأستاذ أحمد أمين : [ظهر بين النصـارى نزعات تنعكس عليها آثار الاسلام ـ من ذلك أنه فى القرن الثامن الميلادى ظهر فى مقاطعة سمبتانيا فى جنوب فرنسا جمـاعات تدعو الى انكار الاعتراف أمام القسيس ٠٠ وأن ليس للقسيس حق فى ذلك وأن الضراعة لله وحده الذى يملك غفران الذنوب] ٠

وفى سنة ٢١٣هـ قـام الأسقف الاندلسى « تورين » باحـراق الصـور والصلبان ونهى عن عبادتها بأسقفيتـه ـ ووجـدت طائفـة أخـرى من النصـارى تشرح التثليث بما يقترب من الوحدانية وتنكر تأليه المسيح ٠٠ وكان من آثار الاسلام ايضا تلك الدفعة الثورية التى جعلت لوثر وصحبه من رجال الاصلاح يشتطون فى مهاجمة الكنيسة ويتهمونها بالرجعية والفسـاد ويعلنون الانفصـال عنها ـ ولعل ما سـاد العالم بعـد نزول القـرآن من احترام المرأة ـ ومنحها حقوقـاً كريمة ـ انما كان أثراً من آثار الاسلام ٠٠ وهكذا ما من ناحية من نواحى التقدم والفكر والفلسفة والتدين والعلم سادت أوربا الا وللعرب فيها يد بيضاء وفضل مشكور وقد أقـام العـرب بالاندلس قرابة ثمانية قـرون ٠٠ وتعاقـب عليها ملوك عظماء لهم طموحـهم وفقههم الحضارى على رأسهم تسعة عشر خليفة من أولاد عبد الرحمن الداخل وحفـدته فى أربعـة وثمانين ومائتى عام ٠٠ نشروا فيها من العلوم والمعارف والثقافات ما ألهم أوربا وعلمها يقول دوزى المؤرخ : [ان عبد الرحمن الناصر أولى أن يكون من ملوك العصر الحديث لا من ملوك القـرون الوسطى] ويقـول ستانلى لاين بول : [ان حكم عبد الرحمن الثالث الذى قـارب خمسين سنة أدخل على أحوال أسبانيا تجديداً لا يلم الخيال على أجمـح ما يكون بحقيقة فحواه] ٠

وان حنين الوطنيين الغلاة من أبناء أسبانيا ليشتد ويتزايد الى تلك الفترة المتألقة التى عاشوها فى أحضان الحضارة القرآنية .. فهذا الكاتب الموهوب بلاسكوا أبابنز الذى توفى منذ سنوات يقول : [لقد أحسنت أسبانيا استقبال أولئك الرجال الذين قدموا اليها من القارة الافريقية وأسلمتهم أزمتها من غير مقارنة ولا عداء فما هو الا أن تقترب كوكبة من فرسان العرب احدى البلاد حتى تفتح لهم أبوابها وتتلقاهم بالترحاب ــ وكانت غزوة تمدين ولم تكن غزوة فتح وتدويخ ــ ولم يزل سيل المهاجرين يتدفق من جانب المضيق وتستعد معه تلك الثقافة الفتية الموحدة الأركان نابضة بالحياة بعيدة الشوط ولدت منتصرة ــ وبث فيها النبى (محمد صلى الله عليه وسلم) حمية قدسية واجتمع اليها أفضل مافى وحى بنى اسرائيل وعلم بيزنطة وتراث الهند وذخائر فارس والصين وهكذا تسرب الشرق الى أوربا على نهج غير نهج داردا وزركسيس من قبل أثينا الذى قاومته خوفا على حريتها ــ وفى خلال سنتين استولى العرب على ملك قضى مستردوه سبعة قرون كاملة فى استرداده ولم يكن فى الواقع فتحاً فرض بقوة السلاح بلى حضارة جديدة بسطت شعابها على كل آفاق الحياة ولم يتخل أبناء هذه الحضارة عن فضيلة حرية الضمير وهى الدعامة التى تقوم عليها عظمة الشعوب فقبلوا فى المدن التى ملكوها كنائس النصارى وبيع اليهود ولم يخش المسجد معابد الأديان التى سبقته فعرف لها حقا واستقر الى جانبها غير حاسد لها ولا راغب فى السيادة عليها ونمت على هذا ما بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر أجمل الحضارات وأغناها فى القرون الوسطى . وكان سكان أسبانيا يتزايدون وتنمو فيهم عناصر التقدم وتنسجم جميع العناصر البشرية وخفق قلب الحياة الاجتماعية بأقوى نبضاته التى عرفها تاريخ الجماعات البشرية » ..

وهذا حديث منصف يغنى قليله عن كثير مما نقـول ٠٠ فانها شهادة القوم ٠٠ وهى تعطى الصورة الصحيحة لواقـع حضارتنا على الأرض الاندلسـية ونتناول مفـاخر شتى من تسامح دينى ، وازدهار علمى ، وفقه حضارى ، وحب للسلم ، وايثار للمعرفة والعلم ، وايثار للمعرفـة والعلم ، ونشـاط فى الاجتماع وهكـذا ٠٠

ويقول المسـيو ليبرى : « امح العرب من التاريخ تتأخر نهضة الآداب فى أوربا قرونا طويلة ٠٠ » ٠

ويقـول ملر فى كتابه ملخص التاريخ : « هـب العـرب يظهرون ماخفى من مواهبهم فبهـروا العالم بمـا أوتـوه من معجزات العلم وأصبح لهم السبق بعد اليونان فبعثوا كتبهم من مراقدها ونفخوا فيها من روحهم الحياة والقوة فجعلوا بذلك سلسلة العلوم متصلة الحلقات محكمة الرد لا يمسها وهن ولا انقطاع ــ وما جاءنا العلم والمدنية الا عن طريقهم لا عن طريق اللاتين » ٠

وبعـد فماذا نأخذ وماذا نـدع من روائع تلك الحضـارة وآثارها العالمية ــ ان لذلك كتبا معينة قد تكفلت بتوضيح تلك الآثار ؟ !

أنتحـدث عن الطب والكيمياء والضـو ، والفـلك وعلوم الحياة وكيف أخذها الغرب عن طريقنا ؟

أنتحدث عن الفلسفة والعلوم الأدبية ــ وآثارها فى أوربا والحياة كلها ؟

أنذكر تلك الظاهرة الرائعة التى جعلت أوربا تتلمـذ على العرب فى كل شىء فى جامعـات الأندلس ؟ ٠ وكيف أن القـوم

حذقوا العربية ونظموا الشعر وألفوا القصص باللغـة العربية ونسوا لغة آبائهم ـ وزهروا فيها !! حتى لم يوجد بينهم من يتكلم باللاتينية ٠٠

وكيف أن التقليـد قـد تجـاوز ذلك الى اللباس ونظام الأكل وطريقة الحديث وأساليب الحياة ٠٠ لعمرى ما يستطيع هذا الفصل القصير أن يلم بكل ذلك وحسبنا أن نؤكد بأن هذه الحضارة من قبل ومن بعد حضارة القرآن تنعكس أنواره عليها وتمتد قوته دائماً اليها ٠ وتفيض معارفـه وثقافته فيها ٠ ٠ وتسقى تقاليدها وآدابها بمـائه فهل يجف لها زرع أو يصوح نبت أو يجدب وجود ؟

ذلك رهن بتمسكنا بالقرآن وتطبيقنا لشريعته واعتزازنا بمبادئه وان القرآن الذى بدأ التجربة أول مرة والحياة مظلمة والجهل غامر والغى سادر لقادر على أن يعيدها من جديد وهو أهون عليه !!

من وراء أربعــة عشر قــرناً

لكانى أسمع الصــوت الجهير ـ وهو يتــردد واثقــاً بين الجماهير المؤمنة ـ هناك فى عرفات عند جبل الرحمــة يحــذر هذه الأمة عوادى الانقسام والفرقة ، وأســباب النزاع والبغى ويؤكــد لها تلك المعالم الحضــارية لتمضى على نور فى صــنع حضــارة القــرآن ٠

انـه صوت النبى محمــد صلى الله عليه وسلم وهو يلقى خطبة الوداع فى نحو مائه الف مسلم تجمعوا على شكل مؤتمر موسع ليسمعوا من قائدهم ومعلمهم ٠

كان ذلك فى العــام العاشر للهجـــرة ٠٠ وكأنمــا أحس الرسول باقتراب أجله فأحب ألا يلقى ربه الا وقــد أدى حــق البلاغ لهذه الأمــة الكريمــة التى صــنعها على عين الله ٠٠ لتستمر المسيرة الحضارية على صراط العزيز الحميد ٠٠ وقــد أكد صلوات الله وسلامه عليه على مجموعة من القيم الحضارية ٠٠ وكأنمــا كان ينظــر من خــلال الغيب الى مستقبل هــذه الحضارة ٠٠ وما سينالها من أصحــابها ٠٠ قــال : [أيها الناس اسمعوا منى أبين لكم فانى لا أدرى لعلى لا القاكم بعــد عامى هــذا فى موقفى هذا ! أيهــا الناس أن دمــاءكم وأموالكم حرام عليكم الى أن تلقــوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا ٠٠ ألا هل بلغــت ٠٠ اللهم فاشهــد ٠٠ ومنها : ان ربا الجاهلية موضوع وان مآثر الجاهلية موضوعة ٠٠ أيها النـاس ان الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقــرون من أعمالكم ٠٠ ومنها :

أيها الناس : ان لكم على نسائكم حقاً ــ ولهن عليكم حقاً ، لكم علهم ألا يوطئن فراشكم أحداً تكرهونه وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة واستوصوا النساء خيراً ٠

أيها الناس : انما المؤمنون اخوة ولا يحل لامرىء مال أخيه الا عن طيب نفس منه اللهم فاشهد فلا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فانى قد تركت فيكم ما ان أخذتم به ٠٠ لم تضلوا بعدى أبداً ٠٠ كتاب الله ألا هل بلغت !!

أيها الناس أن ربكم واحد وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ان أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربى فضل على عجمى الا بالتقوى ألا بلغت ؟ ! اللهم فاشهد] ٠

اقتطفنا من هذه الخطبة الكريمة تلك المعانى العظيمة التى تشير كل فقرة منها الى قيمة حضارية لها أثرها فى حياة الجماعة الانسانية ــ ولم تكن تلك القيم بعيدة عن أذهان أصحابه الذين احتشدوا لسماع الخطاب ٠٠ لأنها قد وردت فى القرآن وتأكدت بتطبيق الرسول ولكنه أحب أن يركز على هذه القيم بالذات قبل أن يلتحق بالرفيق الأعلى لتظل متوهجة ساطعة لا يتسرب اليها اهمال أو نسيان ٠٠ ونحن نستطيع أن نسجل بعض انطباعاتنا عن تلك الموضوعات فيما يلى :

١ ــ حرمة الدماء البشرية ــ وقداسة الحقوق الانسانية فلا تنتهك هذه الحقوق ولا يعتدى عليها وبهذا تتأكد كرامة الحياة وتمضى فى طريق الأمن ويتجه الانسان لاداء دوره الحضارى فى الحياة ٠٠ موفور الكرامة ــ عزيز الجانب ــ مرفوع الجبين لا يستذل ولا يستغل ولا يعتدى عليه قد ضمن له الرسول حقوقه المقدسة وركز عليها لأن الانسان أهم ركن فى

بناء الحضارة ٠٠ وكانما كان الرسول ينظر من خلالُ الغيب الى تلك الحضارات التى امتهنت خصائص الانسان وأذلت كرامته وحولته من عبادة الله الى عبادة الآلة وانشأت له حضارة صناعية عاش بينها غريباً مبتذل الكرامة مستبعد الروح ٠٠

انه الحرص البالغ ـ من الرجل العظيم ـ الذى أرسى بيده دعائم أروع حضارة عرفها التاريخ ٠٠ الحرص على كرامة الانسان وحقوقه ليعيش عبد الله سيداً لكل عناصر الكون مرفوع الجبين ٠٠

٢ ـ أشار صلوات الله وسلامه عليه الى عنصر أساسى له أثره فى استمرار الحضارة الربانية ـ وهو عنصر منع الاستغلال ـ ومكافحة الربا ـ ليتحرر اقتصاد المجتمع من البوائق والآفات التى تهدد وجوده ٠٠ فاذا رأينا اليوم تلك المعاملات الربوية التى تشيع فى الحضارات العالمية وكيف تخلق المنازعات ـ وتحيك المؤامرات ـ وتسيطر على الحكم عرفنا سر العظمة فى تلك التوجيهات الرائدة ٠٠ التى يهدف الرسولُ الكريم من ورائها الى تطهير المجتمع الاسلامى من أوضار الربا وشروره !! ولقد تأصل الربا فى حضارة الغرب حتى صار قاعدة الاقتصاد هناك وطفح بشرور الاحتكار والمضاربة وبرزت آثارها المادية فى تلك المجتمعات ٠٠

٣ ـ أكد صلوات الله وسلامه عليه فى ذلك الموقف الرهيب متانة البناء الحضارى الذى صنعه مع أصحابه على عين الله ـ وأنه لم يعد الشيطان سبيلٌ عليه بعد أن أتم الله النعمة وأكمل بناء الدين ـ وكانما يرمز صلوات الله وسلامه عليه الى أن هذه الحضارة فى مأمن من أعدائها على مر الأيام مادام أصحابها

متمسكين بها ٠٠ مطبقين لأحكام الله فيها ٠٠ ملتزمين بأوامره ونواهيه حتى اذا انحرفوا عن الجادة ٠ فقد فسحوا للشيطان طريقاً ينفذ منه اليهم ٠٠ ويتمكن من القاء العداوة والبغضاء بينهم ٠٠ وما أكثر قوى الشر وعملاء الشيطان التى تتربص بنا الدوائر على مر الأيام !! وما أقل مانتنبه لها ـ أو نسد الطريق عليها ٠٠ قبل أن تمزقنا كل ممزق ٠

٤ ـ أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم « حقوق المرأة » لأنها قد لقيت من قبله ضروباً من العنت وألواناً من المهانة ٠٠ فجاء ليرد عليها كرامتها ـ ويحفظ آدميتها ٠ ويبين لها حقوقها التى لا ينبغى أن تتجاوزها ٠٠ وحقوق زوجها عليها وحقوقها عليه ٠٠ بما لا يدع مجالات للبس أو خفاء وكأنما كان ينظر من وراء الغيب الى تلك الحضارات المنحلة التى عبثت بكرامة المرأة ٠٠ وأطلقتها لتسابق الشيطان ٠٠ ونفخت فيها روح الغرور فخدعتها عن نفسها فاذا هى تحتقر رسالتها فى الحياة وتتمرد على البيت وتنطلق فى ميادين الاباحية والسهرات المبتذلة ٠٠

يقول بعض الأساتذة الجامعيين السويديين واصفاً حال المرأة فى تلك البلاد المتحضرة : [اننا نعلم أبناءنا فى المدارس الثانوية وفى سن مبكرة كل شىء عن الجنس واضحاً صريحاً ليست لدينا مشكلة جنس ، ان المتعة الجنسية كمتعة الطعام اللذيذة والملابس الأنيقة والعلاقات الجنسية بين الرجال والنساء قبل الزواج أمر طبيعى وعادى وما يباح للشاب يباح للفتاة] ٠

اذا قرأنا عن تلك الحالة المتدهورة للمرأة فى أرقى بلاد العالم اليوم عرفنا الى أى حد كانت وصية الرسول رائعة وملهمة ٠٠ لتظل المرأة فى ظل حضارتنا نظيفة كريمة تؤدى رسالتها ٠ وتحتفظ بحيويتها وترعى الأطفال وتصنع البيت المسلم ٠٠

وتتلقى من العلوم والمعارف ما ينير عقلها ويحفظ عليها دينها وشرفها لئلا تصير يوماً الى هذا المنحدر السحيق فتصبح لعبة للشيطان وملهاة للمجتمع ٠

٥ ـ ثم يهتف صلوات الله وسلامه عليه بتلك الحقوق الانسانية المقدسة قبل أن تولد المنظمات الدولية : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » ٠

هل وعيت ايحاء تلك الفقرة الرصينة المتماسكة التى تؤكد حرمة الأعراض الانسانية فلا تنتهك ، والاموال فلا تستغل ، والدماء فلا تسفك وآدمية البشر فلا تمتهن !! وخصائصهم العليا فلا تزيف ٠ ٠ ؟ !

وعندما تقرأ هذه الحقوق ٠ ٠ الموثقة ٠ ٠ فى كلمات الرسول الصافية ٠ ٠ وننظر فى واقع الحياة التى عاشها مع أصحابه نرى أن هذه المعانى قد ترجمت الى عمل . وتحولت الى سلوك ، ونفذت بكل دقة ٠ ٠ وأنها لم تكن عبارات مرصوفة للاستهلاك ، ولا كلمات براقة للعرض ـ ولا شعارات رنانة للتباهى !! بل تحولت بتطبيق الرسول الى واقع حى ملموس ٠ ٠ يظهر أثره فى قوله : « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » ٠

وعندما نقارن بين حقوق الانسان فى واقع حضارتنا ـ وبين حقوق الانسان فى حضارة الغرب ـ وفى دساتير العالم المتحضر نرى أن هناك شعارات ، مجرد شعارات صنعت بلباقة وفطنة ، وليس وراء ذلك شىء ٠ ، هل رأت النور يوماً من الأيام ؟ هل طبقت فى واقع الحياة ؟ مبلغ علمنا أن الانسان كله ضائع هناك فهل تكون له حقوق ؟

انهم فقط يحتفلون بها كل عام ويجعلون لها عيداً ٠ ٠ يلقون فيه الخطب والكلمات !!

أما حقوق الانسان عندنا وفى حضارة القرآن فواقع عاشته البشرية تجربة حضارية رائدة أحس فيها كل فرد بكرامته فانطلقت مواهبه تبنى الحياة وتبدع فى صنع الحضارة ٠

وماأروع نداء الرسول المجلجل فى آفاق الحياة ٠

(أيها الناس ان ربكم واحد وان أباكم واحد الخ)

هكذا فى فقرة رائعة يعلن الرسول المساواة العامة بين البشر فى الحقوق والواجبات ، ويقرر أن أساس التفاضل بين الناس ليس هو الحسب أو النسب أو المال أو اعتبارات الدم أو العرق أو الجنس أو الوطن أو القومية ٠ ٠ وانما التقوى التى تستقر فى الضمائر والقلوب أية ديمقراطية من ديمقراطيات العالم قد أكدت على تلك القيمة العليا ؟ وصاغتها لحناً عبقرياً يهز القلوب والمشاعر ؟ ثم طبقتها تطبيقاً عملياً أحس فيه كل فرد بكرامته فى الحياة فانطلقت القوى البناءة فى ظل هذه الكرامة تبنى المجد والحضارة ـ لعمرى ـ لكأنما كان الرسول الأعظم ينذر من وراء القرون الى تلك العنصريات المرذولة والطائفيات الحاقدة ـ والاقليميات الضيقة وخرافات العرق والجنس واللون !! كأنما كان يرصد بمنظاره الثاقب ما تعانيه البشرية فى عصر الذرة والصاروخ ٠ والصعود الى القمر وغزو الفضاء من تفرقة عنصرية تمارسها أرقى الدول وأعرقها فى الديمقراطية وصرنا نسمع كل يوم مشكلات الملونين وكرامتهم الضائعة ـ وحقوقهم المتهنة ٠ ٠ فى عالم يعتبرهم حيوانات ليس لها حق الوجود الحر والكرامة العزيزة

٠٠ وصرنا نسمع حكومة الأقلية البيضاء، فى روديسيا وحضارة الرجل الأبيض وخرافة الدم النقى والعنصر الذكى وشعب الله المختار ! !

يارب الناس : أين حقوق الانسان فى ظل هذه التفرقة المهينه ؟ وأين كرامته فى ظل المنظمات الدولية ؟ ٠ نم هانئاً يارسول الله يارسول الكرامة والحرية وشرف الحياة ٠

لقد هتفت بصوتك الجهير من أعماق التاريخ فى أفق البشرية كلها معلنا أن لا استغلال ـ ولا استذلال ـ ولا بغى ولا امتهان لكرامة الانسان « الناس سواسية كأسنان المشط » ٠ وقد تركت أمتك على المحجة البيضاء بعد أن قررت واكدت وطبقت وسارت أمتك بقيادتك على الدرب ، فحررت العبيد وصنعت كرامة الحياة واستنقذت شرف الانسان وكرامته من النبلاء والأشراف ورجال الدين ٠ ٠ وصنعت عالماً متكافئاً ، الملك فيه لله ـ والكرامة للبشر ـ ولا تفاضل الا بالتقوى والعمل الصالح ٠

نعم ماأروع قولك يارسول الله ألا هل بلغت ؟ تكررها عقب كل فقرة وتشهد الله على ذلك ٠ ، نعم بلغت يارسول الله وأديت الأمانة وحملت أعباء الرسالة ! ؟ وتحملت من الجهد الواصب فوق ما يتحمل البشر ٠ ٠ وانك لحريص على ان تؤكد تلك القيم لتظل فى وعى أمتك ٠ ٠ تقاوم بها عوامل الشر ـ وتصد غوائل الشيطان ٠ ٠ وتستعصى على الفرقة والضياع !! أنت يارسول الله حريص على أن تسمو مشيئة الله ـ وتتحرر ارادة الانسان ويعيش فى عالم نظيف بعيد عن الشرك والفساد ٠ ٠ ولهذا وقفت وخطبت وأشهدت الله ٠ ٠ نم هانئاً يارسول الله ٠ ٠ فقد أديت أمانة ربك وصنعت أمة هادية نقلتها بوحى

الله من سفح الجهالة فوضعتها فى قمة الايمان ولم تكتف بأن تصوغها على هذا النحو ـ وانما جعلت منها أمة رائدة معلمة ترشد الناس وتهديهم الى سواء السبيل ٠

فعليك من ربك صلوات وتحيات بقدر ماأخلصت فى حمل الرسالة وأداء الأمانة ، وبقدر ما تحملت من عناء وأذى ٠ ٠ وبقدر ماأنت حريص علينا بالمؤمنين رءوف رحيم ٠

وقفت أمام ضريحك الطاهر فى لحظة من لحظات الحياة المباركة ٠ ٠ خاشع القلب دامع العين تموج نفسى بشتى الاحاسيس وينبض قلبى بمختلف المشاعر وازدحمت فى خاطرى ذكريات غالية ذكرياتك يارسول الله وأنت تبنى دولة الايمان بالجهد والعرق ٠ ٠ وأنت تؤسس مجد الاسلام ترفع مع اصحابك قواعد أكرم حضارة عرفها الانسان ٠ ٠ ذكريات الأمجاد الاسلامية الطامحة يوم انطلقت كتائب التحرير تسحق الباطل وتدمر الشرك وتمكن لكلمة الله فى الأرض ٠ ٠ وتحرر الحياة من قبضة الجبارين ذكريات الصحابة الذين هجعوا على مقربة منك فى البقيع ٠ ٠ وكيف ارتفعوا باءيمانهم وجهادهم الى مستوى كريم لا يدركه سعى ولا تلحقه همة وكيف صنعت منهم باقة زهر نضير ملأت جو الحياة بالعطر ونضرت وجهها بالجمال فأسرعت بالخصب وجادت بالربيع !! ذكرياتك يارسول الله وأنت قائم فى مسجدك المبارك تتلو آيات الله وترددها فى أفق الحياة لتطهر الوجود وتصنع الرجال وتعلم الحياة الجاهلة ٠

قلت لنفسى وأنا فى موقفى هذا :

من هنا تفجر نبع الحضارة الانسانية ومن قلب هذا الرجل العظيم تدفق الهدى والنور من قلب محمد محرر الوجود صانع الأبطال رائد الانسانية محطم الوثنية،وبسواعد

أصحابه الهاجعين على مقربة منه قام ذلك البناء الكبير وكتب للوجود شأن آخر وقلبت فى سجل الحياة صفحة مشرقة بيضاء !!

يا صناع الحضارات ! ! أين تقع حضاراتكم من حضارة قوم عاشوا لله وتجردوا من مظاهر الجاه ـ وكانت قيمهم ومبادئهم ومثلهم رصيدا مباركا لكل الناس ولجميع البشر . . لأنها سادت وازدهرت فآتت أكلها ضعفين !

يامسلمون فى شرق الدنيا وغربها !! هذا نبيكم محمد عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم ، لكانما ينظر اليكم حزينا وقد لعب بكم الشيطان فمزق وحدتكم وفرق كلمتكم وصيركم أعداء متنابذين يضرب بعضكم رقاب بعض . . أنسيتم ما حذركم اياه فى خطبة الوداع من ان يلعب بكم الشيطان ان قوى الشر تتألب عليكم ـ وان حضارة الشيطان افترست حضارتكم . . لأنكم ذهلتم عن وجودكم . . ونمتم عن أمجادكم . . واسلمتم زمامكم للشيطان !!

لكأنى أسمع صوت النبوة الهادر وأنا واقف امام الضريح الطاهر يناديكم أن اجتمعوا فهذا القران معكم وامامكم . . وهو قادر على أن يصنع وحدتكم ويرجع مجدكم فهيا عيشوا نظامه وطبقوا أحكامه تكن لكم العزة فى الحياة : (تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا ابدا كتاب الله) .

هكذا تماوجت الخواطر فى وجدانى وهكذا نقلتنى الى عالم أكرم ثم ردتنى الى واقع مر فهل نستجيب ؟

وانطلقت أدعو وأدعو ! !

اللهم يارب محمد يارب الكعبة يارب هذه الجموع البشرية التى يموج بها المسجد بصر المسلمين بدينهم ـ من سباتهم ـ واجمعهم على كتابك لتعود اليهم أمجادهم ٠

اللهم اكتب لنا النصر على أعدائك حتى نسترد القدس ونستعيد الأرض ٠ ٠ ونطهر الوجود كله ٠

اللهم ألف بين قلوب المسلمين ـ وأذهب عنهم كيد الشيطان ليعزوا دينك وينشروا هداك ٠

اللهم ان يهلك هؤلاء فلن تعبد فى الأرض ٠

اللهم ألهمنا الحق ـ ودلنا عليه ـ وقدنا الى الخير ووجهنا اليه حتى نؤسس دولة العلم والايمان على تقوى من الله ورضوان ٠

والحمد لله أولا وآخرا له المجد كله وله الحمد كله وهو على كل شيء قدير ٠

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ؟

توفيق محمد سبع

كلمـــة ختاميـــة

أحمد الله عز وجـل ـ أن اتاح لى تلك الفرصـة الهادئة الطيبة لأحقق أملا عزيزاً طالمـا صبوت اليه ـ وهو الكتابة فى موضوع « قيم الحضارة القرآنية » ـ وابراز أسرارها الرائعة ـ وآثارها العالمية من وجهة نظر معينة ٠ ٠ تختلف عما كتب فى هذا الموضوع من قبل ٠ ٠ وهو الاستمداد من القرآن الكريم مباشرة ٠ ٠ والاصغاء الى سر الايحاء الكامن فى ألفاظه وتراكيبه ٠ ٠ لاستنباط مايدعم الحياة وينفع الناس ٠

وقـد ركزت الأضـواء على مجتمـع الايمان الذى أسسه سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه ٠ والذين معه بالجهد والعرق ٠ ٠ ووضحت كيف استطاعوا بقدراتهم الطبيعية ـ ومواردهم المحدودة أن يملأوا كل فراغ ٠ ٠ وأن يسدوا كل عوز ٠ ٠ وأن يقدموا للعالم كله نموذج حضـارة انسانية رائـدة تملأ الحياة بالأمل والنور ٠ ٠ وتومض فى جنباتها المعتمة كما تومض المناره فى ظلام المحيط ٠ ٠ ووقفت طويلا أمام السواعد الفتية التى صـنعت تلك التجربة ٠ ٠ مستهدية بمنهج الله وقيادة رسوله العظيم ٠ ٠ وبينت كيف امتـدت تلك التجربة وترامت حتى شملت العالم ٠ ٠ وأضاءت الحياة بنور الله ٠ ٠ وكيف عاشت الانسانية أسعد أيامها فى أحضان تلك الحضارة الربانية وكيف تفجرت مواهبها الخصبة لتبنى الحياة وتصنع التقدم وترعى كرامة الانسان !!

ثم وضحت كيف استقـت أوربا من نبعنا الطهور وكيف كافأتنا على ذلك فى النهاية ؟ !

وربطت بين أطماع المتربصين بتلك الحضارة ٠ ٠ وأكدت أنهم لا يستهدفون الا الاسلام ومهما تختلف وجهاتهم أو مظاهرهم فهم يجتمعون على الكيد للقرآن وحضارته كأن لم ينهلوا يوما من معينها ولم يتحرروا بمبادئها ٠

وكنت حريصاً على أن أستنطق المستشرقين الحاقدين ـ وأدعهم يتحدثون عن آمالهم فى القضاء علينا ٠ ٠ ووسائلهم فى تحقيق هذه الغايات ٠ ٠ وذلك حتى تعرفهم أمتنا المجاهدة ٠ ولا تخدع بحركاتهم وظواهرهم ٠

وقد اكتملت فيما أعتقد ـ صورة حية ونابضة لقيم حضارتنا الخالدة ـ أود أن أكون قد وفقت فى عرضها والتعبير عنها ٠

والله أسأل أن يمنحنا الصدق فى القول والاخلاص فى العمل ٠ ٠ انه ولى التوفيق وهو حسبى ونعم الوكيل ؟

توفيق محمد سبع

مراجـــع الكتـــاب

أولا : كتب التفسير :

(١) تفسير الكشاف (٢) تفسير الفخر الرازى
(٣) ابن كثير الدمشقى (٤) المنارللسيد رشيدرضا
(٥) تفسير أبى السعود ٠

ثانيا : كتب التاريخ :

(١) عصر ما قبل الاسلام للاستاذ مبروك نافع ٠
(٢) قصص الأنبياء للاستاذ النجار ٠
(٣) تاريخ الاسلام السياسى للاستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن ٠
(٤) السيرة النبوية للاستاذ الخضرى ٠
(٥) سيرة ابن هشام (٦) مروج الذهب للمسعودى
(٧) تاريخ العرب قبل الاسلام للاستاذ جورجى زيدان ٠

ثالثا : من كتب الحضارات :

(١) الاسلام فى المعترك الحضارى الاستاذ عمر بهاء الدين نقله محمد عاصم حداد ٠
(٢) أسس الاقتصاد بين الاسلام والنظم المعاصرة للاستاذ أبى الأعلى المودودى ٠
(٣) أثر العرب فى الحضارة الأوربية للاستاذ عباس محمود العقاد ٠
(٤) القرآن والعلم للدكتور جمال الدين الفندى ٠

(٥) بين الديانات والحضارات للاستاذ طـه مـرور ٠

(٦) الاسلام والطاقات المعطلة ظلام من الغـرب للاستاذ محمـد الغـزالى ٠

(٧) من روائـــــع حضـــــارتنا للمرحــــوم الدكتــور مصطفى السباعى ٠

(٨) المستقبـل للاسلام للاستاذ مالك بن نبى ٠

(٩) الاسلام والحضارة العربية محمد كرد على ٠

(١٠) حضـــارة الاســلام لجوستاف النمساوى ترجمـة الاستاذين عبد العزيز توفيق جاويد و عبد الحميد العبادى ٠

(١١) تجديد التفكير الدينى فى الاسلام للفيلسوف محمد اقبال ترجمة عباس محمود ومراجعة الدكتور مهدى علام ٠

(١٢) تعليقات الأستاذ شكيب أرسلان على كتاب حاضر العالم الاسلامى ٠

(١٣) الاسلام المفترى عليه بين الشيوعين والرأسمالين للاستاذ محمد الغزالى ٠

(١٤) الحضارة الاسلامية لابى الاعلى المورودى ٠

(١٥) نحن والحضــارات الغربيــة لابى الاعلى الموحودى وكذلك كتاب نظام الحياة فى الاسلام لنفس الكاتب ٠

(١٦) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ لأبى الحسن النــدوى ،

(١٧) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه للعقاد ٠

(١٨) تاريخ الادب العربى للاستاذ أحمـد حسن الزيات

(١٩) انسانية الاسلام للاستاذ أحمد عبد الغفور ٠

(٢٠) من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين ٠

(٢١) عبقريتنا الصديق وخالد للاستاذ عباس محمود العقاد

(٢٢) مواقف اسلامية للدكتور عبد العزيز كامل ٠

محتـوى الكتـاب
الجزء الثـانى (قيم حضارية)

البــاب الأول

البــاب الثـانى

الموضـــــع	الصفحة

البـاب الثـالث

قيم الحضارة القرآنية

الباب الرابع

البــاب الخامس

رقم الايداع ٤٢١٦ / ٨٤

دار الفتح الاسلامى للطباعة
٧ شارع خالد بن الوليد أرض اللواء ـــ المهندسين

تصويب الخطأ

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣	٥	دوربه	درويه
١٦	٨ـــ	وكنما	وكأنما
٢١	١٠ـــ	محمد	محمد
٢٢	٢ـــ	فيمتها	قيمتهـــا
٢٣	٦ـــ	للبريه	للبشرية
٢٤	٩	ترزت	برزت
٢٥	٢	خبيثا	خبيبـــا
٢٦	٨	تنفله	تنقله
٢٦	١٢	مانهج	مناهج
٢٧	١	حاء	جاء
٢٨	٦	رساله	رسالتـــه
٣١	٦ـــ	بيضها	بينهـــا
٣٢	٧	يوضعها	بوضعهـــا
٣٥	١	النربيه	التربيـــه
٣٦	٧ـــ	فخسعت	فخشعت
٣٩	١٥	بما	بماء
٤٣	١٠	ولا يعطها	ولا يعطلها
٤٤	١٠	وبذك	وبذلك
٤٩	٥ـــ	تقبه	تقبله
٥٠	١٠ـــ	ابقظ	ايقظ
٥٤	٢	ابراعم	البراعم
٥٦	٣	احديث	الحديث
٥٨	٨ـــ	اد	اذ
٦٢	٢ـــ	بجسيدا	تجسيداً
٦٦	٢ـــ	نرتبط	ترتبط
٧١	٣	للدبن	للدين
٧٢	٢	الآمين	الأمين
٧٢	٦	جمبعا	جميعا
٧٣	٦ـــ	قضياها	قضاياها
٧٦	٥	النى	التى
٨١	٣ـــ	الفرآنية	القرآنية
٩٣	٩ـــ	منينه	متينه
٩٤	الأخير	دلك	ذاك
٩٥	١١	أبضا	أيضـــا
٩٥	٧ـــ	مكروره	مكروه
٩٧	١٠ـــ	المحترزاد	المحترزات
٩٧	٧ـــ	منا	بنـــا

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠٠	٥	اهوا.د	اهـــواء
١٠٥	٥	ببجاوبون	ينجاوبون
١٠٥	٩	والي حل	والميسر ظل
١٠٦	١٢	عيله	عليـــه
١١٠	—٧	التـمبر	النـمير
١١١	٢	انسطابها	انضطرابها
١١٢	١	نحدمها	نحدمهـــا
١١٣	١٣	ناخذ	ناخذ
١١٦	الاخير	البى	التى
١١٧	٧	نسترف	نعـرف
١١٨	١٤	وا رومانى	والرومان
١١٨	—١	نقدم	نقـــدم
١١٩	١	ينطلق	ينطبق
١١٩		الأسطر — ٧ ، — ٨ ، — ٩ ، — ١٠ زائدة و[illegible]	
١٢١	١٢	نفادس	نقلدس
١٢٣	٣	فلبا	قلبـــا
١٢٤	— ٩	راحت	فراحت
١٢٥	—١٠	نأثير	تأثير
١٢٥	—٧	بالاخرى	بالأحرى
١٢٦	٤	تعزير	تغيير
١٢٦	—٤	نهايه	نهـائيـــة
١٢٨	٦	الموعد	المواد
١٢٨	سطر ١٢	اننا نعرف ان كل واحد منا مركب من الأنسجة والأعضاء	
١٢٨	—٢	بانفسنا	بانفسنا
١٢٩	٦	حقيقه	حقيقة
١٢٩	١٣	وينعرف	ويتعرف
١٢٩	—٤	بطاريانها	بطبيعاتها
١٣٣	٧	مدينه	مدينة
١٣٣	—١٠	والماكات	والملكات
١٣٥	١٠	انتذمت	انتفضت
١٣٦	١٢	فقال البى	فقال النبى
١٤١	٤	وتمجرت	وتفجرت
١٤٢	٧	فنجلت	فتجلت
١٤٥	١٤	نؤد	نؤذ
١٤٨	١١	أن	لن
١٤٨	١٢	ضرب	يضرب
١٤٨	—٢	وحسن	وحسن
١٥٠	الأخير	فأنقذكم	فأنقذكم
١٥٤	١١	الدنيا	الدنيـــا

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٥٦	١	خلفه	خلقـــه
١٦٢	ـ٦	نطره	فطره
١٧٤	الاخير	تنحاونها	ينخاونها
١٧٩	ـ٩	رقبنا	رقابنـــا
١٨٢	(١) الهامش	آية ٤ سورة المدثر	آية ١٣ سورة الشورى
١٨٢	(٢) الهامش	ايتا ٣١،٣٢ سورة الأعراف	وصينـــا
١٨٢	١٣	وصنيا	آية ٢٨٥ سورة البقرة
١٨٣	٦	أنباء	أبنـــاء
١٨٧	ـ٨	العصبيات	العصبيـــات
١٩٤	١٠	الراقبه	الراقيه
١٩٦	٣	ودوقيات	وذوقيات
١٩٦	١٣	الرص	الروص
١٩٦	١٥	اعننق	اعتنق
١٩٨	ـ٥	العيد	العين
٢٠٠	٩	وغلهم	أوغلهم
٢٠١	١٢	ممن يسر اليه الا اذا بدأ هو . . يؤثر القادم عليه بالوسادة	
٢٠٣	٥	لا خلقه	ولا خلقه
٢٠٦	٩	ونضر	وتنضر
٢١٠	١١	آلهه	الهه
٢١٣	ـ٥	استقباب	استتباب
٢٢٥	١١	لا تنمع	لا تنمح
٢٣٦	١٣	مى	منى
٢٣٧	ـ٧	سانجا	سانحة
٢٣٨	١١	تخطتنى	تخطفتنى
٢٤٢	١٥	عـ يب	عجيب
٢٤٣	٦	اسراع	الصراع
٢٤٤	١٣	سمرقيد ونجارى	سمرقند وبخارى
٢٥٢	٧	أمارتهام	أمر اتهام
٢٥٢	ـ٩	وترات	وتراب
٢٥٢	ـ٢	جوافز	حوافز
٢٦٢	ـ١١	عبدا الله	عبدا لله
٢٦٦	٥	آمين	آمنين
٢٦٦	١٠	ظلله	ظل
٢٦٩	٣	نشاطه	نسأل
٢٧٥	٢	هاهم	عليهن

*** اذا سبق رقم السطر علامة (ـ) يبدأ العد من اسفل الصفحة .**

*** اخى الكريم نرجو ان تصحح نسختك من هذه الأخـــطاء المطبعة .**

